الأمانة العامة
العتبة الحسينية المقدسة

سلسلة

زاد المبلغين

الجزء الأول

البحثة والمستشارة التربوية
صباح سبتي

مُنَاسَبَاتُ شَهْرِ مُحَرَّمِ الْحَرَامِ

مركز الإرشاد الأسرى/ النجف الأشرف

زاد المبلغين

الجزء الأول

سلسلة زاد المبلغين

كتاب: زَادُ المُبَلِّغِينَ-الجزءُ الأوّلُ

تأليف وإعداد: الباحثة مياسة شبع

تصميـــم: مياسة شبع

النـــاشر:

الطبعة:

عدد الصفحات: ٤١٨ صفحة

مركز الإرشاد الأسري / النجف الأشرف

٠٧٨١٥٠٥٤٥٦٤ - ٠٧٨١٥٨٤٠٠٦٠

EMAIL: fgc.najaf@gmail.com

fgc.najaf@outlook.com

سلسلة

زاد المبلغين

الجزء الأول

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء

أهدي ثمرة هذا الجهد:

إلى رسول الله، وابنته فاطمة الزهراء، وبعلها أمير المؤمنين، والأئمة من ذريّتها، صلوات الله عليهم أجمعين؛ من هديهم تعلّمنا، وعلى حبّهم نشأنا.

وإلى إمام زماننا، صاحب العصر والزمان، روحي له الفداء؛ سائلةً الله أن يكتبني في عداد جنوده المخلصين.

وإلى والديَّ، محبّةً وامتنانًا ووفاءً لا تسعه الكلمات.

فهرس المحتويات

المقدمة ١٠
الليلة الأولى: ليلة استقبال شهر محرّم ١٣
موضوع المحاضرة (١): المجالس الحسينية: إحياءٌ وأثر ١٦
الليلة الثانية: الخروج من المدينة، ووداع العليلة ٤٢
موضوع المحاضرة (٢): تعظيم حرمات الله: الإمام الحسين نموذجًا ٤٥
الليلة الثالثة: النزول في كربلاء ٦٩
موضوع المحاضرة (٣): هل من ناصرٍ ينصرنا؟ ٧٢
الليلة الرابعة: مصيبة أم البنين عَلَيْهَا ٱلسَّلَامُ ٩٦
موضوع المحاضرة (٤): تربية الأولاد على الصلاة ٩٨
الليلة الخامسة: شهادة مسلم بن عقيل عليه السلام ١٢٢
موضوع المحاضرة (٥): أهداف الحجاب ١٢٥
الليلة السادسة: شهادة الأنصار عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ ١٥٠
موضوع المحاضرة (٦): وجوب معرفة إمام زماننا عج ١٥٣
الليلة السابعة: شهادة العباس عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ١٧٨
موضوع المحاضرة (٧): كيف نتحكم بالغضب؟ ١٨١

الليلة الثامنة: شهادة القاسم عَلَيْهِ السَّلَامُ ٢١٠
موضوع المحاضرة (٨): ظاهرة العزوف عن الزواج ٢١٣
الليلة التاسعة: شهادة عليّ الأكبر عَلَيْهِ السَّلَامُ ٢٤١
موضوع المحاضرة (٩): ظاهرة تعليق الزوجة ٢٤٤
الليلة العاشرة: شهادة الرضيع عَلَيْهِ السَّلَامُ ٢٧٠
موضوع المحاضرة (١٠): كيف نصادق أولادنا؟ ٢٧٣
اليوم العاشر: مصيبة عاشوراء ٣٠٠
موضوع المحاضرة (١١): لا يوم كيومك يا أبا عبد الله ٣٠٣
اليوم الثالث عشر: يوم الدفن ٣٢٩
موضوع المحاضرة (١٢): مشروعية الجزع على الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ ٣٣٢
اليوم الخامس والعشرين: شهادة الإمام السجاد عَلَيْهِ السَّلَامُ ٣٥٩
موضوع المحاضرة (١٣): فلسفة الابتلاء ٣٦٢
الهوامش ٣٩٠

المُقَدِّمَةُ

الحمد لله ربّ العالمين، والصلاة والسلام على نبيّ الرحمة محمدٍ وآله الطيبين الطاهرين.

تُعدّ مهمّة التبليغ من أشرف الأعمال التي تقع على عاتق أهل العلم والإيمان؛ لاتصالها في جوهرها برسالة الأنبياء والرسل والأولياء، القائمة على هداية الناس، وتعليمهم، ودعوتهم إلى العمل الصالح.

وانطلاقًا من قوله تعالى: ﴿ الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴾[1]، يستنفر المبلِّغون والمبلِّغات في كل مناسبة دينية طاقاتهم لأداء هذه المهمّة الرسالية. وتشتدّ الحاجة إلى جهودهم في زمن تتّسع فيه وسائل التأثير، وتُسخَّر فيه إمكانات كبيرة لنشر أفكار تُضعف صلة الإنسان بدينه وقيمه. وفي مواجهة هذه التحدّيات، لا يكفي أن نحفظ تراثنا في الكتب؛ بل علينا أن نُحسن تقديمه للناس، ونُبيّن أثره في حياتهم، حتى يبقى حاضرًا في وعيهم وسلوكهم[2].

وفي إطار مواكبة المبلِّغين والمبلِّغات في عملهم التبليغي، وتوفير مادّة ثقافية تعينهم على إحياء المناسبات الدينية وإرشاد الفرد والأسرة والمجتمع، عمد مركز الإرشاد الأسري في النجف الأشرف، التابع للعتبة الحسينية المقدسة، إلى تأليف «زاد المبلِّغين» ضمن سلسلة «زاد المناسبات»، في خمسة عشر جزءًا. وتتوزّع على أجزاء السلسلة مناسبات الشهور الهجرية، ويرتبط أبرزها بمحاضرات تتناول موضوعات يحتاج إليها الناس، مع الإشارة إلى المناسبات الأخرى بإيجاز. ويضمّ كل جزء ما بين عشر مناسبات وثلاث عشرة مناسبة. وليس

المبلِّغ أو المبلِّغة مقيّدًا بإلقاء المحاضرة في المناسبة التي ارتبطت بها في الكتاب؛ فلكلٍّ منهما أن يوظّفها في مناسبة أخرى متى وجد صلةً مناسبة بينها وبين موضوعها.

واخترنا صيغة «المبلِّغين» في عنوان الكتاب على سبيل التغليب في العربية؛ لأن مادّته موجّهة إلى المبلِّغين والمبلِّغات على السواء. وحرصنا أيضًا على أن تتنوّع محاضرات كل جزء، لأن حاجة الناس إلى موضوعات مختلفة تشبه حاجة أجسامهم إلى غذاء متنوّع. فالمائدة المتكاملة تمدّ الجسم بالبروتينات والكربوهيدرات والدهون والفيتامينات والمعادن، وإذا افتقد غذاؤه بعض هذه العناصر باستمرار تأثرت صحته. وكذلك يحتاج الناس، في المجالس المتتابعة كليالي محرّم، إلى ما يغذّي عقولهم وقلوبهم ويعينهم في حياتهم؛ فتُختار لهم محاضرات عقائدية تعزّز الإيمان، وأخرى مهدوية تعرّفهم بإمام زمانهم، وأخلاقية وسلوكية تعينهم على إصلاح أنفسهم، وأسرية وتربوية تساعدهم في معالجة مشكلاتهم وتربية أولادهم. ويُقدَّم الأهمّ فالأهمّ من هذه الجوانب بحسب حاجة الناس وما يناسب المناسبة.

كما راعينا تفاوت المستمعين في أعمارهم وثقافتهم ومعارفهم؛ فقد يجتمع في المجلس الشابّ والكبير، والمتعلّم ومن لم تتح له فرصة التعلّم. ومن هنا تأتي أهمية وضوح الفكرة، وقرب المثال، وحسن اختيار ما يلائم الحاضرين؛ فقد رُوي عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «نحن معاشر الأنبياء أُمرنا أن نكلِّم الناس على قدر عقولهم»[٣].

ولا يقف دور المبلِّغين والمبلِّغات عند انتظار من يأتيه طالبًا للمعرفة؛ بل يقتضي منه أن يلتفت إلى حاجات الناس، ويقترب من مواطن أسئلتهم وحيرتهم. وقد وصف أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ بقوله: «طبيب دوّار بطبّه، قد أحكم مراهمه، وأحمى مواسمه... يضع ذلك حيث

الحاجة إليه من قلوب عمي، وآذان صمّ، وألسنة بكم... متتبّع بدوائه مواضع الغفلة، ومواطن الحيرة»[٤]. وفي هذا الوصف ما يذكّر المبلِّغين والمبلِّغات بأن نجاح خطابهم يتوقّف على معرفة ما يحتاج إليه الناس، واختيار المعالجة التي تناسب حالهم.

وكما يقدّر الطبيب مقدار الدواء، يحتاج المبلِّغ والمبلِّغة إلى تقدير ما يُقدَّم في المجلس؛ فالإطالة قد تُضعف انتباه المستمع، والاختصار المُخِلّ قد يترك الفكرة ناقصة. لذلك أُعِدَّت محاضرات هذا الكتاب ليستغرق إلقاء الواحدة منها نحو أربعين إلى خمسين دقيقة. وإذا ضاق الوقت، أمكن اختصارها مع الحفاظ على وضوح فكرتها واكتمالها، أو تقديمها في مجلسين.

وختامًا، أسأل الله تعالى أن يتقبّل هذا العمل بأحسن قبوله، وأن ينفع به المبلِّغين والمستمعين، وأن يجعله موضع رضا صاحب العصر والزمان، عجّل الله تعالى فرجه الشريف.

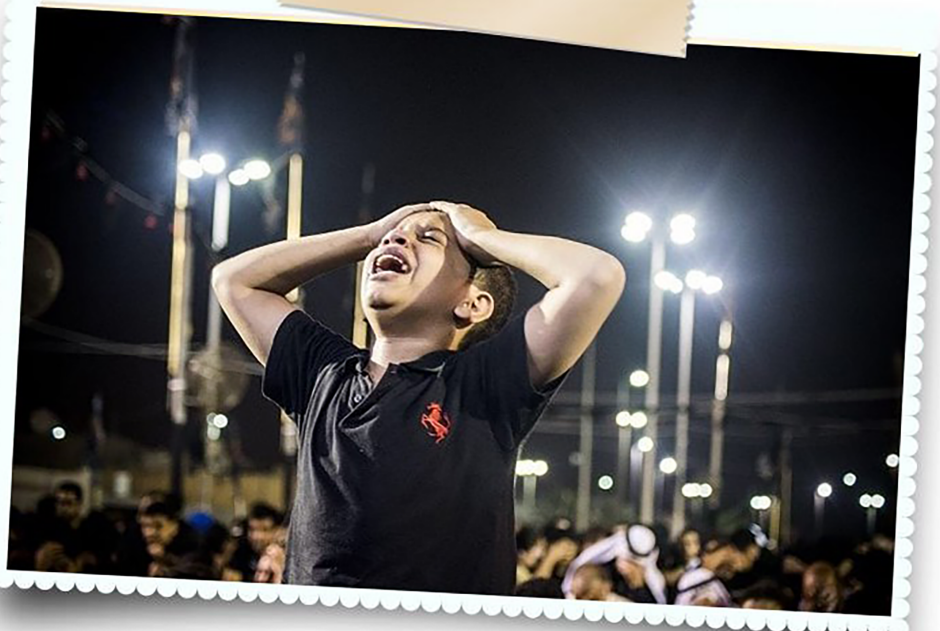

ليلة ١ محرم

أعظم الله لكم الأجر

اِستِقبالُ شَهرِ مُحَرَّمِ الحَرامِ

السلام على الحسين وعلى علي بن الحسين وعلى أولاد الحسين وعلى أصحاب الحسين

الليلة الأولى من محرّم الحرام

المناسبة: استقبال شهر محرم الحرام

القصيدة: للسيد جعفر الحلي

كم يا هلالَ محرمٍ تُشجينا ... ما زال قوسك نبلُه يرمينا

كلُّ المصائِب قد تهون سوى التي ... تركت فؤادَ محمدٍ محزونا

يومٌ به ازدلفتْ طغاةُ أميةٍ ... كي تَشفينَّ من الحسين ضغونا

نادى ألا هل من معين لم يجد ... إلا المحددةَ الرقاقَ معينا

فهوى على وجه الصعيد مبضعا ... ما نال تغسيلا ولا تكفينا

وسروا بنسوته على عُجُف المطا ... تطوي سهولا بالفلا وحزونا

أو مثلُ زينبَ وهي بنت محمد ... برزت تخاطب شامتا ملعونا

فغدا بمحضرها يقلّب مبسما ... كان النبي برشفهِ مفتونا

نثرت عقيق دموعِها لما غدا ... بعصاه ينكُتُ لؤلؤا مكنونا

(فائزي)

هلّت الشيعه بالحــزن يهلال عاشــور

او نصبت مياتم للعزيّه او تلطم اصدور

اهلال المحرم ليش اشوفك كاسف اللون

لابس سوادك ليش گلي اشصار بالكون

ون الهلال او گال سيد الرسل محــزون

او كل العوالم محـــــزنه والدين مقــهور

من حين هلّ الشهر هلّ إبكل الأحـــزان

اوجدد مصاب اللي گضــه بالطف حيران

ناحت عليه أملاكها والإنس والجــان

على قتيل اللي گضه بالطـــف منحور

هل المحــرم وامتلا گلبي بالهـــــموم

من حين شفت الشهر صار الگلب مكسور(٥)

موضوع المحاضرة الأولى:

المجالس الحسينية: إحياءٌ وأثر

روي عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ: قَالَ لِفُضَيْلٍ: «تَجْلِسُونَ وتُحَدِّثُونَ؟» قَالَ: نَعَمْ، جُعِلْتُ فِدَاكَ. قَالَ: «إِنَّ تِلْكَ الْمَجَالِسَ أُحِبُّهَا، فَأَحْيُوا أَمْرَنَا يَا فُضَيْلُ، فَرَحِمَ اللَّهُ مَنْ أَحْيَا أَمْرَنَا. يَا فُضَيْلُ، مَنْ ذَكَرَنَا -أَوْ ذُكِرْنَا عِنْدَهُ- فَخَرَجَ مِنْ عَيْنِهِ مِثْلُ جَنَاحِ الذُّبَابِ، غَفَرَ اللَّهُ لَهُ ذُنُوبَهُ ولَوْ كَانَتْ أَكْثَرَ مِنْ زَبَدِ الْبَحْرِ»[٦].

المبحث الأول: دلالة الرواية على إحياء المجالس

ونحن في بداية شهر محرّم الحرام، حيث تُفتح المجالس لإحياء ذكر الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ وأهل بيته وأصحابه، من المناسب أن نبدأ حديثنا بالتعرّف إلى مكانة هذه المجالس، وما ورد عن أهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ في الحثّ على إحياء أمرهم.

ومن الروايات المهمة التي يمكن أن ننطلق منها في هذا الموضوع ما روي عن الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ أنه قال لفضيل:

«تَجْلِسُونَ وَتُحَدِّثُونَ؟» قَالَ: نَعَمْ، جُعِلْتُ فِدَاكَ. قَالَ: «إِنَّ تِلْكَ الْمَجَالِسَ أُحِبُّهَا، فَأَحْيُوا أَمْرَنَا يَا فُضَيْلُ، فَرَحِمَ اللَّهُ مَنْ أَحْيَا أَمْرَنَا. يَا فُضَيْلُ، مَنْ ذَكَرَنَا -أَوْ ذُكِرْنَا عِنْدَهُ- فَخَرَجَ مِنْ عَيْنِهِ مِثْلُ جَنَاحِ الذُّبَابِ، غَفَرَ اللَّهُ لَهُ ذُنُوبَهُ وَلَوْ كَانَتْ أَكْثَرَ مِنْ زَبَدِ الْبَحْرِ»[٧].

والتأمل في هذه الرواية يكشف لنا عن منزلة عظيمة لمجالس إحياء أمر أهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ؛ إذ لم يكتفِ الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ ببيان جواز هذه المجالس، بل عبّر عن محبته لها، وأمر بإحياء أمرهم من خلالها، ودعا بالرحمة

لمن يقوم بهذا الإحياء، ثم ذكر ثوابًا عظيمًا لمن رقَّ قلبه عند ذكرهم.

ومن هنا يمكن أن نستفيد من الرواية عدة دلالات على رجحان هذه المجالس واستحبابها، نتوقف عندها واحدةً بعد أخرى.

أولًا: سؤال الإمام عَلَيْهِ السَّلَامُ: «تجلسون وتحدثون؟»

يبدأ الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ حديثه بسؤال فضيل: «تجلسون وتحدثون؟».

وقد يبدو السؤال للوهلة الأولى[٨] عامًّا؛ لأن الإمام عَلَيْهِ السَّلَامُ لم يبينّ في سؤاله نوع المجلس ولا موضوع الحديث الذي يدور فيه. وهنا قد نتساءل:

أيّ جلوس يقصده الإمام عَلَيْهِ السَّلَامُ؟ وأيّ حديث كانوا يتحدثون به؟

لكن ما يأتي بعد السؤال يكشف لنا المراد؛ إذ يقول الإمام عَلَيْهِ السَّلَامُ: «إن تلك المجالس أحبها، فأحيوا أمرنا».

فعبارة «فأحيوا أمرنا» تكشف أن الحديث الذي كان يدور في تلك المجالس لم يكن مجرد حديث دنيوي عابر، وإنما كان من الحديث المتصل بأهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ وأمرهم؛ كتذاكر علومهم، وأحاديثهم، وسيرتهم، ومناقبهم، ومواقفهم، وما جرى عليهم، وما يدعو الناس إلى معرفتهم والارتباط بهم والاقتداء بنهجهم.

ويدل على هذا المعنى أيضًا ما روي عن الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ في الحث على تواصل المؤمنين وتذاكرهم، إذ ورد عنه: «تزاوروا وتلاقوا وتذاكروا أمرنا وأحيوه»[٩]، مما يدل على أن اجتماع المؤمنين وتذاكرهم لأمر أهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ كان من الأعمال التي حث عليها الأئمة عَلَيْهِمُ السَّلَامُ.

إذن فالسؤال: «تجلسون وتحدثون؟» لا يراد منه مطلق الجلوس ومطلق الحديث، وإنما السياق يبيّن أنه سؤال عن مجالس يكون فيها ذكر أهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ وإحياء أمرهم.

ولتبسيط المعنى نقول: لو أن شخصًا علم أن جماعة يجتمعون باستمرار لإصلاح ذات البين، فسأل أحدهم: هل ما زلتم تجتمعون؟ فقال: نعم. فقال له: أنا أحب هذه المجالس، فاستمروا في الإصلاح بين الناس. فمن الواضح أن قوله: «فاستمروا في الإصلاح» كشف لنا طبيعة المجلس الذي أحبه.

وهكذا هنا؛ فإن قول الإمام عَلَيْهِ السَّلَامُ: «فأحيوا أمرنا» يكشف عن طبيعة المجالس التي قال عنها: «إن تلك المجالس أحبها».

ثانيًا: قوله عَلَيْهِ السَّلَامُ: «إن تلك المجالس أحبها»

وهذه من أوضح عبارات الرواية في بيان مكانة هذه المجالس. فالإمام عَلَيْهِ السَّلَامُ لم يقل: «لا بأس بهذه المجالس»، ولم يكتفِ بإباحتها أو السكوت عنها، وإنما قال بوضوح: «أحبها».

والتعبير بالمحبة يدل على أن هذه المجالس أمر مرغوب فيه وراجح في الشريعة؛ لأن الإمام المعصوم عَلَيْهِ السَّلَامُ لا يرغّب الناس فيما يخالف رضا الله سبحانه وتعالى.

ومن هنا نفهم أن اجتماع المؤمنين لإحياء أمر أهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ ليس مجرد عادة اجتماعية أو أمرًا مباحًا لا مزية فيه، بل هو عمل محبوب ومرغوب فيه.

وهنا ينبغي أن نلفت النظر إلى نقطة مهمة جدًا:

إن محبة الإمام لهذه المجالس ليست لأجل الاجتماع في نفسه؛ فقد يجتمع الناس في مجالس كثيرة، ولكن تختلف قيمة المجالس باختلاف ما يقع فيها. وإنما أحب الإمام تلك المجالس لما تحمله من ذكرٍ لأهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، وتعريفٍ بهم، وإحياءٍ لأمرهم، وربطٍ للقلوب بهم. ولهذا قال بعدها مباشرة: «فأحيوا أمرنا».

فكأنه عَلَيْهِ السَّلَامُ يبيّن لنا سر محبته لتلك المجالس: لأنها مجالس تحيي أمر محمد وآل محمد عَلَيْهِمُ السَّلَامُ. وهذا يعلّمنا قاعدة مهمة:

« ليست قيمة المجلس الحسيني بكثرة الحاضرين، أو بفخامة المكان، أو بكثرة ما يقدم فيه، وإنما أعظم قيمته في مقدار ما يؤديه من إحياء أمر أهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ».

فقد يكون مجلس صغير في بيت متواضع، يحضره عدد قليل من المؤمنين، ولكنه يعرّفهم بالحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ، ويذكّرهم بدينهم، ويقربهم من الله، ويزيد ارتباطهم بأهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ؛ فيكون مجلسًا عظيم الأثر، ومصداقًا حقيقيًا لإحياء أمرهم.

وفي المقابل، قد يكون المجلس كبيرًا، ويحضر فيه عدد كثير من الناس، وتتوفر فيه إمكانات واسعة، لكنه إذا انشغل بالمظاهر، أو خلا من التوجيه الصحيح، أو لم يزد الحاضرين معرفةً بأهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ وارتباطًا بهم، فإن كبر حجمه وحده لا يكفي ليحقق الغاية المطلوبة منه.

ولهذا ينبغي أن نسأل بعد كل مجلس: ماذا تعلّمنا؟ ماذا ازداد في معرفتنا بأهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ؟ ماذا تحرّك في قلوبنا؟ وماذا تغيّر في سلوكنا؟

ثالثًا: قوله عَلَيْهِ السَّلَامُ: «فأحيوا أمرنا»

وهذه العبارة تمثل قلب الرواية ومحورها الرئيس. فالإمام عَلَيْهِ السَّلَامُ لم يقل فقط: «إن تلك المجالس أحبها»، بل أعقب ذلك بقوله: «فأحيوا أمرنا يا فضيل».

وكلمة «أحيوا» جاءت بصيغة الأمر، وهي تكشف ـ في هذا السياق ومع سائر القرائن ـ عن شدة الحث والترغيب في إحياء أمر أهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ.

والإحياء في مقابل الاندراس والنسيان؛ فنحن عندما نحيي أمر شخص

ما، فإننا لا نسمح لسيرته ومبادئه ومواقفه أن تغيب عن الناس. ومن هنا كان من مصاديق إحياء أمر أهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ أن تبقى علومهم حاضرة، وسيرتهم معروفة، وقيمهم متداولة، ومواقفهم ومظلومياتهم محفوظة في ذاكرة الأمة.

وتأتي المجالس الحسينية في مقدمة هذه المصاديق؛ لأن المجلس الحسيني يقوم ـ في صورته الصحيحة ـ على ذكر الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ وأهل بيته وأصحابه، والتعريف بنهضته، وبيان أهدافها، وذكر ما جرى عليهم من المصائب، واستلهام القيم والمبادئ التي ضحوا من أجلها. وبذلك لا تبقى واقعة كربلاء مجرد واقعة تاريخية وقعت سنة إحدى وستين للهجرة وانتهت، بل تبقى حاضرة في وعي الأجيال.

ومن أعظم وظائف المجلس الحسيني أن ينقل قضية الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ من جيل إلى آخر؛ يسمعها الأبناء، ثم ينقلونها إلى أبنائهم، فيبقى اسمه ونهضته وقيمه ومظلوميته حيّة في وجدان الأمة. ولهذا تُعدّ المجالس الحسينية من أبرز مصاديق قوله عَلَيْهِ السَّلَامُ: «فأحيوا أمرنا».

ولكن ينبغي الدقة في التعبير؛ فالرواية لا تختص بالمجالس الحسينية وحدها، وإنما تتحدث عن إحياء أمر أهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ بصورة عامة. والمجالس الحسينية تدخل فيها دخولًا واضحًا، بل تُعدّ من أبرز صور هذا الإحياء، لما تشتمل عليه من ذكر أهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ والتعريف بهم وإحياء مظلوميتهم ورسالتهم.

رابعًا: قوله عَلَيْهِ السَّلَامُ: «فرحم الله من أحيا أمرنا»

الإنسان محتاج إلى رحمة الله في كل لحظة من حياته؛ فمن رحمته أن يثبّته على الإيمان، ويوفّقه لطاعته، ويلين قلبه ليرحم الناس، ويجعل في قلوب أهله رحمةً به. ومن رحمته أن يعافيه، ويرزقه عملًا وكسبًا حلالًا، وييسّر أموره أو

يصرف عنه بلاءً قد لا يشعر به. وهو في الآخرة أحوج إلى رحمة الله: أن يغفر له، ويتفضّل عليه بالثواب، ويرفع درجته، ويرزقه الشفاعة.

ومن أبواب طلب هذه الرحمة إحياءُ أمر أهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ؛ فقد قال الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ: «فرحم الله من أحيا أمرنا». فلم يحصر دعاءه في صورةٍ واحدة من الرحمة، وترك لنا باب الرجاء واسعًا في الدنيا والآخرة.

فمن يعلّم علوم أهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، أو ينشر فضائلهم، أو يعرّف بسيرتهم، أو يذكّر بمواقفهم، أو يقيم مجلسًا يُذكر فيه أمرهم، أو يسهم في إيصال رسالتهم إلى الناس، فله أن يرجو أن تشمله دعوة الإمام عَلَيْهِ السَّلَامُ بالرحمة. بل إن الإنسان يستطيع أن يرجو هذه الرحمة بإسهامه في إحياء أمرهم بحسب قدرته: هذا يقيم مجلسًا، وذاك يحضره، وثالث يخدم فيه، ورابع يعلّم أولاده ما سمع، وخامس ينقل محاضرة نافعة، وسادس يكتب أو ينشر علمًا صحيحًا عن أهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ. فالصور متعددة، لكن الهدف واحد: «أن يبقى أمر محمد وآل محمد عَلَيْهِمُ السَّلَامُ حيًّا في الأمة».

خامسًا: الثواب المترتب على ذكر أهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ

بعد أن دعا الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ بالرحمة لمن يحيي أمر أهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، بيّن في ختام الرواية صورةً من أعظم صور هذه الرحمة، وهي غفران الذنوب، فقال:

«يا فضيل، من ذكرنا ـ أو ذكرنا عنده ـ فخرج من عينه مثل جناح الذباب، غفر الله له ذنوبه ولو كانت أكثر من زبد البحر».

فالذنوب كالسلاسل التي تُثقِل الإنسان وتقيّد حركته؛ وإذا أردتَ أن تُنقذ إنسانًا مقيّدًا، كان أول ما تفعله أن تفكّ قيوده. ومن هنا كان غفران الذنوب من أعظم مصاديق رحمة الله بالعبد، وقد جعل الإمام عَلَيْهِ السَّلَامُ ذكر أهل البيت والتأثر بهم بابًا لنيل هذه الرحمة.

ويلفتنا هذا الجزء من الرواية أيضًا إلى أهمية البعد العاطفي -الذي سنشير إليه في المبحث اللاحق-؛ فالإنسان لا يرتبط بأهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ بالمعرفة وحدها، بل بالمحبة والتأثر كذلك. ومن هنا نفهم التعبير: «الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ عِبرة وعَبْرة». فهو عِبرة نتعلم من مواقفه الإيمان والثبات على الحق والتضحية ورفض الظلم، وعَبْرة يفيض بها القلب عند ذكر مصابه. وقد روي عن الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ: «الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ عَبْرة كل مؤمن»[١٠]، وروي عنه، عن الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ: «أنا قتيل العَبْرة، لا يذكرني مؤمن إلا استعبر»[١١].

فالمجلس الحسيني يعلّم الإنسان ويحرّك وجدانه؛ ليخرج منه بمعرفة يهتدي بها، وعاطفة تعينه على العمل بمبادئ الإمام عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وتبقى الدقة في الاستدلال مهمة: فقوله عَلَيْهِ السَّلَامُ: «من ذكرنا أو ذكرنا عنده» يشمل أهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ عامة، ولا يختص بالإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ. والمجلس الحسيني من مصاديق هذا الذكر، وتؤكد الروايات الخاصة بالحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ خصوصية ذكر مصابه والبكاء عليه.

وبعد التأمل في ألفاظ الرواية نستطيع أن نخرج بعدة نتائج مهمة:

- إن الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ سأل عن مجالس يجتمع فيها أصحابه ويتذاكرون أمر أهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ.
- ووصف تلك المجالس بقوله: «أحبها»، وهذا يدل على محبوبيتها ورجحانها.
- ثم أمر بقوله: «فأحيوا أمرنا»، وفي ذلك حث واضح على أن يبقى أمر أهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ حيًا في الأمة.
- ثم دعا لمن يقوم بهذا العمل بقوله: «فرحم الله من أحيا أمرنا».
- ثم بيّن الثواب العظيم المترتب على ذكرهم والتأثر بمصابهم.

ومن مجموع ذلك نعرف أن مجالس إحياء أمر أهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ من الأعمال الراجحة والمحبوبة، وأن المجالس الحسينية من أبرز مصاديقها؛ لأنها تجمع بين ذكر أهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، والتعريف بسيرتهم ومواقفهم، وإحياء مظلوميتهم، وربط القلوب بهم، ونقل قضيتهم إلى الأجيال.

وبعبارة مختصرة: المجلس الحسيني ليس مجرد اجتماع لإحياء ذكرى تاريخية، بل هو واحد من أهم الوسائل التي يتحقق بها قول الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ: «فأحيوا أمرنا».

ومن هنا يبدأ سؤال آخر مهم: **إذا أمرنا الإمام بإحياء أمرهم، فما المراد أصلًا بـ«إحياء أمر أهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ»؟ وما الذي ينبغي أن نحييه معرفيًا وعاطفيًا وعمليًا؟**

وهذا ما نتناوله في المبحث الآتي:

المبحث الثاني: معنى إحياء أمر أهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ

بعد أن عرفنا أن الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ قال لفضيل: «إن تلك المجالس أحبها، فأحيوا أمرنا»، يأتي سؤال مهم:

ما معنى أن نحيي أمر أهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ؟

قد يتبادر إلى الذهن أن إحياء أمرهم يعني إقامة مجالسهم، وذكر مصائبهم، والبكاء عليهم. ولا شك أن ذلك من صور الإحياء، وله مكانته العظيمة، لكنّ أمرهم يشمل أيضًا ما تركوه لنا من علم وعقيدةٍ وأخلاقٍ وسيرةٍ ومنهج للحياة. وإحياؤه أن يبقى حاضرًا في عقولنا وقلوبنا وأعمالنا، وأن ننقله إلى غيرنا. ويمكن بيان ذلك في ثلاثة جوانب مترابطة: الإحياء المعرفي، والعاطفي، والعملي.

أولًا: الإحياء المعرفي

الإحياء المعرفي هو أن نتعرّف إلى أهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، ونتعلّم علومهم وتعاليمهم وسيرتهم، ثم ننقل هذه المعرفة إلى الآخرين؛ حتى يبقى فكرهم وتعاليمهم حيَّيْن بين الناس.

فإحياء أمر أهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ لا يكون بذكر أسمائهم ومناسباتهم فقط، بل يكون أيضًا بأن نعرف ماذا علّموا الناس، وماذا أرادوا منهم، وما المنهج الذي رسموه لهم في العقيدة والعبادة والأخلاق وسائر شؤون الحياة.

وهذا المعنى من الإحياء المعرفي بيّنه الإمام الرضا عَلَيْهِ السَّلَامُ بنفسه عندما قال: «أحيوا أمرنا، رحم الله من أحيا أمرنا. قلت: يا ابن رسول الله وكيف يحيا أمركم؟، قال: أن يتعلم علومنا ويعلمها الناس؛ فإن الناس لو علموا محاسن كلامنا لتبعونا»[١٢].

تأملوا الجواب: «أن يتعلم علومنا ويعلمها الناس»، أي نتعلم، ثم نعلّم.

نتعلّم ما قالوه في العقيدة، كمعرفة الله والإيمان بالمعاد؛ وفي العبادة، كالصلاة والصيام؛ وفي الأخلاق، كالصدق والأمانة وحفظ اللسان؛ وفي شؤون الأسرة، كتربية الأولاد وحسن التعامل بين الزوجين؛ وفي التعامل مع الناس، كاحترام حقوقهم والرحمة بهم.

ثم لا نبقي هذا العلم لأنفسنا، بل ننقله إلى غيرنا.

- ✦ فالأم التي تتعلم حديثًا صحيحًا عن أهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ ثم تعلّمه لأولادها تسهم في إحياء أمرهم.
- ✦ والأب الذي يعلّم أبناءه سيرة أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ وأخلاقه يسهم في إحياء أمرهم.
- ✦ والخطيبة التي تعرّف الناس بأحكام دينهم، أو تشرح لهم وصيةً للإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ، أو موقفًا من سيرة السيدة الزهراء أو السيدة زينب

عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، تسهم في إحياء أمرهم.

✦ والمعلّم الذي يزرع في الناشئة قيمةً أخذها من كلمات أهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ يسهم في إحياء أمرهم.

✦ وحتى الإنسان العادي الذي يسمع حديثًا صحيحًا، فيفهمه جيدًا، ثم ينقله إلى أسرته أو أصدقائه، هو أيضًا يشارك ـ بمقدار ما يقوم به ـ في هذا الإحياء.

ولهذا فالمجلس الحسيني مدرسة نتعرّف فيها إلى الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ: لماذا نهض؟ وماذا أراد؟ وما الذي نتعلّمه من موقفه؟ فإذا سمعنا عن صلاته يوم عاشوراء، عرفنا مكانة الصلاة؛ وإذا سمعنا عن صبر السيدة زينب عَلَيْهَا السَّلَامُ، تعلّمنا معنى الثبات. فمعرفة الأحداث والأسماء مهمة، ويكتمل أثرها حين نفهم ما تحمله من معانٍ لحياتنا.

ولكن لماذا نؤكد تعلّم علوم أهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ والرجوع إليهم؟ لأننا نأخذ ديننا عن أهل بيت أذهب الله عنهم الرجس وطهّرهم تطهيرًا، وتصل علومهم إلى رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، الذي قال الله تعالى فيه: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾[١٣]. وروي عن الإمام الباقر عَلَيْهِ السَّلَامُ أنه قال لسلمة بن كهيل والحكم بن عتيبة: «شرّقا وغرّبا، فلا تجدان علمًا صحيحًا إلا شيئًا خرج من عندنا أهل البيت»[١٤].

وهذا المعنى عبّر عنه الشاعر بصورة جميلة فقال:

إذا شئتَ أن ترضى لنفسك مذهبًا ... ينجّيك يوم الحشر من لهب النارِ
فدع عنك قول الشافعي ومالكٍ ... وأحمدَ والمرويَّ عن كعب أحبارِ
ووالِ أناسًا قولُهم وحديثُهم ... روى جدُّنا عن جبرئيلَ عن الباري[١٥]

لذلك نقدّم ما ثبت عن أهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ إذا خالفه رأيٌ أو فهمٌ آخر في أمر الدين والهداية. ومن وظائف المجلس أن يتيح للناس تذاكر علومهم وتعاليمهم، حتى تبقى حيّةً وتنتقل إلى الأجيال.

ثانيًا: الإحياء العاطفي

الإحياء العاطفي هو أن نبقي محبة أهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ وولايتهم حيّة في قلوبنا؛ فنفرح لفرحهم، ونحزن لحزنهم، ونتألم لمصابهم، ونشعر بالارتباط بهم. ولهذا الإحياء طريقان يكمل أحدهما الآخر:

الطريق الأول: المعرفة بأهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ.

فالإنسان بطبيعته يميل إلى الفضائل والصفات الجميلة، وكلما تعرّف إلى رحمتهم بالناس، وعبادتهم، وكرمهم، وصبرهم، ودفاعهم عن الحق، ازدادت محبتهم في قلبه. وما نتعلّمه عن تضحية الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ، مثلًا، يصل إلى العقل ويحرّك القلب أيضًا.

والطريق الثاني: تحريك هذه المحبة وتجديدها

وذلك بذكر مصائبهم، والاستماع إلى الرثاء والنعي، وإحياء أفراحهم وأحزانهم بتعظيم شعائرهم، فتبقى محبتهم وولايتهم حيّة ومتجددة في نفوسنا.

ولنبسّط ذلك بمثال: قد يكون الإنسان محبًّا لأبيه الذي توفّي، ويعرف فضله وحنانه وما قدّمه له، فإذا جلس مع إخوته وتذكّروا أخلاق أبيهم ومواقفه معهم، تجددت محبتهم له. ولكن عندما يسمعون أبياتًا مؤثرة تصف حنانه وفقده وذكرياتهم معه، قد تتحرك مشاعرهم بصورة أعمق وتجري دموعهم. فالمعلومة لم تتغير، ولكن العاطفة تحركت وتجددت.

وهكذا ـ مع عظيم الفارق ـ في علاقتنا بالإمام الحسين وأهل البيت

عَلَيْهِمُ السَّلَامُ؛ فمعرفتنا بفضائلهم ومواقفهم تنمّي محبتهم في قلوبنا، ثم يأتي ذكر مصائبهم والرثاء والنعي والبكاء وإحياء أفراحهم وأحزانهم ليحرّك هذه المحبة ويجددها ويعمّق ارتباطنا بهم.

وهذا الجانب العاطفي من الإحياء نجده واضحًا في الروايات أيضًا. ففي رواية فضيل التي بدأنا بها المحاضرة، قال الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ: «فأحيوا أمرنا يا فضيل، فرحم الله من أحيا أمرنا»، أتبع ذلك مباشرة بقوله: «يا فضيل، من ذكرنا ـ أو ذُكرنا عنده ـ فخرج من عينه مثل جناح الذباب، غفر الله له ذنوبه ولو كانت أكثر من زبد البحر»[١٦].

فالرواية تربط بين ذكر أهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ والتأثر بهم وخروج الدمعة، وهذا يكشف لنا مكانة العاطفة والتأثر في علاقتنا بهم.

وهذا المعنى تؤكده أيضًا روايات أخرى؛ فقد روي عن الإمام الرضا عَلَيْهِ السَّلَامُ:

«من تذكّر مصابنا وبكى لما ارتُكب منا كان معنا في درجتنا يوم القيامة، ومن ذُكِّر بمصابنا فبكى وأبكى لم تبك عينه يوم تبكي العيون، ومن جلس مجلسًا يُحيى فيه أمرنا لم يمت قلبه يوم تموت القلوب»[١٧].

لاحظوا كيف جمع الحديث بين المصاب والبكاء والمجلس وإحياء الأمر والقلب.

فالمجلس لا يعطي الإنسان معلومة فقط، بل يحرّك قلبه أيضًا. وهذا واضح جدًا في مجالس الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ. فنحن لا نجلس لنسمع أحداث كربلاء وكأننا نقرأ خبرًا تاريخيًا وقع قبل أكثر من ألف سنة، ثم ننصرف. إننا نسمع ما جرى على الحسين وأهل بيته عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، فيتفاعل القلب، وتجري الدمعة، وتتجدد المحبة والولاء.

تُظهر هذه النصوص مكانة الذكر والمصاب والتأثر بهما. فنحن في المجلس

الحسيني نسمع ما جرى على الإمام الحسين وأهل بيته عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، فتتجدد المحبة والولاء وتجري الدمعة.

ولهذا ينبغي الالتفات إلى ما يحدث أحيانًا في بعض المجالس النسوية: قد تُدعى خطيبة للمحاضرة والتوجيه من دون من تتولى الرثاء والنعي، وقد يُقام الرثاء من دون محاضرة تعرّف الحاضرات بتعاليم أهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ. والأكمل أن يجتمع الجانبان؛ فالمحاضرة تبني المعرفة، والرثاء والنعي يحييان العاطفة. وبعد أن نعرف أهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ ونحيي محبتهم في قلوبنا، يبقى السؤال: كيف يظهر ذلك في سلوكنا؟

ثالثًا: الإحياء العملي

الإحياء العملي هو أن نجعل تعاليم أهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ حيّة في سلوكنا وحياتنا، فنلتزم بما أمروا به، ونبتعد عمّا نهوا عنه، ونسعى إلى الاقتداء بهم في أخلاقنا وأعمالنا ومواقفنا.

ويمكن أن نفهم هذا الجانب العملي من الإحياء من وصية الإمام الباقر عَلَيْهِ السَّلَامُ لخيثمة، إذ قال له: «يَا خَيْثَمَةُ، أَبْلِغْ مَنْ تَرَى مِنْ مَوَالِينَا السَّلَامَ، وَأَوْصِهِمْ بِتَقْوَى اللهِ الْعَظِيمِ، وَأَنْ يَعُودَ غَنِيُّهُمْ عَلَى فَقِيرِهِمْ، وَقَوِيُّهُمْ عَلَى ضَعِيفِهِمْ، وَأَنْ يَشْهَدَ حَيُّهُمْ جِنَازَةَ مَيِّتِهِمْ، وَأَنْ يَتَلَاقَوْا فِي بُيُوتِهِمْ؛ فَإِنَّ لُقِيَّا بَعْضِهِمْ بَعْضًا حَيَاةٌ لِأَمْرِنَا، رَحِمَ اللهُ عَبْدًا أَحْيَا أَمْرَنَا. يَا خَيْثَمَةُ، أَبْلِغْ مَوَالِيَنَا: أَنَّا لَا نُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللهِ شَيْئًا إِلَّا بِعَمَلٍ، وَأَنَّهُمْ لَنْ يَنَالُوا وَلَايَتَنَا إِلَّا بِالْوَرَعِ، وَأَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ حَسْرَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَنْ وَصَفَ عَدْلًا، ثُمَّ خَالَفَهُ إِلَى غَيْرِهِ»[١٨].

والتأمل في الرواية يبيّن لنا صورة عملية واضحة من صور إحياء أمر أهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ؛ فقد أمر الإمام الباقر عَلَيْهِ السَّلَامُ مواليه أن يتلاقوا في بيوتهم، ثم بيّن أثر هذا العمل بقوله: «فَإِنَّ لُقِيَّا بَعْضِهِمْ بَعْضًا حَيَاةٌ لِأَمْرِنَا، رَحِمَ اللهُ عَبْدًا أَحْيَا أَمْرَنَا». فإحياء أمرهم هنا لم يبقَ معنًى في القلب أو معلومة في

العقل، بل ظهر في عمل يقوم به المؤمنون، وهو تلاقيهم واجتماعهم بما يسهم في بقاء أمر أهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ وعلومهم وذكرهم حيًّا بينهم.

ويزداد الجانب العملي في الرواية وضوحًا إذا نظرنا إلى الوصية كلها؛ فالإمام عَلَيْهِ السَّلَامُ أوصى مواليه بتقوى الله، ومواساة الغني للفقير، والقوي للضعيف، وشهود الجنائز، والتلاقي فيما بينهم، ثم أكّد أن الانتساب إلى أهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ وولايتهم لا ينفصلان عن العمل والورع، فقال: «أَنَّا لَا نُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللهِ شَيْئًا إِلَّا بِعَمَلٍ، وَأَنَّهُمْ لَنْ يَنَالُوا وَلَايَتَنَا إِلَّا بِالْوَرَعِ».

ومن هنا نستفيد أن لإحياء أمر أهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ جانبًا عمليًا؛ فكما نحيي أمرهم بتعلّم علومهم وتعليمها، ونحييه بإبقاء محبتهم والتأثر بهم حيًّا في القلوب، فإن من إحيائه أيضًا أن يظهر هذا الارتباط في واقعنا العملي؛ في اجتماع المؤمنين وتواصلهم، وفي التقوى والورع، وفي مواساة بعضهم لبعض، وفي السير وفق ما أوصى به أهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ.

ومن هنا نفهم أن إحياء أمر أهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ لا يقف عند معرفتهم ومحبتهم والتأثر بهم، بل ينبغي أن يظهر أثر هذه المعرفة والمحبة في عمل الإنسان وسلوكه. فالإحياء العملي يعني أن تتحول تعاليمهم التي عرفناها، والمحبة التي حملناها لهم في قلوبنا، إلى تقوى وورع وأخلاق وسلوك في حياتنا.

وهنا تظهر العلاقة بين الإحياء العاطفي والإحياء العملي؛ فالمحبة الصادقة من شأنها أن تدفع الإنسان إلى الاقتراب ممن يحب، والاستماع إلى كلامه، والاقتداء به، والسير على نهجه. ولهذا ينبغي ألا تبقى محبتنا لأهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ شعورًا في القلب فقط، بل يظهر أثرها في اتباعهم والعمل بتعاليمهم.

وقد بيّن الله تعالى هذه العلاقة بين المحبة والاتباع في قوله: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ﴾[١٩]، فكأن الآية تقول: إذا كنتم صادقين في قولكم إنكم تحبون الله، فأظهروا صدق هذه المحبة باتباع رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ،

وعندئذ تنالون محبة الله تعالى.

وكذلك محبتنا لأهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ؛ فلا يكفي أن نقول بألسنتنا: نحن نحبهم، بل ينبغي أن يظهر صدق هذه المحبة في اتباعهم والاقتداء بهم والعمل بتعاليمهم.

ومن هنا نفهم أيضًا دقة التعبير القرآني في قوله تعالى: ﴿إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾[٢٠]؛ فالله تعالى لم يقل: «إلا المحبة في القربى»، بل قال: «المودة». وقد عبّر السيد الطباطبائي عن معنى المودة بقوله: «المودة كأنها الحب الظاهر أثره في مقام العمل»[٢١]. وهذا يوضح لنا أن المحبة لا يراد لها أن تبقى شعورًا في القلب فقط، وإنما ينبغي أن يظهر أثرها في العمل والسلوك.

ومن هنا تتضح العلاقة بين الإحياء المعرفي والعاطفي والعملي؛ فهي جوانب مترابطة يكمل بعضها بعضًا. فالإحياء المعرفي يعرّفنا بأهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، ومقامهم وفضائلهم وكمالاتهم وتعاليمهم ومظلوميتهم، فيعزّز إيماننا بهم، ويزيد محبتنا لهم؛ لأن الإنسان مفطور على حب الكمال. ثم يأتي الإحياء العاطفي بما فيه من الرثاء والنعي والبكاء وإحياء أفراحهم وأحزانهم، ليحرّك هذه المحبة ويجدّدها ويعمّقها في القلب. وكلما رسخت المعرفة وازدادت المحبة، كان ذلك أدعى إلى اتباعهم والاقتداء بهم والسير على نهجهم، وهنا نصل إلى الإحياء العملي؛ بأن نجعل ما عرفناه وأحببناه حاضرًا في سلوكنا وحياتنا.

فإذا تعلّمنا منهم الصدق، ظهر ذلك في صدقنا، وإذا تعلّمنا منهم الأمانة، ظهر ذلك في حفظنا للأمانة، وإذا تعلّمنا منهم الرحمة، ظهرت في تعاملنا مع الآخرين، وإذا عرفنا أنهم نهوا عن الظلم والغيبة وأكل حقوق الناس، ظهر أثر اتباعنا لهم في اجتناب هذه الأمور.

وبهذا يصبح المجلس الحسيني طريقًا لاكتساب المعرفة وتحريك العاطفة، ثم تحويل ما عرفناه وما تحرّك في قلوبنا إلى سلوك عملي. فلا يكفي أن نتعلّم

علوم أهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، ونحبهم، ونتأثر بمصائبهم ونبكي عليهم، ثم لا يظهر شيء من ذلك في أعمالنا وحياتنا؛ بل ينبغي أن تبقى للمجلس ثمرة بعد أن نخرج منه.

فلو حضرت امرأة المجالس الحسينية سنوات طويلة، ثم خرجت من المجلس وهي تؤذي جارتها، أو تغتاب الناس، أو تظلم من حولها، فعلينا أن نسأل: أين أثر المجلس في السلوك؟

ولو بكى رجل على الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ، ثم أكل حق غيره أو ظلم أهله، فالبكاء عظيم وله مكانته، لكن هذه الدمعة ينبغي أن تكون أيضًا دافعًا له إلى الاقتراب من طريق الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ والابتعاد عمّا يخالفه.

ولو خرج شاب من المجلس وقد قرر أن يحافظ على صلاته بعد أن عرف مكانتها عند الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ، فهنا تحولت المعرفة والعاطفة إلى عمل.

ولو سمعت فتاة عن عفة السيدة زينب عَلَيْهَا السَّلَامُ وثباتها، فأحبتها، ثم حاولت أن تقتدي بها في حياتها، فهنا انتقل الإحياء من العقل والقلب إلى السلوك.

ومن هنا نفهم أن إحياء أمر أهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ لا يعني أن نحيي ذكراهم في يوم أو ليلة ثم ينتهي الأمر، وإنما أن يبقى أثرهم معنا في بقية أيام السنة.

- ✦ في المجلس نبكي على الحسين، وبعد المجلس نسأل: ماذا يريد مني الحسين؟
- ✦ في المجلس نسمع عن صلاة الحسين، وبعد المجلس نحافظ على صلاتنا.
- ✦ نسمع عن أمانة أهل البيت، فنراجع أمانتنا.
- ✦ نسمع عن رحمتهم، فنراجع طريقة تعاملنا مع أولادنا وأزواجنا والناس.
- ✦ نسمع عن نصرتهم للمظلوم، فنحاول ألا نكون نحن سببًا في ظلم أحد.

وهكذا يصبح إحياء أمر أهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ حاضرًا في حياتنا اليومية؛ فلا

يبقى معرفةً في العقل وعاطفةً في القلب فقط، بل يتحول إلى عبادة وأخلاق وعلاقات ومواقف وسلوك. وهنا تظهر ثمرة الإحياء العملي بصورة واضحة.

وبعد أن عرفنا الجوانب الثلاثة، يمكن أن نرى العلاقة بينها بوضوح:

الإحياء المعرفي ← الإحياء العاطفي ← الإحياء العملي.

فالمعرفة تعرّفنا بأهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ وبطريقهم، والعاطفة تربط قلوبنا بهم وتمنحنا الدافع، والعمل يجعل هذه المعرفة والمحبة سلوكًا حيًّا في حياتنا.

ولنبسّط ذلك بمثال: شخص يريد الوصول ليلًا إلى مكان بعيد، والطريق مظلم. يحتاج إلى خارطة ومصباح ليعرف الطريق؛ وهذا يشبه المعرفة. ويحتاج إلى سيارة تسير به؛ وهذا يشبه العمل. وتحتاج السيارة إلى وقود لتتحرك؛ وهذا يشبه العاطفة التي تمنحه الدافع. فالخارطة وحدها لا توصله، والسيارة من دون طريق معلوم قد تأخذه إلى غير وجهته، ومن دون وقود لا تتحرك. وكذلك نحتاج في إحياء أمر أهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ إلى عقل يعرفهم، وقلب يحبهم، وعمل يسير على نهجهم.

ولهذا لا ينبغي أن نفصل هذه الجوانب بعضها عن بعض. فلا نقول: «المهم أن أعرف فقط»، ولا نقول: «المهم أن أبكي فقط»، ولا نقول: «المهم أن أعمل ولا حاجة إلى المعرفة والمحبة»، بل نحتاج إلى الثلاثة معًا: عقل يعرفهم، وقلب يحبهم، وجوارح تسير على نهجهم.

وبهذا نفهم معنى إحياء أمر أهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ بصورة أوسع وأعمق: أن نجعلهم حاضرين في عقولنا بالمعرفة، وفي قلوبنا بالمحبة والولاء، وفي حياتنا بالعمل والاقتداء.

وهنا نستطيع أن نسأل أنفسنا بعد كل مجلس حسيني ثلاثة أسئلة بسيطة:

ماذا تعلّمت؟ فهذا هو الإحياء المعرفي.

ماذا تحرّك في قلبي؟ وهذا هو الإحياء العاطفي.

ماذا سأغيّر في عملي وسلوكي؟ وهذا هو الإحياء العملي.

فإذا خرجنا من المجلس وقد ازددنا معرفةً بأهل البيت، ومحبةً لهم، واقتداءً بهم، فقد أخذ المجلس بأيدينا إلى الغاية التي من أجلها تقام مجالس إحياء أمرهم.

المبحث الثالث: أهمية المجالس الحسينية في الفرد والمجتمع

للمجالس الحسينية أهمية كبيرة في حياة المؤمن والمجتمع؛ فهي ليست مجرد مجالس نستذكر فيها ما جرى على الإمام الحسين وأهل بيته عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، ثم تنتهي بانتهاء أيام المناسبة، بل هي مجالس للتعليم والتربية والتذكير وبناء الارتباط بأهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ.

ويمكن بيان أبرز جوانب أهميتها وآثارها في الآتي:

١. تعليم الدين ومعالجة مشكلات المجتمع

من أهم ما تقدمه المجالس الحسينية أنها تفتح بابًا واسعًا لتعليم الناس دينهم؛ ففيها يتعلمون العقائد والأحكام والأخلاق، ويتعرفون إلى سيرة النبي وأهل بيته عَلَيْهِمُ السَّلَامُ وتعاليمهم. وتزداد أهمية ذلك عندما نعلم أن كثيرًا من الناس قد لا يقرأون الكتب الدينية، ولا يحضرون الدروس العلمية، ولكنهم يحضرون المجلس الحسيني؛ فيكون المنبر طريقًا يصل من خلاله العلم إليهم بلغة سهلة يفهمونها.

مثال: قد تحضر امرأة مجلسًا فتسمع حكمًا شرعيًا كانت تجهله، أو يسمع ناشئ شرحًا مبسطًا عن الصلاة فيفهم أمرًا لم يكن يعرفه من قبل.

ولا تقف وظيفة المنبر عند تعليم هذه الأمور؛ بل يستطيع أن يستعين بتعاليم الدين في توعية الناس بالمشكلات التي يواجهونها، مثل تربية الأولاد، والتنمر، والعلاقات الأسرية، والاستخدام غير الرشيد للتقنيات الرقمية، مع بيان سبل الوقاية والعلاج. فعندما يشرح الخطيب للآباء والأمهات مخاطر الاستخدام غير المنضبط للهاتف، ثم يعلّمهم خطوات عملية لتنظيم استخدام أبنائهم له، يكون قد نقل التوجيه من المعلومة إلى معالجة مشكلة تعيشها الأسرة.

٢. التذكير بالله والآخرة

الإنسان يعيش وسط مشاغل كثيرة؛ دراسة، وعمل، وأسرة، وهاتف، وأسواق، ومشكلات يومية، وقد تستغرقه هذه الأمور حتى يضعف تذكّره للآخرة ولقائه بالله تعالى. وهنا تأتي المجالس الحسينية لتعيد إلى قلبه هذا التذكير؛ فعندما يسمع عن الموت، والحساب، والصلاة، والتوبة، والتقوى، ومواقف الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ وأصحابه، يتذكر أن هذه الدنيا ليست نهاية الطريق، وأن عليه أن يستعد للقاء الله تعالى.

مثال: قد يدخل الإنسان المجلس وهو مشغول بمشكلة دنيوية أخذت كل تفكيره، ثم يسمع عن أصحاب الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ وكيف اختاروا طاعة الله في أصعب الظروف، فيراجع أولوياته، ويقول لنفسه: ماذا أعددت أنا لآخرتي؟ فالمجلس هنا يوقظ الإنسان من غفلته ويعيد ترتيب أولوياته.

٣. حفظ الارتباط بأهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ وتعزيز الاقتداء بهم

من أهم آثار المجالس الحسينية أنها تُبقي ذكر أهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ حاضرًا ومتجددًا في حياة الإنسان؛ فيسمع سيرتهم وفضائلهم ومواقفهم وأخلاقهم، فيزداد معرفةً بهم ومحبةً وارتباطًا بهم.

وهذا الارتباط مهم، ولا سيما للناشئة؛ لأن كل إنسان يحتاج إلى شخصيات

يتأثر بها ويتخذها قدوة. وفي زماننا تُعرض أمام الشباب والناشئة نماذج كثيرة من المشاهير والمؤثرين، وقد يتعلق الناشئ ببعضهم ويقلد لباسهم وكلامهم وسلوكهم. وهنا تؤدي المجالس الحسينية دورًا مهمًا في إبقاء أهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ والشخصيات الصالحة المرتبطة بهم حاضرين في أذهان الناشئة وقلوبهم، بوصفهم نماذج أسمى وأجدر بالاقتداء.

فالناشئ عندما يتعرّف إلى شجاعة الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ، ووفاء أبي الفضل العباس عَلَيْهِ السَّلَامُ، وصبر السيدة زينب عَلَيْهَا السَّلَامُ، وإيمان علي الأكبر والقاسم عَلَيْهِمَا السَّلَامُ وثباتهما، لا يتعرف إلى أسماء وشخصيات تاريخية فحسب، بل يتعرف إلى قيم ونماذج يمكن أن يتعلم منها كيف يعيش ويتصرف.

مثال: قد يرى الناشئ أن الشجاعة تعني القوة الجسدية أو الجرأة التي يشاهدها عند بعض المشاهير، ولكن عندما يتعرف في المجلس الحسيني إلى مواقف الإمام الحسين وأصحابه عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، يتعلم أن من صور الشجاعة أن يثبت الإنسان على الحق، وأن يقول «لا» للخطأ، حتى لو ضغط عليه أصدقاؤه ليشاركهم فيه.

٤. تقوية الروابط والتكافل بين الناس

تجمع المجالس الحسينية أشخاصًا قد تختلف أعمارهم وأعمالهم وأحوالهم الاجتماعية، ولكنهم يجتمعون تحت راية واحدة ومحبة واحدة.

وهذا اللقاء المتكرر يتيح لهم أن يتعارفوا، ويسأل بعضهم عن بعض، ويشعروا بأنهم جزء من جماعة مترابطة. ومن هذه الألفة قد تنشأ مبادرات للخدمة والعطاء، تمتدّ إلى خارج أيام المجلس؛ فلا تقتصر خدمة الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ على ما يُقدَّم في المجلس، بل تظهر أيضًا في خدمة الناس وقضاء حاجاتهم.

مثال: قد تغيب امرأة كانت تحضر المجلس باستمرار، فتسأل عنها الأخوات، فيعلمن أنها مريضة فيزرنها أو يساعدنها.

وإذا علمن أن أسرةً محتاجة لا تستطيع شراء بعض حاجاتها الضرورية، فتعاونّ على مساعدتها مع حفظ كرامتها، انتقل التعارف والاهتمام إلى تكافلٍ عملي.

٥. تهذيب النفس وإصلاح السلوك

من ثمار المجلس الحسيني أن يساعد الإنسان على رؤية أخطائه ومراجعة نفسه. فهو يسمع عن الصدق والأمانة والصبر والعفة والرحمة والوفاء، ثم يقارن هذه القيم بسلوكه.

والمجلس الناجح ليس هو الذي يضيف إلى معلومات الإنسان فقط، وإنما الذي يترك في نفسه دافعًا إلى التغيير.

مثال: قد يسمع الإنسان محاضرة عن حقوق الوالدين، فيعود إلى بيته ويتذكر أنه رفع صوته على أمه أو أبيه، فيعتذر ويحاول أن يغيّر أسلوبه. هنا لم تبقَ المحاضرة كلامًا سمعه، بل تحولت إلى أثر عملي في حياته.

٦. تقوية الصبر والثبات أمام المشكلات

كربلاء مدرسة عظيمة في الصبر والثبات؛ فقد واجه الإمام الحسين وأهل بيته وأصحابه عَلَيْهِمُ السَّلَامُ ظروفًا شديدة، ومع ذلك لم يتخلوا عن إيمانهم ومبادئهم.

وسماع هذه المواقف لا يعني أن نقارن مشكلاتنا بمصيبتهم، وإنما نتعلم منهم كيف لا تجعلنا الصعوبات نفقد إيماننا أو أخلاقنا أو أملنا بالله تعالى.

مثال: قد يفشل ناشئ في امتحان، أو يمر بخلاف مع صديق، أو يتعرض لموقف يؤلمه، فيتعلم أن المشكلة لا تعني نهاية الحياة، وأن المؤمن يحاول من

جديـد، ويصـبر، ويطلـب العـون مـن الله، ولا يستسـلم لليـأس.

٧. حفظ القضية الحسينية ونقلها إلى الأجيال

لقـد مرّ على واقعـة كربـلاء أكثر مـن ألـف عـام، ومـع ذلـك بقـي الإمام الحسـين عَلَيْهِ السَّلَامُ حـاضرًا في وجـدان الملايـين. ومـن الوسـائل المهمـة التـي أسـهمت في هـذا البقـاء اسـتمرار ذكـره ومصيبتـه ومبـادئ نهضتـه عـبر الأجيـال.

فالمجلـس الحسـيني لا يخاطـب الجيـل الحـاضر فقـط، وإنما يسـهم في نقـل القضية إلى الجيـل الـذي بعـده؛ يسـمعها الأبنـاء مـن آبائهـم وأمهاتهـم، ثـم ينقلونهـا إلى أبنائهـم.

ولكـن المطلـوب ألا ننقـل للناشـئ أحـداث كربـلاء وحدهـا، بـل معـاني كربـلاء أيضًـا؛ فيعـرف مـاذا حـدث، ولمـاذا وقـف الإمـام الحسـين عَلَيْهِ السَّلَامُ ذلـك الموقـف، ومـاذا يتعلـم هـو منـه.

مثـال: عندمـا يسـمع الطفـل أن الإمـام الحسـين عَلَيْهِ السَّلَامُ حافـظ عـلى الصـلاة يـوم عاشـوراء، لا نكتفـي بسـرد الحادثـة، بـل نقـول لـه: إذا كان الحسـين عَلَيْهِ السَّلَامُ لم يـترك الصـلاة في ذلـك اليـوم العصيـب، فـماذا ينبغـي أن تكـون مكانـة الصـلاة في حياتنـا؟

وبذلك تنتقل القضية الحسينية من جيل إلى جيل قصةً ومبدأً وسلوكًا.

٨. تنمية الشعور بالمسؤولية

تعلّمنـا النهضـة الحسـينية أن الإنسـان المؤمـن لا يعيـش لنفسـه فقـط، ولا يقـف دائـمًا موقـف المتفـرج أمـام الخطـأ والظلـم، وإنـما يشـعر بمسـؤوليته ضمـن حـدود قدرتـه ومـا يقتضيـه الـشرع والحكمـة.

وهـذا يـربي الإنسـان عـلى أن يسـأل نفسـه: مـا مسـؤوليتي تجـاه مـا أراه مـن خطـأ؟

وما الذي أستطيع فعله لإصلاحه؟

مثال: إذا رأى طالب زميلًا ضعيفًا يتعرض للسخرية والتنمر، فلا يشارك في السخرية، ولا يقف متفرجًا وكأن الأمر لا يعنيه، بل يحاول أن يقوم بما يستطيع؛ فيرفض الإساءة بأسلوب مناسب، أو يساند زميله، أو يستعين بمن يستطيع معالجة المشكلة.

وبذلك يتعلم الناشئ أن المسؤولية لا تعني أن يستطيع حل كل مشكلة، وإنما ألا يكون سلبيًا أمام الخطأ؛ بل يقوم بما يستطيع من موقف صحيح، بحسب قدرته وبالطريقة المناسبة.

وبعد هذا البيان يتضح لنا أن إحياء أمر أهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ الذي حثّوا عليه شيعتهم إحياءٌ متكامل؛ نتعرّف فيه إلى علومهم وتعاليمهم وننقلها إلى الآخرين، ونحيي محبتهم وذكر مصابهم في قلوبنا، ونجعل أثر هذه المعرفة والمحبة حاضرًا في أعمالنا وسلوكنا. كما عرفنا ما تؤديه المجالس الحسينية من آثار مهمة في بناء الفرد والمجتمع، وحفظ قضية الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ ونقلها من جيل إلى جيل. ومن هنا يتضح أن المجلس الحسيني ليس مجرد اجتماع ينتهي بانتهاء وقته، بل مدرسة للمعرفة والعاطفة والعمل، ووسيلة من أهم وسائل بقاء قضية الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ حيّةً في الأمة.

ولكن هنا يبرز سؤال مهم: **هل الاهتمام بمصاب الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ، والبكاء عليه، وإنشاد الشعر والرثاء فيه، وإشراك أهل البيت في سماع مصابه، كان مجرد توجيهات وجّهها الأئمة عَلَيْهِمُ السَّلَامُ إلى شيعتهم، أم نجد هذا الإحياء متجسّدًا أيضًا في سيرتهم العملية؟**

عندما نرجع إلى ما ورد عن أهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ نجد روايات عديدة تكشف أن هذا الإحياء كان حاضرًا في حياتهم وبيوتهم ومجالسهم؛ فكانوا

يحزنون لمصاب الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ، ويبكون عليه، ويستمعون إلى الشعر والرثاء فيه، ويُشركون أهل بيوتهم في سماعه.

ومن ذلك ما روي عن الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ أنه قال: كان أبي إذا دخل شهر المحرم لا يُرى ضاحكا، وكانت الكآبة تغلب عليه حتى تمضي عشرة أيام منه فإذا كان اليوم العاشر كان ذلك اليوم يوم مصيبة وبكائه ويقول هو اليوم الذي قتل فيه الحسين.

وكان عَلَيْهِ السَّلَامُ يطلب من الشعراء أن يرثوا الحسين بما جادت به قرائحهم، وكان يأمرهم أن ينشدوا بصوت حزين، فإذا حضر الراثي[٢٢] ضرب لعياله سترا، وأجلسهم خلفه.

وكان الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ يشجع الشعراء على نظم الشعر في الحسين بأقواله الكثيرة، كقوله عَلَيْهِ السَّلَامُ: (ما من أحد قال في الحسين شعرا فكبى وأبكى به إلا أوجب الله له الجنة، وغفر له).

ودخل عليه ذات يوم السيد الحميري فقال له الإمام:

أنشدني في الحسين شعرا، وقام الإمام وضرب سترا لنسائه، وأطفاله، وأجلسهم خلف الستر، وجلس حزينا باكيا على مصيبة جده الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ ومن حوله أصحابه يقول السيد الحميري فأنشأت:

أُمررْ على جدثِ الحسينِ ... وقل لأعظُمِه الزكيّهْ
يا أعظُماً لا زلتِ من ... وَطفاءَ ساكبةٍ رويّهْ
وابكِ المطهَّرِ للمطهَّر ... والمطهّرةِ الزكيّهْ
كبكاءِ مُعْوِلَة غَدت ... يوماً بواحدِها المنيَّهْ

يقول الحميري: فرأيت دموع جعفر بن محمد تتحادر على خديه، وارتفع الصراخ من داره حتى أمرني بالإمساك.

وكان عَلَيْهِ السَّلَامُ إذا مرت عليه مصيبة يتذكر مصيبة جده الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ ويذكّر بها أصحابه، ومن ذلك لما أمر المنصور الدوانيقي محمد بن عبد الملك عامله على المدينة أن يحرق على أبي عبد الله الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ داره فجاء ومعه جلاوزته بالحطب فوضعوه على باب دار الإمام عَلَيْهِ السَّلَامُ وأضرموا فيه النار فلما أخذت النار ما في الدهليز تصايحت العلويات داخل الدار وارتفعت أصواتهن فخرج الإمام عَلَيْهِ السَّلَامُ وعليه قميص وإزار وفي رجليه نعلان فجعل يخمد النار، ويطفئ الحريق حتى قضى عليها فلما كان الغد دخل عليه بعض شيعته يسألونه فوجدوه حزينا باكيا فقالوا:

ممن هذا التأثر والبكاء؟ أمن جرأة القوم عليكم أهل البيت وليس منهم بأول مرة؟

فقال الإمام عَلَيْهِ السَّلَامُ:

لا ولكن لما أخذت النار ما في الدهليز نظرت إلى نسائي وبناتي يتراكضن في صحن الدار من حجرة إلى حجرة، ومن مكان إلى مكان هذا وأنا معهن فتذكرت فرار عيال جدي الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ يوم عاشوراء من خيمة إلى خيمة ومن خباء إلى خباء والمنادي ينادي: أحرقوا بيوت الظالمين.

(نصاري)

نادى ابن سعد حرگوها الخيام — اولا ترحمون هل نسوه والايتام

وُلْكُمْ كل أهل هلبيت ظلام — او يزيد اليوم منهم ياخذ الدين

غدت زينب تنادي الغوث يا ياب — علينه الحگ يحيدر داحي الباب

يبويه گوم طفي نار الاطناب يبويه انت غياث المستغيثني

عَفيه اشلون ظلت بيهن أرواح بواچي او خوف دگ او لطم واصياح

بچت زينب او صفگت راحٍ ابراح او صاحت آه يا روحي اشتحملين

(فائزي)

من شبوا النيران فرت كل العيال

بس العقيلة اتحيرت والدمع همّال

نادى عدوها اشحيرك يربات الادلال

نادت او مثل المطر يهمل مدمع العين

عدنه عليل امن المرض ما يگـــدر ايگوم

نايم طريح اوسادته بالخيم يا گوم

هوّه البحيه من نسل هاشـــم او مخـــزوم

او هو الشريده إلّي بگت من خلفة احسين

(تخميس)

ألا يا كرامَ الحيِّ عبتمْ جميعُكمْ وخلفتموا بالطفِّ تبكي نساؤُكمْ

حواسرَ بين القوم تدعو وراءكمْ أحبايَ لو غيرُ الحِمامِ أصابكمْ

عَتَبتُ ولكن ما على الموت مَعْتَبُ[٢٣]

ليلة ٢ محرم

أعظم الله لكم الأجر

الخروج من المدينة، ووداع العليلة

السلام على الحسين وعلى علي بن الحسين وعلى أولاد الحسين وعلى أصحاب الحسين

الليلة الثانية من محرّم الحرام

المناسبة: الخروج من المدينة، ووداع العليلة

القصيدة: للسيد جعفر الحلي

وجـهُ الصبـاحِ علـيَّ ليـلٌ مظلـمُ ... وربيـعُ أيامـي علـيَّ محـرمُ

والليـلُ يشـهد لـي بأنـي سـاهرٌ ... إن طـاب للنـاس الرُقـادُ فهوَّمـوا

قلقـا تُقلبنـي الهمـوم بمضجعـي ... ويغـور فكـري في الزمـان ويُتهـم

مَـن لـي بيـوم وغـىً يشـبُّ ضرامـه ... ويَشـيب فـودُ الطفـلِ منـه فيهـرم

فعسـى أنـالُ مـن التـراث مواضيـا ... تُسـدي عليهـن الدهـورُ وتُلحـم

او موتـةً بـين الصفـوف اُحبهـا ... هـي ديـن معشـريَ الذيـن تقدمـوا

مـا خلـتُ أنَّ الدهـرَ مـن عاداتِـه ... تُـروى الـكلابُ بـه ويُظمـى الضيغـم

ويُقـدَّم الأمـويُّ وهـو مؤخـر ... ويؤخَّـر العلـويُّ وهـو مقـدَّم

ويُضيِّـق الدنيـا علـى ابـن محمـد ... حتـى تقاذَفَـه الفضـاءُ الأعظـم

خـرج الحسـينُ مـن المدينـةِ خائفـا ... كخـروجِ موسـى خائفـا يتكتـم

وقـد انجلـى عـن مكـةٍ وهـو ابنُهـا ... وبـه تشـرفتِ الحطيـمُ وزمـزم[٢٤]

(فائزي)

گوّض اضعونه امن المدينه بو علي اوشال

ويّاه صفوه من هـــله شـيّالة احمـــال

گوَّض اضعونه امن المدينه اوشال بالليل

ويَّاه صفوه من هله شدَّت على الخيل

او زينب تعاين للوطن وادموعها اتسيل

اتنادي ابجمعنه انعـود لو يتبدل الحال

اشمالچ يزينب عندچ ارجـــال او تخافين

گبل المصيبه بالهظم والذل تحـــسين

واشلون حالچ لو مشوا كلهم عن احسين

واحسين تالي السلف هم اتوسد ارمال

او صـــرت تنخّين ابهلچ ما ينتخولچ

اولا يستطيعـون النهوض او يوصلونچ

واطفال عندچ والحريم اتلوع حوالچ

الله يساعد حالتچ ما بين الأنـــذال

(أبوذية)

الحـرب شـدّت يبـو فاضـل وحلهـا او بعـد مـا ينطـب امـن الـدم وحلهـا

الشريعـه سـيطر اعليهـا وحلهـا يراعـي الـزود يالكلـك حميَّـه[٢٥]

موضوع المحاضرة الثانية:

تعظيم حرمات اللّٰه: الإمام الحسين نموذجًا

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ ذَٰلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ ﴾[٢٦].

من الآيات التي يكثر الاستشهاد بها في المجالس والمناسبات الحسينية، وتُكتب في الإعلانات عند الدعوة إلى إحياء بعض الشعائر الحسينية، الآية الثلاثون من سورة الحج، وهي قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ ﴾[٢٧].

ولكن ما المقصود بحرمات الله في هذه الآية؟ وما معنى تعظيمها؟ وما علاقتها بالإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ وإحياء أمره وشعائره؟

المبحث الأول: حرمات اللّٰه ومظاهر تعظيمها

لبيان مفهوم تعظيم حرمات الله تعالى، لا بد أولًا من معرفة معنى الحُرُمات ومعنى التعظيم، ثم التعرّف إلى أبرز مصاديق هذه الحرمات وكيفية تعظيم كل واحد منها.

ما المراد بالحُرُمات؟

الحُرُمات جمع حُرمة، والحرمة هي المكانة والحدّ الذي يوجب صيانة الشيء ورعايته، ويمنع من انتهاكه أو التجاوز عليه. فحرمات الله هي الأمور التي

أوجب الله صيانتها ومراعاتها، ونهى عن انتهاكها أو التفريط فيها. وقد عرّف العلامة الطباطبائي الحرمة بقوله: «الحرمة، ما لا يجوز انتهاكه ووجب رعايته».[٢٨]

وبعبارة أبسط: عندما نقول إن لشيءٍ ما حرمة، فهذا يعني أنه ليس أمرًا عاديًّا نتعامل معه كيف نشاء، بل له مكانة وحدود يجب أن نراعيها ولا نتجاوزها.

ماذا يعني التعظيم؟

التعظيم في اللغة يعني: التبجيل والتوقير والإجلال والتفخيم[٢٩].

أما تعظيم حرمات الله، فهو أن نعرف قدرها ومكانتها، ونوقّرها ونجلّها، ونحفظ حرمتها، ونتعامل معها بما يليق بمكانتها عند الله تعالى، فلا ننتهكها ولا نتهاون بها أو نفرّط فيها.

ماذا يعني قوله تعالى:[فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ]؟

أي إنَّ تعظيم حرمات الله لا يعود نفعه إلى الله تعالى، وإنما يعود إلى الإنسان نفسه؛ فهو خيرٌ له عند ربّه، لما يترتب عليه من رضا الله وثوابه وحسن العاقبة. وقد فسّر الشيخ الطبرسي قوله تعالى:﴿ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ ﴾ بأنَّ «التعظيم خيرٌ له عند ربّه، أي في الآخرة»[٣٠].

وبعد أن اتّضح لنا معنى الحُرُمات وتعظيمها، وما يترتب على ذلك من الخير عند الله تعالى، ننتقل إلى التعرّف على أبرز مصاديق حرمات الله وكيفية تعظيم كل واحد منها، على النحو الآتي:

أولاً: الحرمات الزمانية

ومن حرمات الله تعالى الحرمات الزمانية؛ وهي الأزمنة التي خصّها الله تعالى بحرمة ومكانة تميزها عن غيرها، ومن أبرزها الأشهر الحرم، قال تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾[٣١]. والأشهر الحرم الأربعة هي: ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، ورجب، وقد خصّها الله تعالى بحرمة عظيمة تميزها عن سائر الشهور.

ويكون تعظيم هذه الأشهر بمراعاة حرمتها وعظيم منزلتها عند الله تعالى؛ وذلك باجتناب الظلم والمعاصي فيها، ومن أبرز مصاديق ذلك اجتناب القتال المحظور، والإقبال على الطاعات والقربات؛ فإن تخصيصها بالحرمة يقتضي مزيدًا من العناية بطاعة الله فيها، والحذر من انتهاك حرمتها بمعصيته.[٣٢]

وقد شهد التاريخ انتهاك حرمة الزمان، ومن أعظم شواهده فاجعة كربلاء في شهر المحرم الحرام؛ إذ لم تُراعَ حرمة الشهر، وقُتل الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ وأهل بيته وأصحابه، فاجتمعت حرمة الزمان مع حرمات عظيمة أخرى سيأتي بيانها.

ثانيًا: الحرمات المكانية

لقد جعل الله تعالى لبعض الأمكنة حرمةً وقداسةً تميزها عن سائر الأماكن، ومن أبرز هذه الأماكن بيت الله الحرام، والمسجد الحرام، والبلد الحرام؛ قال تعالى: ﴿جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ﴾[٣٣]، ولم تقتصر الحرمة على بناء الكعبة، بل شملت المسجد الذي يحيط بها، فقال سبحانه: ﴿وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ﴾[٣٤]، كما شملت مكة نفسها، فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا[٣٥] وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ﴾[٣٦].

ولا تقتصر الحرمات المكانية على ذلك، بل تشمل المساجد، وفي مقدمتها مسجد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، كما أن للمشاهد المشرَّفة للمعصومين

عَلَيْهِمُ السَّلَامُ[٣٧] حرمةً ومكانةً عظيمة.

ويكون تعظيم هذه الحرمات المكانية بصور عديدة، من أبرزها الآتي:

١. صيانتها من الهتك والاعتداء: فلا ينحصر انتهاك حرمة المكان المقدس بهدمه أو تخريبه، بل يشمل الاعتداء فيه، وسفك الدم الحرام، وهتك أمنه، وكل ما ينافي حرمته وقدسيته.

٢. مراعاة الأحكام الشرعية الخاصة بها: فقد شرعت لهذه الأماكن أحكامٌ تصون حرمتها؛ ففي الحرم المكي يحرم صيد صيده وقطع نباته في الموارد المحرمة شرعًا. ويحرم على الجنب والحائض المكث في المساجد، أما المسجد الحرام ومسجد النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ فلا يجوز لهما دخولهما حتى للاجتياز. وتلحق المشاهد المشرَّفة للمعصومين عَلَيْهِمُ السَّلَامُ بالمساجد في حرمة المكث على الأحوط وجوبًا،[٣٨] ولا يشمل ذلك صحونها وأروقتها، إلا ما ثبت كونه مسجدًا. كما يحرم تنجيس المساجد، ويجب إزالة النجاسة عنها؛ ويحرم تنجيس المشاهد المشرفة إذا أوجب إهانتها، وتجب إزالة ما يوجب الإهانة.

٣. عدم تعطيل المساجد وتضييع وظيفتها: فقد رُوي عن جابر قال: سمعت رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ يقول: «يجيء يوم القيامة ثلاثة يشكون إلى الله عز وجل: المصحف، والمسجد، والعترة...» ويقول المسجد: «يا رب عطّلوني وضيّعوني...»[٣٩]. وهذا يكشف أن تعظيم المسجد لا يكون بصيانة بنائه فحسب، بل بإعماره بعبادة الله وذكره وإقامة شعائره، وعدم تعطيله وإهمال الغاية التي أُنشئ من أجلها.

وقد شهد التاريخ انتهاكَ بعضِ الحرمات المكانية، ومن أبرزها بيت الله الحرام؛ فأصحاب الفيل قصدوا هدم الكعبة، وجيش يزيد رماها بالمنجنيق. وفي المقابل، عظّم الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ حرمة البيت، فخرج من مكة خشية

أن يُقتل فيها، وقال لأخيه محمد بن الحنفية: «يا أخي، قد خفت أن يغتالني يزيد بن معاوية بالحرم، فأكون الذي يُستباح به حرمة هذا البيت».[٤٠]

ثالثًا: الحرمات الشعائرية

ومن حرمات الله تعالى الحرمات الشعائرية، وهي ما يتعلّق بشعائر الله التي جعلها معالم لدينه وأعلامًا لطاعته. وقد جاءت آية ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ﴾ بعد الحديث عن جملة من أحكام الحج، كقضاء التفث والوفاء بالنذور والطواف بالبيت العتيق، فجاء اسم الإشارة ﴿ذَٰلِكَ﴾ مشيرًا إلى ما تقدّم من تلك الأحكام.

لذا من أوضح مصاديق الشعائر شعائر الحج ومناسكه؛ كالإحرام، والطواف، والسعي، والوقوف بعرفات والمشعر، والهدي، وغيرها.

ولا ينحصر مفهوم الشعائر ـ من حيث معناه العام ـ بمناسك الحج؛ فقد فسّر الشيخ الطبرسي شعائر الله بأنها «معالم دين الله والأعلام التي نصبها لطاعته»[٤١]، وعلى هذا المعنى تدخل فيها معالم الدين الظاهرة التي تدلّ على طاعة الله تعالى؛ كالصلاة والأذان والحجاب الشرعي، والشعائر الحسينية[٤٢] وغيرها مما يظهر به الدين وتُعرف به طاعة الله، وإن كانت شعائر الحج من أوضح مصاديق الشعائر التي نص عليها القرآن.

ويكون تعظيم شعائر الله بالمحافظة عليها وأدائها بما يليق به؛ فنقيم الصلاة ولا نتهاون بها، ونحافظ على الحجاب ولا نستخف به، ونؤدي مناسك الحج كما شرعها الله، ونعظّم الشعائر الحسينية بإحيائها، والمحافظة على حرمتها، وأدائها بما يليق بمقام الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ، ونجتنب السخرية من شعائر الدين أو التقليل من شأنها.

فتعظيم ما جعله الله من شعائر دينه ينشأ من تقوى القلب ويُظهرها؛ ولهذا

قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾[٤٣].

رابعًا: حرمة كتاب الله

من أعظم حرمات الله تعالى حرمة كتابه الكريم؛ فالقرآن ليس كتابًا كسائر الكتب، بل هو كلام الله ووحيه ونوره وهداه. وقد عدّت الروايات كتاب الله من حرماته العظيمة، فعن الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ: «إنَّ لله عزَّ وجلَّ حُرُماتٍ ثلاثًا ليس مثلهنَّ شيء: كتابُه وهو حكمتُه ونورُه، وبيتُه...»[٤٤].

ولتعظيم حرمة كتاب الله تعالى مصاديق عديدة، من أبرزها الآتي:

١. صيانة المصحف واحترام أحكامه الخاصة

فمن عظيم حرمته أن الشريعة جعلت للتعامل معه أحكامًا خاصة؛ فلا يجوز للمُحدِث مسُّ كتابة القرآن[٤٥]، وقد ورد قال تعالى: ﴿لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾[٤٦]، كما لا يجوز للجنب والحائض قراءة آيات السجدة الواجبة من سور العزائم الأربع: السجدة، وفصّلت، والنجم، والعلق.[٤٧] وتجب سجدة التلاوة عند قراءة آية السجدة الواجبة أو الاستماع إليها من قارئ يتلوها مباشرة.[٤٨] وتُظهر هذه الأحكام عناية الشريعة بحرمة كتاب الله.

ومن تعظيمه أيضًا صيانته عن كل ما فيه إهانة له؛ كإحراقه وتمزيقه وتدنيسه والاستخفاف به. وقد صوّر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ هذا الهتك تصويرًا مؤثرًا في حديث الثلاثة الذين يشكون إلى الله يوم القيامة، فقال: «ويقول المصحف: يا رب، حرّقوني ومزّقوني»[٤٩].

٢. العمل بالقرآن وعدم تعطيل أحكامه

لا يقتصر تعظيم القرآن على صيانة أوراقه وحروفه، بل من أعظم تعظيمه العمل به وعدم تعطيل أحكامه؛ فقد ورد في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَن يُعَظِّمْ

حُرُمَاتِ اللَّهِ ﴾[٥٠] أن من الحرمات الواجبة حرمة كتاب الله، وأن من صور انتهاكها «تعَطيل الكتاب والعمل بغيره»[٥١]، أي ترك العمل بما جاء به القرآن من أحكام، والعمل بما يخالفه.

وعن الإمام الباقر عَلَيْهِ السَّلَامُ في وصف بعض قرّاء القرآن: «فحفظ حروفه، وضيّع حدوده»[٥٢]. فمن حفظ ألفاظ القرآن وتلاها، ثم خالف أوامره ونواهيه، لم يكن معظِّمًا لحرمته؛ فقد يقرأ قوله تعالى في حق الوالدين: ﴿ فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا ﴾[٥٣]، ثم يؤذيهما وينهرهما، أو تقرأ المرأة قوله تعالى: ﴿ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ﴾[٥٤]، ثم لا تراعي ما أمر الله به من الستر.

فتعظيم القرآن يكون بحفظ حدوده والعمل بهديه وأحكامه، لا بتلاوة ألفاظه فحسب؛ حتى لا يكون الإنسان ممن قال الله تعالى فيهم: ﴿ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا ﴾[٥٥]، ولا ممن ورد فيهم: «رُبَّ تالٍ للقرآن والقرآن يلعنه».[٥٦]

خامسًا: حرمة السُّنّة

وإلى جانب حرمة كتاب الله تعالى تأتي حرمة السُّنّة، والمقصود بها ما ثبت عن النبي وأهل البيت المعصومين عَلَيْهِمُ السَّلَامُ من قول أو فعل أو تقرير، وقد نُقلت إلينا هذه السُّنّة ودُوِّنت في الروايات المروية عنهم عَلَيْهِمُ السَّلَامُ.

وللسُّنّة حرمة ومكانة عظيمة؛ لأنها تبيّن للناس دين الله وتعاليمه وأحكامه، وقد جعل الله تعالى الرسول وأولي الأمر حججًا على الناس، وأمر بطاعتهم؛ فقال في وظيفة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾[٥٧]، وقال في وجوب الطاعة: ﴿ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ ﴾[٥٨]، وقد بيّنت روايات أهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ أن أولي الأمر هم الأئمة عَلَيْهِمُ السَّلَامُ.

وقد ورث أئمة أهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ علوم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ وحملوا سنّته وبيّنوها للناس؛ ولذلك قال الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ: «حديثي حديث أبي، وحديث أبي حديث جدي... وحديث أمير المؤمنين حديث رسول الله، وحديث رسول الله قول الله عز وجل»[٥٩].

ويكون تعظيم السُّنّة بصور عديدة، من أبرزها الآتي:

١. الرجوع إلى السُّنّة لمعرفة الدين وأحكامه

فالقرآن والسُّنّة من المصادر الأساسية التي يُستند إليها في معرفة أحكام الدين، ولا يمكن معرفة كثير من تفاصيل الأحكام من القرآن وحده؛ فالقرآن أمر بالصلاة، ولكن السُّنّة بيّنت عدد ركعاتها وكيفيتها، وأمر بالزكاة والحج، وبيّنت السُّنّة كثيرًا من تفاصيل أحكامهما.

ولكن هذا لا يعني أن كل إنسان يستطيع أن يأخذ أي رواية ويستنبط منها حكمًا شرعيًا بنفسه؛ فالروايات تحتاج إلى معرفة أسانيدها ودلالاتها، والجمع بين ما قد يبدو متعارضًا منها، ومعرفة العام والخاص والمطلق والمقيد وغيرها من قواعد الاستنباط. ولهذا يرجع غير المتخصص في أحكامه الشرعية إلى الفقيه الجامع للشرائط؛ إذ تكون وظيفة المكلّف الذي لم يبلغ مرتبة الاجتهاد هي التقليد أو الاحتياط[٦٠].

٢. تعلّم ما ورد في السُّنّة والعمل به

ومن تعظيم السُّنّة أن نتعلّم ما ثبت عن النبي وأهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ من معارف ووصايا وتوجيهات تربوية وأخلاقية، وأن نجعلها أساسًا في تربية أنفسنا وأبنائنا؛ لأنها هدي صادر عن المعصوم عَلَيْهِ السَّلَامُ، وليست مجرد تجارب وآراء بشرية قابلة للصواب والخطأ.

٣. عدم الاستخفاف بالسُّنّة أو الدعوة إلى الاستغناء عنها بالقرآن

ومن صور انتهاك حرمة السُّنّة الاستخفاف بها أو الدعوة إلى تركها بحجة أن القرآن وحده يكفينا. وهذا القول يناقض ما تقدّم من أمر القرآن بطاعة الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، وجعله مبيّنًا لما نُزّل إلى الناس، قال تعالى: ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾[٦١]؛ فلا يستقيم أن ندّعي الأخذ بالقرآن، ثم ندعو إلى ترك بيان الرسول الذي أمرنا القرآن باتباعه.

وقد بيّن الإمام الباقر عَلَيْهِ السَّلَامُ هذا المعنى بقوله: «... إن الله أنزل الصلاة ولم يبيّن في القرآن أنها ثلاث ركعات أو أربع حتى فسّر رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ذلك، وأنزل الحج ولم يقل: طوفوا سبعة أشواط، حتى بيّن الرسول ذلك، وكذلك أنزل قوله تعالى: ﴿ أَطِيعُوا اللهَّ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ ﴾[٦٢]، فبيّن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ مَن هم أولو الأمر».[٦٣]

٤. التثبّت مما يُنسب إلى النبي وأهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ

وتعظيم السُّنّة لا يعني قبول كل كلام يُنسب إلى المعصوم عَلَيْهِ السَّلَامُ من غير تحقيق؛ فليست كل الروايات في درجة واحدة من الصحة والاعتبار، وقد توجد روايات ضعيفة، أو روايات يحتاج فهمها إلى جمعها مع نصوص أخرى. لذلك نتثبّت قبل أن ننسب قولًا إلى النبي أو أهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، ولا يكفي أن نجده في كتاب أو على وسائل التواصل. أما استنباط الأحكام من الروايات فله أهله من الفقهاء المتخصصين.

سادسًا: حرمة شريعة الله وأحكامه

ومن حرمات الله تعالى حرمة شريعته وأحكامه؛ فكما أن لكتاب الله وسنته حرمة، فإن لما شرعه الله فيهما من أوامر ونواهٍ وأحكام حرمةً أيضًا؛ لأنها صادرة عن الله تعالى، والحكم له سبحانه، قال تعالى: ﴿ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا للهَّ ﴾[٦٤].

فقد بيّن العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ﴾[٦٥] أن حرمات الله هي «الأمور التي نهى عنها وضرب دونها حدودًا منع عنَ تعدّيها»، وأن تعظيمها يكون بالكف عن تجاوزها.[٦٦]

ومن مصاديق ذلك أحكام الله تعالى التي جعلها حدودًا لا يجوز تعدّيها؛ قال تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾[٦٧]، وتعظيم هذه الأحكام يعني أن نقف عند حدودها: نؤدي ما أوجبه الله، ونجتنب ما حرّمه، ولا نغيّر حكمًا شرعيًا أو نستخف به إرضاءً لأهوائنا.[٦٨]

١. الالتزام بأحكام الله والعمل بها

فمن تعظيم أحكام الله أن يلتزم الإنسان بها في حياته، فيؤدي ما أوجبه الله عليه؛ فيقيم الصلاة، ويصوم شهر رمضان، ويؤدي الحقوق الواجبة، ويبرّ والديه، ويلتزم بالحجاب وسائر ما أوجبه الله عليه، ويجتنب ما حرّمه؛ لأن احترام حكم الله لا يكون بالكلام فقط، وإنما يظهر في طاعته والعمل بما شرعه.

٢. عدم انتهاك أحكام الله وتجاوز حدوده

فمن يخالف حكم الله متعمدًا يكون قد تجاوز حدًّا من حدوده وانتهك حكمًا من أحكامه؛ فالذي يغتاب مؤمنًا، أو يبهته، أو ينمّ بين الناس، أو يظلمه ويؤذيه، قد انتهك ما حرّمه الله. ومن يأكل أموال الناس بغير حق، أو يحبس حقًا ماليًا واجبًا عليه، فقد تعدّى حدود الله. والزوج الذي يمنع زوجته نفقتها الواجبة أو مهرها المستحق من دون حق، لا تكون القضية مجرد خلاف عائلي، بل هناك حق أوجبه الله قد ضُيّع، وحكم شرعي قد انتُهك. وكذلك من يترك الصلاة متعمدًا، أو يتبرج، أو يشرب المسكر، أو يمارس الغناء المحرم، أو يعق والديه؛ فكل ذلك من صور مخالفة أحكام الله وانتهاك حدوده.[٦٩]

٣. عدم الاستخفاف بأحكام الله أو تغييرها بحسب الأهواء

وقد لا يكتفي الإنسان بمخالفة الحكم، بل يستخف به أو يحاول تغيير صورته؛ كأن يهوّن من شأن فريضة أوجبها الله، أو ينكر وجوبها بعد ثبوته، أو يصف حكمًا شرعيًا بأنه لا يناسب هذا الزمان لمجرد مخالفته لرغباته، أو يجعل الحرام حلالًا والحلال حرامًا بحسب الأهواء والعادات. ومن ذلك أن يُستخف بفريضة الحجاب أو يُصوَّر التبرج المحرم على أنه أمر لا إشكال فيه. وقد حذّر القرآن من قلب الموازين وتغيير أحكام الله، فقال تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾[٧٠].

سابعًا: الحرمات البشرية

ومن حرمات الله تعالى الحرمات البشرية، والمقصود بها ما جعله الله تعالى للإنسان من حرمةٍ وحقوقٍ يجب صونها وعدم الاعتداء عليها؛ كحرمة دمه وماله وعِرضه[٧١].

وقد دلّت النصوص الشرعية على ثبوت هذه الحرمة للإنسان، وأكدتها بصورة خاصة في المسلم والمؤمن؛ فقد رُوي عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «كلّ المسلم على المسلم حرام: دمه وعِرضه وماله»[٧٢]. وهذا يدل على أن للمسلم حرمةً مصونة في دمه وعِرضه وماله.

وجاء التصريح بحرمة المؤمن ضمن حُرَم الله تعالى؛ فقد رُوي عن الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ: «لله عز وجل في بلاده خمس حُرَم: حرمة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، وحرمة آل الرسول، وحرمة كتاب الله عز وجل، وحرمة الكعبة، وحرمة المؤمن»[٧٣].

وأيضًا كشفت النصوص الشرعية عن عِظَم حرمة المؤمن وعلوّ منزلتها؛ حتى جعلتها أعظم من حرمة الكعبة، فقد رُوي أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ نظر إلى الكعبة فقال: «مرحبًا بالبيت، ما أعظمك وأعظم حرمتك على الله!

والله للمؤمن أعظم حرمة منك»[٧٤].

ويكون تعظيم الحرمات البشرية بصور عديدة، من أبرزها الآتي:

١. صيانة الدم وعدم الاعتداء على الإنسان

فمن تعظيم حرمة الإنسان عدم الاعتداء على حياته أو جسده بغير حق؛ فلا يُقتل، ولا يُضرب، ولا يُجرح، ولا يُؤذى لمجرد خصومة أو غضب أو اختلاف معه.

٢. صيانة المال والحقوق

فلا يجوز أخذ مال الإنسان أو التصرف فيه بغير حق، ولا أكل أموال الناس بالباطل، ولا منعهم حقوقهم المالية الواجبة؛ لأن الاعتداء على المال والحقوق صورة من صور انتهاك حرمة الإنسان.

٣. صيانة العِرض والكرامة

ولا يقتصر انتهاك الحرمات البشرية على الدم والمال؛ بل يكون أيضًا بالاعتداء على كرامة الإنسان وعِرضه وسمعته، كالسب والإهانة والإذلال والغيبة والبهتان والنميمة والتجسس وتتبع العثرات. وقد رُوي عن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ: « من آذى مؤمنا فقد آذاني، ومن آذاني فقد آذى الله، ومن آذى الله فهو ملعون في التوراة، والإنجيل، والزبور، والفرقان «. وفي خبر آخر: « فعليه لعنة الله، والملائكة، والناس أجمعين «[٧٥].

المبحث الثاني: حرمة أهل البيت وتجليها في الإمام الحسين (ع)

وبعد أن تعرّفنا إلى أبرز حرمات الله تعالى وكيفية تعظيمها، ننتقل إلى حرمةٍ عظيمة من حرماته، وهي حرمة محمد وآل محمد عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ، ثم نسلّط الضوء على تجلّي هذه الحرمة في الإمام الحسين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.

ومع أن للمؤمن حرمةً يجب حفظها في دمه وماله وعِرضه، فإن المؤمنين ليسوا في منزلة واحدة؛ بل يتفاوتون في مراتبهم بحسب إيمانهم وتقواهم وقربهم من الله تعالى، وكلما علت منزلة المؤمن وقربه من الله تعالى، كان لمقامه وحقه في التعظيم والتوقير حرمة أعظم. وقد بيّن القرآن أصل هذا التفاوت في المنزلة فقال تعالى: ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ ﴾(٧٦).

ولتقريب المعنى، يمكن تشبيه الناس بالمعادن؛ فكما تتفاوت المعادن في قيمتها، بل يتفاوت الذهب نفسه بحسب نقائه، يتفاوت الناس في مراتبهم بحسب إيمانهم وتقواهم وقربهم من الله تعالى.

وهذا التفاضل موجود حتى بين الأنبياء والرسل؛ قال تعالى:﴿ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ ﴾(٧٧)، فإذا كان الأنبياء، مع اشتراكهم في النبوة، متفاوتين في الدرجات، فالمؤمنون كذلك ليسوا في منزلة واحدة.

وإذا وصلنا إلى أعلى هذه المراتب، وجدنا خاتم الأنبياء محمدًا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ وأهل بيته الطاهرين عَلَيْهِمُ السَّلَامُ في أرفع مراتب الإيمان والقرب من الله تعالى؛ ولذلك كانت لحرمتهم خصوصية وعظمة، وقد صرحت النصوص بهذه الحرمة وعظيم شأنها، ومن ذلك الآتي:

◇ رُوي عن الإمام موسى بن جعفر، عن أبيه عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، في قول الله عز وجل:﴿ وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ ﴾(٧٨)، قال: «هي ثلاث حرمات واجبة، فمن قطع منهَا حرمة فقد أشرك بالله: الأولى انتهاك حرمة الله في بيته الحرام، والثانية تعطيل الكتاب والعمل بغيره، والثالثة قطيعة ما أوجب الله من فرض مودتنا وطاعتنا»(٧٩).

◇ ورُوي عن الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ: «إنَّ لله عزَّ وجلَّ حُرُماتٍ ثلاثًا ليس مثلهنَّ شيء: كتابه وهو حكمته ونوره، وبيته الذي جعله قبلةً للناس لا يقبل من أحد توجّهًا إلى غيره، وعترة نبيكم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ»(٨٠).

◇ ورُوي عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «إنَّ لله حرماتٍ ثلاثًا، من حفظهن حفظ الله له أمر دينه ودنياه، ومن لم يحفظهن لم يحفظ الله له شيئًا: حرمة الإسلام، وحرمتي، وحرمة عترتي»[٨١].

ومن مجموع هذه النصوص يتبين أن حرمة محمد وآل محمد عَلَيْهِمُ السَّلَامُ من أعظم حرمات الله تعالى التي يجب حفظها وتعظيمها؛ فقد نصّت الروايات على حرمة رسول الله وعترته، وجعلتها في عداد حرمات الله العظيمة. وإذا كانت النصوص قد كشفت عن عِظَم حرمة المؤمن، حتى جعلتها أعظم من حرمة الكعبة، فكيف بمن بلغ أرفع مراتب الإيمان والقرب من الله تعالى؟

ويؤكد عظيم مقام العترة ما ورد في حديث الثقلين، إذ قرن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ عترته بكتاب الله، فقال: «إنّي تاركٌ فيكم الثقلين: كتاب الله عز وجل، وعترتي أهل بيتي، ألا وهما الخليفتان من بعدي، ولن يفترقا حتى يردا عليَّ الحوض»[٨٢]. وهذا الاقتران يكشف عن عظيم منزلتهم في الدين، ومكانتهم في هداية الأمة، ووجوب التمسك بهم مع كتاب الله تعالى.

وبعد أن تبيّن لنا عِظَم حرمة محمد وآل محمد عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، نسلّط الضوء على الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ بوصفه من أعظم مصاديق هذه الحرمة؛ لنعرف:

لماذا كانت حرمته بهذه العظمة؟ وكيف انتُهكت هذه الحرمة يوم عاشوراء؟

فالإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ ليس فردًا عاديًا من الناس، بل إمام من أئمة الهدى، وحجة من حجج الله تعالى، وسيد شباب أهل الجنة، وسبط رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ.

وإذا كان الله تعالى قد وصف إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ بقوله: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾[٨٣]، بما يكشف عن أن إنسانًا واحدًا قد يبلغ من عظيم مقامه وأثره في

الهداية أن يقوم مقام أمة، فإن خاتم الأنبياء محمدًا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ قد بعثه الله برسالة تجاوزت حدود أمة بعينها، فقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾[٨٤].

ومن هنا تتجلى عظمة قول رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ في سبطه الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ: «حسين مني وأنا من حسين»[٨٥]؛ فالحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ ليس منفصلًا عن ذلك الامتداد المحمدي، بل ارتبط بجده ارتباطًا عظيمًا في الهداية وحفظ الرسالة، حتى قال فيه رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «وأنا من حسين». ومن ثم لا يمكن أن ننظر إلى الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ يوم عاشوراء بوصفه فردًا واحدًا فحسب؛ بل بوصفه إمامًا حمل هدي جده وقيم رسالته، وكان لنهضته أثرٌ في حفظها وامتدادها في الأمة.

وقد صرّحت نصوص الزيارة بحرمة الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ نفسه؛ فقد ورد في زيارته: «أشهد أن الذين سفكوا دمك واستحلوا حرمتك ملعونون معذَّبون...»[٨٦]. فالنص لم يذكر سفك دمه الشريف فحسب، بل قرنه باستحلال حرمته، وهو تصريح واضح بما تعرّضت له حرمة الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ من انتهاك.

ولم يقف الأمر عند انتهاك حرمته عَلَيْهِ السَّلَامُ، بل تكشف نصوص الزيارة عن بُعدٍ أعظم، إذ ورد: «لَعَنَ اللهُ أُمَّةً اسْتَحَلَّتْ مِنْكَ الْمَحَارِمَ، وَانْتَهَكَتْ فِيكَ حُرْمَةَ الإِسْلام»[٨٧]. فتأملوا في التعبير: لم يقتصر الأمر على انتهاك حرمة الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ، بلَ انتهكت فيه حرمة الإسلام؛ فالحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ إمام من أئمة أهل البيت الذين جعلهم رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ مع القرآن طريقين لهداية الأمة. فلم يكن يحمل اسم الإسلام فحسب، بل كان إمامًا يهدي إليه ويحفظ قيمه وأحكامه؛ ولذلك كان هتك حرمته هتكًا لحرمة عظيمة من حرمات الله تعالى.

وهكذا اجتمعت في الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ حرمات عظيمة: حرمة المؤمن، وحرمة الإمام، وحرمة حجة الله، وحرمة آل رسول الله، وحرمة سبط رسول الله، وحرمة سيد شباب أهل الجنة، وحرمة من قال فيه رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «حسين مني وأنا من حسين». فإذا كانت حرمة واحدة من هذه الحرمات تستوجب التعظيم، فكيف بمن اجتمعت فيه هذه الحرمات كلها؟

ولكن هل حفظ القوم يوم عاشوراء هذه الحرمة العظيمة؟ كلا؛ بل هتكوها حين حاصروا الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ، ومنعوا عنه وعن عياله الماء، ثم قاتلوه وأراقوا دمه الشريف ومثّلوا بجسده، ولم يقف انتهاك الحرمة عند شهادته؛ بل سلبوه، وهجموا على خيامه، وروّعوا أطفاله، وسبوا نساءه.

المبحث الثالث: كيف نعظّم حرمة الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ

بعد أن عرفنا عِظَم حرمة الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ، يبقى السؤال:

كيف نعظّم نحن هذه الحرمة في حياتنا؟

ولتقريب المعنى: لو أن شخصًا أحبَّ معلّمًا وعظّمه، وكان هذا المعلّم يدعو إلى الصدق والأمانة، ثم كان هذا الشخص يكذب ويخون، فهل يكفي أن يقول: أنا أحب معلّمي وأعظّمه؟ إن التعظيم الحقيقي يظهر في احترام ما يدعو إليه من نحب، والسير على نهجه.

وكذلك الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ فتعظيم حرمته لا يكون في جانب واحد، بل ينبغي أن يظهر في مختلف جوانب حياتنا، كلٌّ بحسبه.

وقد سبق الحديث عن بعض صور التعظيم في المحاضرة الأولى، وهنا نتعرّف إلى أبرز المجالات التي يمكننا من خلالها تعظيم حرمة الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ، ومن أبرزها الآتي:

أولًا: التعظيم العبادي والروحي

من تعظيم حرمة الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ أن نعظّم الهدف الذي عاش وضحّى من أجله؛ فقد كان هدفه أن يقود الناس إلى الله تعالى، ويعيدهم إلى طاعته وعبادته، وقد أعلن ذلك في بيان هدف نهضته بقوله: «إنما خرجت لطلب الإصلاح في أمة جدي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، أريد أن آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر، وأسير بسيرة جدي وأبي علي بن أبي طالب عَلَيْهِ السَّلَامُ»(٨٨).

فكان يدعو إلى ما أمر الله به، وينهى عما نهى الله عنه، ولم يكتفِ بالدعوة إلى ذلك، بل كان هو القدوة المثلى في طاعة الله والعبادة والالتزام بأحكامه حتى في أشد الظروف.

ومن أوضح الأمثلة على ذلك الصلاة يوم عاشوراء؛ ففي ذلك اليوم العصيب، والإمام عَلَيْهِ السَّلَامُ محاصر وقد أحاط به الأعداء، لم تمنعه شدة المصيبة وخطر القتال من المحافظة على الصلاة، بل أقامها في وقتها بين أصحابه. وهذا يكشف لنا مكانة الصلاة في نهجه، وأن طاعة الله لا تسقط من حياة المؤمن حين تشتد عليه الظروف.

فإذا كان الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ قد حافظ على الصلاة في قلب عاشوراء، فكيف يليق بمن يحبه ويبكي عليه أن يتهاون بها في أيام الأمن والراحة؟ ومن هنا يكون من تعظيم حرمته أن نحافظ على صلاتنا، ونؤديها باهتمام وخشوع، وأن نجعل حب الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ سببًا يقربنا إلى الله لا مجرد عاطفة تنتهي بانتهاء المجلس أو بانتهاء الزيارة.

ولا يقتصر الأمر على الصلاة؛ بل يشمل كل ما أمر الله به ونهى عنه. فنعظّم الحسين حين نؤدي الواجبات، ونترك المحرمات، ونتوب إذا أخطأنا، ونقرأ القرآن، ونذكر الله، وندعوه، ونسعى إلى تقوية علاقتنا به تعالى.

فالقاعدة بسيطة:

من تعظيم الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ أن نعظّم ما عظّمه، وأن نسير إلى الله في الطريق الذي دعا إليه وضحّى من أجله.

ثانيًا: التعظيم السلوكي والأخلاقي

ومن تعظيم حرمة الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ أن يظهر أثره في أخلاقنا؛ لأن المحبة التي لا تغيّر شيئًا من سلوك الإنسان تبقى ناقصة الأثر.

فمن غير المنسجم أن نبكي على الحسين لأنه ظُلم، ثم نظلم الآخرين؛ أو نتألم لما أصاب عياله، ثم نقسو على أهل بيوتنا؛ أو نرفع راية الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ بأيدينا، ثم نرفع بأفعالنا راية هتك حرمات الناس وفضح أسرارهم والافتراء عليهم وإشاعة الفاحشة بينهم؟ إن راية الحسين لا ينبغي أن تُرفع فوق رؤوسنا فحسب، بل في أخلاقنا وسلوكنا أيضًا.

فالأب الذي يعود من المجلس الحسيني فيكون أرحم بأبنائه، والزوجان اللذان يتعامل أحدهما مع الآخر باحترام، والتاجر الذي يرفض الغش، والموظف الذي يؤدي عمله بأمانة، والإنسان الذي يردّ الدَّين والحقوق إلى أصحابها؛ كل هؤلاء يجعلون للحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ أثرًا في سلوكهم.

ومن أجمل ما يمكن أن نسأل به أنفسنا بعد المجلس الحسيني:

هل خرجتُ من مجلس الحسين كما دخلتُ إليه، أم غيّر الحسين فيَّ شيئًا؟

ثالثًا: التعظيم الشعائري والمظهري

ومن أبرز صور تعظيم الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ إحياء ذكره ومصيبته؛ بإقامة المجالس، والبكاء عليه، وزيارته، وإقامة الشعائر الحسينية المشروعة، وخدمة زواره، وغير ذلك من صور الإحياء.

وقد سبق الحديث عن فضل إحياء المجالس الحسينية وأدلته وآثاره في المحاضرة الأولى، ويمكن الرجوع إليها في التفصيل، فلا حاجة إلى إعادة ما سبق.

لكن الذي يعنينا هنا هو تعظيم حرمة الشعيرة نفسها؛ فالمجلس الذي يحمل اسم الحسين ليس اجتماعًا عاديًا، والمنبر الذي يُذكر عليه الحسين ليس منبرًا عاديًا، والموكب الذي يحمل اسمه ليس تجمعًا عاديًا؛ ولذلك ينبغي أن يكون ما يُنسب إليه لائقًا بحرمته.

ففي المجلس مثلًا نحفظ الوقار، وننصت، ولا نحوّله إلى مكان للأحاديث الجانبية والضحك والانشغال بالهاتف. وفي المواكب نراعي النظام والنظافة وحقوق الناس، ولا نؤذي الآخرين أو نعتدي على ممتلكاتهم بحجة إقامة الشعيرة.

فليس المطلوب فقط أن نُكثر ما يُقام باسم الحسين، وإنما أن يكون ما يُقام باسمه جديرًا باسمه.

رابعًا: التعظيم الفكري والواعي

من تعظيم الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ أن نعرفه بوعي، ونفهم نهضته وأهدافها؛ فلا نكتفي بمعرفة ما جرى في عاشوراء، بل نعرف لماذا نهض الحسين، وماذا أراد أن يحقق بنهضته من إصلاحٍ، وأمرٍ بالمعروف ونهيٍ عن المنكر، وصيانةٍ للدين ومواجهةٍ للانحراف.

وتزداد أهمية هذا التعظيم في زماننا؛ لأن جيل اليوم يريد أن يفهم ويقتنع، ولا يكتفي بأن يمارس ما ورثه عن آبائه من دون أن يعرف دليله وحكمته. وقد تُثار أمامه شبهات؛ فيقال له مثلًا: لماذا تبكون على الحسين وهو سيد شباب أهل الجنة؟ ولماذا تلطمون عليه؟ ولماذا تحيون واقعة مضى عليها أكثر من ألف عام؟ فإذا لم يجد جوابًا واضحًا ومقنعًا، فقد يتأثر بهذه الشبهات.

ومن هنا تأتي أهمية المحاضرة الحسينية بوصفها من أبرز وسائل بناء الوعي؛ فلا ينبغي أن تقتصر على إثارة العاطفة، بل تعرّف الناس بالحسين وأهدافه، وتجيب عن أسئلتهم وشبهاتهم بالدليل، وهذا يقتضي حسن اختيار الخطيب الذي يجمع بين صحة المعلومة، وقوة الدليل، ووضوح الفكرة، والأسلوب المؤثر والمقنع.

ومن التعظيم الفكري أيضًا صيانة القضية الحسينية من التحريف؛ فلا ننسب إلى الإمام عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ قولًا أو قصة لم تثبت لمجرد أنها مؤثرة.

خامسًا: التعظيم الاجتماعي والخدمي

ومن الصور الراقية لتعظيم الإمام الحسين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أن تتحول محبته إلى رحمة بالناس وخدمة لهم.

والخدمة الحسينية لا تنحصر في توزيع الماء والطعام ـ مع عظيم قيمة هذه الخدمة ـ بل يمكن أن تمتد إلى كل حاجة مشروعة نستطيع أن نقضيها لإنسان.

فقد تكون خدمة الحسين في إطعام زائر، وقد تكون في كفالة يتيم، أو إعانة أسرة متعففة، أو زيارة مريض، أو مساعدة محتاج، أو قضاء حاجة كبير في السن، أو تعليم جاهل، أو إصلاح ذات البين.

ومن التعظيم الاجتماعي أيضًا حسن التعامل بين خَدَمة الإمام الحسين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ومحبيه.

فما أقسى أن يجتمع اثنان على خدمة الحسين ثم يهتك أحدهما حرمة الآخر بسبب خلاف على موكب أو مجلس أو طريقة خدمة!

فإذا كان الحسين قد جمعنا على محبته، فلا ينبغي أن تتحول خدمته إلى سبب لتمزيقنا.

سادسًا: التعظيم التربوي والأسري

إذا أردنا أن تبقى حرمة الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ محفوظة بعدنا، فلا بد أن ننقلها إلى أبنائنا بوعي، لا بمجرد العادة.

فليس كافيًا أن نأخذ الطفل أو الناشئ إلى المجلس ونقول له: اجلس وابكِ؛ بل ينبغي أن نجيب عن أسئلته:

لماذا نحب الحسين؟ لماذا نحزن عليه؟ لماذا نزوره؟ لماذا يوزّع الناس الماء باسمه؟ ماذا أراد الحسين منا؟

ويمكن للأب والأم أن يختارا في كل مرة قيمة حسينية واحدة ويقدماها بصورة بسيطة. فحين نتحدث عن أبي الفضل العباس عَلَيْهِ السَّلَامُ نتحدث عن الوفاء، وحين نتحدث عن الحر نتحدث عن شجاعة الرجوع عن الخطأ، وحين نتحدث عن أصحاب الحسين نتحدث عن الثبات والوفاء، وحين نتحدث عن الإمام الحسين نتحدث عن العزة والطاعة والرحمة والوقوف مع الحق.

والأهم من الكلام القدوة داخل البيت؛ فالناشئ الذي يرى والديه يبكيان على الحسين ثم يرى الصدق والرحمة والصلاة وحفظ الحقوق في حياتهما، يفهم أن الحسين ليس قصة يسمعها، بل منهج يراه.

وهكذا نربي جيلًا يعرف الحسين، ويحبه، ويفهمه، ويقتدي به.

سابعًا: التعظيم الإعلامي والرقمي

وفي عصر وسائل التواصل أصبحت هناك ساحة جديدة لتعظيم حرمة الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ، وهي العالم الرقمي.

فربما كانت صورة واحدة أو مقطع قصير أو منشور هو أول شيء يراه إنسان غير مسلم عن الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ وهنا تصبح طريقة عرضنا لقضيته مسؤولية.

ومن التعظيم الرقمي ألا ننشر الروايات والقصص قبل التحقق منها، وألا نستخدم اسم الإمام في المهاترات والسبّ والإساءة، وألا ننشر مقطعًا يسيء إلى صورة الشعائر لمجرد أنه يحقق مشاهدات كثيرة.

وفي المقابل، نستطيع أن نجعل وسائل الإعلام، ولا سيما مواقع التواصل الاجتماعي، بابًا عظيمًا لخدمة الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ بنشر كلمة موثقة، أو مقطع معرفي قصير، أو تصميم راقٍ، أو ترجمة مادة حسينية إلى لغة أخرى، أو تقديم قيم عاشوراء بطريقة يفهمها من لا يعرف شيئًا عن كربلاء.

ويمكن أن يكون هذا الحضور الإعلامي أكثر أثرًا في أيام محرّم، بأن نراعي في كل يوم المناسبةَ الحسينية المرتبطة به، ونقدّم للناس ما يناسبها من أحداثٍ وقيمٍ ومواقف؛ كتابةً، أو تسجيلًا صوتيًا أو مرئيًا، أو تصميمًا، أو مقطعًا قصيرًا.

ففي اليوم الأول من محرّم يمكن التمهيد لإحياء الشعائر الحسينية، وبيان فضل إحياء أمر الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ وأهميته.

وفي اليوم الثاني مثلًا، يمكن أن نعود بالناس إلى بداية الرحلة، إلى خروج الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ من مدينة جدّه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، وما رافق ذلك الخروج من ألم الوداع والفراق، ومنه وداع ابنته فاطمة العليلة، وذلك بالرجوع إلى ما ورد في كتب السيرة الحسينية واختيار النصوص المناسبة، ومن ذلك ما يأتي:

يُروى في بعض كتب المجالس لما أراد الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ أن يتوجه بعياله إلى مكة، تاركا مدينة جده رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ وقد حمل عياله على النياق صاح أين أخي؟ أين كبش كتيبتي؟ أين قمر بني هاشم؟ قال العباس: لبيك لبيك يا سيدي. وقال له الإمام:

أخي أبا الفضل قدِّم لي جوادي فقدمه، ولزم ركاب الفرس حتى ركب

الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ، وركب بنو هاشم جميعا ثم ركب العباس وبيده الراية فصاح أهل المدينة صيحة واحدة، وعلت أصوات بني هاشم بالبكاء والنحيب وصاحوا: الوداع الوداع، الفراق الفراق. فقال العباس:

هذا والله الفراق والملتقى يوم القيامة. ثم صاروا قاصدين إلى كربلا مع العيال وجميع الأولاد إلا فاطمة العليلة فإنها كانت مريضة قد أودعها الحسين عند زوجة النبي أم سلمة وكانت حاضرة حين الوداع فلما نظرت إلى أهلها وقد ساروا عنها أخذت تزحف نحو ظعن أهلها وهي تنادي: أبه كيف تتركوني لوحدي؟ أبه خذوني معكم[٨٩].

(نصاري)

يابويه احسين ويّاكم اخذوني عگبكم يا هلي يعمن اعيوني

وحدي ابها الوطن لا تخلّوني عليله والجسم ينلضم بالسَم

ناداها الحسين ودمعته اتسيل يبعد اهلي سفرنه دربه اطويل

يبويه انتي عليله او جسمچ انحيل وعلى المثلچ يبويه السفر يحرم

رجع الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ إليها ضمها إلى صدره، جعل يقبلها وهي تبكي وتقول له: أبتاه يا حسين أمن العدل أن ترحلوا عني وتتركوني وحيدة فريدة لا مؤنس لوحشتي ولا مسكّن لروعتي.

فجعل أبوها عَلَيْهِ السَّلَامُ يلاطفها ويسليها وهي لا ترقأ لها عبرة ثم قال لها بنية إذا نزلنا أرض العراق واطمأنت بنا الدار، أرسلت إليك عمك العباس أو أخاك علي الأكبر، يأتون بك والآن أنت مريضة فقالت: إذا كان لابد من ذلك فاتركوني عند أخي عبد الله لأتسلَّى به بعد فراقكم ساعة بعد ساعة فقال لها

بُنيّة، إنه طفل صغير لا يقدر على فراق أمه، فنادت وا وحدتاه كيف أجلس في منازلكم وأراها خالية منكم؟ وبعد ما ودعت عماتها وأخواتها أرجعها الحسين إلى أم سلمة وأودعها عندها.

وهكذا افترقا وكلٌّ منهما دموعه تترقرق في عينيه.

(مجردات)

جد الضعن واگطع البيده — او شوفة هلي صارت بعيده
والگلب ملگاهم يريده — والحادي ما ريّض ابهيده
لوداعنه النوبه نعيده — راح او گطع گلبي او وريده

(أبوذية)

اشلون الدهر عن عيني بعدهم — عليله او ما يفل نوحي بعدهم
أريد أنشد هلي شالوا بعدهم — لو خلصوا چتل بالغاضريه

يبويه اعله الدرب عيني تربَّه — واريدك هم البگلبي تربّه
بتكم وبحضانتكم تربّه — وبگيت امحيره وانگطع بيه

ليلة ٣ محرم

أعظم الله لكم الأجر

النزول في كربلاء

السلام على الحسين وعلى علي بن الحسين وعلى أولاد الحسين وعلى أصحاب الحسين

الليلة الثالثة من محرّم الحرام

المناسبة: النزول في كربلاء

القصيدة: للشيخ هاشم بن مروان الكعبي

إن تكن كربلا فحيوا رباها ... واطمئنوا بها نشمُّ ثراها
والثموا جوَّها الأنيق على ما ... كان في القلب من حريق جواها
واغمروها بأحمر الدمع سقيا ... فكرام الورى سقتها دماها
وبنفسي مودِّعون وفي العين ... بكاها وفي القلوب دماها
ركبُهم والقضا بأضعانهم يسري ... وهادي الردى أمام سُراها
والمسامي من خلفهم نادباتٍ ... والمعالي مشغولةً بشجاها
وكأني بها عشية ألقى ... سبط خير الورى الركاب لداها
يسأل القوم وهو أعلم حبتي ... بعد لأيٍ أن صرحوا بسماها
إنها كربلا فقال استقلوا ... فعلينا قد كرَّ حتم بلاها
وبها تُهتك الكرائم منها ... ورؤوس الكرام تعلو قناها
فأجاب الجميع عن صدق نفسٍ ... أجمعت أمرها وحازت هداها
لا نخليك أو نخلي الأعادي ... تتخلى رؤوسها عن طلاها
أو تنال السيوف منا غداها ... أو تُروي السيوف منا ظماها[٩٠]

(فائزي)

سبط الرسول ابكربله اتحير نجيه

او نادى شسم هلگاع يليوث الحريبه

گالوا يبو السجاد اسمها الغاضريات

ولها اسم عند الخلايق شط الفرات

مع نينوى والعگر يا سيد السادات

گلهم وگلبه امن الوجد يسعر لهيبه

بالله شسمها غير هاذي يا صناديد

گالوا اطفوف او كربله يا ابن الاماجيد

گلهم دنزلوا غير هذي الأرض ما ريد

او گولوا لزينب تستعد الهلمصيبه

حطوا ظعنه ابهل فضا او نصبوا خيمنه

وبهاي يسباع الحرب نزلوا حرمنه

معلوم عندي ابهل أرض ينسفك دمنه

موعود بيها وعدي امن الله او حبيبه

انچان هاذي كربله بشروا ابلايه

ونزلوا تره لاحت علامات المنايه

موضوع المحاضرة الثالثة:

هل من ناصرٍ ينصرنا؟

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾[٩١].

حين نستقرئ النصوص القرآنية نجد أن الله تعالى خلق الإنسان للابتلاء والامتحان، ومن أهم ما يُمتحن به: لمن تكون نصرته؟ هل ينصر الله بنصرة دين الحق ويثبت عليه، أم ينصر هواه وشهواته ومصالحه ونفسه الأمّارة بالسوء وشياطين الجن والإنس؟

ومواقف الحياة هي التي تكشف حقيقة هذه النصرة؛ فكم من إنسان يدّعي أنه مع الحق، فإذا تعارض الحق مع مصلحته نصر دنياه وتركه، ولهذا قال الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ: «الناس عبيد الدنيا، والدين لعقٌ على ألسنتهم، يحوطونه ما درّت معايشهم، فإذا مُحِّصوا بالبلاء قلَّ الديّانون»[٩٢].

وفي المقابل، هناك من نصر الله تعالى حتى بذل في سبيل الحق راحته وماله ونفسه، كأئمة أهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ؛ فأمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ ثبت على نصرة الله حتى آخر لحظة من حياته، ولما ضُرب قال: «فزتُ وربِّ الكعبة». وكذلك الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ، نصر الله ودينه، وبذل نفسه وأهل بيته وأصحابه في سبيل الحق، فكان من أوضح مصاديق من شملهم وعد الله تعالى بقوله: ﴿ إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾[٩٣].

ولكن هنا يبرز سؤال مهم: إذا كان الله قد وعد من ينصره بالنصر، فلماذا نرى أحيانًا من ينصر الحق يُؤذى، أو تُسلب حقوقه، أو يُسجن، أو يُقتل؟ ويصبح السؤال أشدّ وضوحًا في كربلاء: إذا كان الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ من أعظم من نصر الله ودينه، فلماذا قُتل ولم تتحقق له الغلبة العسكرية يوم عاشوراء؟ فأين كان نصر الله له؟ وهل انتصر الإمام الحسين فعلًا؟ وما معنى ندائه: «هل من ناصرٍ ينصرنا؟» وهل نحن اليوم من أنصاره؟ وكيف ننصره عمليًا؟

هذه الأسئلة وغيرها سنجيب عنها في مباحث هذه المحاضرة.

المبحث الأول: النصر بين ميزان الأرض وميزان السماء

المطلب الأول: معاني النصرة في الآية

تحمل هذه الآية الكريمة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾[٩٤] ثلاثة معانٍ أساسية ينبغي أن نقف عندها:

﴿تَنْصُرُوا اللَّهَ﴾، ثم ﴿يَنْصُرْكُمْ﴾، ثم ﴿وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾.

قد يسأل شخص: الله سبحانه خالق السماوات والأرض، وهو القوي القادر، فكيف يقول لنا: ﴿إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ﴾؟ هل الله يحتاج إلى من ينصره؟

بالتأكيد لا. فالقرآن نفسه يقول: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾[٩٥] فنحن المحتاجون إلى الله، وليس الله محتاجًا إلينا.

إذن ما معنى «نصرة الله»؟

المقصود: أن ننصر دين الله، وحق الله، ورسول الله، وشريعة الله، والطريق الذي أمر الله به. وهذا ما ذكره المفسرون منهم الشيخ ناصر مكارم الشيرازي في تفسيره الأمثل: «وعبارة ﴿تَنْصُرُوا اللَّهَ﴾ تعني - بوضوح - نصرة دينه، ونصرة

نبيّه، وشريعته وتعليماته»[٩٦].

إذن المسألة واضحة: الله لا يحتاج إلى نصرتنا، لكن الله شرّفنا بأن جعل الدفاع عن دينه وحقه نصرةً له.

ولنقرّب المعنى: لو اعتدى شخص على طفل ضعيف، فقمتَ وحميته، فأنت لم تجعل الحق حقًّا بنصرتك له، وإنما اخترت أن تقف في صف الحق وتدافع عنه. وهكذا تكون نصرة الله: أن يختار الإنسان الوقوف في صف دين الله وحقه.

- فحين تختار الصدق بدل الكذب لأن الله أمر بالصدق، فأنت تنصر أمر الله.
- وحين تدافع عن مظلوم ضمن قدرتك وتكليفك، فأنت تنصر عدل الله.
- وحين ترفض أن تبيع دينك من أجل مصلحة، فأنت تنصر دين الله.
- وحين تقف أمام الباطل بالحكمة والطريقة المشروعة، فأنت تدخل في خط نصرة الحق.

إذن لا ينبغي أن نحصر نصرة الله في الجهاد والقتال، وإن كانا من أبرز مصاديقها؛ بل نصرة الله أعمّ من ذلك، فتشمل نصرة دينه وحقه وشريعته في كل موقف.

ومن هنا نستطيع أن نضع قاعدة أولى:

(إنَّ كلَّ موقفٍ يلتزم فيه الإنسان بالحق امتثالًا لأمر الله، ويرفض الباطل ابتغاء مرضاته، وفي حدود تكليفه الشرعي، هو صورةٌ من صور نصرة دين الله).

ونعود إلى قوله تعالى: ﴿إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ﴾[٩٧]، فنجد أن الآية جاءت بأسلوب الشرط؛ فقوله تعالى: ﴿إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ﴾ هو الشرط، وقوله:

﴿يَنْصُرْكُمْ﴾ هو جواب الشرط، أي إن الله تعالى ربط نصره لعباده بنصرتهم لدينه وحقه.

وقد عرفنا معنى نصرتنا لله، فماذا تعني ﴿يَنْصُرْكُمْ﴾؟

وقبل أن نبحث عن معنى هذا النصر، ينبغي أن نلتفت إلى أن الذي وعد به هو الله سبحانه وتعالى، ووعد الله ليس كوعد البشر؛ فقد يَعِد الإنسان ثم يعجز عن الوفاء، أو تتغير ظروفه، أو يخلف وعده، أما الله تعالى فهو القائل: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾[٩٨]، وهو القادر الذي لا يعجزه شيء.

فإذا تحققت نصرة العبد لله على الوجه الذي يريده الله، فإن وعده بالنصر حق لا شك فيه. لكن ما صورة هذا النصر؟ وهل يعني بالضرورة أن يغلب الإنسان عدوّه، ويسلم من السجن والأذى والقتل؟

قد يتبادر إلى الذهن أن النصر هو أن نغلب خصمنا ونخرج سالمين وينهزم الطرف الآخر، وهذه فعلًا إحدى صوره، لكنها ليست الصورة الوحيدة.

فالعلامة الطباطبائي يفسر نصر الله للمؤمنين بأنه تهيئة الأسباب التي تؤدي إلى ظهورهم وغلبتهم، ويذكر من صور ذلك: تقوية قلوب المؤمنين وتشجيعهم، وإلقاء الرعب في قلوب أعدائهم. ثم يجعل تثبيت الأقدام من أبرز أفراد النصر نفسه.[٩٩]

ويقول الشيخ ناصر مكارم الشيرازي في كتابه الأمثل معقبًا على قوله تعالى: ﴿يَنْصُرْكُمْ﴾: إن طرق النصر كثيرة؛ ويذكر منها: نور الإيمان، والتقوى، وقوة الإرادة، والهدوء والاطمئنان، ومدد الملائكة، وتغيير بعض الحوادث لمصلحة المؤمنين، ونفوذ كلماتهم، وإثمار جهودهم. ثم يصرح بأن نصرة الله تشمل الإنسان من الداخل والخارج.[١٠٠]

ومن هنا يتضح أن نصر الله لا يبدأ دائمًا بهزيمة العدو في الخارج، بل قد يبدأ أولًا من داخل الإنسان نفسه؛ فيمنحه الله قوةً وثباتًا وطمأنينة، فلا تهزمه

المخاوف، ولا تدفعه المصالح إلى التنازل، ولا يستطيع الباطل أن ينتزع منه إيمانه أو موقفه. ولهذا عقب سبحانه قوله: ﴿ يَنْصُرْكُمْ ﴾ بقوله:

﴿ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾.

والمقصود بتثبيت الأقدام ليس مجرد ثبات القدم في ساحة القتال، بل هو أعمق من ذلك؛ فهو ثبات الإنسان على الحق عندما تشتد الضغوط وتتغير الظروف من حوله. فالإنسان قد يعلن وقوفه مع الحق ما دام ذلك لا يكلفه شيئًا، ولكن صدق الثبات يظهر عندما يصبح للحق ثمن، وتصبح المصلحة في جهة، والتكليف الإلهي في جهة أخرى.

ولتقريب المعنى، فإن الإنسان الواقف في مكان هادئ لا نعرف مقدار ثباته، ولكن إذا هبت عليه عاصفة شديدة ظهر هل يبقى واقفًا أم تسقطه الريح. وكذلك الإنسان. فمن السهل جدًا أن يقول: أنا مع الحق، ما دام الحق لا يكلفه شيئًا. ومن السهل أن يقول: أنا صادق، ما دام الصدق لا يضر مصلحته. ومن السهل أن يقول: أنا أدافع عن المظلوم، ما دام الظالم لا يستطيع إيذاءه.

لكن الثبات الحقيقي يظهر حين يتعرض للخوف أو الإغراء أو الضغط، ثم يبقى متمسكًا بالحق.

وهذا الثبات لا ينبغي أن ينسبه الإنسان إلى نفسه وحدها؛ فما يتحقق له من توفيق وقوة هو من فضل الله تعالى، قال سبحانه:

﴿ مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ﴾[١٠١]، فالله يهيئ لعبده أسباب الثبات ويمنحه القوة والطمأنينة.

ومن هنا نفهم قوله تعالى: ﴿ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾؛ فقد تكون من صور نصر الله لعبده أن يثبته حين يخاف، ويقويه حين يضعف، ويحفظه من التنازل عن الحق عندما تتعارض معه مصلحة دنيوية.

المطلب الثاني: النصر لا يعني السلامة من الابتلاء

بعد أن عرفنا معنى قوله تعالى: ﴿إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾[١٠٢]، قد يبقى في الذهن سؤال مهم: إذا وعد الله من ينصره بالنصر، فهل يعني ذلك أن من يقف مع الحق لا يصيبه أذى، ولا يُسجن، ولا يُعذَّب، ولا يُقتل؟

الجواب: إن الآية وعدت بالنصر، لكنها لم تَعِد بأن يكون طريق الحق خاليًا من الابتلاء والألم؛ فالنصر والسلامة من كل أذى ليسا شيئًا واحدًا.

ولتقريب المعنى، لو دخل رجل بيتًا يحترق لينقذ طفلًا، فاستطاع إخراجه سالمًا، لكنه أصيب أثناء ذلك بحروق، فهل نقول إنه فشل لأنه تأذى؟ بالتأكيد لا؛ فقد تحقق الهدف الذي دخل من أجله، وإن أصابه الألم في الطريق. وهكذا فإن وقوع الأذى على صاحب الحق لا يعني بالضرورة أنه هُزم.

وقد يتعرض الإنسان بسبب موقفه للتهديد أو السجن أو القتل، ومع ذلك لا يكون مجرد ما أصابه دليلًا على انتصار الباطل عليه؛ بل ينبغي أن نسأل: هل استطاع الباطل أن يصرفه عن الحق؟ وهل حقق عدوه هدفه؟ وهل انتهت القضية التي دافع عنها بمجرد موته؟

ومن خلال الإجابة عن هذه الأسئلة يظهر لنا معنى النصر والهزيمة بصورة أدق.

والقرآن نفسه يفتح لنا هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ﴾[١٠٣] وقد ذكر الشيخ الطبرسي في كتابه «مجمع البيان» ما مضمونه: (أن المراد بإحدى الحسنيين: إما الغلبة في الدنيا، وإما الشهادة وما يترتب عليها من الثواب في الآخرة).[١٠٤] وهذا يعني أن المؤمن قد يدخل ميدان الدفاع عن الحق ولا يعود منه حيًّا، ومع ذلك لا يكون خاسرًا في ميزان الله.

ولكن ينبغي أن نكون دقيقين؛ فالشهادة لا تعني بالضرورة الانتصار العسكري، فقد يُقتل صاحب المبدأ ويبقى مبدؤه، وقد تتحول تضحيته نفسها إلى سبب في كشف ظلم عدوه وإفشال مشروعه.

ولنا في سيرة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ شاهدٌ واضح؛ فقد قاد معارك عديدة تحققت للمسلمين فيها الغلبة، أمّا في أُحد فقد أصابهم القتل والجراح ولم تتحقق لهم الغلبة العسكرية، ومع ذلك لم يصفهم الله بالخاسرين أو المغلوبين، بل خاطبهم بأنهم الأعلون؛ بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾[١٠٥].

فهذه نزلت الآية نزلت تسليةً للمؤمنين عمّا أصابهم يوم أُحد من القتل والجراح؛ أي: لا تضعفوا بسبب ما أصابكم، ولا تحزنوا على مَن قُتل منكم، وفسّر ﴿وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ﴾ بقوله: «أي الظافرون المنصورون الغالبون عليهم في العاقبة»[١٠٦].

هذا هو الميزان الإلهي الذي ينبغي أن نرسّخه في عقولنا، ونصدّقه بقلوبنا، ونترجمه في سلوكنا؛ فعدم الغلبة العسكرية في جولةٍ ما لا يعني الهزيمة في ميزان الله. وهكذا كان الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ فقد استُشهد هو وأهل بيته وأصحابه، ومع ذلك كان هو الأعلى والظافر؛ لأنه ثبت على الحق وحقق هدف نهضته. ولذلك قال وهو يعلم أنه ماضٍ إلى الشهادة: «مَن لحق بي استُشهد، ومَن لم يلحق بي لم يُدرك الفتح»[١٠٧]؛ فسمّى ما انتهى ظاهره إلى الشهادة فتحًا.

ومن هنا يمكن أن نضع قاعدة مهمة: (ليس كل مقتولٍ مهزومًا، وليس كل غالبٍ بالسيف منتصرًا).

فالمنتصر في ميزان الإسلام لا يُقاس بمن بقي حيًّا أو امتلك القوة وفرض سيطرته؛ بل بموقفه من الحق والعاقبة التي انتهت إليها قضيته. فقد يملك الظالم قوةً وغلبةً مؤقتة، لكنه يعجز عن حمل صاحب الحق على التنازل عن مبدئه، وقد يقتله ولا يستطيع قتل قضيته. وعلى العكس، قد يخرج شخص

سالمًا وقد خسر حين باع الحق أو تخلى عن تكليفه.

ولهذا فالمنتصر الحقيقي هو من يجعل ميزانه رضا الله، ويلتزم بالحق في حدود تكليفه الشرعي، ولا يجعل المال أو الخوف أو رضا الناس سببًا لتغيير موقفه؛ فالعبرة ألّا تكون سلامته الدنيوية على حساب دينه وواجبه.

النصر لا يلغي الأخذ بالأسباب

وهنا ينبغي التنبيه إلى أمر آخر: إن وعد الله بالنصر لا يعني إلغاء الأسباب والقوانين التي جعلها الله في هذا العالم؛ فقد أمر سبحانه المؤمنين بالإعداد فقال: ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ ﴾[١٠٨].

فلا يصح أن يهمل الإنسان أسباب القوة والنجاح ثم يقول: أنا أنصر الله فلا بد أن أنتصر؛ بل نصرة الحق تحتاج إلى وعي وحكمة وإعداد وتشخيص صحيح للموقف والتزام بالضوابط الشرعية. فمن أراد الدفاع عن مظلوم، فعليه أن يعرف حقيقة ما وقع وما يستطيع فعله بصورة مشروعة، حتى لا يزيد المشكلة أو يوقع ظلمًا جديدًا.

كما لا يكفي أن يقول الإنسان: «أنا مع الحق»؛ فقد يخطئ في تشخيص الموقف. فمثلًا قد يظلمه شخص، فيظن أن من حقه أن يردّ الظلم بأي وسيلة، فيعتدي على ماله أو على شخص من أسرته. وهنا يكون قد انتقل من كونه مظلومًا إلى ممارسة ظلم جديد؛ لأن نصرة الحق لا تكون بارتكاب باطل آخر، قال تعالى: ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ﴾[١٠٩].

وقد تكون القضية حقًّا، لكن الوسيلة المستعملة في نصرتها غير مشروعة؛ فلا يجوز لمن أُخذ حقه أن يسترجعه بالكذب أو القذف أو ظلم بريء أو تجاوز حدود الشرع؛ لأن نصرة الحق لا تبيح ارتكاب الباطل. ولهذا قال تعالى: ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى ﴾[١١٠]، أي: لا يحملنَّكم بغضُ قومٍ وعداوتُهم على ترك العدل معهم، بل الزموا العدل حتى

مع من تكرهون.

وقد تكون القضية صحيحة والوسيلة مشروعة، لكن الدافع غير سليم؛ كالرغبة في الانتقام أو الظهور أو الشهرة أو المصلحة الشخصية، وهنا ينبغي أن يسأل الإنسان نفسه: هل أفعل هذا لله فعلًا، أم لنفسي؟

ولهذا فإن النصرة الصحيحة تقوم على ثلاثة أسس:

أولًا: أن تكون القضية حقًّا. ولا يكفي اقتناع الإنسان الشخصي، بل عليه أن يعرف الحكم الشرعي، ويرجع عند الاشتباه إلى مرجع تقليده أو أهل العلم الموثوقين.

ثانيًا: أن تكون النية لله تعالى. أي أن يكون هدفه إرضاء الله ونصرة الحق، لا الانتقام للنفس أو طلب المصلحة والشهرة.

ثالثًا: أن تكون الوسيلة مشروعة وفي حدود التكليف. فلا يجوز أن ننصر الحق بمعصية، ولا أن ندفع ظلمًا بظلم، ولا أن نتجاوز ما أذن به الشرع بحجة أن هدفنا صحيح. فالغاية المشروعة لا تجعل كل وسيلة مشروعة.

وبعد أن يعرف الإنسان الحق، ويصحح نيته، ويختار الوسيلة المشروعة، يأخذ بما يستطيع من الأسباب، ثم يتوكل على الله تعالى.

وبذلك يتضح أن ميزان النصر في الإسلام أوسع من مجرد الغلبة الظاهرة؛ فقد يجتمع النصر مع الابتلاء، وقد يجتمع الفوز مع الشهادة، وقد تكون الغلبة الظاهرة للباطل فترةً من الزمن من غير أن تكون له العاقبة.

المبحث الثاني: هل انتصر الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ؟

قد يسأل أحدكم: كيف نقول إن الإمام الحسين انتصر، وهو قد قُتل في كربلاء؟

الجواب: لقد عرفنا أن النصر لا يقتصر على البقاء حيًّا أو التفوق العسكري؛ فقد تتحقق الغلبة في ساحة القتال، وقد يُستشهد الإنسان من غير غلبة عسكرية، ومع ذلك لا يكون خاسرًا في ميزان الله؛ فقد يفوز بالشهادة والثواب، وتبقى القضية التي ضحّى من أجلها حيّة بعده.

إذن، عدم تحقق الغلبة العسكرية لا يعني بالضرورة الهزيمة. ومن هنا نفهم أن الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ، وإن غلبه أعداؤه عسكريًّا يوم عاشوراء، لم يكن مهزومًا في ميزان الحق؛ بل تحقق له النصر بصور متعددة، يتضح بعضها فيما يأتي:

أولاً: النصر في حفظ الدين من التحريف.

في زمن الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ لم يكن الخطر مجرد ظلم سياسي، بل كان الخطر على أصل الدين. الحاكم كان يتصرّف وكأن من حقه أن يغيّر الأحكام بحسب هواه، فيقرّب الفاسدين ويبعد الصالحين، ويعطّل حدود الله، ويجعل طاعة نفسه مقدَّمة على طاعة الله.

لكن القرآن يضع قاعدة واضحة لا تقبل التبديل، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾.[١١١]

أي لا يملك أحد أن يبدّل أحكام الله وفق رغبته. ولو سكت الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ عن هذا الانحراف، لترسخت لدى الناس فكرة خطيرة: أن للحاكم أن يغيّر الدين متى شاء، حتى يصبح الإسلام مع الزمن اسمًا بلا مضمون. ولكن الإمام الحسين رفض ذلك قائلاً: «أيّها الناس إنّ رسول الله

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ وسلم قال من رأى سلطانًا جائرًا مستحلاً لحُرم الله ناكثاً لعهد الله مخالفاً لسنة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ وسلم يعمل في عباد الله بالإثم والعدوان فلم يغيّر عليه بفعلٍ ولا قول، كان حقًا على الله أن يدخله مدخله !! ...»[١١٢]، وقال أيضًا: «وإنما خرجت لطلب الإصلاح ... وأسير بسيرة جدّي وأبي علي بن أبي طالب».[١١٣]

تخيّلوا مدرسة يغيّر مديرها القوانين كل يوم حسب مزاجه: يوم يسمح بالغش، ويوم يمنع الصدق، ويوم يعاقب الملتزمين ويكافئ المخالفين. بعد فترة لن يعرف الطلاب ما هو الصحيح، وسيفسد النظام كله.

وهكذا كان الخطر على الإسلام؛ فسكوت الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ كان سيترك الانحراف يتسع شيئًا فشيئًا، أما موقفه فواجه هذا المسار وثبّت معالم الدين.

ومن أجمل ما يوضّح معنى النصر في هذا السياق ما رُوي أن إِبْرَاهِيمُ بْنُ طَلْحَةَ بْنِ عُبَيْدِ اللهِّ سأل الإمام السجاد عَلَيْهِ السَّلَامُ قائلاً: «يَا عَلِيَّ بْنَ الْحُسَيْنِ، مَنْ غَلَبَ؟ وَهُوَ يُغَطِّي رَأْسَهُ وَهُوَ فِي الْمِحْمِلِ؟

قَالَ: فَقَالَ لَهُ عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «إِذَا أَرَدْتَ أَنْ تَعْلَمَ مَنْ غَلَبَ وَدَخَلَ وَقْتُ الصَّلَاةِ فَأَذِّنْ ثُمَّ أَقِمْ «.[١١٤] فجواب الإمام يشير إلى بقاء التوحيد واسم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ وبقاء الصلاة والدين؛ فإذا بقي الدين الذي ضحّى الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ لأجله، ظهر معنى من معاني انتصاره.

ثانيًا: النصر بالثبات على الحق

النصر الحقيقي ليس دائمًا في الغلبة العسكرية، بل بالثبات على الحق وعدم الانكسار أمام الظلم. قد يملك الظالم القوة والسلاح، لكنه لا يملك قلب المؤمن ولا إرادته.

لتقريب المعنى، تخيّل طالبًا ضعيف البنية يقف أمام مجموعة تضغط عليه ليشارك في خطأ. هدّدوه، خوّفوه، وربما آذوه، لكنه رفض. قد يتعرض للأذى، لكن هل انتصروا عليه؟ لا. لأنهم لم يستطيعوا أن يغيّروا موقفه.

وهكذا كان الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ عُرضت عَلَيْهِ السَّلَامُ مقابل التنازل، وطُلب منه أن يبايع، وهُدِّد وقُتل أصحابه أمامه، ومع ذلك لم يتراجع ولم يمنح الظلم شرعية. وحين عجزوا عن كسر إرادته لجؤوا إلى قتله، فاستعملوا القوة لأنهم لم يستطيعوا تغيير موقفه.

ومن هنا كان الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ منتصرًا في ثباته حتى آخر نفس؛ إذ لم يسمح للظلم أن ينتصر على موقفه وإرادته.

ثالثًا: النصر بكشف زيف الحكم الأموي

كشفت واقعة كربلاء حقيقة الحكم الأموي أمام الناس؛ فالسلطة التي كانت تُقدَّم بوصفها سلطةً شرعية قتلت الحسين سبط رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، وسَبَت بنات الوحي والرسالة. وأصبح الناس يتساءلون: كيف يُقتل ابن بنت النبي بهذه الصورة؟ وكيف يعلن يزيد عن كفره قائلاً:

لعبت هاشم بالملك فلا خبر جاء ولا وحي نزل

وكيف يأسر ويسبي بنات الوحي والرسالة؟

وهكذا سقط جانب كبير من هيبة الحكم الأموي، وبدأ الناس يميزون بين الدين الأصيل وسلوك السلطة؛ فارتبط اسم الحسين بالحق واسم قاتليه بالظلم. وكان هذا نصرًا بكشف الحقيقة وإزالة الغطاء عن الانحراف، لا بالسيف.

رابعًا: النصر التاريخي.

دولة بني أمية لم تستمر طويلًا بعد كربلاء، وسقطت بعد عقود قليلة. لكن الأهم من سقوطهم السياسي هو سقوطهم في ذاكرة الأمة. اليوم يُذكر الحسين باحترام في كل مكان، بينما لا يُذكر يزيد إلا مقرونًا باللعن والذم.

النصر التاريخي يعني أن الزمن نفسه حكم للحسين، لا لعدوه. فالتاريخ أبقى صوت المظلوم حيًا، وأضعف ذكر الظالم. وهذا نوع من النصر يمتد عبر القرون.

خامسًا: النصر الأخروي والجزاء الإلهي

لا يقتصر نصر الله لعباده على الدنيا، بل قد يمتد إلى الآخرة؛ فقد ذكر الشيخ الطبرسي في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾[١١٥]: «وقيل: ينصركم في الآخرة ويثبّت أقدامكم عند الحساب وعلى الصراط. وقيل: ينصركم في الدنيا والآخرة ويثبّت أقدامكم في الدارين»[١١٦].

ومن هنا فإن من صور نصر الله للإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ ما أعدّه له في الآخرة من رفعة الدرجة وعظيم المنزلة والثواب؛ فقد قال له رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ في رؤياه: «وإنَّ لك في الجنة درجاتٍ لا تنالها إلا بالشهادة»[١١٧]. كما يظهر هذا النصر في عدالة الله مع من ظلمه وقاتله؛ فإن نال بعضهم عقوبته في الدنيا، فإن الجزاء الأعظم والأبقى في الآخرة، حيث لا يفلت ظالم من حكم الله.

قال تعالى: ﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنصُورًا﴾.[١١٨]

سادسًا: النصر الكامل الشامل.

ورد في روايات أهل البيت أن من مظاهر نصر الحسين الكاملة ما يتحقق عند ظهور الإمام المهدي عَلَيْهِ السَّلَامُ، حين تُقام دولة العدل ويُعلن الثأر الإلهي. هذا يعني أن مشروع الحسين لم ينتهِ في كربلاء، بل امتد عبر الزمن حتى يبلغ قمته في دولة الحق. روي عن أبي جعفر عَلَيْهِ السَّلَامُ في قوله: ﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ ۖ إِنَّهُ كَانَ مَنصُورًا﴾[١١٩]، قال: هو الحسين بن عليّ عليهما السّلام قُتل مظلومًا ونحن أولياؤه، والقائم منّا إذا قام طلب بثأر الحسين فيقتل حتّى يقال: قد أسرفت في القتل. وقال النّبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: المقتول الحسين ووليّه القائم، والإسراف في القتل أن يقتل غير قاتله ﴿إِنَّهُ كانَ مَنْصُوراً﴾ فإنّه لا يذهب من الدّنيا حتّى ينتصر برجل من آل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ يملأ الأرض قسطا وعدلا كما مُلئت جورًا وظلمًا».[١٢٠]

وبعد أن تبيّن لنا أن الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ كان منتصرًا في ميزان الحق، يبقى السؤال: كيف دعا الناس إلى هذا النصر؟ وما الذي أراده بندائه الخالد: «هل من ناصرٍ ينصرنا؟» وهذا ما سنجيب عنه في المبحث الآتي:

المبحث الثالث: هل من ناصر ينصرنا؟

تُعدّ عبارة «هل من ناصرٍ ينصرنا» من أشهر النداءات المنسوبة إلى الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ يوم عاشوراء، ويُسمّى هذا النداء واعية الحسين؛ أي الصيحة التي تُطلق عند الشدّة طلبًا للإغاثة وإقامة الحجة.

وقد أطلق الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ نداء الاستنصار في مراحل متعدّدة من المعركة، ولا سيّما بعد استشهاد أكثر أصحابه وأهل بيته، فجاءت ألفاظ النداء في المصادر متعدّدة، متحدة في المعنى والغاية، منها:

- «هَلْ مِنْ ذَابٍّ عَنْ حَرَمِ رَسُولِ اللهِ؟ هَلْ مِنْ مُوَحِّدٍ يَخَافُ اللهَ فِينَا؟ هَلْ مِنْ مُغِيثٍ يَرْجُو اللهَ فِي إِغَاثَتِنَا؟ أَمَا مِنْ طَالِبِ حَقٍّ يَنْصُرُنَا؟».[١٢١]
- «هَلْ مِنْ نَاصِرٍ يَنْصُرُنَا؟ هَلْ مِنْ مُعِينٍ يُعِينُنَا؟ هَلْ مِنْ ذَابٍّ يَذُبُّ عَنْ حُرَمِ رَسُولِ اللهِ؟».[١٢٢]
- «أَمَا مِنْ مُغِيثٍ يُغِيثُنَا لِوَجْهِ اللهِ؟»، «هَلْ مِنْ نَاصِرٍ يَنْصُرُ ذُرِّيَّةَ الْأَطْهَارِ؟».[١٢٣]

ولكن برأيكم، لماذا أطلق الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ نداء «هل من ناصرٍ ينصرنا»؟ هل كان محتاجًا للنصرة، أم أن لهذا النداء معاني أعمق تتعلق بالناس وبمسؤوليتهم أمام الله؟

الجواب: لم يكن نداء الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ مجرد طلب للنصرة في ساحة القتال، بل حمل معاني تتصل بهداية الناس ومسؤوليتهم تجاه الحق، ويمكن أن نفهمه من خلال أربعة معانٍ أساسية:

أولاً: نداء رحمة لإيقاظ الضمائر وإنقاذ الناس

عندما قال الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ: «هل من ناصرٍ ينصرنا» لم يكن نداءه لمصلحةٍ تعود إليه، وإنما رحمةً بالناس؛ ليوقظ ضمائرهم ويمنحهم فرصة أخيرة للهداية والنجاة.

إنّ بعض الذين كانوا في جيش العدو لم يكونوا أعداءً حقيقيين للإمام الحسين، بل كانوا خائفين أو طامعين أو مضلَّلين[١٢٤]، لذا خاطب الإمام الفطرة الإنسانية التي فطر الله الناس عليها، وهي حب الخير، ونصرة المظلوم، ورفض الظلم، حتى في قلوب من وقفوا ضده. ولهذا أثّر هذا النداء في بعضهم تأثيرًا عميقًا، فاستيقظت ضمائرهم، ورجع من رجع إلى الحق، كما حصل مع الحر الرياحي، وكما استجاب الخارجيان[١٢٥] سعد وأخوه أبو الحتوف لنداء الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ حين سمعا نداء الإمام وصراخ عياله، فتركا معسكر

عمر بن سعد، ووقفا بسيفيهما مع الحسين في مواجهة أعدائه، وقاتلا بين يديه حتى استُشهدا معًا.[١٢٦]

فكان نداء الحسين دعوة رحيمة لإحياء القلوب قبل أن يكون طلبًا للنصرة، ومن لبّى النداء فاز، ومن أعرض خسر نفسه.

وهذا المعنى ينسجم مع قول الله تعالى على لسان نبيّه محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: [قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ][١٢٧]، فالنبي لم يطلب أجرًا لمنفعةٍ تعود إليه، وإنما كانت دعوته لهداية الناس. وكذلك الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ لم يطلب النصرة لينقذ نفسه، وإنما ليمنح من يسمعه فرصة النجاة ونيل شرف نصرة الحق؛ كما نادى نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ ابنه ليركب السفينة لينجو.

ثانيًا: إقامة الحجة الكاملة على الجميع

أطلق الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ نداءه: «ألا من ناصرٍ ينصرنا» ليقيم الحجة على من كان حاضرًا في كربلاء، فلا يبقى لأحد عذر بعد أن وصل إليه نداء الحق.

إنّ الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ في يوم عاشوراء نادى، وخطب، وبيّن مظلوميته وحقه، ليكون الموقف واضحًا لا التباس فيه، فمن سمع النداء ثم أعرض عنه، أو رأى الحسين مظلومًا ولم ينصره، فقد اختار طريق جهنم بنفسه؛ لأن الإمام عَلَيْهِ السَّلَامُ قال لنا: «من سمع واعيتنا[١٢٨] أو رأى سوادنا فلم يجبنا ولم يُغثنا، كان حقًّا على الله عزّ وجل أن يكبّه على منخريه في النار».[١٢٩]

والمقصود بـ«السواد» معسكره وجماعته؛ أما «الكبّ على المنخرين» فهو تعبير عن السقوط في غاية الذل والإهانة. فالإمام أوضح الحق وأقام الحجة، والدعوة وصلت، والاختيار بقي بيد الإنسان.

ثالثًا: تعليم الأمة معنى النصرة الحقيقية

أراد الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ أن يبيّن للأمة أن نصرة الحق لا تتحقق بالكلمات ولا بالمشاعر وحدها، فقد كتب إليه قوم من الكوفة رسائل كثيرة يتعهدون فيها بالنصرة، وقالوا له": قد أينعت الثمار واخضرّ الجناب، وإنما تقدِم على جندٍ لك مجنّد»، لكنهم خالفوا أقوالهم بأفعالهم، فانضمّوا إلى جيش يزيد ووقفوا في صفّ الباطل.

فجاء نداء الإمام بطلب النصرة «ألا من ناصر ينصرنا» كأنه يقول لهم عاهدتموني بالنصرة فحاربتموني، وكأنه يقول لهم:

﴿ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾[١٣٠]، وليؤكد أن النصرة الحقيقية لا تُقاس بالوعود، بل بالموقف العملي عند ساعة الامتحان، وليعلّم الأمة أن السكوت عن الظلم خذلان، وأن الوقوف مع الحق هو المعيار الصادق للإيمان.

رابعًا: نداء ممتد عبر الزمان لكل الأجيال

لم يكن نداء الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ خاصًا بأهل كربلاء، بل هو نداء موجَّه إلى ضمير الإنسان في كل زمان ومكان، نداء يوقظ القلوب ويمتحن المواقف، ويسأل كل واحد: أين تقف حين يُظلم الحق ويُغتصب العدل؟

فالإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ لم يخرج طلبًا لسلطة، بل خرج للإصلاح، وإحياء الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ليعلّم الأمة أن السكوت عن الظلم خيانة، وأن نصرة الحق مسؤولية لا تنتهي بمرور الزمن.

ومن هنا فإن نصرة الحسين لا تقتصر على الحزن والبكاء، ولا على القتال بين يديه فقط، بل تعني الوقوف مع دين الله، والتمسّك بالحق والعدل في كل موقف من مواقف الحياة.

لقد نصر الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ أنصاره الذين استُشهدوا بين يديه، كما

نصرته النساء والأطفال الذين شاركوا في نهضته بصبرهم وثباتهم، فكانت نصرتهم في حقيقتها نصرةً لدين الله، وللحق والعدل، ولرسول الله وآله.

وبما أن نداء الحسين قد وصل إلينا، فنحن أيضًا معنيون به، ومسؤوليتنا أن نستجيب له في مواقفنا بالأفعال لا بالكلام فقط، وبقدر استطاعتنا.

المبحث الرابع: هل نحن من أنصار الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ؟

ذكرنا فيما سبق أن نداء الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ: «هل من ناصرٍ ينصرنا؟» لم يكن نداءً عابرًا انتهى بانتهاء يوم عاشوراء، بل حمل رسالة تتجاوز حدود الزمان والمكان؛ لأن الحق الذي نهض الإمام الحسين لنصرته لم ينتهِ باستشهاده، كما أن صور الباطل والظلم والانحراف لم تنتهِ بانتهاء يزيد وأصحابه.

ومن هنا يصبح السؤال موجَّهًا إلينا نحن أيضًا:

إذا كان الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ قد نادى: هل من ناصر ينصرنا؟ فهل نحن اليوم من أنصاره؟ وكيف ننصره وقد مضى على واقعة كربلاء قرون طويلة؟

لقد اشتهرت في كلمات العلماء والخطباء عبارة: «كل يوم عاشوراء، وكل أرض كربلاء». وهذه العبارة ليست رواية ثابتة عن أحد المعصومين عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، وإنما اشتهرت بوصفها تعبيرًا تربويًا عن استمرار مسؤولية الإنسان في مواجهة الحق والباطل. وقد استعملها الإمام الخميني (قدّس سرّه) بهذا المعنى[١٣١]، فبيّن أن عاشوراء ينبغي أن تكون نموذجًا للحياة في كل زمان ومكان، لأن مواقف الاختيار بين الحق والباطل تتجدد باستمرار.

وليس معنى ذلك أن كل يوم يساوي يوم عاشوراء في عظم مصيبته؛ فلا يوم كيوم الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ، وإنما أن امتحان كربلاء يتكرر بصور مختلفة: هل أقف مع الحق أم الباطل؟ هل أقدّم رضا الله أم مصلحتي؟ هل أنصر المظلوم

إذا قدرت؟ وهل أثبت على ديني إذا ضغط عليّ الناس؟

قد تكون «كربلاء» الإنسان في بيته، أو في عمله، أو في مدرسته، أو في مجتمعه، أو حتى خلف شاشة هاتفه؛ لأن كل موضع يُمتحن فيه موقفه من الحق يمكن أن يصبح ساحةً يظهر فيها صدق انتمائه.

ومن هنا فإن نصرة الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ اليوم تعني نصرة الطريق الذي ضحّى من أجله؛ طريق الإصلاح وإحياء دين الله ورفض الظلم والانحراف، بأن يحمل الإنسان هذه القيم في حياته.

ويمكن أن تتجلى نصرتنا للإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ في عدة جوانب أساسية:

أولًا: أن ننصر الحسين بالاستقامة على دين الله.

لا يمكن أن يرفع الإنسان شعار «لبيك يا حسين»، ثم يخالف في حياته اليومية الأحكام التي بذل الحسين دمه دفاعًا عنها. فالنصرة تبدأ من النفس قبل أن تبدأ من مواجهة الآخرين.

فالذي يحافظ على صلاته، ويجتنب الحرام، ويؤدي حقوق الناس، ويحفظ لسانه وماله وعلاقاته من المعصية، إنما يثبت عمليًا أنه يقف مع الدين الذي وقف الحسين من أجله.

ولتقريب المعنى: قد يكون من السهل على الإنسان أن يبكي في مجلس الحسين، لكن الامتحان الحقيقي يأتي عندما تعرض عليه معصية فيها مصلحة أو متعة. هنا يظهر صدق النصرة: هل يختار ما يريده الله، أم ما تريده نفسه؟

فإذا ترك الحرام مع قدرته عليه حبًا لله وللحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ، فقد قال بعمله: أنا مع الحسين؛ أما المحبة باللسان مع مخالفة طريقه بالسلوك، ففيها فجوة بين الشعار والموقف.

ثانيًا: أن ننصر الحسين بنصرة الحق والمظلوم.

الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ لم ينهض دفاعًا عن حقٍّ شخصي، وإنما نهض في مواجهة ظلم وانحرافٍ يهددان الدين والناس والعدل. ومن هنا فإن من صور النصرة الحسينية أن لا يكون الإنسان معينًا على الظلم، ولا راضيًا به، وأن ينصر المظلوم بقدر استطاعته وفي حدود التكليف الشرعي، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ﴾[١٣٢]، أي إن الله تعالى يأمر المؤمن أنَ يقيم العدل ولا يحيد عنه لمصلحةٍ أو قرابة؛ فإن كان الخطأ منه اعترف به، وإن كان الظلم صادرًا من والديه أو أقرب الناس إليه لم يبرره، بل بقي مع الحق والعدل بما يرضي الله.

فلو رأى الإنسان ظلمًا في أسرته أو عمله، فالنصرة تكون بما يستطيع من قول أو موقف مشروع. مثال ذلك: لو حاول بعض المسؤولين في العمل إقصاء موظفٍ كفوء بسبب الحسد أو المصلحة، وطلبوا من زملائه أن يلفّقوا له الأخطاء أو يشهدوا عليه بغير الحق، فإن نصرتنا للحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ واستجابتنا لندائه: «هل من ناصرٍ ينصرنا؟» تتجسدان هنا في نصرة هذا المظلوم؛ وذلك برفض المشاركة في الظلم، والوقوف معه، وبيان الحقيقة، ومساندته بالطرق المشروعة، ورفع الأمر إلى الجهة المختصة عند الحاجة.

لكن نصرة المظلوم لا تعني أن نتحول نحن إلى ظالمين؛ فلا يحق للمظلوم أن يؤذي أسرة من ظلمه أو يكذب عليه أو يعتدي على ماله، لأن الله تعالى أمرنا بالعدل حتى مع من نكره، فقال: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾[١٣٣]، أي: لا يحملنّكم بغضُ قومٍ وعداوتُهم على ترك العدل معهم، بل الزموا العدل حتى مع من تكرهون.

إذن الحسيني لا يقول: «أنا مع الحق» ثم يستعمل الباطل لنصرته؛ بل ينصر الحق بالحق.

وكذلك ليس للسكوت حكم واحد؛ فقد يكون حكمةً أو واجبًا لدفع

مفسدة أكبر، وقد يصبح خذلانًا إذا تعيّن على الإنسان شرعًا أن يقول كلمة أو يدفع ظلمًا وهو قادر، ثم ترك ذلك لمصلحة دنيوية. فنصرة الحسين تحتاج إلى معرفة التكليف، لا مجرد الحماس.

ثالثًا: أن ننصر الحسين ببناء أنفسنا أخلاقيًا وروحيًا.

إن نصرة الحسين ليست موقفًا خارجيًا فقط؛ فداخل الإنسان معركة بين عقله وهواه، وغضبه وحلمه، وصدقه وكذبه، وإخلاصه وحب الظهور. وقد يهزم خصمه في الخارج، لكنه يكون مهزومًا أمام نفسه؛ لذلك يحتاج من يريد الانتماء إلى خط الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى تهذيبها.

فحين يستطيع الإنسان أن ينتقم ثم يعفو حيث يكون العفو هو الصحيح، أو يستطيع الكذب لينجو ثم يختار الصدق، أو يملك فرصةً للحرام فيتركها لله، فقد حقق نوعًا من النصرة الداخلية؛ لأنه لم يسمح لهواه أن يقوده بعيدًا عن دين الله.

ومن هنا نفهم أن الاستعداد لنصرة الإمام المهدي عَلَيْهِ السَّلَامُ لا يبدأ يوم ظهوره، وإنما يبدأ الآن، فقد ورد عن الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ: «من سرّه أن يكون من أصحاب القائم فلينتظر وليعمل بالورع ومحاسن الأخلاق وهو منتظر...»[١٣٤].

فالرواية لم تكتفِ بـ«فلينتظر»، بل قرنت الانتظار بالورع ومحاسن الأخلاق؛ فمن يريد أن يكون من أنصار الإمام في المستقبل، يبدأ ببناء نفسه في الحاضر.

رابعًا: أن ننصر الحسين بالوعي والبصيرة.

من أخطر دروس كربلاء أن الباطل قد يُلبَس لباس الحق، فيظن الناس أنهم على صواب وهم يسيرون في طريقه. وهذا ما جرى في الكوفة؛ إذ استخدم ابن زياد التخويف والتهديد وقطع العطاء، وأشاع الخوف من جيش الشام،

واستعان برؤساء القبائل والعرفاء، وروّج لطاعة السلطة، وصوّر الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ وأتباعه بأنهم خارجون على الإمام والجماعة وشاقّون لعصا المسلمين، كما استُعمل بعض أصحاب المكانة الدينية والقضائية للتأثير في الناس؛ فخاف بعضهم وطمع بعضهم وانخدع آخرون.

وهذا الخطر ما زال موجودًا في كل زمان. فقد يظهر شخص على قناة فضائية أو مواقع التواصل، ويتحدث باسم الدين أو الدفاع عن أهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، فيكسب ثقة الناس أولًا، ثم يبدأ شيئًا فشيئًا ببث أفكار منحرفة، أو الطعن في العلماء الثقات، أو إسقاط التقليد والمرجعية، أو دعوة الناس إلى اتباعه هو من غير دليل شرعي. وقد يظهر آخر يدّعي مقامًا دينيًا خاصًا، أو ارتباطًا بالإمام المهدي عَلَيْهِ السَّلَامُ، فيتبعه بعض الناس لأن كلامه مؤثر أو شعاراته جميلة.

وهنا تظهر البصيرة؛ فالحسيني لا يتبع كل من رفع راية أهل البيت، ولا يجعل كثرة المتابعين أو جمال الكلام دليلًا على الحق، بل يسأل: هل كلامه موافق للقرآن وسنة أهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ؟ وهل يقرّه مراجع الدين العدول وأهل العلم الموثوقون؟

فإذا اشتبه علينا شخص أو فكرة أو دعوة دينية، فالطريق الآمن أن نرجع إلى مراجع الدين العدول وأهل العلم الموثوقين، لا أن نسلّم عقولنا لأي متحدث مهما كان أسلوبه جذابًا.

خامسًا: أن نستعد عمليًا لنصرة الإمام المهدي عَلَيْهِ السَّلَامُ.

إن خط الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ لم ينتهِ في كربلاء، بل يمتد إلى المشروع الإلهي الذي يملأ الأرض قسطًا وعدلًا على يد الإمام المهدي عجل الله تعالى فرجه.

ولكن الاستعداد له لا يكون بمجرد القول: «ليت الإمام يظهر وأنا أنصره».

فالاستعداد النفسي يعني أن ندرّب أنفسنا على تحمل المشقة حين يكون

التكليف بحاجة إلى تضحية؛ كأن يترك الإنسان راحته أو جزءًا من وقته أو ماله لخدمة الحق.

والاستعداد الأخلاقي يعني أن نربي أنفسنا على الصدق والصبر والأمانة وضبط الغضب؛ لأن من لا يستطيع أن يقود نفسه اليوم، كيف يكون أهلًا لأن يكون في مشروع إمام العدل؟

والاستعداد العلمي يعني أن نتعلم ديننا وعقيدتنا وأحكامنا، حتى لا نكون سهلين للخداع والشبهات.

والاستعداد الاجتماعي يعني أن نكون عناصر إصلاح في أسرنا ومجتمعنا؛ نصلح بين الناس، ونخدم المحتاج، وننصر المظلوم، ونبني لا نهدم.

وهكذا فإن من يستعد لنصرة الإمام المهدي عَلَيْهِ السَّلَامُ، ويطمح أن يكون من جنوده الرافعين شعار «يا لثارات الحسين»، ينبغي أن يبقى نداء أبي عبد الله عَلَيْهِ السَّلَامُ حاضرًا في قلبه: «هل من ناصرٍ ينصرنا؟»؛ لأن الإجابة عن هذا النداء لا تكون بالكلمات وحدها، بل بالثبات حين يصبح للحق ثمن؛ فقد يكون ثمنه ترك الراحة، أو بذل المال، أو التنازل عن مصلحة، وقد يبلغ التضحية بالنفس.

ولعل أعظم من جسّد هذا المعنى هو الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ نفسه؛ فقد بلغ أرض كربلاء وهو يعلم ما ينتظره فيها من قتلٍ ومصاب، ومع ذلك لم يتراجع عن نصرة الله ودينه، بل ثبت ومضى حتى النهاية...

وهذا المعنى رواه أبو مخنف قائلاً: وساروا جميعا -أي الإمام الحسين وأهل بيته وأصحابه- إلى ان أتوا أرض كربلاء فوقف فرس الحسين من تحته فنزل عنها وركب أخرى فلم تنبعث من تحته خطوة واحدة يمينا وشمالا ولم يزل يركب فرسا بعد فرس حتى ركب سبعة أفراس وهو على هذا الحال فلما رأى

الإمام عَلَيْهِ السَّلَامُ ذلك الأمر الغريب قال:

يا قوم ما يقال لهذه الأرض؟ قالوا: أرض الغارضية. قال: فهل لها اسم غير هذا؟ قالوا: تسمى نينوا. قال: هل لها اسم غير هذا؟ قالوا: تسمى كربلاء فقال: قفوا ولا ترحلوا فهاهنا والله مناخ ركابنا وهاهنا والله سفك دمائنا وهاهنا والله هتك حريمنا وهاهنا والله قتل رجالنا وهاهنا والله ذبح أطفالنا وهاهنا والله تزار قبورنا وبهذه التربة وعدني جدي رسول الله ولا خلف لقوله[١٣٥]

(نصاري)

سار احسين واصحابه بلضعون — وصلوا كِربلا ووچب الميمون
ركب ستة افراس امن اليسجون — وگفوا وانشد اجموع الحمية
شسم هالگاع گالوا شاطي الفرات — وسمها نينوى والغاضريات
رد انشد وگالوله المسنات — ورض لعراگ يا شبل الزچيّه
بچه اوگلهم دمع العين مذروف — هم الها اسم گالوله الطفوف
رجع سايل اسمها البيها معروف — سكتوا والدموع اتكت هيه
ناده احسين واليكم ترونه — سايلكم وشو متجاوبونه
گالوا كربلا واهلّت اعيونه — او تحسّر والگلب ناره سرّيه

دكسن

صاح احسين يصحابي انزلونه — ابهاي الگاع كلنه ايذبحونه
او بس يبگه علي ويگيدونه — او طفلي ينذبح ما بين ايديه
يگومي ابهاي يتشتت شملنه — او نبگه بالشمس والدم غسلنه
او تسبى احريمنا او تندب يهلنه — چه ترضون نتيسّر هديّه

ليلة ٤ محرم

السلام على أم البنين الأربعة

السلام على الحسين وعلى علي بن الحسين وعلى أولاد الحسين وعلى أصحاب الحسين

الليلة الرابعة من محرّم الحرام

المناسبة: مصيبة أم البنين عَلَيْهَا السَّلَامُ

القصيدة: للسيد عبد المطلب الحلي

أيُّ يـومٍ مـلأ الدنيـا أسـى ... طبّـق الكـونَ عجيجـا وصياحـا

يـومَ أضحـى حـرمُ اللّهِ بـه ... للمغاويـرِ علـى الطـفِّ مباحـا

أبـرزت منـه بنـاتُ المصطفـى ... حائـراتٍ يتقارضْـنَ المناحـا

أيُّهـا المُـدلجُ في زيَّافـةٍ ... تنشُـرُ الأكْـمَ كمـا تطـوي البِطاحـا

فـإذا جئـتَ الغريـينِ أرِحْ ... فلقـد نلـتَ بمسـراك النُجاحـا

صِـلْ ضريـحَ المرتضـى عنِّـي وخـذ ... غُـربَ عتـبٍ يمـلأ القلـبَ جراحـا

قُـلْ لـه يـا أسـدَ اللّهِ اسـتَمِعْ ... نفثـةً ضـاق بهـا الصـدرُ فباحـا

كـم رضيـعٍ لـك بالطـفِّ قضـى ... عاطشـا يَقبـضُ بالراحـة راحـا[١٣٦]

(مجردات)

يا ريت لن شخصك فلا غاب ... عـن كربـلا يـا داحـي البـاب

عله احسين ما خلّوا تره اثياب ... او ساده الرمل واكفانه الأحراب

وابناتك سبوهن گوم الاجناب ... لا خدر ظل اولا بگه احجاب[١٣٧]

موضوع المحاضرة الرابعة:

تربية الأولاد على الصلاة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا ﴾[١٣٨].

تحتلّ الصلاة مكانة عظيمة في الإسلام؛ فهي أول ما افترض الله سبحانه على الناس، وهي عمود الدين، وأول ما يُنظر فيه من عمل الإنسان، وأول ما يُحاسب عليه. وقد روي عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «ليكن أكثر همّك الصلاة، فإنها رأس الإسلام بعد الإقرار بالدين»[١٣٩].

والصلاة عبادةٌ نتقرّب بها إلى الله سبحانه، تتكوّن من أقوال وأفعال مخصوصة، تبدأ بتكبيرة الإحرام وتنتهي بالتسليم[١٤٠].

ولعظيم مكانة الصلاة وأثرها في حياة الإنسان، كانت التربية عليها من أهم مسؤوليات المربي، وهي مسؤولية تتطلب وعيًا بأساليبها وسبل ترسيخها في نفوس الأولاد، وسوف نتناول أهم جوانبها في المباحث الآتية:

المبحث الأول: الصبر التربوي على الصلاة

حينما نقرأ قوله تعالى: ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا ﴾[١٤١]. قد يتبادر إلى الذهن أن الخطاب في هذه الآية موجَّه إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، فهل يختص هذا الأمر به ولا يشمل سائر المؤمنين؟

إن مجرد توجّه الخطاب القرآني إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ لا يعني بالضرورة

اختصاص مضمونه به[١٤٢]؛ فقد روي عن الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ: «نزل القرآن بإيّاك أعني واسمعي يا جارة»[١٤٣]، أي إن القرآن قد يخاطب النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ويكون في الخطاب تعليمٌ لغيره أيضًا. وقد أوضح الإمام الرضا عَلَيْهِ السَّلَامُ هذا الأسلوب في بعض الآيات بقوله: «خاطب الله بذلك نبيه، وأراد به أمته»[١٤٤].

ومن هنا يتضح أن لدينا في التربية على الصلاة مسؤوليتين: مسؤولية الإنسان عن صلاته، ومسؤوليته تجاه صلاة أهله.

أما مسؤوليته عن نفسه، فقد أكد القرآن مرارًا الأمر بإقامة الصلاة. وأما مسؤوليته تجاه أهله، فلم تتركها الشريعة خاصة برسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، بل خاطب الله المؤمنين جميعًا بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾[١٤٥]، ولما سأل أبو بصير الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ: «هذه نفسي أقيها، فكيف أقي أهلي؟» قال: «تأمرهم بما أمرهم الله، وتنهاهم عما نهاهم الله عنه، فإن أطاعوك كنت قد وقيتهم، وإن عصوك فكنت قد قضيت ما عليك»[١٤٦].

ولكن يبقى السؤال:

هل يكفي أن يأمر المربي أهله بالصلاة مرة أو مرتين، ثم إذا وجد منهم تكاسلًا أو بطئًا في الاستجابة قال: لقد أمرتهم ولم يستجيبوا؟

هنا تأتي دقة التعبير القرآني؛ فالله تعالى بعد أن قال: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ﴾ لم يقل: «واصبر عليها»، وإنما قال: ﴿وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾. وأصل الاصطبار من الصبر، إلا أن الاصطبار في هذا السياق يحمل معنى أبلغ من مجرد الصبر العابر؛ فهو صبر يمتد معه الثبات والمداومة والمجاهدة، ولا ينقطع عند ظهور المشقة أو بطء الاستجابة. وهذا المعنى يظهر بوضوح في كلمات عدد من المفسرين؛ منهم الشيخ الطبرسي[١٤٧]، والفيض الكاشاني[١٤٨]، والشيخ محمد النهاوندي[١٤٩]، بل أشار إليه أيضًا عدد من علماء السنة، ومنهم الشيخ محمد

متولي الشعراوي[١٥٠]. ومن مجموع كلماتهم نفهم أن الاصطبار على الصلاة لا يعني مجرد تحمّل المشقة، وإنما يعني الاستمرار والمداومة والاجتهاد في أداء الصلاة وفي أمر الأهل بها، مع عدم اليأس أو التراجع إذا تأخرت الاستجابة.

وهذه الدلالة بالغة الأهمية في واقعنا؛ لأن من أكثر العبارات التي نسمعها اليوم من بعض الآباء والأمهات قولهم: «لقد أمرته بالصلاة مرارًا، ولكنه لا يستجيب»، أو «تعبنا معه ولم نعد نستطيع أن نفعل شيئًا». وكأن المطلوب من المربي أن يقول لولده: «صلِّ» عدة مرات، فإن لم يستجب انتهت مسؤوليته!

والآية تعلمنا خلاف ذلك؛ لأن الصلاة من أكثر العبادات التي تحتاج في التربية عليها إلى متابعة متكررة.

فالطفل بطبيعته يحب اللعب، والمراهق قد تشغله الدراسة أو الهاتف أو الأصدقاء أو النوم، والصلاة ليست تكليفًا يأتي مرة في الأسبوع، وإنما تتكرر كل يوم. وإذا كان المربي يذكّر أولاده في ثلاثة أوقات رئيسة: عند صلاة الصبح، وعند الظهرين، وعند العشاءين، فهذا يعني نحو تسعين موقفًا تربويًا في الشهر، وأكثر من ألف موقف في السنة.

ومن هنا نفهم لماذا لم يقل الله تعالى: «واصبر عليها»، بل قال: ﴿وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾.

ولا يعني الاصطبار أن يتحول المربي إلى شخص غاضب يصرخ في أولاده كلما تأخروا عن الصلاة؛ فالاصطبار ليس عصبية ولا قسوة، وإنما هو صبر حكيم: قدوة، وتذكير، ومتابعة، وتعليم، وتشجيع، وحوار، وعدم يأس من تكرار المحاولة. فقد يحتاج المربي إلى أن يكرر اليوم ما قاله بالأمس، وأن يعيد غدًا ما علّمه اليوم، وأن يغيّر الوسيلة إذا لم تنجح الوسيلة الأولى، دون أن يتخلى عن الهدف. وللاطلاع على تفاصيل الأساليب التربوية في تشجيع الأولاد على الصلاة، يُراجع الجزء (٢٦) من كتاب «لمسات تربوية»[١٥١].

ومن المؤلم أن نجد أحيانًا مفارقة واضحة في أولويات بعض الأسر: فإذا تعثر الولد في دراسته، تابع الأبوان درجاته، وسألا المدرسة، وبحثا له عن مدرس إضافي، وأيقظاه مبكرًا، ومنعاه من بعض ما يلهيه، وظلا خلفه عامًا بعد عام حتى يحصل على الشهادة التي يرجوانها له. وهذا الاهتمام بالتعليم أمر محمود ومهم، ولكن لماذا لا نجد القدر نفسه من الإصرار حين يتعلق الأمر بالصلاة؟

فإذا كان مستقبل الولد الدراسي يستحق سنوات من المتابعة، فإن مستقبله الأخروي أولى ألا يُترك بعد محاولات قليلة. نحن لا نقلل من شأن التعليم؛ فالتعليم أساس في بناء الإنسان ومستقبله، ولكن الشهادة تتعلق بجانب من حياته الدنيا، أما الصلاة فتتعلق بعلاقته بالله وبناء دينه ونجاته في الآخرة. ومن غير المتوازن تربويًا أن نخشى على ولدنا من الرسوب في امتحان دراسي أكثر مما نخشى عليه من أن يكبر وقد اعتاد التهاون بفريضة من فرائض الله.

والأبلغ من ذلك أن الله تعالى لم يكتف بإعطائنا هذا التوجيه نظريًا، بل جسّده رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ في سيرته. فقد روي عن الإمام الرضا عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ضمن حديثه في مجلس المأمون، قال في تفسير قوله تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾: «فكان رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ يجيء إلى باب علي وفاطمة بعد نزول هذه الآية تسعة أشهر، كل يوم عند حضور كل صلاة خمس مرات، فيقول: الصلاة رحمكم الله...»[١٥٢].

وليس معنى ذلك ـ والعياذ بالله ـ أن عليًا وفاطمة عَلَيْهِمَا ٱلسَّلَامُ كانا متهاونين بالصلاة حتى يحتاجا إلى من يذكّرهما بها؛ فقد بيّنت الرواية نفسها أن في ذلك إظهارًا لخصوصية أهل البيت وكرامتهم وامتثالًا لأمر الله تعالى.

فإذا كان رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ قد جسّد أمر الله بهذه المداومة مع بيت علي وفاطمة عَلَيْهِمَا ٱلسَّلَامُ، فكيف بأولادنا الذين تعصف بهم اليوم عشرات المؤثرات والمشاغل والمغريات؟ وكيف نتوقع من طفل أو ناشئ أو مراهق أن

تثبت الصلاة في حياته لأننا ذكرناه بها عدة مرات ثم تعبنا؟

إن بعض الأولاد قد يحتاجون إلى أشهر، وبعضهم إلى سنوات من التربية الهادئة والمتابعة؛ والمهم ألا تتحول صعوبة الطريق إلى ذريعة لترك الطريق نفسه.

ولهذا فإن المربي الذي يشعر أنه سريع الغضب، أو قليل الصبر، أو أنه لا يمتلك الوسائل المناسبة لتربية أولاده دينيًا، لا ينبغي أن يجعل ضعف خبرته عذرًا للتخلي عن مسؤوليته، بل تتأكد مسؤوليته في أن يؤهل نفسه: بالقراءة، والتعلم، والاستفادة من المصادر التربوية الإسلامية، والرجوع إلى المختصين والمستشارين التربويين الثقات عند الحاجة. فالله تعالى لم يجعل حماية الأسرة من الانحراف أمرًا هامشيًا، بل قال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾[١٥٣].

ويزداد الأمر وضوحًا فيما روي عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ أنه نظر إلى بعض الأطفال فقال:

«ويل لأطفال آخر الزمان من آبائهم»، فقيل: يا رسول الله، من آبائهم المشركين؟ فقال: «لا، من آبائهم المؤمنين، لا يعلمونهم شيئًا من الفرائض، وإذا تعلموا أولادهم منعوهم، ورضوا عنهم بعرض يسير من الدنيا، فأنا منهم بريء وهم مني براء»[١٥٤].

ولعل التعبير: «ورضوا عنهم بعرض يسير من الدنيا» يستحق أن نقف عنده طويلًا؛ لأنه يصوّر الخلل الذي قد يقع فيه بعض المربين حين ينصبّ اهتمامهم على نجاح الولد الدنيوي، ويطمئنون إذا نجح في دراسته أو حصل على عمل جيد أو مكانة اجتماعية، في الوقت الذي لا يحملون الهم نفسه تجاه فرائضه ودينه. والمطلوب ليس أن نختار بين دنياه وآخرته، بل أن نبني له دنياه من غير أن نخسر آخرته.

المبحث الثاني: لماذا الصلاة؟

من الخطوات المهمة في تربية أولادنا على الصلاة ألا نكتفي بأمرهم بها، وإنما نساعدهم على فهم لماذا يصلّون؟ وما الذي تحققه الصلاة في حياتهم؛ لأن الطفل كلما كبر بدأ يسأل:

لماذا أترك لعبي وأصلّي؟ ولماذا أستيقظ لصلاة الفجر؟ ولماذا فرض الله علينا الصلاة وهو غني عنا؟

وهنا ينبغي أن نبيّن له أن الله سبحانه لم يفرض الصلاة لأنه يحتاج إلى ركوعنا وسجودنا؛ فهو الغني ونحن المحتاجون إليه، وإنما شرعها لما فيها من مصالح تعود إلينا. فنعرّفه من حِكَمها وآثارها ما يناسب عمره؛ حتى يدرك أنها ليست عبئًا فُرض عليه، وإنما عبادة تبنيه وتصلحه وتقرّبه من ربه.

وتتعدّد الأسباب والحِكَم التي فرض الله تعالى الصلاة من أجلها، ومن أهمّ ما نُعرّف أولادنا به منها ما يأتي:

السبب الأول: الصلاة تجسّد عبوديتنا لله

من أهمّ الحِكَم التي فُرضت الصلاة من أجلها أنّها تُجسّد عبوديّتنا لله تعالى. ولفهم ذلك، ينبغي أن نبدأ بتوضيح معنى العبوديّة لله.

العبودية لله تعني أن يعرف الإنسان أنه عبدٌ لله، وأن الله هو خالقه ومالكه وربّه، فيخضع له ويطيعه، ويلتزم بأوامره ونواهيه. فالعبد الحقيقي لله لا يكتفي بأن يقول: «أنا أؤمن بالله»، بل يترجم إيمانه إلى طاعة عملية.

فالعبادة ليست أمرًا ثانويًّا في حياة الإنسان، بل هي الغاية التي خلقه الله من أجلها، فقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[١٥٥].

ولهذا جاءت الصلاة لتغرس هذا المعنى في الإنسان كل يوم؛ فحين يقف بين يدي الله، ويركع له، ويسجد، ويقول في صلاته اليومية عشر مرات على الأقل[١٥٦]: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾، فإنه لا يكتفي بأن يقول بلسانه: إن الله ربي، بل يحوّل هذه العقيدة إلى موقف عملي يعلن فيه: أنت ربي وأنا عبدك، أعبدك وأخضع لأمرك، ولا أقدّم على أمرك أمرًا.

وقد أشار أهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ إلى هذا المعنى في بيان بعض أفعال الصلاة؛ فعن الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ، في الرجل يرفع يديه كلما هوى للركوع والسجود، وكلما رفع رأسه من ركوع أو سجود، قال عَلَيْهِ السَّلَامُ: «هي العبودية»[١٥٧]؛ أي إن هذه الهيئة التي يؤديها المصلّي بين يدي الله مظهرٌ من مظاهر عبوديته وخضوعه له سبحانه.

وقد يستثقل بعض الناس كلمة «العبودية»، ظنًّا منهم أنها تعني الذل وسلب الحرية، وهذا ناشئ من الخلط بين العبودية لله تعالى والعبودية لغير الله.

فالإنسان لا بد أن يخضع في حياته لشيء يقوده ويوجّه قراراته؛ فهو إما أن يكون عبدًا لله، وإما أن يكون عبدًا لغيره. وليس المقصود بعبودية غير الله أن يسجد الإنسان لشخص بالضرورة، فقد يكون عبدًا لهواه وشهواته، أو للمال والشهرة، أو لضغط الناس وأشخاص فاسدين يوجّهونه؛ حتى تصبح هذه الأمور هي التي تحدد له ماذا يفعل وماذا يترك. وقد قال تعالى:

﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ ﴾[١٥٨]، وقال أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ: «ولا تكن عبد غيرك وقد جعلك الله حرًّا»[١٥٩].

فعبودية غير الله تورث الذل؛ لأنها خضوع لما هو مثل الإنسان أو أدنى منه، أما العبودية لله فهي عزّ وكرامة؛ لأنها خضوع للخالق الحكيم، وثمرة هذه الطاعة تعود إلى الإنسان نفسه. فهي تحرر من عبودية ما سوى الله، لا ذلّ ولا استعباد.

السبب الثاني: الصلاة تديم صلتنا بالله

الإنسان ليس جسدًا فقط، بل له روح كما أن له جسدًا؛ وكما يحتاج الجسد إلى الغذاء ليقوى، وإلى الدواء إذا مرض، تحتاج الروح إلى ما يغذّيها ويمنحها الطمأنينة والقوة. وغذاء الروح ودواؤها في صلتها بالله تعالى وذكره وطاعته؛ فكلما ابتعد الإنسان عن ربّه ضعفت روحه، وكلما قويت صلته به اطمأن قلبه واستمد منه القوة والثبات، قال تعالى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾[١٦٠].

ويمكن أن نقرّب هذه الصلة إلى أولادنا فنقول: الصلاة حوار بين العبد وربّه. فإذا أردتَ الاتصال بشخص ولم تُدخل رقم هاتفه كاملًا، فهل يتم الاتصال؟ كلا. وكذلك للصلاة مواقيتها وركعاتها التي شرعها الله تعالى، ويمكن أن نساعد الطفل على حفظها بالرقم ٢٤٤٣٤: ركعتان للصبح، وأربع للظهر، وأربع للعصر، وثلاث للمغرب، وأربع للعشاء.

ثم نبيّن له كيف يكون هذا الحوار: فلما تبدأ الصلاة بتكبيرة الإحرام وتقول: «الله أكبر»، فكأنما تقول له: أنت أكبر من أن توصف. ولما تقرأ سورة الحمد وتقول: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[١٦١]، فأنت تخبر الله بأن الحمد له، ربِّ العالمين وخالق جميع المَخلوقات. ولما تقول: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾[١٦٢]، أي: نعبدك أنت وحدك، فلا نعبد الهوى والشهوات وشياطين الجن والإنس. ولما تقول: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾[١٦٣]، فأنت تسأله أن يهديك صراط محمد وآل محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ.

وفي نهاية الصلاة نودّع مَن شهد صلاتنا بالسلام، فنقول: «السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته»؛ فنحن نسلّم على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، لأن الله تعالى جعل رسوله وأهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ شهداء على أعمالنا، قال تعالى: ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾[١٦٤]، وقد ورد في روايات أهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ أن المراد بالمؤمنين هنا الأئمة عَلَيْهِمُ السَّلَامُ. ثم نقول:

«السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين»، وفي مقدمة عباد الله الصالحين محمد وآله الطاهرون عَلَيْهِمُ السَّلَامُ[١٦٥].

ومن الشهود على صلاتنا الملائكة أيضًا؛ فقد روي عن الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ أن ملك الموت يتصفح الناس في كل يوم خمس مرات عند مواقيت الصلاة، فإن كان ممن يواظب عليها عند مواقيتها لقنه شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، ونحى عنه ملك الموت إبليس[١٦٦].

السبب الثالث: الصلاة تعلّمنا شكر المنعم

من المهم أن نربي أنفسنا وأولادنا على ألا نألف النعم حتى ننسى المنعم؛ فنحن نعيش كل يوم وسط نعم قد لا نشعر بقيمتها إلا إذا فقدناها: الحياة، والعقل، والبصر، والسمع، والصحة، والأهل، والطعام، والأمان، وغيرها مما لا نستطيع إحصاءه، قال تعالى: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾[١٦٧].

ونستطيع تقريب الفكرة لأولادنا فنقول: تخيّل إنسانًا فقد بصره، فأعطاه طبيب جهازًا يعيد إليه النظر، على أن يعمل له خمس ساعات يوميًا، وإلا أوقف الطبيب الجهاز فعاد إلى العمى. فهل سيرى العاقل خمس ساعات كثيرة، أم يقبل بها؛ لأن بصره أغلى من هذا الوقت؟

فكيف بالله سبحانه الذي وهبنا البصر والسمع والعقل وسائر النعم من غير ثمن، ولم يكلّفنا في الصلاة اليومية إلا سبع عشرة ركعة موزعة على اليوم؟

ومع هذا فالصلاة ليست ثمنًا لنعم الله؛ فنعم الله أعظم من أن نستطيع أداء ثمنها، وإنما هي اعتراف بالنعمة وشكر للمنعم؛ فنقف بين يديه ونردد في صلاتنا: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[١٦٨]، لنربي أنفسنا كل يوم على ألا ننسى النعمة ولا المنعم.

السبب الرابع: الصلاة تزكّي النفس وتربيها

قال تعالى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ﴾[١٦٩]. وتزكية النفس تعني تطهيرها مما يفسدها، وتنمية الإيمان والتقوى والأخلاق الحسنة فيها. فالإنسان قد يقع خلال يومه في الذنب أو التقصير، فتأتي الصلاة لتطهر نفسه من السيئات، قال تعالى: ﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ﴾[١٧٠].

ولنقرّب هذا المعنى إلى أولادنا بصورة محسوسة، نذكر لهم ما روي عن الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ: «لَوْ كَانَ عَلَى بَابِ أَحَدِكُمْ نَهَرٌ، فَاغْتَسَلَ مِنْهُ كُلَّ يَوْمٍ خَمْسَ مَرَّاتٍ، هَلْ كَانَ يَبْقَى عَلَى جَسَدِهِ مِنَ الدَّرَنِ شَيْءٌ؟ إِنَّمَا مَثَلُ الصَّلَاةِ مَثَلُ النَّهَرِ الَّذِي يُنَقِّي الدَّرَنَ، كُلَّمَا صَلَّى صَلَاةً كَانَ كَفَّارَةً لِذُنُوبِهِ إِلَّا ذَنْبٌ أَخْرَجَهُ مِنَ الْإِيمَانِ، مُقِيمٌ عَلَيْهِ»[١٧١]. وحين يرى الطفل الماء أو يغتسل، نذكّره بهذا التشبيه: كما يطهّر الماء جسدك من الأوساخ، تطهّر الصلاة نفسك من آثار الذنوب. ونربط المعنى بصورة أخرى؛ فعندما يرى أوراق الشجر تتساقط، نذكّره بقول رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ الْعَبْدَ الْمُسْلِمَ إِذَا قَامَ إِلَى الصَّلَاةِ تَحَاتَّتْ عَنْهُ خَطَايَاهُ كَمَا تَحَاتَّتْ وَرَقُ هَذِهِ الشَّجَرَةِ»[١٧٢]. وبذلك نربط الصلاة بصورٍ محسوسة تتكرر أمام الناشئ؛ فكلما رأى الماء أو تساقط الأوراق تذكّر الصلاة وأثرها في تطهير نفسه، فيترسّخ معناها في ذهنه ولا تبقى عنده مجرد تكليف يؤديه.

السبب الخامس: الصلاة تبني التقوى وتحمي من المعصية

قال تعالى: ﴿ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ﴾[١٧٣]. لكن كيف تنهى الصلاة عن المنكر؟ لأن الطفل الذي يقف كل يوم بين يدي الله، ويقول: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾[١٧٤]، ويطلب الهداية بقوله: ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾[١٧٥]،

ويركع ويسجد، ويتذكر﴿ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾[١٧٦]، تتكرر في نفسه معاني مراقبة الله حتى تنشأ لديه قوة داخلية تساعده على مقاومة الخطأ. ولهذا ذكر الإمام الرضا عَلَيْهِ السَّلَامُ من علل الصلاة: «ويكون في ذكره لربه وقيامه بين يديه زاجرًا له عن المعاصي، ومانعًا من أنواع الفساد»[١٧٧].

فالصلاة لا تمسك يد الإنسان بالقوة إذا أراد المعصية، وإنما تبني في داخله وازعًا يقول له عندما يخلو بنفسه ولا يراه أبوه ولا أمه: الله يراني.

السبب السادس: الصلاة طريق إلى ثواب الله والنجاة من عقوبة معصيته

لقد رتّب الله سبحانه على الصلاة آثارًا وثوابًا عظيمًا في الدنيا والآخرة، وقد جمعت الرواية الآتية جملةً منها: روي عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ أنه قال:

« الصلاة مرضاة الله تعالى، وحب الملائكة، وسنة الأنبياء، ونور المعرفة، وأصل الإيمان، وإجابة الدعاء، وقبول الأعمال، وبركة في الرزق، وراحة في البدن، وسلاح على الأعداء، وكراهة الشيطان، وشفيع بين صاحبها وملك الموت، وسراج في القبر، وفراش تحت جنبيه، وجواب منكر ونكير، ومؤنس في السراء والضراء، وصائر معه في قبره إلى يوم القيامة »[١٧٨].

ومن أعظم الثواب المترتب على المحافظة على الصلاة الفوز بالجنة؛ فقد قال تعالى في المحافظين على الصلاة:﴿ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝ أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ۝ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾[١٧٩]. فالمحافظة على الصلاة جاءت من صفات أهل الفردوس.

وفي المقابل، فإن ترك الصلاة من أسباب استحقاق العقوبة؛ فقد قال تعالى عن أهل سقر:﴿ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ۝ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ﴾[١٨٠].

المبحث الثالث: مشكلات الأولاد مع الصلاة وسبل علاجها

المطلب الأول: أسباب التهاون بالصلاة وعلاجها

لا يحدث التكاسل عن الصلاة أو تركها من فراغ، بل تقف وراءه أسباب متعددة تختلف من شخص إلى آخر؛ ولذلك يبدأ العلاج الصحيح بتشخيص السبب، ثم اختيار العلاج المناسب له. ومن أبرز هذه الأسباب:

أولاً: ضعف الأساس الإيماني والمعرفي

من أبرز أسباب تهاون الأولاد بالصلاة ضعف إيمانهم بالله تعالى ومعرفتهم به؛ فالإيمان هو الأساس الذي تُبنى عليه فروع الدين، ومن بينها الصلاة وسائر التكاليف الشرعية.

وكما لا يثبت البناء من دون أساس متين، لا نستطيع بناء التزام ديني راسخ في أولادنا من دون ترسيخ معرفة الله ورسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ والمعاد؛ فإذا ضعف هذا الأساس، أصبحت التكاليف الدينية أوامر لا يعرف الولد لماذا يلتزم بها ولا مَن يطيع.

ولتقريب الفكرة: لو سألنا ملحدًا: لماذا لا تصلّي؟ ألا تخاف مخالفة الله ورسوله والحساب في الآخرة؟ سيجيب: أنا لا أؤمن بالله ولا برسوله ولا بالمعاد. فكيف نطالبه بفروع الدين قبل أن يؤمن بأصوله؟

ولذلك وجّهتنا الشريعة إلى بناء عقيدة أولادنا أولًا، بتعريفهم بأصول الدين؛ لأنها أساس إيمانهم، ومنها ينطلق التزامهم بفروع الدين وعباداتهم، فقد روي عن الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ: «إنَّ الله جلَّ ذكره ما خلق العباد إلا ليعرفوه، فإذا عرفوه عبدوه، فإذا عبدوه استغنوا بعبادته عن عبادة من سواه»[١٨١].

العلاج المباشر:

◆ بناء الأساس الإيماني قبل المطالبة بالصلاة: نعرّف الولد بالله تعالى ورسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ وأهل بيته عَلَيْهِمُ السَّلَامُ والمعاد؛ حتى يعرف لمن يصلّي ولماذا يطيعه، فتكون الصلاة ثمرة للإيمان لا مجرد أمر خارجي. ويمكن الاستفادة من الجزء (٣٠) «هكذا عرفتُ الله» من سلسلة لمسات تربوية.

وإذا كان يشك في وجود الله أو المعاد، فلا نكرر عليه: «صلِّ»، بل نعالج أصل الشبهة أولًا، ويمكن الاستعانة بمحاضرتَي إثبات وجود الله في سلسلة «زاد المبلّغات» [١٨٢].

ثانيًا: ضعف القناعة بأهمية الصلاة والغاية منها

قد يؤمن الولد بالله، ولكنه لا يدرك مكانة الصلاة ولماذا أوجبها الله تعالى؛ فيؤديها بلا قناعة أو يتهاون بها لضعف معرفته بقيمتها وآثارها.

العلاج المباشر:

◆ نبيّن له أهمية الصلاة وغاياتها بأساليب مقنعة تناسب عمره، ولا نكتفي بأمره بأدائها؛ ومن ذلك أن نحوّل معنى كون الصلاة عمود الدين إلى تجربة يراها بعينه. فنصنع معه نموذجًا بسيطًا لخيمة من قطعة قماش، وعمودٍ يُنصب في وسطها، ثلاثة أوتاد تُشدُّ إليها أطراف الخيمة وتُثبَّت في الأرض، ثم نبيّن له أن الولاية لأهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ بمنزلة الأرض التي يقوم عليها الدين؛ فقد روي عن الإمام الباقر عَلَيْهِ السَّلَامُ: «بُنِيَ الإسلامُ على خمس: على الصلاة والزكاة والصوم والحج والولاية، ولم يُنادَ بشيء كما نودي بالولاية» [١٨٣].

ثم نسأله: ماذا يحدث للخيمة إذا أزلنا عمودها؟ سيراها تسقط أو يختل بناؤها، فنخبره أن الصلاة كذلك؛ فقد قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «مَثَلُ الصلاة مَثَلُ عمود الفسطاط، إذا ثبت العمود نفعت الأطناب والأوتاد

والغشاء، وإذا انكسر العمود لم ينفع طنب ولا وتد ولا غشاء»[١٨٤].

قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «أوّل ما يُحاسَب العبد الصلاة، فإن قُبلت قُبل ما سواها، وإن رُدّت رُدّ ما سواها»[١٨٥].

ويمكن تقريب ذلك للولد بمثال يعرفه: لو أعلنت شركة عن وظيفة واشترطت شهادةً معينة مع شروط أخرى، فإن فاقد الشرط الأساس (الشهادة) لا تنفعه بقية مؤهلاته للحصول على تلك الوظيفة، أمّا إذا امتلكه نُظر في بقية مؤهلاته. وهكذا يدرك الولد أن للصلاة منزلة خاصة بين الأعمال.

ثالثًا: تأخر التربية على الصلاة إلى ما بعد سن التكليف

من أسباب ضعف الالتزام بالصلاة أن يؤخّر المربي تعليم الولد وتدريبه عليها حتى يبلغ سن التكليف، ثم يطالبه فجأة حين يبلغ سن التكليف بالمحافظة عليها، مع أن أهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ أرشدوا إلى تدريبه عليها قبل ذلك؛ فقد روي عن الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ، عن أبيه عَلَيْهِ السَّلَامُ: «إِنَّا نَأْمُرُ صِبْيَانَنَا بِالصَّلَاةِ إِذَا كَانُوا بَنِي خَمْسِ سِنِينَ، فَمُرُوا صِبْيَانَكُمْ بِالصَّلَاةِ إِذَا كَانُوا بَنِي سَبْعِ سِنِينَ»[١٨٦].

فالطفل كالشتلة الصغيرة؛ ما دام عودها طريًّا يسهل توجيهها، فإذا اشتد أصبح تقويمها أصعب. وكذلك بناء عادة الصلاة في الصغر أيسر من بنائها بعد سنوات من عدم التدريب، ولا سيما أن تقبّل توجيه الوالدين يقل نسبيًا مع الميل إلى الاستقلال في المراهقة.

العلاج المباشر:

- تدريب الطفل تدريجيًا على الصلاة في السنوات السابقة للتكليف؛ حتى يصل إلى البلوغ وقد أصبحت سلوكًا مألوفًا، لا تكليفًا جديدًا يفاجأ به.

رابعًا: التعرض لخطاب ديني تنفيري قسري

قد ينشأ الولد في بيئة تعتمد الترهيب أو الصراخ أو الضرب عند التقصير؛ فترتبط الصلاة في ذهنه بالخوف والإكراه، وقد يظهر نفوره منها عند بلوغه أو استقلاله.

العلاج المباشر:

◆ التحول من الإجبار إلى التحبيب، بتعريفه برحمة الله ولطفه وقربه، وربط الصلاة بمحبته والأنس بذكره، مع الموازنة بين الرجاء والخوف.

◆ اعتماد الحوار والقدوة بدل الأوامر، والاستماع إلى اعتراضاته ومناقشتها بالحجة والكلمة الطيبة، بدل الاكتفاء بـ«افعل» و«لا تفعل». فقد نُسب إلى أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ: «لا تَقْسِروا أولادكم على آدابِكم، فإنهم مخلوقون لزمانٍ غيرِ زمانِكم»[١٨٧].

خامسًا: الصداقة والبيئة المحيطة المثبطة

قد يتأثر الولد بأصدقاء لا يهتمون بالصلاة أو يسخرون ممن يحافظ عليها؛ فيضعف تحت ضغط الجماعة.

العلاج المباشر:

◆ تشجيعه على صحبة من يعينونه على الصلاة، وتوفير بيئة داعمة له.

◆ تدريبه على إظهار التزامه بثقة، كأن يقول: «دخل وقت الصلاة، سأصلّي ثم أعود إليكم»، دون خجل من الآخرين.

سادسًا: التسويف والتأجيل المتكرر

قد لا يرفض الشخص الصلاة، ولكنه يقول: «سأصلّي بعد قليل» أو «ما

زال الوقت طويلًا»، حتى يضيق الوقت أو يخرج، ومع التكرار يصبح التأجيل عادة. ويظهر ذلك خصوصًا عند الاستغراق في الألعاب الإلكترونية ومواقع التواصل والمقاطع؛ إذ يصعب عليه قطع ما اندمج فيه. وقد حذّر الإمام الباقر عَلَيْهِ السَّلَامُ من التسويف فقال: «إيّاكَ والتسويفَ، فإنّه بحرٌ يَغرَقُ فيه الهَلْكى»[١٨٨].

العلاج المباشر:

◆ معالجة ما يغذّي التسويف، ولا سيما الإفراط في استخدام الأجهزة والألعاب ومواقع التواصل، وتنظيم استخدامها بما يحفظ أوقات الصلاة. ولمساعدة الأولاد على ضبط تعاملهم مع التقنيات الرقمية، يمكن الاستفادة من الجزء (٣٤) «حسن التعامل مع التقنيات الرقمية» من سلسلة «لمسات تربوية».

◆ تطبيق قاعدة «الخمس ثواني»: عند دخول وقت الصلاة يعدّ تنازليًا: (١-٢-٣-٣-٥)، ثم يقوم إليها مباشرة قبل اختلاق مبررات التأجيل.

◆ ربط الصلاة بوقت ثابت، كأدائها عند الأذان؛ حتى يصبح الانتقال إليها عادة تقلّل فرصة التأجيل.

سابعًا: غياب القدوة العملية

يتأثر الولد بما يراه من والديه أكثر مما يسمعه منهما، وقد تضعف قيمة الصلاة في نفسه إذا كان مَن يطالبه بها لا يحافظ عليها. ويختلف العلاج بحسب حال الأسرة:

الحالة الأولى: إذا كان كلا الوالدين محافظًا على الصلاة

فهذه أفضل حالات القدوة، لكن الولد قد يتكاسل لأسباب أخرى؛ لذا يبحث الوالدان عن السبب الخاص ويعالجانه، مع استمرار القدوة والتذكير

الهادئ والصلاة معه.

الحالة الثانية: أن يكون الأب محافظًا والأم لا تصلّي

يسعى الأب إلى تقوية علاقته بولده حتى يكون من «أصدقاء الثقة» الذين يقبل توجيههم، ويصلّي معه ويربطه ببيئة وصحبة صالحة، دون الإساءة إلى الأم أو تحويل تقصيرها إلى صراع. ويمكن الرجوع إلى المحاضرة العاشرة: «كيف نصادق أولادنا؟».

الحالة الثالثة: أن تكون الأم محافظة والأب لا يصلّي

تحرص الأم على بناء علاقة قائمة على الثقة مع ولدها، وتستمر في القدوة والصلاة معه، وتدعمه بقدوات صالحة كالجد أو العم أو الأخ الأكبر أو المربي الموثوق، دون الانتقاص من الأب، وتعلّمه أن احترامه لا يعني تقليده في تقصيره.

الحالة الرابعة: أن يكون الوالدان متهاونين بالصلاة

يبدأ الإصلاح منهما بالانتظام في الصلاة حتى ينسجم فعلهما مع ما يطلبانه من ولدهما، ويمكن الاستعانة بقدوة صالحة وبيئة داعمة، دون أن يعفيهما ذلك من إصلاح تقصيرهما.

الحالة الخامسة: أن يكون الوالدان لا يصلّيان

الأصل أن يبدأ الوالدان بإصلاح حالهما والعودة إلى الصلاة. فإن استمرا في تركها، فلا يُترك الولد بلا توجيه؛ بل يمكن لقريب أو معلّم أو مربٍّ صالح أن يبني معه علاقة طيبة، ويعرّفه بأهمية الصلاة ويعلّمه الوضوء والصلاة عمليًا، ويربطه بالمسجد والبرامج الدينية والصحبة الصالحة.

الخلاصة: لا نسأل فقط: «لماذا لا يصلّي الولد؟»، بل أيضًا: «ما القدوة التي يراها أمامه؟». فإن كان الخلل في الوالدين بدأ الإصلاح منهما، وإن تعذّر ذلك بحثنا عن قدوة صالحة مؤثرة، مع معالجة السبب الخاص لتهاونه بالصلاة.

المطلب الثاني: نموذجان تطبيقيان من معاناة المربين

بعد أن تعرفنا إلى أبرز أسباب الاستخفاف بالصلاة وسبل علاجها، نعرض نموذجين من المشكلات التي قد يواجهها المربون مع أولادهم في هذا المجال، وكيفية التعامل معها، وهما كما يأتي:

نموذج تطبيقي رقم (١)

إحدى الأمهات تقول: ابني في مرحلة المراهقة، يصلّي أحيانًا وينقطع عن الصلاة أحيانًا أخرى. حاولت تشجيعه بالحلوى التي يحبها، واشتريت له بعض الكتب الدينية، ولكنه لا يحب القراءة، ويقضي وقتًا طويلًا أمام الحاسوب حتى ينسى صلاته. فماذا أفعل معه؟

الجواب: هذه الحالة لا تُعالج بكثرة قولنا له: «صلِّ»، وإنما نحتاج إلى معرفة سبب انقطاعه، ثم اختيار الأسلوب الذي يناسب عمره ومشكلته. ويمكن التعامل معه من خلال ما يأتي:

١. نعرف أولًا سبب انقطاعه عن الصلاة

تجلس الأم معه بهدوء وتسأله دون لوم: «أنت تصلّي أحيانًا، فما الذي يجعلك تترك الصلاة أحيانًا أخرى؟». فقد يكون السبب الانشغال بالحاسوب، أو الكسل، أو ضعف القناعة، أو وجود شبهة؛ فلا نستطيع اختيار العلاج قبل معرفة السبب.

٢. نغيّر وسائل التعامل معه بما يناسب مرحلة المراهقة

الحلوى قد تكون وسيلة مناسبة في مرحلة عمرية أصغر، لكنها ليست بالضرورة مناسبة للمراهق، كما أن شراء الكتب لمن لا يحب القراءة لن يحقق الغرض. فالمشكلة ليست في الحلوى أو الكتاب نفسيهما، وإنما في اختيار وسيلة

لا تناسب عمره وميوله.

ويمكن تقريب ذلك بقصة الطفل الذي وضع الفراولة في صنارة الصيد؛ لأنه يحب الفراولة، فقال له أبوه: السمكة لا يهمها ما تحبه أنت، وإنما عليك أن تقدم لها ما يناسبها. وكذلك المربي يحتاج إلى أن يعرف ما يناسب ولده، لا أن يختار الوسيلة بناءً على ما يحبه هو.

٣. إذا كان الحاسوب هو الذي يشغله عن الصلاة، نعالج هذا السبب عمليًا

لا يكفي أن نقول له كل يوم: «لا تنسَ الصلاة»، ثم نتركه ساعات طويلة مستغرقًا أمام الشاشة. بل نتفق معه على نظام واضح: عندما يدخل وقت الصلاة يتوقف عن الحاسوب، يصلّي، ثم يعود إليه. ويمكن وضع تنبيه للأذان على الحاسوب أو الهاتف حتى يصبح وقت الصلاة علامة توقف ثابتة في برنامجه اليومي.

٤. نستثمر اهتمامه بالحاسوب بدل أن نحاربه

ما دام يحب الحاسوب، فيمكن تحويل بعض هذا الاهتمام إلى وسيلة تقرّبه من الصلاة؛ كأن يشاهد مادة قصيرة وجذابة عن الصلاة من مصدر شيعي موثوق، أو يصمم مسابقة إلكترونية وينشرها لأصدقائه، أو يصمم بطاقة أو سؤالًا أو نشاطًا رقميًا متعلقًا بالصلاة. وبذلك لا نفرض عليه وسيلة لا يحبها، بل ندخل إلى اهتمامه ونوجهه توجيهًا نافعًا.

٥. نساعده على تثبيت الصلاة كعادة يومية

لأنه يصلّي أحيانًا ويترك أحيانًا، فنحن نحتاج إلى الانتقال به من الصلاة المتقطعة إلى الانتظام. ويمكن في البداية أن يصلي مع أبيه أو مع الأسرة، أو يتفق مع أحد أصدقائه الصالحين على تذكير بعضهما بالصلاة، مع متابعة هادئة من الوالدين. ثم تقل هذه المتابعة تدريجيًا حتى يصبح هو المسؤول عن صلاته.

٦. نعامله بوصفه مراهقًا نريد إقناعه وتحميله المسؤولية

بدل أن يبقى التعامل معه كطفل نطارده عند كل صلاة، نتحدث معه بوضوح عن أنه يقترب من عالم الكبار، وأن الصلاة بعد التكليف مسؤوليته أمام الله سبحانه وتعالى، وليست واجبًا يؤديه لإرضاء أمه وأبيه. فالهدف أن ينتقل من: «أصلّي لأن أمي تطلب مني» إلى: «أصلّي لأن الله أمرني وأنا مسؤول أمامه».

٧. نتابع النتيجة ونغيّر العلاج إذا لم يتحسن

إذا نُظّم الحاسوب واستمرت المشكلة، فلا نفترض أن الحاسوب كان السبب الحقيقي. نعود إلى الحوار معه ونبحث أعمق: هل توجد شبهة؟ هل هناك صحبة تستهين بالصلاة؟ هل أصبح ترك الصلاة نوعًا من العناد مع الوالدين؟ فالعلاج الناجح لا يكرر الوسيلة نفسها، وإنما يراجع السبب كلما لم تظهر النتيجة المطلوبة.

فالقاعدة في هذه الحالة هي: لا نطارد المراهق بالصلاة فقط، بل نبحث عما يبعده عنها، ونعالج هذا السبب، ونختار الوسيلة التي تناسب عمره واهتماماته، ثم نساعده حتى يتحمل مسؤولية صلاته بنفسه.

نموذج تطبيقي رقم (٢)

أم تقول: ابنتي عمرها عشر سنوات، وكثيرًا ما تدّعي أنها صلّت وهي لم تصلِّ، بل أراها أحيانًا تضع سجادة الصلاة لتوهمني بأنها صلّت. وقد نهرتها وعاقبتها، ووصل الأمر أحيانًا إلى ضربها، ولكنها ما زالت تفعل ذلك، ولا يشغلها إلا اللعب. فماذا أفعل معها؟

الجواب:

هذه الحالة لا تحتاج إلى مزيد من العقوبة، وإنما إلى تغيير طريقة التعامل

معها؛ لأن المشكلة أصبحت تشمل التكاسل عن الصلاة والكذب للهروب من العقوبة والانشغال باللعب.

ويمكن التعامل معها من خلال ما يأتي:

١. نوقف الضرب والصراخ ونعالج غضبنا

إذا استُعمل الضرب ضمن حدوده وضوابطه الشرعية[١٨٩]، ولم يؤدِّ إلى محافظتها على الصلاة، بل دفعها إلى إخفاء تقصيرها، فلا يصح الاستمرار بالطريقة نفسها. وعلى الأم أن تتعلم السيطرة على غضبها، وألا تناقش ابنتها وهي منفعلة؛ لأن الشدة قد تجعل الطفلة تخاف من أمها وتتعلم إخفاء الحقيقة عنها، بدل أن تتعلم المحافظة على الصلاة. وقد قال تعالى: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾[١٩٠]، وقال سبحانه: ﴿وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾[١٩١].

٢. نبحث عن سبب الكذب ونعالجه

لا يكفي أن نقول: «ابنتي تكذب»، بل ينبغي أن نعرف لماذا كذبت؟ فنسألها بهدوء: «لماذا قلتِ إنك صليتِ وأنتِ لم تصلّي؟ هل كنتِ تخافين من عقابي؟ أم كنتِ تريدين الاستمرار في اللعب؟». فالكذب سلوك له أسبابه، وإذا عرفنا السبب استطعنا علاجه. وقد يكون ما تفعله الطفلة هنا وسيلةً للهروب من العقوبة أو لتجنّب قطع لعبها.

٣. نفتح لها باب الصدق ونشاركها في الصلاة

إذا قالت: «صلّيت»، وكانت الأم متأكدة أنها لم تصلِّ، فلا تبدأ بتوبيخها: «أنتِ كاذبة، وأنا أعرف أنك لم تصلّي»، ولا تتظاهر في الوقت نفسه بتصديقها. بل تقول بهدوء: «أريد منكِ أن تقولي لي الحقيقة، وإذا لم تصلّي فلا تخافي، تعالي نصلّي الآن معًا».

ولا يقتصر الأمر على هذه الحالة، بل يمكن للأم فترةً من الزمن أن تدعو

ابنتها عند دخول الوقت قائلة: «تعالي نصلّي معًا»، بدل الاكتفاء بالسؤال المتكرر: «هل صلّيتِ؟». وهكذا نعلّمها أن الاعتراف بالخطأ أفضل من إخفائه، ونساعدها في الوقت نفسه على تثبيت عادة الصلاة من خلال المشاركة والتدريب.

٤. ننظّم وقت اللعب حتى لا يصبح منافسًا للصلاة

اللعب حاجة مهمة للطفل، ولذلك لا ينبغي أن تصبح الصلاة في ذهن الطفلة هي التي تقطع عليها لعبها في كل مرة. فإذا كان لها وقت محدد للعب، فالأفضل ـ ما أمكن ـ ألا نجعل ذروة وقت اللعب متزامنة مع وقت الصلاة، بل ننظم برنامجها بحيث تؤدي الصلاة ثم تبدأ لعبها أو تستكمله.

أما إذا دخل وقت الصلاة وهي تلعب، فنمهّد لها بدل قطعها بصورة مفاجئة، ثم نقول: «نصلّي معًا وبعدها تكمّلين لعبك». فكلما أحسنّا تنظيم وقتها، قلّ الصراع بين ما تحبه وبين الصلاة، وأصبحت أقدر على التوجه إليها بهدوء.

٥. نقوّي علاقتنا بها ونستخدم الترغيب المناسب

تحتاج الأم إلى أن يكون بينها وبين ابنتها وقت للمحبة والحديث واللعب، لا أن تكون علاقتهما قائمة على الأوامر والمحاسبة فقط. ويمكن استثمار ما تحبه الطفلة في تشجيعها؛ كأن تقول الأم: «نصلّي معًا، ثم نلعب أنا وأنتِ»، أو تستخدم وسائل ترغيب أخرى تناسب عمرها وميولها.

فكلما قويت العلاقة بين المربي وولده، أصبح توجيهه أكثر قبولًا وتأثيرًا، وأصبح من الأسهل أن يقوده إلى الصلاة بالمحبة والتدريب بدل الخوف والهروب.

ومن النماذج المشرقة التي نستحضرها في هذا المجال صاحبة الذكرى أم البنين عَلَيْهَا السَّلَامُ؛ فقد نشّأت أولادها الأربعة تنشئة إيمانية ولائية، وكانت

الصلاة وسائر العبادات من الأسس التي تقوم عليها التربية الإيمانية.

ولم تكن الغاية من تربيتهم على الصلاة مجرد أدائها، بل أن تؤتي ثمارها في نفوسهم وسلوكهم؛ فقد قال تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾[١٩٢]، كما أن العبادة تغرس التقوى في النفس، قال تعالى: ﴿اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[١٩٣].

وقد ظهرت ثمار هذه التربية الإيمانية في أسمى صورها يوم عاشوراء؛ حين وقف أبناؤها الأربعة مع إمام زمانهم الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ، فثبتوا على الطاعة والولاء، وقدّموا أنفسهم واحدًا بعد آخر بين يديه حتى نالوا شرف الشهادة.

ولم يتجلَّ نجاح أم البنين عَلَيْهَا السَّلَامُ في تربية أبنائها فحسب، بل تجلّى أيضًا في إيمانها ووفائها العميق لأهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ وصبرها على فقد أبنائها الأربعة.

وقد نُقل في بعض الكتب التي تناولت سيرتها أنه لما رجعت عائلة الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى المدينة، قالت السيدة زينب عَلَيْهَا السَّلَامُ:

لا أريد أن يدخل عليَّ إلا مَن فقدت عزيزًا لها في كربلاء. وجلست في منزلها، وجعلت جاريتها على الباب.

وبينما هي كذلك، طُرق الباب، فقالت الجارية: مَن بالباب؟ إن سيدتي زينب لا تريد أن يدخل عليها إلا مَن فقدت عزيزًا لها في كربلاء. فقالت المرأة: قولي لسيدتك زينب: إني شريكتها في هذا العزاء، ومثلها في المصاب، وأريد أن أدخل عليها لأواسيها.

فلما أخبرت الجاريةُ السيدةَ زينب عَلَيْهَا السَّلَامُ، قالت: سليها مَن تكون حتى تكون مثلي في المصاب؟ ثم قالت:

إن صدق ظني فهي أم البنين. فرجعت الجارية وسألتها: مَن أنتِ؟ فقالت: أنا الثاكلة، أنا أم الفاجعة الكبرى.

فقالت الجارية: عرّفيني بنفسك. قالت: أما عرفتِني؟ أنا أم البنين. فقالت الجارية: لقد صدقت سيدتي في ظنها؛ وإنكِ، والله، كما تقولين: أمُّ المصيبة العظمى والفاجعة الكبرى[١٩٤].

(نصاري)

صاحت صوت آيا فگد الأطياب — والله اشموحشه يا دور الأحباب

اهناك او سمعن الصرخه على الباب — أنا أم عباس اجيتچ لا تفترين

ثم فتحت لها الباب فلما دخلت استقبلتها زينب واعتنقتها وبكت وقالت: عظم الله لك الأجر في أولادك الأربعة، فأجابتها أم البنين وأنت عظم الله لك الأجر في الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ.

(نصاري)

بچت زينب او نادت تلگنها — بالله اوياي گومن ساعدنها

هاي ام البنين الراح منها — صناديد اربعه او بالحرب نفلين

بچت زينب او صاحت آيحزني — او لفنها أم البنين ابضلع محني

تصيح ابصوت آيحسين يبني — هاي امصيبتك بچَّت الدارين[١٩٥]

ليلة ٥ محرم

السلام على أول الشهداء الأطهار

مسلم بن عقيل عليه السلام

السلام على الحسين وعلى علي بن الحسين وعلى أولاد الحسين وعلى أصحاب الحسين

الليلة الخامسة من محرّم الحرام

المناسبة: شهادة مسلم بن عقيل عَلَيْهِ السَّلَامُ

القصيدة: للسيد مهدي الأعرجي

خـان الزمـان بنـا فشـتتنا كمـا ... خانـت بنـو صخـر ببيعـةِ (مسـلمِ)

لـم أنسـه بـين العـدى وجبينُـه ... كالبـدرِ في ليـل العجـاجِ المظلـم

أفديـهِ مـن بطـل مهيـب إنْ سـطا ... لـفّ الجمـوعَ مؤخـرا بمقـدَّم

شـهم نمتـه إلـى البسـالة هاشـمُ ... والشـبلُ للأسـدِ المجـربِ ينتمـي

حتـى إذا مـا أثخنـوه بالضبـا ... ضربـا وفي وسـط الحفيـرةِ قـد رُمـي

جـاؤوا إلـى ابـنِ زيـادَ فيـه فمذ رأى ... للقصـر قـد وافـاه غيـرَ مسـلِّم

قـال اصعـدوا للقصـر وارمـوا جسـمَه ... ومـن الوريديـنِ اخضبـوه بالـدم

صعـدوا بـه للقصـر وهـو مكبَّـل ... تجـري دمـاه مـن الجـوارح والفـم

قتلـوه ظـامٍ لـم يُبـلَّ فـؤادهُ ... أفيـده مـن ظـامِ الحشـا متضـرِّم

دفعـوه من أعـلا الطِمارِ إلـى الثرى ... فتكسّـرت منـه حنايـا الأعظـم[١٩٦]

(نصاري)

يمسلم وين ذاك اليوم عمَّك
يجيك ايعاينك غارج ابدمَّك

وحيد او محَّد من الناس يمَّك
غريب ابهل بلد مالك تچيه

يمسلم وين ذاك اليوم عباس
يجيك بشيمته ومفرّع الراس

او يشوفك يوم صابك نذل
وهويت من الگصر فوك الوطيه[١٩٧]

موضوع المحاضرة الخامسة:

أهداف الحجاب

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَابِيبِهِنَّ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾[١٩٨].

تشير هذه الآية الكريمة إلى جملة من المعاني المهمة المتعلقة بالحجاب. فأول ما نلاحظه أن الخطاب لم يقتصر على أزواج النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ وبناته، بل شمل ﴿ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾؛ ومن ثم فنحن، بوصفنا من نساء المؤمنين، داخلات في هذا الخطاب الإلهي.

ثم بيّن الله تعالى الحكم فقال: ﴿ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَابِيبِهِنَّ ﴾، والجلباب لباسٌ ساتر، وقد ذكر العلامة الطباطبائي في تفسير الميزان أنه «ثوب تشتمل به المرأة فيغطي جميع بدنها، أو الخمار الذي تغطي به رأسها ووجهها»، وفسّر قوله: ﴿ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ ﴾ بقوله: «أي يتسترن بها فلا تظهر جيوبهن وصدورهن للناظرين»[١٩٩].

ولا تقتصر دلالة هذه الآية الكريمة على بيان مشروعية الحجاب، بل أشارت أيضًا إلى هدفٍ من أهداف تشريعه في ذيل الآية، في قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ ﴾ وهو هدف سنشير إليه لاحقًا. والحجاب ليس له هدف واحد، بل له أهداف متعددة أشارت إلى بعضها النصوص الشرعية.

ومعرفة هذه الأهداف أمر مهم؛ فالله سبحانه وتعالى لم يخلق الإنسان ولا يشرّع له الأحكام عبثًا، قال تعالى:

﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾[٢٠٠]، وكما أن لخلق الإنسان غاية، فإن لتشريعات الله تعالى حِكمًا وأهدافًا، والحجاب واحد من هذه التشريعات.

ومعرفة أهداف الحجاب تبني القناعة وتعين على الثبات والالتزام. ومن هنا نسأل كل امرأة وفتاة محجبة:

هل سألتِ نفسك يومًا: ما أهداف الحجاب؟ ولماذا شرّعه الله تعالى؟

ومع الأسف، قد تسأل امرأةً: لماذا أنتِ محجبة؟ فتسكت، أو تتردد، أو تقول: لا أعرف، أو تقدم إجابة لا تعبّر عن أهداف الحجاب الحقيقية. وقد نجد واحدةً من بين تسعٍ وتسعين امرأة تجيب إجابة واعية وواضحة. وهذا يكشف عن تقصيرٍ في تعريف نسائنا وفتياتنا بأهداف هذا التشريع وحِكمه.

ونحن لا نشك في قدرات بناتنا وأخواتنا على الفهم والوعي؛ فهن يتعلمن ويثقّفن أنفسهن في مجالات كثيرة، **فلماذا لا نبني هذا الوعي في دينهن أيضًا؟**

فالمرأة التي تعرف لماذا شرّع الله الحجاب تكون أقدر على الالتزام به ومواجهة الشبهات والضغوط. أما إذا جهلت أهدافه، فقد يصبح الحجاب عندها مجرد عادة أو تكليف لا تدرك أبعاده، فيسهل عليها التهاون ببعض حدوده، ثم التنازل عنها تدريجيًا.

لذلك نحتاج أن نعرف الحجاب عن وعي وبصيرة، لا أن نرتديه من غير أن نعرف لماذا شرّعه الله تعالى وما الذي يريد تحقيقه من خلاله.

ومن هنا يمكن تقسيم أهداف الحجاب إلى قسمين: أهداف عامة، وأهداف خاصة، وسنشير إليهما في المبحثين الآتيين:

المبحث الأول: الأهداف العامة للحجاب

حين نقول: «الأهداف العامة للحجاب»، لا نعني أن هذه الأهداف مختصة بالحجاب وحده، وإنما نعني الغايات الكبرى التي أراد الله تعالى تحقيقها من خلال تشريعاته المختلفة؛ كوجوب الصلاة والصيام والحجاب، وحرمة الغناء وشرب الخمر والزنا وغيرها من الأحكام الشرعية.

فالله سبحانه وتعالى حكيم، ولم يأمرنا بشيء عبثًا، ولم ينهنا عن شيء عبثًا، وإنما شرّع أحكامه لمصلحة الإنسان وإيصاله إلى كماله وسعادته.

ومن هنا ينبغي أن ننتبه إلى أمر مهم جدًا: حتى لو لم نعرف جميع الأهداف والحِكَم الخاصة التي من أجلها شُرِّع الحجاب، فإن ذلك لا يمنعنا من الالتزام به؛ لأننا نعلم أن الله هو الذي أمر به، وأنه سبحانه حكيم لا يأمر إلا بما فيه حكمة ومصلحة.

فما الأهداف العامة التي يحققها الحجاب، كما تحققها سائر الأحكام الشرعية؟

الجواب: إنّ لهذه الأحكام أهدافٌ عديدة، نذكر منها ما يأتي:

الهدف الأول: تحقيق العبودية لله تعالى

هذا هو الهدف الأول والأساس؛ لأن الله تعالى بيّن الغاية التي خُلق الإنسان من أجلها فقال: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[٢٠١].

والعبودية لله لا تعني الصلاة والصيام فقط، وإنما تعني أن يكون الإنسان مطيعًا لله، خاضعًا لأمره، مقدِّمًا إرادته سبحانه على هواه ورغباته.

فحين يقول الله تعالى: صلِّ، أصلّي. وحين يقول: صُم، أصوم. وحين يقول: لا تشرب الخمر، أتركها. وحين يأمر المرأة بالحجاب والستر، تقول: ألتزم؛ لأنني

عبدة لله، وهو ربي وخالقي.

ومن هنا فإن رفض الحجاب، مع العلم بأنه أمر الله تعالى، لا يكون مجرد رفضٍ لقطعة لباس، وإنما هو رفضٌ لمقتضى العبودية في هذا الأمر؛ لأن العبودية الحقيقية لا تبقى كلمةً نقولها، بل تظهر في امتثالنا لأوامر الله. ونحن نكرر في صلاتنا كل يوم: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، أي: إياك نطيع ونخضع. فإذا كنا نعلن عبوديتنا لله بألسنتنا، فلا بد أن نترجمها عمليًا في حياتنا؛ فنقول له بأفعالنا كما نقول بألسنتنا: يا رب، أنت تأمر وأنا أطيع، حتى وإن خالف أمرك رغبتي وهواي.

وقد تواجه الفتاة مجتمعًا يقول لها: لماذا تسترين شعرك؟ لماذا لا ترتدين مثل الأخريات؟ وقد تميل نفسها إلى بعض الملابس التي لا يرضى الله عنها، وهنا يظهر معنى العبودية: مَن الذي ستكون له الكلمة الأخيرة في حياتي: الله أم هواي؟

فالإنسان لا بد أن يخضع لشيء يقوده ويوجّه قراراته؛ فإن لم يجعل أمر الله حاكمًا عليه، قد يجعل هواه أو شهوته أو رأي الناس أو الموضة والمجتمع هي الحاكمة عليه. وحينئذٍ يكون قد تحرر من طاعة الله في الظاهر، لكنه وقع في عبوديةٍ أخرى لغير الله. أما العبودية لله فتحرّره من كل هذه العبوديات؛ فلا يكون عبدًا للموضة، ولا للناس، ولا لشهوته وهواه، وإنما عبدًا لله وحده.

الهدف الثاني: تحقيق التقوى وتزكية النفس

من الأهداف العامة للأحكام الشرعية تحقيق التقوى وتزكية النفس، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[٢٠٢]، والتقوى تعني أن يجعل الإنسان بينه وبين سخط الله وعقابه وقايةً بطاعته؛ ومن أدنى مراتبها أن يؤدي ما أوجب الله عليه، ويجتنب ما حرّمه عليه.

ومع استمرار الإنسان على الطاعة ومخالفة الهوى تتربى نفسه وتتزكى؛ قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ۝ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾[٢٠٣].

والتزكية تتضمن معنيين متكاملين:

التطهير: أي تطهير النفس من الذنوب والرذائل والأخلاق السيئة، كالكبر والحسد والبخل والانقياد للهوى والشهوات.

والتنمية: أي تنمية النفس بالفضائل والطاعات، كالإيمان والعفة والصبر والإرادة ومراقبة الله تعالى.

فالأحكام الشرعية لا تنظّم سلوك الإنسان من الخارج فحسب، بل تبنيه من الداخل؛ فالصيام يدرّبه على ضبط شهواته، والصلاة على الطاعة والخضوع لله، والزكاة والخمس على عدم التعلّق بالمال، والحجاب يربّي المرأة على العفة وضبط رغباتها وتقديم أمر الله عليها.

فالمرأة قد يعجبها لباسٌ يُبرز مفاتنها، أو زينةٌ تزيدها جمالًا؛ كمساحيق التجميل، وتركيب الرموش والأظافر، وتزيين الشفاه، وقد ترغب في إظهار ذلك، لكنها حين تعلم أن الله حرّم عليها إظهار زينتها أمام الأجنبي تمتنع؛ فلا تجعل رغبتها هي التي تقرّر، بل تجعل العقل والشرع حاكمين عليها. وقد سُئل الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ: «ما العقل؟ قال: ما عُبد به الرحمن، واكتُسب به الجنان»[٢٠٤].

وهنا تحقق التزكية ثمرةً أخرى عظيمة، هي التحرر من عبودية الهوى والشهوة؛ فالإنسان إذا كان لا يستطيع مخالفة ما تشتهيه نفسه، فقد أصبح أسيرًا لها وإن ظن نفسه حرًّا، ولذلك قال أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ: «عبد الشهوة أذلُّ من عبد الرق»[٢٠٥]. أما إذا دعته شهوته إلى الحرام فملك نفسه وقدّم أمر الله عليها، فقد تحرر من أسرها؛ وفي ذلك يقول عَلَيْهِ السَّلَامُ: «مَن ترك الشهوات كان حرًّا»[٢٠٦].

فالتزكية لا تعني إلغاء الشهوات، بل تهذيبها وقيادتها وفق أمر الله؛ ليكون الإنسان مالكًا لهواه، لا مملوكًا له. ومن هنا لا يكون الحجاب قيدًا على المرأة، بل تربيةً لإرادتها وصيانةً لكرامتها وتحريرًا لها من أن تكون أسيرةً لشهوةٍ تقودها إلى معصية الله.

الهدف الثالث: تحقيق مصلحة الإنسان وكماله

قد يتساءل الإنسان: لماذا يأمرني الله تعالى بالصلاة والصيام؟ ولماذا يأمر المرأة بالحجاب؟ وما الذي يريده سبحانه من هذه التكاليف؟

والجواب أن الله تعالى غنيٌّ عن عباده، لا تنفعه طاعتهم ولا تضرّه معصيتهم، وإنما تعود ثمرة الطاعة إلى الإنسان نفسه، كما تعود عليه عاقبة المعصية، قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾[٢٠٧].

ولنقرّب الفكرة بمثال: عندما يطلب الطبيب من المريض أن يتناول دواءً معينًا، أو يمتنع عن طعام يضرّه، أو يلتزم بتعليمات تحفظ صحته، فإن الطبيب لا ينتفع بالتزام المريض بهذه التعليمات، وإنما المستفيد هو المريض نفسه.

فإذا قال المريض: لن ألتزم بتعليمات الطبيب؛ فترك الدواء، وتناول ما يضرّه، وأهمل ما أُمر به، فلن يعود الضرر على الطبيب، وإنما سيتحمّل المريض نفسه نتيجة مخالفته.

وقد قرّب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ هذا المعنى بصورة بليغة، فقال: «يا عباد الله، أنتم كالمرضى، والله ربّ العالمين كالطبيب، فصلاح المرضى فيما يعلمه الطبيب ويدبّره به، لا فيما يشتهيه المريض ويقترحه، ألا فسلّموا لله أمره تكونوا من الفائزين»[٢٠٨].

ولا شك أن المثال إنما يراد منه تقريب المعنى؛ فالطبيب البشري قد يخطئ في تشخيصه وعلاجه، أما الله سبحانه فهو الخالق العليم الحكيم، يعلم الإنسان

وما يصلحه وما يفسده، ويعلم ما يوصله إلى كماله وسعادته.

وهكذا هي أحكام الله تعالى؛ فعندما يأمرنا بالصلاة والصيام والحجاب، وينهانا عن الخمر والزنا وسائر المحرّمات، فإنه سبحانه لا ينتفع بطاعتنا، وإنما شرع لنا ما فيه صلاحنا وكمالنا، وتعود آثار الامتثال إلينا أفرادًا وأُسرًا ومجتمعًا.

ومن هنا نفهم أن الحجاب ليس تكليفًا شُرّع للتضييق على المرأة أو حرمانها، وإنما هو جزء من المنظومة الإلهية التي شرعها الله تعالى لمصلحة الإنسان وهدايته في طريق الكمال. وقد ندرك بعض المصالح والحِكَم الكامنة وراء هذا التشريع، وقد يخفى علينا بعضها، غير أن جهلنا بها لا يعني عدم وجودها؛ لأننا آمنّا ابتداءً بأن المشرِّع هو الله العليم الحكيم.

الهدف الرابع: شكر نعم الله تعالى

ومن الأهداف العامة للعبادة والطاعة أن يتعلم الإنسان شكر المنعم. قال تعالى: ﴿وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾[٢٠٩].

فلنسأل أنفسنا: مَن أعطانا أجسادنا؟ ومن أعطانا أعيننا وأسماعنا وعقولنا وصحتنا وجمالنا وأرزاقنا؟

كل ذلك من الله تعالى. وشكر النعمة لا يكون بالكلام فقط. فليس كافيًا أن نقول: «الحمد لله» ثم نستعمل نعمة الله في معصية الله.

فالعين نعمة، وشكرها ألا ننظر بها إلى الحرام. والمال نعمة، وشكره أن نستعمله في الحلال ونؤدي الحقوق الواجبة فيه. والجسد والجمال نعمتان، ومن شكرهما أن نستعملهما ضمن الحدود التي وضعها الله تعالى.

ومن هنا تستطيع الفتاة أن تنظر إلى حجابها من زاوية جميلة: أنا لا أستر ما أمر الله بستره لأنني أكره جسدي أو جمالي، بل لأن جسدي وجمالي نعمة من

الله، ومن شكر النعمة أن أتعامل معها بالطريقة التي يريدها صاحب النعمة سبحانه.

ولنقرّب الفكرة بمثال: لو أعطى أبٌ ابنه سيارته وقال له: «خذها وانتفع بها، ولكن لا تقدها بتهور، ولا تستخدمها فيما يضرّك»، ثم أخذ الابن السيارة واستعملها بالطريقة التي نهاه عنها أبوه، وبعد ذلك قال له: «شكرًا أبي على هذه السيارة»، فهل يكون قد شكره حقًّا؟ إن شكره بلسانه يناقض تصرفه؛ لأن من شكر العطية أن يحترم الإنسان إرادة مَن أعطاه إياها، ولا يستعملها فيما نهاه عنه.

وكذلك الحال مع الحجاب؛ فالجسد والجمال نعمتان أعطاهما الله تعالى للمرأة، ومن شكرهما ألا تستعملهما فيما حرّمه، بل تتعامل معهما وفق ما أراده المنعم سبحانه. فالحجاب بذلك ليس سترًا للجمال فحسب، بل هو صورة عملية من صور شكر الله تعالى على نعمه.

الهدف الخامس: تحقيق السعادة والطمأنينة

إن الإنسان حين يعيش بعيدًا عن خالقه، متبعًا لكل رغبة وشهوة، قد يحصل على لذة مؤقتة، لكن اللذة شيء والسعادة الحقيقية شيء آخر. قال تعالى: ﴿ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾[٢١٠].

فالطاعة تمنح المؤمن راحة من نوع آخر: راحة الضمير، وطمأنينة القلب بأنه يسير في الطريق الذي يرضي الله تعالى.

وقد تتعرض الفتاة المحجبة لضغط بسبب حجابها، وقد تسمع تعليقًا من هنا أو هناك، لكن حين تكون مقتنعة بأنها أطاعت ربها، فإنها تمتلك طمأنينة داخلية لا يمنحها رضا الناس.

وفي المقابل قد يفعل الإنسان ما يرضي الناس ويخالف به قناعته ودينه، ثم

يبقى داخله صراع وندم وعدم استقرار.

فالسعادة التي تريدها الشريعة ليست مجرد أن يحصل الإنسان على كل ما يشتهيه، وإنما أن يعيش منسجمًا مع الغاية التي خُلق من أجلها، قريبًا من الله، مطمئنًا إلى أنه يسير في الطريق الصحيح.

ولنقرّب ذلك بمثال: تخيلي إنسانًا يسافر إلى مكان بعيد، وأمامه طرق ومفترقات كثيرة، لكنه يسير وفق جهاز الملاحة الذي يرشده إلى الطريق الصحيح؛ فإنه يبقى مطمئنًا حتى لو كان الطريق طويلًا أو متعبًا، لأنه يعلم أنه يسير نحو غايته. أما إذا ترك إرشادات الطريق وسار حيث يرغب، فقد يجد طريقًا أسهل أو منظرًا أجمل، لكنه سرعان ما يقلق حين يكتشف أنه ابتعد عن وجهته. وهكذا الحال مع الفتاة المحجبة؛ فقد تجد نفسها بين فتيات يختلفن عنها، وقد تشعر أن خلع حجابها أو تقليدهن سيخلّصها من ضغط الناس ويمنحها راحة مؤقتة، لكنها ستدرك في داخلها أنها خالفت أمر ربها. أما حين تثبت على حجابها، فقد تتحمل شيئًا من الضغط الخارجي، لكنها تمتلك طمأنينة أعمق؛ لأنها تعلم أنها أطاعت الله وتسير في الطريق الذي يرضيه.

الهدف السادس: النجاح في الامتحان الإلهي ونيل رضا الله والفوز في الآخرة

وأخيرًا، نحن لم نُخلق لهذه الدنيا وحدها؛ فالدنيا دار امتحان، وبعدها حساب وجزاء. قال تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾[٢١١].

والامتحان لا يكون في الأمور التي توافق رغباتنا فقط، وإنما تظهر حقيقته عندما يتعارض أمر الله مع ما نريده نحن. فإذا كانت الصلاة سهلة عليّ صليت، ولكن ماذا أفعل عندما أكون متعبًا؟ وإذا كان الصيام سهلًا صمت، ولكن ماذا أفعل عندما أشتد عطشي؟

وإذا كان الحجاب مقبولًا في محيطي التزمت به، ولكن ماذا أفعل عندما تصبح الموضة مخالفة له، أو تتعرض الفتاة للسخرية، أو ترى من حولها يتبرجن، أو تشعر أن الحجاب يمنعها من ارتداء شيء تحبه؟

هنا يبدأ الامتحان. فالمرأة التي تقدّم أمر الله على رغبتها تنجح في جانب من امتحانها، كما ينجح الرجل عندما يغض بصره مع قدرته على النظر، وينجح الإنسان عندما يترك الحرام مع قدرته عليه.

وهذه الدنيا مهما طالت فهي قصيرة، أما النتيجة الكبرى لهذا الامتحان فتظهر في الآخرة؛ حيث ينال المطيع رضا الله وثوابه وجنته، وما أعدّه سبحانه لعباده الصالحين من نعيم يفوق ما عرفه الإنسان في الدنيا.

وفي المقابل، فإن معصية الله والاستخفاف بأحكامه تعرّضان الإنسان للعقوبة في الآخرة، ومن ذلك التفريط في الحجاب والستر وإظهار الزينة المحرّمة أمام الرجال الأجانب. فقد روي عن أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ أنه دخل مع فاطمة الزهراء عَلَيْهَا السَّلَامُ على رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، فذكر لهما ما رآه ليلة أُسري به من نساءٍ يعذَّبن، ومنهن امرأة معلقة بشعرها، وأخرى تأكل لحم جسدها. فسألته فاطمة عَلَيْهَا السَّلَامُ: «حبيبي وقرة عيني، أخبرني ما كان عملهن وسيرتهن حتى وضع الله عليهن هذا العذاب؟» فقال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «أما المعلقة بشعرها فإنها كانت لا تغطي شعرها من الرجال»، وقال عن الأخرى: «وأما التي كانت تأكل لحم جسدها فإنها كانت تزيّن بدنها للناس[٢١٢]»[٢١٣].

فالحجاب إذن ليس أمرًا هامشيًا في حياة المرأة المؤمنة، بل هو جزء من امتحان طاعتها لله تعالى؛ فمَن قدّمت أمر الله على رغبتها نجحت في هذا الجانب من امتحانها ورجت رضاه وثوابه، ومَن عصت فعليها أن تدرك أن للمعصية حسابًا، وأن باب التوبة والرجوع إلى الله يبقى مفتوحًا ما دام الإنسان في دار الدنيا.

المبحث الثاني: الأهداف الخاصة للحجاب

بعد أن ذكرنا الأهداف العامة للحجاب، لنأتِ إلى بعض الأهداف الخاصة التي لأجلها شرّع الله تعالى الحجاب على النساء، ونذكر منها ما يأتي:

الهدف الأول: حجب الإغواء

من الأهداف الخاصة للحجاب حجب الإغواء. ولكن ما المقصود بالإغواء؟

نقول: أغوى فلانٌ فلانًا، أي استماله وأبعده عن الطريق الصحيح، ودفعه إلى اتباع الهوى أو الوقوع في الخطأ والمعصية. فقد يغوي إنسانٌ آخرَ بتزيين المخدرات له حتى يتعاطاها، أو يغويه بالمال حتى يرتكب الحرام، أو يثير فيه شهوةً محرمة تدفعه إلى الفاحشة.

فالإغواء إذن نوع من الاستمالة والتأثير؛ إذ يُعرض أمام الإنسان ما يثير رغبةً أو شهوةً فيه، فينجذب إليه، وقد يقوده ذلك إلى ما لم يكن سيفعله لولا وجود هذا المثير.

ومن هنا اهتم الإسلام بإغلاق أبواب الإغواء قبل أن تتحول إلى فتنة ومعصية؛ لأن كثيرًا من الانحرافات لا تبدأ بالفعل المحرم الكبير مباشرة، وإنما تبدأ بنظرة، أو إثارة، أو رغبة، ثم تتدرج حتى تصل إلى الحرام.

ومن أبرز المجالات التي يقع فيها الإغواء الإغواء الجنسي بين الرجل والمرأة؛ ولذلك جاءت أحكام الحجاب والعفة لتنظّم هذه الغريزة وتحجب أسباب إثارتها خارج إطارها المشروع.

وقد أودع الله تعالى في كلٍّ من الرجل والمرأة ميلًا إلى الآخر، إلا أن لجمال المرأة وزينتها ومفاتن جسدها تأثيرًا في إثارة انجذاب الرجل إليها؛ ولذلك راعت الشريعة هذه الحقيقة، ووضعت حدودًا تضبط هذا الانجذاب وتحمي

الطرفين والمجتمع من نتائج الانفلات الجنسي.

وقد بيّن الإمام الرضا عَلَيْهِ السَّلَامُ هذا المعنى بوضوح في تعليل تحريم النظر إلى شعر المرأة، فقال عَلَيْهِ السَّلَامُ:

«حُرِّم النظر إلى شعور النساء المحجوبات بالأزواج وغيرهن من النساء، لما فيه من تهييج الرجال، وما يدعو التهييج إلى الفساد والدخول فيما لا يحل ولا يجمل، وكذلك ما أشبه الشعور...» (٢١٤).

تأملي في تسلسل كلام الإمام عَلَيْهِ السَّلَامُ:

النظر إلى ما يثير ← تهييج الرجل ← قد يدفعه التهييج إلى الفساد ← الوقوع فيما حرّم الله تعالى.

إذن فالشريعة حين تأمر المرأة بالستر لا تتعامل مع جسدها وكأنه شيء قبيح ينبغي إخفاؤه، وإنما تتعامل معه باعتباره جسدًا له جاذبيته وتأثيره، فلا تريد أن تتحول هذه الجاذبية إلى وسيلة إثارة خارج الإطار الذي أحلّه الله تعالى.

وقول الإمام عَلَيْهِ السَّلَامُ: «وكذلك ما أشبه الشعور» يشير إلى أن جهة الإثارة لا تتوقف عند الشعر وحده، كما تؤكد الأحكام الشرعية أن هناك صورًا أخرى من الزينة والسلوك يجب على المرأة مراعاة حكمها أمام الرجل الأجنبي؛ كالمكياج، وإظهار الزينة، والملابس الضيقة أو المثيرة، وعدم ستر الأجزاء الواجب سترها، ونحو ذلك من المظاهر والسلوكيات التي تدخل في دائرة الإثارة والفتنة بحسب أحكامها الشرعية.

فالحجاب الشرعي إذن ليس مجرد قطعة قماش توضع على الشعر، وإنما يدخل ضمن منظومة العفة والستر في المظهر والسلوك.

ولكن هل يقتصر الإغواء على ما تراه العين؟

إن أسباب الإثارة قد تصل إلى الإنسان من أكثر من طريق:

- عن طريق النظر: ولذلك أوجب الله تعالى على المرأة ستر ما يجب عليها ستره وعدم إظهار زينتها على الوجه المحرم، كما أمر الرجل بغض بصره، فقال تعالى: ﴿ قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ﴾[٢١٥].
- وعن طريق السمع: فقد يكون الشيء مستورًا عن العين، ولكن المرأة تلفت الرجل إليه بصوت حليها أو حركتها؛ ولذلك قال تعالى: ﴿ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ ﴾[٢١٦] كما نهى عن الخضوع بالقول فقال تعالى: ﴿ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا ﴾[٢١٧].
- وعن طريق الرائحة: فقد تكون الرائحة نفسها وسيلةً للفت الانتباه والإثارة؛ ولذلك لا يجوز للمرأة أن تتعطر إذا كان ذلك بقصد إثارة الرجل الأجنبي وافتتانه، أو كان يترتب عليه الافتتان والإثارة، كما نص على ذلك سماحة السيد السيستاني دام ظله[٢١٨].
- وعن طريق اللمس: ولذلك حرّمت الشريعة الملامسة والمصافحة بين الرجل والمرأة الأجنبيين من دون حائل في مواردها المحرمة.

إذن فالشريعة لا تعالج المسألة من زاوية الثياب وحدها، وإنما تريد إبعاد العلاقة بين الجنسين عن أسباب الإثارة المحرمة.

ولكن لماذا تحرص الشريعة على حجب هذه الإثارة؟

لأن الإسلام لا يريد إلغاء الغريزة الجنسية التي أودعها الله تعالى في الإنسان، وإنما يريد تنظيمها ووضعها في إطارها المشروع.

«فأساس الحجاب في الإسلام هو أنّ المتعة الجنسيّة يلزم حصرها في محيط المنزل وبالزوجة الشرعيّة، وأنْ يُترك المحيط الاجتماعيّ محيط عمل وإنتاج. ومن هنا لا يُسمح للمرأة حين خروجها من الدار أنْ تُهيّئ موجبات الإثارة الجنسيّة للرجال، كما لا يُسمح للرجل أنْ يتصيّد بنظراته النساء»[٢١٩].

فالاستمتاع بين الزوجين أمر أحلّه الله تعالى، أما المجتمع العام فلا ينبغي أن يتحول إلى ساحة مفتوحة لاستعراض المفاتن وإثارة الشهوات. ولو تُركت الإثارة الجنسية بلا حدود، ثم طُلب من الناس أن يضبطوا أنفسهم، فإننا نكون قد وسّعنا أسباب الفتنة ثم طالبناهم بألّا يتأثروا بها.

ولهذا جاءت الشريعة بمنهج آخر: اضبطوا الغريزة من الطرفين، وأغلقوا أبواب الفتنة قبل الوصول إلى الحرام.

فأمرت المرأة بالحجاب وعدم التبرج وإظهار الزينة المحرمة، وأمرت الرجل بغض البصر، وحرمت اللمس والمصافحة المحرمة والخلوة المحرمة، ووضعت حدودًا للكلام والنظر والتعامل بين الجنسين عندما يكون فيه خوف الوقوع في الحرام.

فالمسؤولية إذن مشتركة؛ المرأة مسؤولة عن سترها وزينتها وسلوكها، والرجل مسؤول عن بصره وشهوته وسلوكه، ولا يجوز لأحدهما أن يجعل خطأ الآخر مبررًا لمعصيته. وقد روي عن أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ: «العفّة تضعف الشهوة»[٢٢٠].

وهنا قد تقول المرأة: أنا عندما أخرج متبرجة لا أقصد إغواء الرجال، ولم أجبر رجلًا على النظر إليّ، فلماذا أتحمل أنا المسؤولية؟ عليه أن يغض بصره، وأنا حرة فيما أرتديه!

والجواب: نعم، الرجل مسؤول عن بصره، وقد أمره الله تعالى صراحةً بغضه، وإذا تعمد النظر المحرم فهو الذي يتحمل إثم نظره. لكن مسؤوليته لا تلغي مسؤوليتك، كما أن مسؤوليتك لا تلغي مسؤوليته.

ولنقرّب الفكرة بمثال:

لو وضع شخص مادة شديدة الاشتعال في مكان يعلم أن النار قد تصل إليه، ثم جاءت شرارة من شخص آخر فأشعلتها، فهل نقول: المسؤول الوحيد هو صاحب الشرارة، ولا علاقة لمن وضع المادة القابلة للاشتعال في موضع الخطر؟

العقل يقول: لكل واحد منهما مسؤوليته بحسب فعله.

وهكذا في العلاقة بين الرجل والمرأة؛ فالشريعة لا تقول للمرأة: استري نفسك والرجل يفعل ما يشاء، ولا تقول للرجل: غض بصرك والمرأة تفعل ما تشاء، بل تطلب من كلٍّ منهما أن يغلق باب الفتنة من جهته. فالرجل يغض بصره، والمرأة تستر زينتها ومفاتنها، وكلاهما مسؤول عن الالتزام بحدود الله تعالى.

ومن هنا نفهم معنى حجب الإغواء: ليس المقصود إلغاء الجمال، ولا اتهام كل امرأة بأنها تريد إغواء الرجال، ولا إعفاء الرجل من مسؤوليته؛ وإنما المقصود ألا يتحول جمال المرأة ومفاتنها إلى مصدر إثارة محرمة في المجال العام، وألا يتحول نظر الرجل وشهوته إلى وسيلة للاعتداء على حدود الله تعالى.

فالحجاب يحجب الإغواء، والعفة تضبط الشهوة، وغض البصر يحمي القلب؛ وباجتماع هذه الأحكام تبني الشريعة سياجًا يحول دون أن تبدأ الإثارة بنظرة وتنتهي بمعصية وفساد.

الهدف الثاني: توفير الحماية

من الأهداف المهمة للحجاب توفير الحماية، وهذه الحماية لا تعود على المرأة وحدها، بل تمتد آثارها إلى الرجل والأسرة والمجتمع؛ لأن تنظيم العلاقة بين الجنسين لا يتعلق بفرد واحد، وإنما ينعكس على شبكة واسعة من العلاقات

الإنسانية. ويمكن بيان هذه الحماية على أربعة مستويات:

١. حماية المرأة. ٢. حماية الرجل. ٣. حماية الأسرة. ٤. حماية المجتمع ومنظومته الأخلاقية.

أولًا: حماية المرأة

من الحكم التي أشار إليها القرآن الكريم في تشريع الستر حماية المرأة من بعض صور الأذى والتعرض لها؛ قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَابِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ﴾[٢٢١].

وقد بيّن العلامة الطباطبائي في تفسير الآية أن ستر المرأة أقرب إلى أن تُعرف بأنها من أهل الستر والصلاح، «فلا يؤذيهن أهل الفسق بالتعرض لهن»[٢٢٢].

فالحجاب الشرعي الذي يستر بدن المرأة وزينتها ومفاتنها يقلل من مظاهر الإثارة والاستعراض الجسدي، وبذلك يسد بابًا من الأبواب التي قد يستغلها بعض مرضى النفوس في التعرض للمرأة أو مضايقتها. أي أن الشريعة تريد من المرأة أن تأخذ بأسباب الصيانة من جهتها، كما ألزمت الرجل بأن يضبط نظره وشهوته وسلوكه من جهته.

وهذا المعنى ينسجم مع قول أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ: «ثمرة العفّة الصيانة»[٢٢٣]، أي إن من ثمار العفة أن يصون الإنسان نفسه؛ والصيانة تعني الحفظ والحماية من مواطن الدناءة والأذى والانجرار إلى ما لا يليق. والحجاب من أبرز صور عفة المرأة الظاهرة؛ فهي حين تستر ما أمر الله تعالى بستره لا تحافظ على بدنها فحسب، وإنما تضع بينها وبين كثير من مظاهر الابتذال والاستغلال والإثارة حاجزًا من الوقار والستر.

والأذى الذي قد تتعرض له المرأة له صور متعددة؛ فقد يكون تحرشًا أو

ملاحقة أو لمسًا بغير رضاها، وقد يصل إلى الاعتداء الجنسي والاغتصاب.

وتكشف الإحصاءات الحديثة عن اتساع هذه المشكلة؛ فقد أظهر تقرير أوروبي رسمي منشور سنة ٢٠٢٤ أن نسبة النساء اللاتي تعرضن لعنف جسدي أو جنسي من غير الزوج أو الشريك في العلاقة بلغت ٤٧٪ في فنلندا، و٤٢٪ في السويد، و٣٨٪ في الدنمارك، و٣٦٪ في هولندا، و٣٤٪ في لوكسمبورغ.[٢٢٤]

وفي الولايات المتحدة أظهرت إحصاءات مكتب التحقيقات الفيدرالي لعام ١٩٩٧ وقوع جريمة اغتصاب قسري واحدة كل خمس دقائق تقريبًا.[٢٢٥]

إن هذه الأرقام تكشف عن حقيقة مهمة، وهي أن تعرض المرأة للأذى والاستغلال الجنسي مشكلة واقعية واسعة الانتشار، وأن حاجة المجتمعات إلى منظومة من العفة والستر وضبط السلوك الجنسي ليست أمرًا متوهمًا.

ومن هنا نفهم جانبًا من قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ﴾[٢٢٦]؛ فالحجاب والعفة يمثلان جانبًا من المنظومة الوقائية التي شرعتها الشريعة لصيانة المرأة وحمايتها.

ثانيًا: حماية الرجل

وقد يقال: ما علاقة حجاب المرأة بحماية الرجل؟

والجواب أن الرجل هو الآخر يعيش امتحانه في هذه العلاقة؛ فقد أودع الله تعالى فيه الغريزة الجنسية، وأمره بأن يضبطها، فقال سبحانه: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ﴾[٢٢٧].

ولكن الرجال ليسوا بدرجة واحدة من الإيمان والتقوى وضبط النفس؛ فقد يرى الرجل امرأةً متبرجة تُظهر مفاتنها، فيقع نظره عليها أولًا، ثم يسترسل في النظر، ثم تتحرك الشهوة في نفسه، وقد ينتقل من النظر إلى التخيل، ومن التخيل إلى السعي وراء علاقة محرمة أو ممارسة محرمة.

وكما مرّ معنا في كلام الإمام الرضا عَلَيْهِ السَّلَامُ، فإن النظر إلى ما يثير قد يؤدي إلى «تهييج الرجال»، ثم قد يدعو هذا التهييج إلى «الفساد والدخول فيما لا يحل».

فالحجاب في هذه الجهة يقلّل المثيرات التي يواجهها الرجل، ويعينه على حفظ بصره وعفته وضبط شهوته؛ وبذلك يكون حجاب المرأة الشرعي وسيلةً لحماية الرجل من أسباب الإثارة والإغواء التي قد تجرّه إلى الوقوع في الحرام.

ولتقريب الصورة بمثال افتراضي: قد يخرج رجل ضعيف التقوى، فيمر خلال يومه بعدة نساء متبرجات؛ فيرى امرأة ترتدي لباسًا يبرز مفاتن جسدها، ولنفترض أن ذلك رفع مستوى إثارته إلى ٣٠٪، ثم يرى أخرى تظهر زينتها ومكياجها، فترتفع الإثارة ـ على سبيل الافتراض ـ إلى ٥٠٪، ثم يرى ثالثة تكشف أجزاء من بدنها يجب سترها، فتزداد الإثارة إلى ٧٠٪ أو أكثر، حتى يصل بعض الرجال إلى مرحلة يبحث فيها عن تفريغ هذه الشهوة، فإن لم يضبط نفسه بحكم الله تعالى فقد يلجأ إلى طريق محرّم؛ كالنظر المحرم، أو الممارسة المحرمة كالزنا.

وهنا لا يصح أن نقول: بما أن الرجل هو الذي نظر، فلا مسؤولية على مَن كانت سببًا في إثارته، كما لا يصح أن نعفي الرجل ونحمّل المرأة المسؤولية كاملة؛ فكلٌّ منهما مسؤول عن فعله وما يترتب عليه. وقد روي عن الإمام الباقر عَلَيْهِ السَّلَامُ أنه قال: «يُحشر العبد يوم القيامة وما نَدَا دمًا[٢٢٨]، فيُدفع إليه شبه المحجمة أو فوق ذلك، فيقال له: هذا سهمك[٢٢٩] من دم فلان. فيقول: يا رب، إنك تعلم أنك قبضتني وما سفكت دمًا. فيقول: بلى، سمعت من فلان رواية كذا وكذا فرويتها عليه، فنُقلت حتى صارت إلى فلان الجبار فقتله عليها، وهذا سهمك من دمه»[٢٣٠].

فالرواية تكشف عن أصل مهم: أن مسؤولية الإنسان لا تنحصر دائمًا في مباشرته للفعل النهائي، بل قد يتحمل تبعة مساهمته المحرمة في المقدمات

التي أوصلت إليه.

ثالثًا: حماية الأسرة

تمتد آثار الحجاب والعفة إلى حماية الأسرة؛ فانتشار التبرج وإظهار المفاتن يوسّع دائرة الإثارة والانجذاب خارج إطار الزواج، وقد تبدأ المشكلة بنظرة أو إعجاب، ثم تتطور إلى مراسلات وتعلّق عاطفي وعلاقات محرمة أو خيانات زوجية، وما يترتب عليها من غيرة وفقدان للثقة ومشكلات قد تنتهي بالطلاق وتفكك الأسرة. ومن هنا يسهم الحجاب والعفة، مع غض البصر وضبط التعامل بين الجنسين، في إغلاق أحد أبواب الفتنة وحماية استقرار الأسرة وتماسكها.

رابعًا: حماية المجتمع ومنظومته الأخلاقية

يسهم الحجاب والعفة في حماية المجتمع من انتشار الإثارة والفاحشة؛ فالتبرج وإظهار المفاتن يوسّعان دائرة الإثارة الجنسية في المجتمع، ومع تكرار المثيرات والتساهل في حدود العلاقة بين الجنسين قد تتسع أبواب الفتنة والعلاقات المحرمة، حتى تصبح بعض صور الفاحشة مألوفةً أو معلنة. ومن هنا كان الحجاب جزءًا من المنظومة الوقائية التي شرعتها الشريعة للحدّ من مقدمات الفاحشة وصيانة عفة المجتمع.

وقد حذّرت النصوص الشرعية من خطورة المرحلة التي تصل فيها الفاحشة إلى الظهور والإعلان؛ فقد قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «لم تظهر الفاحشة في قوم قط حتى يعلنوها، إلا ظهر فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن في أسلافهم الذين مضوا...»[٢٣١]. وروي عن الإمام الباقر عَلَيْهِ السَّلَامُ: «إذا ظهر الزنا من بعدي كثر موت الفجأة...»[٢٣٢].

فانتشار الفاحشة لا يقف أثره عند مرتكبيها، بل يمتد إلى المجتمع؛ ومن

هنا يسهم الحجاب في الحد من أسباب الإثارة والفاحشة، والمحافظة على العفة والحياء والمنظومة الأخلاقية للمجتمع.

الهدف الثالث: حفظ كرامة المرأة وقيمتها الإنسانية

كرّم الله تعالى المرأة بوصفها إنسانًا، وجعلها والرجل في طريق الكمال سواء، فقال تعالى: ﴿أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ﴾[٢٣٣] فقيمة المرأة في المنظور الإسلامي لا تُختزل في جمال وجهها وجسدها، ولا في ثيابها وزينتها ومظهرها الخارجي، وإنما في إيمانها وعقلها وعلمها وأخلاقها وعفتها وما تحققه من كمال في حياتها.

ومن هنا يأتي الحجاب ليحفظ هذه القيمة، فلا تتحول المرأة من إنسان له كرامته إلى جسد يُستثمر جماله ويُستغل لجذب الآخرين. ولنتأمل واقع الإعلانات مثلًا: كم من سلعة لا علاقة لها بالمرأة أصلًا، ومع ذلك توضع إلى جانبها امرأة متبرجة أو شبه عارية! لماذا؟ لأن جسدها أصبح وسيلة لجذب أنظار الرجال، ثم توجيه هذه الأنظار نحو السلعة لتحقيق مزيد من الأرباح. فأين تكريم المرأة حين يُستثمر جسدها كأداةٍ للإثارة والتسويق؟

بل قد تنتقل هذه الثقافة إلى المرأة نفسها، فتصبح منشغلة بعرض جمالها ومفاتنها أمام الرجال الأجانب؛ بالثياب المثيرة، والزينة، والمكياج، والرموش، وإبراز تفاصيل الجسد، منتظرةً نظرات الإعجاب وكلمات الغزل، وكأن قيمتها ترتفع كلما ازداد المعجبون بها.

وهذا يعيد إلى الذهن ـ مع اختلاف الصورة والزمان ـ مشهد «سوق النخّاسين»، أي السوق الذي كانت تُعرض فيه الجواري للبيع في الأزمنة القديمة؛ حيث تُعرض المرأة أمام الآخرين وينظرون إلى جمالها وجسدها لتحديد مدى رغبتهم فيها. أما اليوم فقد تتغير صورة السوق، لكن المرأة قد تجعل من الشارع أو مواقع التواصل مساحةً تعرض فيها مفاتنها، وتنتظر

نظـرات الآخريـن وإعجابهـم.

وهـذا المشـهد يذكّرنـا أيضًـا بالفقـير الـذي يقـف في الطريـق يسـتجدي النـاس، منتظـرًا أن يمنحـه أحدهـم شـيئًا مـن المـال؛ فقـد تجعـل المـرأة المتبرجـة نفسـها في صـورة مشـابهة، حـين تبالـغ في إظهـار زينتهـا ومفاتنهـا، منتظـرةً من الآخريـن نظرة إعجـاب أو كلمـة غـزل تشـعرها بأنهـا جميلـة ومرغوبـة، وكأن قيمتهـا أصبحـت معلّقـة بـما يمنحهـا الآخـرون مـن إعجـاب، وهـذا لا ينسـجم مـع عزتهـا وكرامتهـا.

وكأن لسـان حـال المتبرجـة يقـول: «يـا رجـال، إننـي جميلـة، هـل يوجـد مـن يرغـب في جمـالي ورقّتـي؟ هلمّـوا إليَّ، هـذه مفاتنـي ومحاسـني أعرضهـا عليكـم... فأنـا أنثـى».

وقـد تقـول امـرأة: أنـا لا أقصـد بلبـاسي وزينتـي هـذه الرسـالة. فنقـول: نحـن لا نحكـم عـلى نيتـك، وإنـما نتحـدث عـن الرسـالة التـي يوصلهـا المظهـر؛ فإظهـار المفاتـن أمـام الرجـال يجعـل الأنوثـة والجاذبيـة الجسـدية في واجهـة حضـور المـرأة.

أمـا المـرأة العفيفـة الملتزمـة بالحجـاب الشرعـي الكامـل، فـإن حشـمتها وسـترها لمفاتنهـا يجعـلان لسـان حالهـا يقـول: «يـا رجـال، إننـي امـرأة عفيفـة، وقـد سـترت مفاتنـي ومحاسـني كـي لا تطمعـوا بهـا، فغضّـوا أبصاركـم... فأنـا إنسـانة».

إنهـا لا تلغـي أنوثتهـا ولا تحتقـر جمالهـا، وإنـما تعـرف قيمـة نفسـها وخصوصيـة جمالهـا، فـلا تجعلهـا معروضـين لـكل مـن هـبَّ ودبَّ. فهـي امـرأة ثمينـة تعـرف قـدر نفسـها، ولا تسـمح بـأن تتحـول إلى دميـة للمتعـة، أو سـلعة للإعـلان، أو جسـد ينتظـر تقييـم الآخريـن.

ولهـذا أراد الله تعـالى للمؤمـن أن يعيـش عزيـزًا، حتـى إنـه لم يجعـل لـه الحـق في إذلال نفسـه؛ فعـن الإمـام الصـادق عَلَيْهِ السَّلَامُ: «إنَّ الله عـزَّ وجـلَّ فـوَّض إلى المؤمـن أمـوره كلَّهـا، ولم يفـوِّض إليـه أن يكـون ذليـلًا، أمـا تسـمع قـول الله عـزَّ وجـلَّ يقـول: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾، فالمؤمـن يكـون عزيـزًا ولا يكـون ذليـلًا، ثـم قـال: إنَّ المؤمـن أعـزُّ مـن الجبـل؛ إنَّ الجبل يُسـتقلُّ منـه بالمعـاول، والمؤمن لا يُسـتقلُّ

من دينه شيء»[٢٣٤].

والعفة من أسباب هذه العزة؛ فقد قال أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ: «مَن أُتحف العفّة والقناعة حالفه العزّ»، وقال عَلَيْهِ السَّلَامُ: «مَن عفَّ خفَّ وزره، وعظم عند الله قدره».[٢٣٥]

فالحجاب إذن لا يسلب المرأة كرامتها، بل يحفظها من أن تُختزل في جسدها وأنوثتها، ويرتقي بنظرة الآخرين إليها من امرأة تُعرض مفاتنها لتجذب الأنظار، إلى إنسانة عزيزة تُقدَّر لإيمانها وعقلها وعلمها وأخلاقها وعفتها.

الهدف الرابع: الاعتزاز بالهوية الإسلامية

من الأهداف المهمة للحجاب إبراز الهوية الإسلامية للمرأة وتعزيز اعتزازها بها؛ فالمسلمة لا ينبغي أن تخجل من انتمائها إلى دينها، بل تعتز بأنها تنتمي إلى الإسلام الذي قال الله تعالى فيه: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾[٢٣٦]، وإلى الأمة التي قال عنها: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾[٢٣٧]، وأنَّ نبيَّها محمدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، وأئمتَها أهلُ البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، ومولاتَها فاطمةُ سيدةُ نساء العالمين من الأولين والآخرين، فـ﴿أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ﴾.[٢٣٨]

وللمرأة المسلمة خصوصية ظاهرة في التعبير عن هذه الهوية؛ فلو سار رجل مسلم وامرأة مسلمة في أحد شوارع أوروبا أو أمريكا، فقد لا يعرف الناس من مظهر الرجل أنه مسلم، أما المرأة الملتزمة بالحجاب الشرعي فإن حجابها يعلن هويتها قبل أن تتكلم، ويقول لمن يراها: هذه امرأة مسلمة.

وقد أشار القرآن الكريم إلى دلالة الحجاب على هوية المرأة المؤمنة، فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾[٢٣٩].

فالخطاب موجَّه إلى نساء المؤمنين، وجعل الله حجابهن علامةً تُبرز هويتهن

والتزامهن بدينهن؛ فقد فسّر العلامة الطباطبائي قوله: ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَن يُعْرَفْنَ﴾ بأن المراد أن يُعرفن بأنهن «أهل الستر والصلاح»[٢٤٠]. أي إنَّ الحجاب علامة تدل على أن صاحبته امرأة مؤمنة ملتزمة بالستر والصلاح والعفة.

وهذه العلامة تتجسد في مظهر المرأة كله: في خمارها، وثيابها الشرعية الساترة الفضفاضة، وابتعادها عن إظهار الزينة المحرمة؛ فكل ذلك يعلن انتماءها إلى الإسلام وتمسكها بأحكامه. ومن هنا ينبغي أن تعتز بحجابها كما يعتز الإنسان بالعَلَم الذي يرمز إلى هويته وانتمائه، بل إن اعتزازها بحجابها اعتزازٌ بدينها الذي أمرها به.

ومن هذه الجهة يمكن النظر إلى الحجاب بوصفه شعيرةً ظاهرةً تدل على الله ودينه وأحكامه[٢٤١]، قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾[٢٤٢] وتعظيم هذه الشعيرة لا يكون بمجرد وضع الخمار على الرأس، بل بأن تحافظ المرأة على الحجاب الشرعي الكامل، ملتزمةً بجميع أحكامه وحدوده، فلا تنتقي منه ما يوافق رغبتها وتترك ما سواه؛ وبذلك يكون حجابها تعظيمًا عمليًا لأمر الله تعالى، لا مجرد مظهرٍ اعتادت عليه.

وهكذا يصبح الحجاب تذكيرًا دائمًا لها بهويتها: أنا مسلمة، أنتمي إلى محمد وآل محمد عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، وهذا الحجاب يمثّل ديني وعقيدتي وقيمي وأخلاقي؛ فعليَّ أن أعتز به، وأن أجعل سلوكي وعفتي وحيائي وثباتي على مبادئي صورةً صادقةً للهوية التي أحملها.

ومن أجمل النماذج على الاعتزاز بالهوية الإسلامية وتحويلها إلى موقف عملي (طوعة)؛ تلك المرأة الصالحة التي سجّلت في ساعةٍ عصيبة موقفًا بطوليًا شجاعًا، بقي التاريخ يذكره إلى يومنا هذا.

لقد حفظ التاريخ اسمها؛ لأنها لم تجعل هويتها مجرد اسم أو انتماء، بل جسّدتها في ساعة الامتحان شجاعةً ونصرةً للحق وولاءً لأهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ.

والمفارقة المؤثرة أن آلاف الرجال كانوا قد بايعوا مسلم بن عقيل عَلَيْهِ السَّلَامُ، ثم تفرّقوا عنه حين اشتد الخوف، حتى بقي وحيدًا في أزقة الكوفة، بينما سجّلت امرأة واحدة موقفًا بقي التاريخ يذكره إلى يومنا هذا.

ذكر أرباب السِّيَر أن مسلم بن عقيل عَلَيْهِ السَّلَامُ بايعه ثمانية عشر ألفًا من أهل الكوفة، ولكن ما إن دخل عبيد الله بن زياد الكوفة، وهدّد الناس وتوعّدهم، وأخذ يبحث عن مسلم عَلَيْهِ السَّلَامُ، حتى بدأوا يتفرّقون عنه.

قال الشيخ المفيد في الإرشاد: كانت المرأة تأتي ابنها أو أخاها فتقول: «انصرف، الناس يكفونك»، ويجيء الرجل إلى ابنه أو أخيه فيقول: «غدًا يأتيك أهل الشام، فما تصنع بالحرب والشر؟ انصرف»، فيذهب به، حتى لم يبقَ مع مسلم عَلَيْهِ السَّلَامُ إلا عشرة أنفس. فلما دخل المسجد ليصلي المغرب تفرّق هؤلاء عنه أيضًا، فخرج وحيدًا في دروب الكوفة.

ومضى عَلَيْهِ السَّلَامُ لا يدري أين يذهب، حتى وقف على باب امرأة يقال لها طوعة. فرآها مسلم عَلَيْهِ السَّلَامُ، فسلّم عليها، فردّت عَلَيْهِ السَّلَامُ، فقال: «اسقيني ماءً»، فسقته، ثم دخلت بيتها وخرجت، فرأته ما يزال جالسًا على باب دارها، فقالت: يا عبد الله، ألم تشرب؟ قال: بلى. فقالت: فاذهب إلى أهلك. فسكت. ثم قالت له: لا يصلح لك الجلوس على باب داري ولا أُحلّه لك.

فقال عَلَيْهِ السَّلَامُ: «يا أمة الله، ما لي في هذا المصر أهل ولا عشيرة، فهل لك في أجرٍ ومعروف، ولعلي مكافئك بعد هذا اليوم؟» فقالت: ومن أنت؟ قال: «أنا مسلم بن عقيل».

وهنا انكشف لها أنّ الغريب الواقف على بابها لم يكن رجلًا عاديًا، بل سفير الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ الذي أغلقت الكوفة أبوابها في وجهه.[٢٤٣] (وا مسلماه، وا سيداه، وا غريباه) وهكذا بقي وحيدا فريدا غريبا؟!

(مجردات)

يگلهـا او عينـه مسـتدبره لا أهـل عندي ولا عشـيره

غريـب او عـماتي ابغـير ديـره او مثـل حـيرتي مـا جـرت حـيره

انه مسلم الفاجد نصيره

(نصاري)

اجـت ليـه العفيفـه واسـجته مـاي وگالـت گـوم شـنهو گعدنـك هـاي

لا تگعـد يروحـي وماي عيناي گـوم او روح لهلـك چاهلـك ويـن؟

ونّ ونّـه ايتگطـع منهـا الفـواد يهـل حـره هـلي مـا هـم بالبـلاد

غريـب الدار واهـلي عني ابعاد ويـن اهـي هـلي مـا هـم جريبـين

اظـن مسـلم وغـيرك مـوش مسـلم هلـه وكل الهلـه ولعَلَـيْ لخـدم

انـه طوعـه يبعـد الخـال والعـم كثـير اهـلا يعـزّ الهاشـميين[٢٤٤]

ليلة ٦ محرم

ليلة الأنصار

السلام عليك يا أبا عبد الله

وعلى الأرواح التي حلّت بفنائك

السلام على الحسين وعلى علي بن الحسين وعلى أولاد الحسين وعلى أصحاب الحسين

الليلة السادسة من محرّم الحرام

المناسبة: شهادة الأنصار عَلَيْهِمُ السَّلَامُ

القصيدة: للسيد محسن الأمين

قطعت بـه عَـرضَ الفـلاةِ نجائـبٌ ... تطـوي بهـن فدافـدٌ وسـهوبُ

صحبتـه مـن خيـر الرجـال عِصابـةٌ ... غـرٌّ فطـاب الصحـبُ والمصحـوب

آسـادُ ملحمـةٍ ضراغـمُ غابـةٍ ... لهـمُ بنازلـة الوغـى ترحيـب

أبطالُ حـربٍ كـم بهـم قامت على ... أهـل النفـاق وقائـعٌ وحـروب

ولهـم شـجاعةُ ضيغـمٍ ذي لُبـدةٍ ... ضـارٍ وعـودٌ في الحـروب صليـب

منهـم زهيـرٌ زاهـرُ الأفعـالِ يتـ ... ـلوه بريـرُ ومسـلمٌ وحبيبـب

وأتـى المسـاء وقـد تَجهَّـمَ وجهُـه ... واليـومُ محتسـدُ البـلاء عصيـب

قـال اذهبـوا وانجـوا ونجّـوا أهـل بيـ ... ـتي إننـي وحـدي أنـا المطلـوب

فأبـت نفوسُـهم الأبيـةُ عنـد ذا ... أن يتركـوه مـع العـدى ويئيبـوا

(موشح)

ابكربلـه الأنصـار يـا حـي فالهـا بيهـا نالـوا رتـب محـد نالهـا
حي ابن ظاهر وأوحي كل الأنصار مـن تدنوا للحـرب شبوا النار
گصدهـم لحسين يفـدون الأعمار او عـن خـدر زينـب تحـود انذالهـا
يـوم طبـوا للحـرب تسـمع الويـد بيها صارت صكصكه او صفگ الحديد
شبچت او لسيوفهم تســمع رعيد او غدت ظلمه او لاح بيها اهلالها(٢٤٥)

موضوع المحاضرة السادسة:

وجوب معرفة إمام الزمان

قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ:

«مَنْ مَاتَ وَلَمْ يَعْرِفْ إِمَامَ زَمَانِهِ مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً»(٢٤٦).

لم يخلق الله تعالى الإنسان ويتركه من غير هداية، بل أرسل إليه رسله، وأنزل عليه كتبه، وأقام له الحجج الذين يدلّونه على طريقه ويحفظون له دينه؛ لأن الإنسان لا يستطيع أن يبلغ الغاية التي خُلق من أجلها إذا جهل الطريق الذي أراده الله تعالى له، أو أخذ دينه ممن لم يجعله الله حجةً عليه.

ومن هنا لم تكن الإمامة في مدرسة أهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ قضيةً تاريخيةً تتعلّق بمن تولّى قيادة المسلمين بعد رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ فحسب، وإنما هي قضية هداية وارتباط بالحجة التي أقامها الله تعالى لعباده؛ ولذلك لم تكن معرفة الإمام أمرًا ثانويًا في حياة المؤمن، بل جعلت لها الشريعة منزلةً عظيمةً ترتبط بدينه ومصيره.

ومن أوضح النصوص التي تكشف أهمية هذه المعرفة وخطورة فقدانها قول رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ مَاتَ وَلَمْ يَعْرِفْ إِمَامَ زَمَانِهِ مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً»(٢٤٧).

وهذا الحديث يضعنا أمام أسئلة مهمة: هل تدل هذه العاقبة الخطيرة على وجوب معرفة إمام الزمان؟ وما المقصود بهذه المعرفة؟ وهل يكفي أن نعرف

اسم الإمام ونسبه وبعض المعلومات عنه، أم أن هناك معرفةً أعمق لا بد أن تتحقق في الإنسان؟

ومن هنا سنقف في هذه المحاضرة عند معنى معرفة إمام الزمان، وما الحد الأدنى الذي لا تتحقق هذه المعرفة بدونه، وما يترتب عليها من اعتقادٍ وموقفٍ وعمل؛ لنفهم كيف تكون معرفة الإمام معرفةً حقيقيةً تنعكس على دين الإنسان وحياته.

المبحث الأول: وجوب معرفة الإمام وحقيقتها

يحمل قول رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ مَاتَ وَلَمْ يَعْرِفْ إِمَامَ زَمَانِهِ مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً» دلالاتٍ ودروسًا متعددة، سنتناول بعضها ـ إن شاء الله تعالى ـ في الجزء الرابع من كتاب «زاد المبلّغات»، بعنوان: «لكل زمان إمام: بين الجاهلية والنجاة».

أما في هذه المحاضرة، فسنُسلّط الضوء على أحد أبرز الدروس المستفادة من قول رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ مَاتَ وَلَمْ يَعْرِفْ إِمَامَ زَمَانِهِ مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً»[٢٤٨]، وهو: وجوبُ معرفة إمام الزمان؛ لأن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ رتّب على ترك هذه المعرفة وعيدًا شديدًا، وهو الموت ميتةً جاهلية، أي ميتة ضلال وانحراف عن الحق، ولا يكون مثل هذا الوعيد إلا على ترك أمرٍ واجبٍ أو ارتكاب أمرٍ محرّم؛ فدلّ ذلك على وجوب معرفة إمام الزمان.

ولا يكون هذا الوعيد الشديد إلا على ترك أمرٍ واجب، أو ارتكاب أمرٍ محرّم. ولما كان الحديث قد رتّب هذا الوعيد على ترك معرفة إمام الزمان، دلّ ذلك على أن معرفته واجبة.

ولتقريب ذلك، قال تعالى: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ۝ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ﴾[٢٤٩]، فمن هذا الوعيد نعرف وجوب الصلاة؛ إذ لو لم تكن واجبةً لما استحق

تاركها هذا الوعيد. وكذلك فإن الوعيد الوارد على ترك معرفة الإمام يكشف عن وجوبها.

قد يقول قائل: **ألسنا جميعًا نعرف إمام زماننا؟ فنحن نعلم أنه الإمام المهدي عَلَيْهِ السَّلَامُ، واسمه محمد بن الحسن العسكري عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، وأنه الإمام الثاني عشر من أئمة أهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، ونعرف عنه بعض المعلومات الأخرى. فهل تكفي هذه المعلومات وحدها لتكون هي المعرفة التي أرادها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، وجعلها سببًا للنجاة من الميتة الجاهلية؟**

الجواب: كلا. فقد يظن بعض الناس أن معرفة الإمام لا تتجاوز معرفة اسمه أو نسبه أو بعض أخباره، وهذا ناشئ من الخلط بين المعنى اللغوي للمعرفة وبين المعنى العقدي الذي أرادته الشريعة.

فالمعرفة في معناها اللغوي هي إدراك الشيء والعلم به، أما المعرفة المطلوبة في روايات أهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ فلا تقتصر على مجرد العلم أو امتلاك المعلومات؛ فقد يعرف الإنسان اسم الإمام عَلَيْهِ السَّلَامُ، ونسبه، وتاريخ ولادته، وفضائله، كما قد يعرف هذه الحقائق المؤمن وغير المؤمن، والصالح والطالح، بل وحتى الشيطان كان يعلم كثيرًا من الحقائق، ومع ذلك لا يكون مجرد هذا العلم سببًا للنجاة من الميتة الجاهلية؛ لأنه لا يقترن بالإيمان ولا يثمر الطاعة والالتزام. ولذلك تدل روايات أهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ على أن المعرفة المطلوبة تبدأ بالعلم الصحيح، وتكتمل بالتصديق والإيمان، ثم تظهر آثارها في العمل والطاعة.

فمن جهة ارتباط المعرفة بالتصديق، قال أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ في معرفة الله تعالى: «أول الدين معرفته، وكمال معرفته التصديق به...»[٢٥٠].

ومن جهة ارتباطها بالعمل، روي عن الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ: «لا يقبل الله عملًا إلا بمعرفة، ولا معرفة إلا بعمل، فمن عرف دلته المعرفة على العمل،

ومن لم يعمل فلا معرفة له»[٢٥١].

ومن مجموع هاتين الروايتين يتضح أن المعرفة التي أرادها الله تعالى تبدأ بالعلم الصحيح، ثم تكتمل بالتصديق والإيمان، ثم تظهر آثارها في العمل والطاعة.

ولتقريب هذا المعنى إلى الأذهان، تأملوا هذا المثال البسيط:

يُقال لطفل: إياك أن تضع يدك في النار؛ فإنها تحرقك وقد تؤذيك أذًى شديدًا. في البداية يكون قد حصل على المعلومة، لكن قد لا يصدقها تمامًا، وربما يظن أن الكبار يبالغون في تحذيره.

ولكي تتحول هذه المعلومة إلى معرفة حقيقية، لا بد أن يقتنع بها قلبه. ولهذا قد يستخدم المربي وسائل مختلفة، كعرض صور أو مقاطع موثوقة عن آثار الحروق، أو مشاهدة تجربة آمنة تبين شدة حرارة النار، أو سماع قصة شخص تضرر بسبب العبث بها، حتى يطمئن قلب الطفل ويوقن بخطورتها.

لكن كيف نعرف أنه آمن بهذه الحقيقة فعلًا؟ يظهر ذلك من خلال سلوكه؛ فنراه يبتعد عن النار، ولا يعبث بأعواد الثقاب أو الولاعة، ويحذر غيره من الاقتراب منها، ويلتزم بإرشادات السلامة. فهذه الأعمال تكشف أن المعلومة لم تبقَ مجرد علم في ذهنه، بل تحولت إلى إيمان وقناعة انعكسا على سلوكه.

وبذلك يتبين أن المراد بالمعرفة في كثيرٍ من روايات أهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ ليس مجرد امتلاك المعلومات، سواء أكانت معرفة الله تعالى، أم معرفة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، أم معرفة الإمام عَلَيْهِ السَّلَامُ، أم غيرها من أصول الدين، وإنما هي علمٌ صحيح، يتبعه تصديقٌ قلبي، ثم يثمر التزامًا عمليًا. ولهذا كثيرًا ما يُراد بالمعرفة في روايات أهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ هذا المعنى العميق، لا مجرد العلم الذهني.

ومن أوضح الشواهد على ذلك دعاء الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ في زمن الغيبة: «اللهم عرِّفني نفسك، فإنك إن لم تعرِّفني نفسك لم أعرف نبيك، اللهم عرِّفني نبيك، فإنك إن لم تعرِّفني نبيك لم أعرف حجتك، اللهم عرِّفني حجتك، فإنك إن لم تعرِّفني حجتك ضللت عن ديني»

وكذلك الأمر في قول النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «من مات ولم يعرف إمام زمانه مات ميتة جاهلية»؛ فمعرفة الإمام عَلَيْهِ السَّلَامُ لا تقتصر على معرفة اسمه ومنزلته وفضائله، بل تقتضي الإيمان بهذه الحقائق والتسليم بمقتضاها والعمل بموجبها.

ولكن إذا كانت هذه هي حقيقة معرفة الإمام، فما الحد الأدنى من المعرفة الذي أشارت إليه روايات أهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، والذي لا تتحقق معرفة الإمام بدونه؟

هذا ما سنقف عليه في المبحث التالي:

المبحث الثاني: أدنى معرفة الإمام

إن معرفة الإمام ليست مرتبةً واحدة، بل لها مراتب ودرجات، يزداد بها المؤمن كمالًا وقربًا من الله تعالى. ونحن سنقتصر هنا على بيان الحد الأدنى الذي لا تصدق معرفة الإمام بدونه، فقد روي عن الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ أنه قال:

«وأدنى معرفة الإمام أنّه عدل النبي إلا درجة النبوة ووارثه، وأنّ طاعته طاعة الله وطاعة رسول الله والتسليم له في كل أمر والرد إليه والأخذ بقوله، ويعلم أنّ الإمام بعد رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ وسلم علي بن أبي طالب ثم الحسن ثم الحسين ثم علي بن الحسين ثم محمد بن علي ثم أنا ثم من بعدي موسى ابني ثم من بعده ولده علي وبعد علي محمد ابنه وبعد محمد علي ابنه

وبعد علي الحسن ابنه والحجة من ولد الحسن»[٢٥٢].

وبالتأمل في هذه الرواية نجد أنها ترسم ثلاثة معالم مترابطة لمعرفة الإمام: معرفة مقامه وحقيقته، وما تقتضيه معرفته من طاعةٍ وتسليمٍ وردٍّ إليه وأخذٍ بقوله، ومعرفة هويته. وسنقف عند هذه المعالم في ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: معرفة مقام الإمام وحقيقته

يبدأ الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ ببيان حقيقة الإمام ومقامه، فيقول: «وأدنى معرفة الإمام أنّه عدل النبي إلا درجة النبوة ووارثه»[٢٥٣]. وهذه العبارة تبيّن موقع الإمام بالنسبة إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، وما يمتد إليه من مقام الهداية وحفظ الدين وبيانه، مع استثناء النبوة صراحةً.

ولفهم معنى قوله عَلَيْهِ السَّلَامُ: «عدل النبي إلا درجة النبوة ووارثه»، نقف عند مفردات هذه العبارة وما تدل عليه:

فالمقصود بكون الإمام «عدل النبي» أنّه نظيره فيما جعله الله تعالى له من شؤون الإمامة والهداية، مع استثناء النبوة وما يختص بها. وتظهر جوانب ذلك فيما ثبت للإمام عَلَيْهِ السَّلَامُ من المنصب الإلهي والحجية والولاية ووظائف الهداية وحفظ الدين. ويمكن توضيح ذلك بما يأتي:

١. فيما يتعلق بالمناصب الإلهية

جمع الله تعالى للنبي محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ النبوة والرسالة والإمامة، أما أئمة أهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ فقد جعل الله تعالى لهم الإمامة من دون النبوة والرسالة؛ ولذلك نصّت الرواية على استثناء «درجة النبوة».

ومعنى كونه ليس نبيًا أنه لا ينزل عليه وحي التشريع، ولا يأتي بشريعة جديدة، وإنما يتولى حفظ شريعة النبي محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، وبيان

أحكامها، وتفسيرها، وتطبيقها كما أُنزلت. ولهذا ورد عن الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ: «حلال محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ حلالٌ إلى يوم القيامة، وحرامه حرامٌ إلى يوم القيامة».

واستثناء النبوة يتضمن استثناء الرسالة أيضًا؛ لأن علماء من الإمامية ذهبوا إلى أن كل رسول نبي، وليس كل نبي رسولًا.

وقد يتساءل البعض: **إذا كان الإمام عَلَيْهِ السَّلَامُ ليس نبيًا، فكيف تذكر الروايات أنه محدَّث، وأن الملائكة تحدّثه؟**

والجواب: إن تحديث الملائكة للإمام عَلَيْهِ السَّلَامُ لا يعني أنه نبي، ولا يعني نزول وحي التشريع عليه؛ فقد ورد عن أبي الحسن عَلَيْهِ السَّلَامُ: «الأئمة علماء صادقون، مفهَّمون، محدَّثون».[٢٥٤] وقد بيّن الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ معنى المحدَّث بقوله: «إنه يسمع الصوت ولا يرى الشخص»، ولما سُئل: كيف يعلم أنه كلام الملَك؟ قال: «إنه يُعطى السكينة والوقار حتى يعلم أنه كلام ملَك».[٢٥٥] فالإمام عَلَيْهِ السَّلَامُ قد تحدّثه الملائكة بإذن الله تعالى، من دون أن يكون نبيًا أو صاحب شريعة جديدة.

كما أن القرآن الكريم استعمل لفظ الوحي في غير الأنبياء، كما في قوله تعالى بشأن أم موسى عَلَيْهَا السَّلَامُ: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾[٢٥٦]، مع أنها لم تكن نبيّة؛ مما يدل على أن مطلق الوحي لا يعني النبوة ولا الوحي التشريعي، بل قد يكون إلهامًا وإعلامًا من الله تعالى.

وقد يتوهم بعض الناس أن من لم يكن نبيًا أو رسولًا لا يبلغ مقامًا إلهيًا عظيمًا كالإمامة، مع أن النبوة والرسالة والإمامة مناصب إلهية يمنحها الله تعالى لمن يشاء وفق حكمته. فقد جمع الله تعالى لإبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ بين النبوة والرسالة والإمامة، وكانت الإمامة مقامًا منحه الله تعالى إياه بعد نبوته

ورسالته وابتلائه، كما قال سبحانه: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾[٢٥٧]، أما أئمة أهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ فقد اصطفاهم الله تعالى للإمامة من دون النبوة والرسالة.

ويمكن تقريب ذلك بمثالٍ تعليمي، مع الفارق بين المثال والحقيقة: فالطالب يسير عادةً في مراحل دراسية متتابعة؛ يبدأ بالابتدائية، ثم ينتقل إلى المتوسطة، فالإعدادية، وهكذا بحسب النظام الدراسي المتعارف. ولكن قد يظهر لدى بعض الطلبة تفوقٌ يؤهلهم لتجاوز مرحلة أو أكثر، فيُنقلون ـ بعد اختبارهم والتأكد من أهليتهم ـ إلى مستوى أعلى. وكذلك ـ من باب تقريب الفكرة لا القياس ـ لا يلزم أن يكون من يمنحه الله تعالى منصب الإمامة قد مرّ قبل ذلك بمنصبَي النبوة والرسالة؛ بل يمنح الله تعالى كل منصب لمن يشاء وفق حكمته وعلمه.

ومن هنا لا يصح استبعاد أفضلية أئمة أهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ على سائر الأنبياء لمجرد أنهم ليسوا أنبياء أو رسلًا؛ فرفعة المقام عند الله تعالى لا تتوقف على حمل عنوان النبوة أو الرسالة. وقد دلّت روايات كثيرة عند الإمامية[٢٥٨] على أن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ أفضل الخلق، وأن أئمة أهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ أفضل الخلق بعده، ومن بعدهم سائر الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ.

٢. فيما يتعلق بالحجّية والولاية

ومن أهم ما ثبت للإمام عَلَيْهِ السَّلَامُ بحكم منصبه الإلهي الحجية والولاية:

- الحجية: فأقوال الإمام عَلَيْهِ السَّلَامُ وأفعاله وتقريراته حجة على الأمة، كما كانت أقوال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ وأفعاله وتقريراته حجة.
- الولاية: فللإمام عَلَيْهِ السَّلَامُ الولاية على المؤمنين بأمر الله تعالى، فهو أولى بهم من أنفسهم في تدبير شؤونهم الدينية والدنيوية وفق ما جعله الله

تعالى له. وقد دلّ على ولايته قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا...﴾[٢٥٩]، كما بيّن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ امتداد ولايته إلى أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ يوم الغدير، إذ قال: «ألست أولى بالمؤمنين من أنفسهم؟» فلما أقروا بذلك قال: «فمن كنت مولاه فعلي مولاه»[٢٦٠].

ولتقريب أصل معنى الولاية إلى الأذهان، مع الفارق بين المثال والحقيقة، فإن الأب له ولاية على طفله، فيتولى شؤونه ويتخذ من القرارات ما يحقق مصلحته ويحفظ حقوقه. إلا أن هذه الولاية محدودة بما أذن به الشرع، أما ولاية الإمام عَلَيْهِ السَّلَامُ فهي ولاية إلهية منحه الله تعالى إياها، لقيادة الأمة وإدارة شؤونها وفق أحكامه سبحانه، وليست ولاية ناشئة من القرابة أو الاختيار الشخصي.

٣. فيما يتعلق بالوظائف الإلهية

جعل الله تعالى للإمام عَلَيْهِ السَّلَامُ ما يرتبط بمقام الإمامة من وظائف الهداية والقيادة وحفظ الدين وبيانه، لكونه عدلَ النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ في شؤون الإمامة. ومن أبرزها:

قيادة الأمة وإدارة شؤونها، وحفظ الدين من التحريف، وبيان القرآن الكريم وأحكام الشريعة، وهداية الناس، والقضاء وفصل الخصومات، وتزكية الأمة وتربيتها، وإقامة الحجة على الناس، والدفاع عن الأمة الإسلامية وحماية كيانها، وكل ذلك في حدود ما جعله الله تعالى للإمام من مسؤوليات وصلاحيات.

وقد أشار الله تعالى إلى جملة من وظائف النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ بقوله: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾[٢٦١].

ولا يعني ذلك اشتراك الإمام عَلَيْهِ السَّلَامُ مع النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ في

خصائص النبوة؛ فالنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ تلقّى القرآن بالوحي، أما الإمام عَلَيْهِ السَّلَامُ فيتلو القرآن الذي جاء به رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ويبيّنه للناس، من دون أن يتلقى قرآنًا جديدًا أو وحيًا تشريعيًا.

وأما قوله عَلَيْهِ السَّلَامُ: «ووارثه»، فيبيّن جانبًا آخر من موقع الإمام بالنسبة إلى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ؛ فالإمام وارثٌ لما أودعه الله تعالى عند النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ مما يرتبط بالهداية والإمامة، من العلم والحكمة وبيان الشريعة وآثار النبوة. وقد ورد في روايات أهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ أن الأئمة ورثوا علم النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ وعلم الأنبياء والأوصياء من قبله، وأن عندهم من آثار رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ سلاحه ورايته وخاتمه وغيرها مما انتقل إليهم بإذن الله تعالى، مما يشهد على امتداد الإمامة ووراثة العلم وآثار النبوة.

المطلب الثاني: مقتضيات معرفة الإمام

بعد أن بيّن الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ في الجزء الأول من الحديث حقيقة الإمام ومقامه، انتقل إلى بيان ما تقتضيه معرفته من المؤمن؛ فمعرفة الإمام لا تقتصر على معرفة مقامه والإيمان بإمامته، بل تقتضي طاعته والتسليم له والرجوع إليه والأخذ بقوله.

وقد جمع الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ هذه المقتضيات بقوله: «وأنّ طاعته طاعة الله وطاعة رسول الله، والتسليم له في كل أمر، والرد إليه، والأخذ بقوله»[٢٦٢].

وتتضمن هذه العبارة أربعة مقتضيات أساسية لمعرفة الإمام، نقف عند كل واحد منها في الفروع الآتية:

الفرع الأول: طاعة الإمام

أي إن من مقتضيات معرفة الإمام أن نعتقد أن الله تعالى أوجب علينا طاعة رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، كما أوجب علينا طاعة الإمام عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ فننقاد لأوامره وتعاليمه ولا نخالفها؛ لأن الإمام معصوم، فلا يأمر بما يخالف أمر الله تعالى، ولا ينهى عما أمر الله به.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾[٢٦٣]، وهي من الآيات التي استدل بها الإمامية على عصمة أهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ وتنزيههم عن الرجس وما ينافي مقام العصمة.

فلا يكفي أن يقول الإنسان: أنا مؤمن بالإمام عَلَيْهِ السَّلَامُ ومحبٌّ له، ثم يخالف أوامره ولا يلتزم بما بيّنه من أحكام الشريعة؛ لأن الإيمان الصادق لا ينفصل عن العمل، وقد ورد عن الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ: «ملعونٌ ملعونٌ مَن قال: الإيمان قولٌ بلا عمل»[٢٦٤].

وقد أكّد القرآن الكريم وجوب هذه الطاعة بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ﴾[٢٦٥]، وقد بيّنت روايات أهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ أن المراد بأولي الأمر الأئمة عَلَيْهِمُ السَّلَامُ؛ فقد قال الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ في هذه الآية: «نزلت في علي بن أبي طالب والحسن والحسين عَلَيْهِمُ السَّلَامُ»[٢٦٦].

ومن هنا تُعدّ طاعة الإمام عَلَيْهِ السَّلَامُ من أوضح علامات صدق معرفته؛ فمن عرفه حقًّا انعكست معرفته على حياته، فتمسّك بالعقيدة الصحيحة، والتزم بأحكام الشريعة، وأدّى الواجبات، واجتنب المحرمات، وتحلّى بمحاسن الأخلاق والآداب الإسلامية، وعمل بهدي الإمام وتوجيهاته.

أما من ادّعى معرفته ومحبته ثم أصرّ على مخالفته، فإن دعواه لا تكفي، وتكون معرفته ناقصة لم تظهر آثارها كما تقتضي هذه المعرفة.

مثال: شابٌّ مع إمام زمانه

ينقل السيد رشيد الحسيني في أحد برامجه عن شابٍّ كان يبدو ملتزمًا بالشعائر الحسينية، أنه أخبره بأنه رأى في منامه أن باب داره يُطرق، فنظر من ثقب الباب، فرأى الإمام المهدي عَلَيْهِ السَّلَامُ واقفًا ينتظر أن يُفتح له الباب.

فاستولى عليه الحياء حين تذكّر ما في بيته من المحرمات؛ فأسرع يغلق القنوات المحرمة، ويزيل المواد والصور غير الشرعية، ويخرج المشروبات المحرمة، حتى أزال كل ما كان يخجل أن يراه الإمام عَلَيْهِ السَّلَامُ في بيته.

ولما انتهى أسرع إلى الباب، فلم يجد الإمام عَلَيْهِ السَّلَامُ، فرآه في رؤياه قد ابتعد عن الدار والدموع تنحدر من عينيه؛ فترك المشهد في نفسه أثرًا عميقًا، وأشعره بعظم ما كان في بيته من مخالفات.

الفرع الثاني: التسليم للإمام في كل أمر

بعد أن بيّن الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ المقتضى الأول من مقتضيات معرفة الإمام، وهو طاعته، انتقل إلى المقتضى الثاني فقال عَلَيْهِ السَّلَامُ: «والتسليم له في كل أمر».

وقبل بيان معنى التسليم، يجدر الالتفات إلى أن الله تعالى لم يكتفِ بالأمر بطاعة رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، بل بيّن أن الإيمان الصادق يقتضي قبول حكمه وعدم الاعتراض عليه والتسليم له تسليمًا تامًّا، فقال سبحانه: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ، ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ، وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾[٢٦٧].

فالحرج هو الضيق الذي قد يجده الإنسان في نفسه تجاه حكم الله تعالى ورسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، وما يترتب على ذلك من تردد أو اعتراض داخلي.

فإذا جاهد نفسه على امتثال حكم الله تعالى، وصبر على أداء الواجبات واجتناب المحرمات، تحقق فيه جانب من الصبر على الطاعة وعن المعصية. وقد روي عن الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ: «الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، فإذا ذهب الرأس ذهب الجسد، كذلك إذا ذهب الصبر ذهب الإيمان»[٢٦٨].

لكن التسليم لا يقتصر على مجرد الصبر على أداء التكليف؛ بل يعني أن يذعن المؤمن لحكم الله تعالى بقلبه وجوارحه، فلا يبقى في نفسه اعتراض على حكمه، وإن لم يدرك حكمته.

ولسان حاله: «يكفيني أن هذا حكم الله تعالى؛ فأنا مؤمن بأنه سبحانه حكيم، عليم، عادل، فلا يأمر إلا بحكمة ومصلحة، ولا ينهى إلا عن مفسدة، سواء أدركتُ ذلك أم لم أدركه».

ومن أروع صور هذا التسليم ما قصّه الله تعالى عن نبيه إبراهيم وابنه إسماعيل عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، إذ قال سبحانه: ﴿ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴾[٢٦٩]، أي استسلما لأمر الله تعالى ورضيا به، وانقادا له من غير اعتراض، ثم صرع إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ ابنه على جبينه امتثالًا لأمر الله تعالى.

ولتقريب فكرة التسليم لأوامر الله، تخيل مريضًا قصد طبيبًا مشهورًا، عُرف بعلمه وأمانته وتقواه. وبعد الفحص قال له الطبيب: إن مرضك لا يشفى إلا بهذا الدواء أو بهذه العملية. فالمريض العاقل لا يعارض الطبيب اعتمادًا على رأيه الشخصي، بل يرجع إلى أهل الخبرة ويعمل بتوجيههم؛ لأنه يثق بعلمهم، وإن كان لا يفهم دقائق الطب.

وقد ورد في الرواية تشبيه حال العباد مع تدبير الله تعالى بحال المريض مع

الطبيب، إذ قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «يا عباد الله، أنتم كالمرضى، والله رب العالمين كالطبيب، فصلاح المرضى فيما يعلمه الطبيب ويدبره به، لا فيما يشتهيه المريض ويقترحه، ألا فسلِّموا لله أمره تكونوا من الفائزين»[٢٧٠].

فإذا كنا نرجع إلى الطبيب ونثق بخبرته في علاج أجسادنا، فكيف لا نسلّم لله تعالى ولرسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ وأوصيائه عَلَيْهِمُ السَّلَامُ فيما يرتبط بديننا وآخرتنا؟

وقد لا يعرف المؤمن الحكمة من بعض الأحكام، لكنه يؤمن بعصمة الإمام عَلَيْهِ السَّلَامُ، فيسلّم لأمره؛ ويمكن تقريب ذلك ـ مع الفارق ـ بالجندي المخلص الذي يثق بقائده الخبير، فيلتزم أمره وإن لم يدرك جميع أبعاد الخطة.

وقد نُقلت في بعض المصادر قصةٌ عن هارون المكي تُقرّب لنا معنى التسليم والانقياد للإمام عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ فقد رُوي أن رجلًا من أهل خراسان دخل على الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ، وتحدث عن كثرة شيعته في خراسان، فأمره الإمام عَلَيْهِ السَّلَامُ أن يجلس في التنور، فخاف الرجل وطلب من الإمام أن يعفيه من ذلك.

وبينما هما كذلك، دخل هارون المكي، فقال له الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ: «ألقِ النعل من يدك، واجلس في التنور»، فألقى نعله وجلس فيه. ثم واصل الإمام عَلَيْهِ السَّلَامُ حديثه مع الرجل الخراساني، وبعد ذلك أمره أن ينظر في التنور، فنظر فإذا بهارون جالسًا فيه سالمًا. فسأله الإمام عَلَيْهِ السَّلَامُ: «كم تجد بخراسان مثل هذا؟» فقال: والله ولا واحدًا. فقال عَلَيْهِ السَّلَامُ: «لا والله ولا واحدًا... أما إنّا لا نخرج في زمان لا نجد فيه خمسة معاضدين لنا، نحن أعلم بالوقت»[٢٧١].

وفي المقابل، يعرض لنا القرآن الكريم نموذجًا آخر في غزوة أُحد؛ فقد أمر رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ الرماة بالبقاء في مواقعهم وألا يتركوها، فلما ظهرت بوادر النصر، تنازعوا فيما بينهم؛ فثبت بعضهم امتثالًا لأمر رسول

الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، بينما ترك آخرون مواقعهم واتجهوا إلى الغنائم، فخالفوا أمره وقدّموا رغبتهم في الغنيمة على طاعته. وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك بقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾(٢٧٢). (٢٧٣)

فالفرق بين الموقفين واضح: قدّم هارون المكي أمر الإمام عَلَيْهِ السَّلَامُ على خوفه ورأيه، بينما قدّم بعض الرماة في أُحد رغبتهم وتقديرهم على أمر رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ.

وهكذا تظهر حقيقة التسليم في المواقف؛ فمن لم يقدّم رأيه وهواه على أمر الله تعالى ورسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ والإمام عَلَيْهِ السَّلَامُ كان ذلك من علامات رسوخ معرفته وتسليمه، أما الإصرار على تقديم الرأي والهوى فيكشف عن نقصٍ فيهما.

الفرع الثالث: الرد إليه، والأخذ بقوله

بعد أن بيّن الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ مقتضيين من مقتضيات معرفة الإمام، وهما طاعته والتسليم له في كل أمر، انتقل إلى مقتضى آخر فقال عَلَيْهِ السَّلَامُ: «والرد إليه، والأخذ بقوله».

ومعنى الرد إليه: الرجوع إلى الإمام عَلَيْهِ السَّلَامُ، وجعله المرجع في معرفة الحق عند الجهل، أو الاشتباه، أو الاختلاف، أو النزاع.

ويمكن بيان أبرز صور الرد إلى الإمام عَلَيْهِ السَّلَامُ بما يأتي:

- **الرجوع عند الجهل بالحكم:**

فمن جهل حكمًا شرعيًا، وجب عليه الرجوع إلى الإمام عَلَيْهِ السَّلَامُ لمعرفة

حكم الله تعالى. وأما في زمن الغيبة، فيرجع غير المجتهد في الأحكام الشرعية إلى الفقيه الجامع لشرائط التقليد. وقد ورد في التفسير المنسوب إلى الإمام الحسن العسكري عَلَيْهِ السَّلَامُ: «فأمّا من كان من الفقهاء صائنًا لنفسه، حافظًا لدينه، مخالفًا لهواه، مطيعًا لأمر مولاه، فللعوام أن يقلّدوه».

◆ الرجوع عند الاشتباه والاختلاف:

فإذا اشتبهت عليه مسألة، كأن يرى روايتين يظهر بينهما التعارض، أو يلتبس عليه معنى آية، فلا يعتمد على رأيه، بل يرد الأمر إلى الإمام عليه السلام. وكذلك إذا اختلف شخصان أو طالبا علم في فهم آية أو حكم شرعي، فالمرجع في حسم الاختلاف هو الإمام عَلَيْهِ السَّلَامُ.

◆ الرجوع عند النزاع والقضاء:

وأما إذا تحول الاختلاف إلى نزاع في حق أو مال أو غير ذلك، فإن الفصل فيه يكون بالرجوع إلى الإمام عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾(٢٧٤). فالآية تبيّن وجوب التحاكم إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ والتسليم لحكمه، وقد دلّت روايات أهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ على الرجوع إلى الإمام عَلَيْهِ السَّلَامُ في الحكم والقضاء.

ولا يكتمل «الرد إليه» بمجرد الرجوع إلى الإمام وعرض النزاع عليه، بل لا بد من الأخذ بحكمه؛ ولذلك قال عَلَيْهِ السَّلَامُ: «والرد إليه، والأخذ بقوله». فلا يرجع الإنسان إليه ثم يترك حكمه لرأيه أو هواه، بل يأخذ بقوله وإن خالف رغباته أو مصالحه؛ لأن الإمام عَلَيْهِ السَّلَامُ لا يحكم إلا بالحق.

فالرجوع إلى الإمام عَلَيْهِ السَّلَامُ ليس كاستشارة شخصٍ يجوز قبول رأيه أو تركه، بل هو رجوعٌ إلى الحجة التي أوجب الله تعالى اتباعها والانقياد لحكمها.

وبعد أن اتضح وجوب الرد إلى الإمام عَلَيْهِ السَّلَامُ والأخذ بقوله عند النزاع، يأتي السؤال:

إلى مَن يكون الرجوع في القضاء في زمن حضور الإمام عَلَيْهِ السَّلَامُ وفي زمن غيبته؟

- في زمن حضور الإمام المعصوم عَلَيْهِ السَّلَامُ: الأصل أن القضاء للإمام المعصوم عَلَيْهِ السَّلَامُ، أو لمن نصبه الإمام قاضيًا.
- في زمن الغيبة: يثبت حق القضاء لمن تتوافر فيه الشروط المعتبرة شرعًا، وهو الحاكم الشرعي الجامع للشرائط.

وقد دلّت على ذلك روايات أهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، ومنها:

- ففي مقبولة عمر بن حنظلة، حين سأل الإمامَ الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ عن رجلين من الشيعة وقعت بينهما منازعة في دَين أو ميراث، وهل يتحاكمان إلى السلطان أو القضاة، قال عَلَيْهِ السَّلَامُ: «ينظران إلى من كان منكم قد روى حديثنا، ونظر في حلالنا وحرامنا، وعرف أحكامنا، فليرضوا به حكمًا؛ فإني قد جعلته عليكم حاكمًا، فإذا حكم بحكمنا فلم يقبل منه، فإنما استخف بحكم الله، وعلينا ردَّ، والراد علينا الراد على الله، وهو على حد الشرك بالله»[٢٧٥].
- وفي رواية أبي خديجة عن الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ: «إيّاكم إذا وقعت بينكم خصومة أو تَدارى[٢٧٦] في شيء من الأخذ والعطاء أن تحاكموا إلى أحد من هؤلاء الفسّاق، اجعلوا بينكم رجلًا قد عرف حلالنا وحرامنا، فإنّي قد جعلته عليكم قاضيًا»[٢٧٧].

ومن هنا أفتى الفقهاء بحرمة التحاكم إلى غير الحاكم الشرعي مع التمكن من الرجوع إليه. وقد جاء في منهاج الصالحين للسيد السيستاني، ج١، مسألة ٢١: «يحرم القضاء على من ليس أهلاً له، ولا يجوز الترافع إليه، ولا الشهادة عنده، إذا لم ينحصر استنقاذ الحق المعلوم بذلك»[٢٧٨].

أي لا يجوز الترافع إلى من لا أهلية له شرعًا للقضاء، إلا إذا انحصر استنقاذ الحق المعلوم بذلك.

والمقصود بـ «من ليس أهلًا له» هو: من لا يملك الأهلية الشرعية للقضاء، أي من لم تتوافر فيه الشروط المعتبرة شرعًا للقضاء.

ومن أمثلة ذلك نزاع الزوجين أمام الحاكم الشرعي؛ فقد يحكم بأن الحق مع أحدهما ويلزم الآخر بأمر معين، فلا يترك المؤمن الحكم الشرعي النافذ في مورد النزاع لرأيه الشخصي أو العرف أو القانون المخالف له. ومع ذلك نجد أحيانًا من يرفض الحكم إذا جاء على خلاف مصلحته، ويحاول تبرير موقفه بدل التسليم لحكم الشرع.

وهذا يتنافى مع مقتضى الرد إلى الحاكم الشرعي والأخذ بحكمه؛ لما تقدم من وجوب قبول حكم من ثبتت له أهلية الحكم شرعًا وعدم ردّه.

مثال واقعي:

امرأة غير ناشز امتنع زوجها عن الإنفاق عليها مع استحقاقها للنفقة شرعًا، فراجعته مرارًا، وتدخل أهل الخير للإصلاح فلم يستجب، ثم رُفع الأمر إلى الحاكم الشرعي فلم يمتثل. فإذا لم يبقَ لاستنقاذ حقها إلا المحكمة المدنية، جاز لها اللجوء إليها لاستنقاذ حقها الشرعي.

فلو ثبت لها مقدار من النفقة دَينًا في ذمة زوجها، ثم قضت المحكمة بأكثر منه، لم تصبح الزيادة حقًّا شرعيًا لها بمجرد حكم المحكمة. وإذا حكمت بأقل من حقها، بقي المقدار الباقي دَينًا عليه حتى يؤديه أو تسقطه الزوجة عنه.

وهذا يبين أن المؤمن لا يجعل القانون هو الذي يحدد الحق والباطل، وإنما يجعل الشرع هو الميزان، ويستفيد من القانون بقدر ما يوصله إلى حقه المشروع، لا أكثر.

وهكذا نفهم أن الرد إلى الإمام عَلَيْهِ السَّلَامُ يعني جعله المرجع والميزان في معرفة حكم الله، فلا نقدّم على قوله وحكمه رأيًا أو عرفًا أو قانونًا مخالفًا للشرع، وفي زمن الغيبة يكون الرجوع إلى من أمر أهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ بالرجوع إليه وفق الضوابط الشرعية.

المطلب الثالث: معرفة هوية الإمام الحق

بعد أن بيَّن الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ في الجزء الأول من الحديث حقيقة الإمام ومقامه، ثم بيَّن في الجزء الثاني ما تقتضيه معرفته من الطاعة والتسليم والرد إليه والأخذ بقوله، انتقل إلى بيان هوية الإمام الذي تجب معرفته وطاعته، فذكر الأئمة عَلَيْهِمُ السَّلَامُ واحدًا بعد آخر، فقال عَلَيْهِ السَّلَامُ: «ويعلم أنّ الإمام بعد رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ علي بن أبي طالب، ثم الحسن، ثم الحسين، ثم علي بن الحسين، ثم محمد بن علي، ثم أنا، ثم من بعدي موسى ابني، ثم من بعده ولده علي، وبعد علي محمد ابنه، وبعد محمد علي ابنه، وبعد علي الحسن ابنه، والحجة من ولد الحسن»[٢٧٩].

ومن هنا يتضح أن أدنى معرفة الإمام لا تكتمل بمعرفة مقامه وما تقتضيه من الطاعة والتسليم والرد إليه والأخذ بقوله، بل لا بد أيضًا من معرفة هويته؛ إذ كيف يمكن للإنسان أن يطيعه ويرد إليه وهو لا يعرف مَن هو؟

وبعد أن عرفنا أن تعيين الإمام وبيان هويته جزء من أدنى معرفته، قد يُقال:

لماذا حرص الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ في هذه الرواية بالذات على ذكر أسماء الأئمة عَلَيْهِمُ السَّلَامُ واحدًا بعد آخر؟

الجواب:

إن لذلك أسبابًا، نذكر منها سببين رئيسيين:

السبب الأول: إقامة الحجة وقطع العذر

فبعد أن بيَّن الإمام عَلَيْهِ السَّلَامُ مقام الإمام ووجوب طاعته والتسليم له والرد إليه والأخذ بقوله، عيَّن الأشخاص الذين تنطبق عليهم هذه الصفات؛ حتى لا يقول أحد: عرفت وجوب طاعة الإمام، ولكني لم أعرف مَن هو. وبذلك تُقام الحجة ويُقطع العذر. قال سبحانه: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾[٢٨٠].

السبب الثاني: تمييز الإمام الحق من المدّعين

فقد ظهرت عبر التاريخ دعاوى للإمامة ممن لم يجعلهم الله تعالى حججًا على عباده، فكان تعيين الإمام بالنص يحفظ المؤمن من الاشتباه بالمدّعين.

ومن ذلك ما وقع بعد وفاة الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ إذ قال جماعة بإمامة ابنه عبد الله الأفطح، إلا أن بعض أصحاب الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ امتحنوه في مسائل من الحلال والحرام، فلم يجدوا عنده ما كانوا يعرفونه من علم الإمام، فرجع جماعة منهم إلى إمامة الإمام موسى الكاظم عَلَيْهِ السَّلَامُ[٢٨١].

وكذلك وقع بعد شهادة الإمام الحسن العسكري عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ فقد قدم وفد من أهل قم يحملون كتبًا وأموالًا للإمام، فقيل لهم إنه قد توفي، وأشير إلى أخيه جعفر. فسألوه أن يخبرهم بأصحاب الكتب ومقدار الأموال إن كان هو الإمام، فعجز عن ذلك وقال: «أتريدون منا أن نعلم الغيب؟». ثم خرج خادم الإمام المهدي عَلَيْهِ السَّلَامُ، فأخبرهم بأسماء أصحاب الكتب ومقدار الأموال، فسلّموها إليه، واستدلوا بذلك على الإمام الذي كانوا يبحثون عنه[٢٨٢].

كما بيّنت روايات أهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ علاماتٍ حتمية تسبق قيام الإمام المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف، فقد روي عن الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ أنه قال: «قبل قيام القائم خمس علامات محتومات: اليماني، والسفياني، والصيحة، وقتل النفس الزكية، والخسف بالبيداء»[٢٨٣].

وبذلك يحفظ المؤمن عقيدته من الدعاوى الباطلة، ويتمسك بالإمام الذي جعله الله حجةً عليه مهما كثرت الفتن والمدّعون.

الخلاصة:

وبهذا نكون قد انتهينا من بيان «أدنى معرفة الإمام» في حديث الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ. فإذا كان رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ قد قال: «مَن مات ولم يعرف إمام زمانه مات ميتةً جاهلية»[٢٨٤]، فإن حديث الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ يبيّن لنا الحد الأدنى من هذه المعرفة، ويمكن تلخيصه بما يأتي:

- ✦ أن نعرف حقيقة الإمام ومقامه: وأنه عدل النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ فيما جعله الله تعالى له من شؤون الإمامة والهداية، مع استثناء النبوة وما يختص بها، وأنه وارث علم النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ وآثار النبوة.
- ✦ أن نعرف وجوب طاعته: فنؤمن بأن الله تعالى أوجب علينا طاعته، فلا نعصيه فيما أمر ونهى.
- ✦ أن نسلّم له في كل أمر: فنرضى بحكمه ولا نعترض عليه، وإن لم ندرك حكمته.
- ✦ أن نردّ إليه ونأخذ بقوله: فنجعله المرجع في معرفة الحق وحكم الله تعالى، ولا نقدّم عليه آراءنا وأهواءنا.
- ✦ أن نعرف هوية إمامنا: فنعتقد بإمامة الأئمة الاثني عشر عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، وآخرهم إمام زماننا المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف.

وهنا قبل أن نختم المحاضرة ينبغي لكل واحدٍ منا أن يسأل نفسه: هل أعرف إمام زماني حقًّا؟

والجواب لا نجده في الدعوى وحدها، بل في قلوبنا ومواقفنا وسلوكنا: هل

نطيعه؟ هل نسلّم لأمره؟ هل نردّ إليه ونأخذ بقوله؟ وهل نقدّم أمره على أهوائنا ورغباتنا؟ فبمقدار ما تتحول معرفتنا إلى طاعةٍ وتسليمٍ واتباع تظهر حقيقتها.

وقد كشفت مواقف الناس عبر التاريخ حقيقة هذه المعرفة؛ فكم من مدّعٍ فضحته مواقفه، وكم من صادقٍ أثبتها بطاعته وتسليمه وثباته.

ولعلّ من أصدق صور معرفة إمام الزمان ما شهدته كربلاء؛ ففي الوقت الذي وقف فيه قومٌ في وجه إمام زمانهم الحسين بن علي عَلَيْهِ السَّلَامُ وحاصروه وقاتلوه، وقف إلى جانبه رجالٌ عرفوا إمامهم حقّ المعرفة، فلم يكتفوا بمعرفة اسمه ونسبه ومقامه، بل صدّقوا معرفتهم بالطاعة والتسليم والنصرة حتى بذلوا أرواحهم بين يديه.

ولذلك أثنى عليهم الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ بقوله: «فإني لا أعلم أصحابًا أوفى ولا خيرًا من أصحابي، ولا أهل بيت أبرّ ولا أوصل من أهل بيتي، فجزاكم الله عني جميعًا خيرًا»[٢٨٥].

ومن أولئك العارفين بإمام زمانهم رجلٌ لم يبدأ طريقه مع الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ من أول المسير، لكن لقاءً واحدًا بالإمام غيّر مسار حياته، حتى أصبح من خيرة أنصاره وبذل روحه بين يديه... ذلك هو زهير بن القين.

فقد روي حين سار ركب الهاشميين وأنصارهم صَوب كربلاء كان هناك ركبٌ يقوده زهير بن القين. وكان يُساير ركب الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ، فأرسل الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ في طلبه وهو جالس يتغذى، فسكت زهير برهة حتى قالت له زوجته دلهم بنت عمرو:

«يا سبحان الله! أيبعث إليك الحسين بن فاطمة ثمّ لا تأتيه، ما ضرك لو أتيته فسمعت كلامه ورجعت!»[٢٨٦].

ولمّا ذهب إلى أبي عبد الله الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ وسمع كلامه الإلهي، فما لبث

أن عاد مستبشرًا ضاحكًا وقد أشرق وجهه، فأمر بفسطاطه[٢٨٧] فقلعه، وضمَّ فسطاطه بركب الإمام الحسين.[٢٨٨]

التحق بركب الإمام المبارك فجعله قائدًا للجبهة اليُمنى من عسكره، وعشق البقاء مع إمامه وقد خيّره الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ بين الذهاب والبقاء، فقال للإمام عَلَيْهِ السَّلَامُ:

«والله لو أُقتل ألف مرَّة هُوَ أحبّ إليّ من ترك ابن رسول الله وأهل بيته عَلَيْهِمُ السَّلَامُ».

وتقدم يوم المعركة إلى معسكر ابن سعد وقال لهم: «أنذركم من عذاب الله، إني أنصحكم نصيحة المسلم للمسلم ونحن الآن على دين واحد»، فشتموه ومدحوا الظالم عبيد الله بن زياد والي الكوفة بل وأصرّوا على قتال الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ ورماه الحاقد شمر بن ذي الجوشن بسهم وقال له:

«اسكت لن نسمع لك كلامًا»، فأرسل الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ من يقول له لن ينفع النُّصح لهؤلاء فاتركهم يا زهير.[٢٨٩]

وعند بدء القتال برز زهير بن القين كالأسد الغاضب على أعداء الله مخلصًا لإمام الحقِّ. وعندما حانت صلاة الظهر يوم عاشوراء أمر الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ زهير بن القين وسعيد بن عبد الله الحنفي أن يتقدما أمامه بنصف مَن تخلّف معه، ثم صلّى بهم صلاة الخوف.[٢٩٠]

ولما فرغ الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ من الصلاة، تقدّم زهير فجعل يقاتل قتالاً لم يُر مثله، ولم يُسمع بشبهه، وأخذ يحمل على القوم، وهو يرتجز ويقول:

أنا زهيرٌ وأنا ابنُ القينِ ... أذودُكم بالسيفِ عن حسينِ
إنَّ حسينًا أحدُ السبطينِ ... من عترةِ البرِّ التقيِّ الزينِ
ذاك رسولُ اللهِ غيرُ المينِ ... أضربُكم ولا أرى من شينِ

ثم رجع فوقف أمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ وقال له:

فدتك نفسي هادياً مهدياً — اليوم ألقى جدّك النبيا
وحسناً والمرتضى علياً — وذا الجناحين الشهيد الحيا

فكأنه ودعه، وعاد يقاتل، فشدّ عليه كثير بن عبد الله الشعبي و مهاجر بن أوس التميمي فقتلاه.[٢٩١] ولمّا صرع زهير بن القين، وقف عليه الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ فقال: لا يبعدنك الله -يا زهير- ولعن قاتلك لَعْنَ الذين مُسخوا قردة وخنازير.[٢٩٢]

ثم قل لهم: «وقد ورد السلام عليه في زيارة الشهداء: «السلام على زهير بن القين البجلي القائل للحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ وقد أذن له في الانصراف: «لا والله، لا يكون ذلك أبداً! أ أترك ابن رسول الله أسيراً في يد الأعداء وأنجو أنا!؟ لا أراني الله ذلك اليوم»[٢٩٣]».

(نصاري)

مشوا لنصار يا حيهم للاطراد — او كلمن راح منهم بعد ما عاد
گظوا حگ الحسين او حگ الجهاد — او حگ الله او ناموا ابحر الصخور
هوه هذا يون وابروحه ايجود — او هذا للخناجر صار فرهود
او هذا گطعوا چفوفه والزنوند — او هذا او ذاك منه الصدر مكسور
او هذا بالسيوف اموزعينه — او هذا بالتراب امعفرينه

او هـذا ابچـم عمـود امهشـمينه
او هـذا بـس جسـم والـراس مبتـور

ركب سلطانهم يفگد ابگومه
لگاهـا امصرّعـه اعلـه الـترب نومـه

الـكل منهم امعفرينـه بدمومه
او فاضـت روحـه او بـس دمـه ايفـور

(أبوذية)

اچفوف الگدر يصحابي لونكم
احشمكم او روحي اتون لونكم

تنهضـــون او تشوفوني لونكم
وحيـــد او حاطت العدوان بيه

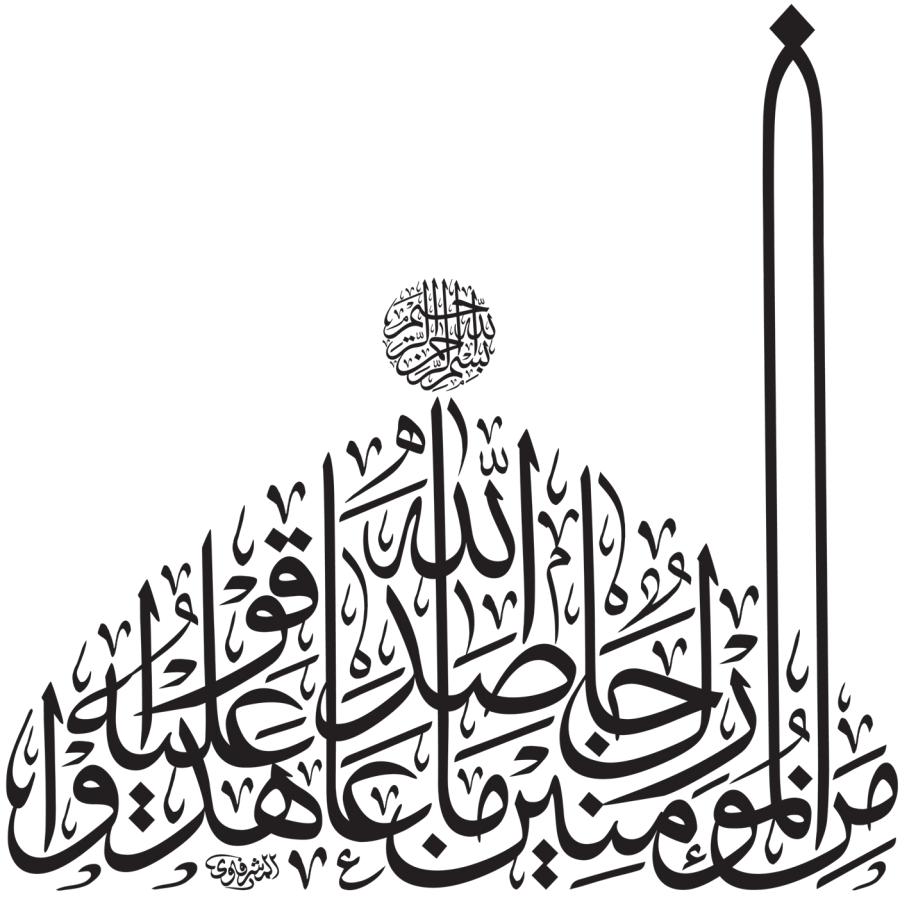

ليلة ٧ محرم

منع الماء عن أهل البيت (عليهم السلام) في كربلاء

على الدنيا بعدك العفا يا قمر بني هاشم

السلام على الحسين وعلى علي بن الحسين وعلى أولاد الحسين وعلى أصحاب الحسين

الليلة السابعة من محرّم الحرام

المناسبة: شهادةُ العبّاسِ بنِ عليٍّ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ

القصيدة: للسيد جعفر الحلي

عبست وجوهُ القومِ خوفَ الموتِ والـ ... ـعباس فيهم ضاحكٌ يتبسمُ

قلب اليمينَ عن الشمال وغاص في ... الأوساطِ يختطفُ النفوسَ ويحطم

وثنى أبو الفضل الفوارس نُكَّصا ... فرأوا أشدَّ ثباتِهم أنْ يُهزموا

بَطَلٌ تورَّثَ مِن أبيه شَجاعَةً ... فيها انُوفُ بني الضَّلالَةِ تُرغَمُ

بَطَلٌ إذا رَكِبَ المُطَّهَمَ خِلتَهُ ... جَبَلاً أشَمَّ يَخِفُّ فيه مُطهَّمُ

قسماً بصارِمِهِ الصَّقيل وإنّني ... في غير صاعقةِ السَّما لا اقسِمُ

لولا القَضا لَمَحى الوجودَ بِسَيفِهِ ... واللّهُ يقضي ما يشاءُ ويَحكُمُ

وهوى بجنبِ العلقميِّ فليتَهُ ... للشاربين به يُدافُ العلقَمُ

فمشى لمصرعِهِ الحسينُ وطرفُهُ ... بين الخيام وبينَهُ متقسِّمُ

فأكبَّ منحنياً عليه ودمعُهُ ... صبغَ البسيط كأنَما هو عندَمُ

قد رامَ بلثمُهُ فلم يرَ موضعاً ... لم يُدمِهِ عَضُّ السلاحِ فيُلثَمُ(٢٩٤)

(نصاري)

اويلي امن انضرب ليث العرينه ... ما چنه انگطع منه يمينه
لا والله ولا چنهم ابعينه ... جر السيف باليسره وخذْ دين
وگف وگفة سبع بالزور ينهم ... على گطعت ازنوده موش مهتم
بس ايگول ماي الجود يسلم ... لجل احسين خلي اتروح الايدين
نظر للجود سالم وابتشر بيه ... سدر فرحان ما چن گطعوا ايديه
سهم الشوم اويلي اتلولح اعليه ... شگ الجود وتفايض الكترين
لگف سيفه ابحلگه اوصال موّات ... او گال اسدر لعند الخيم هيهات
يروحي او شَعْتِذر للهاشميات ... لوجني او گالن لي الوعد وين
سدّر للحرب راعي الحميه ... أثاري الگوم خلوله خفيه
يويلي وانضرب راس الشفيه ... ابعمود احديد شگ الراس نصين
خرّ امن السرج عباس واخلاه ... بس ما مال مال العلم ويّاه
طاح او طيحته صارت على اگفاه ... وصاح ابصوت الله اوياك يحسين[٢٩٥]

موضوع المحاضرة السابعة:

كيف نتحكم بالغضب؟

روي عن الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ:

﴿ اَلْغَضَبُ مِفْتَاحُ كُلِّ شَرٍّ ﴾[٢٩٦].

نتعرّض في حياتنا اليومية لمشكلات كثيرة في الأسرة والعمل والعلاقات الاجتماعية، ويكون الغضب غير المنضبط سببًا في نشوء كثير منها أو تفاقمها؛ فكم من كلمة قيلت في لحظة غضب فهدمت علاقة، وكم من تصرف لم يستغرق إلا دقائق بقيت آثاره سنوات! ولشدة ما يفتحه الغضب من أبواب المعاصي والأخطاء، روي عن الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ: «الغضب مفتاح كل شر»[٢٩٧]؛ فقد يبدأ انفعالًا في النفس، ثم يقود إلى السب أو الإهانة أو الاعتداء أو القطيعة.

لذلك لا يكفي أن نعرف أضرار الغضب أو نطالب الإنسان بضبط نفسه، بل لا بد أن يتعلّم هذه المهارة ويتدرّب عليها.

ولأجل اكتساب مهارة التحكّم بالغضب، سنتعرّف أولًا إلى مفهومه وميزانه الشرعي، ثم نتعلّم كيفية التحكّم به ومعالجة أسبابه.

المبحث الأول: فهم الغضب وميزانه الشرعي

المطلب الأول: مفهوم الغضب وطبيعة القوة الغضبية

الغضب انفعال فطري أودعه الله تعالى في الإنسان، وينشأ عندما يواجه أمرًا يراه مؤذيًا أو مهددًا، أو اعتداءً عليه أو على ما يهمه، أو مانعًا يحول بينه وبين ما يريد؛ فتتحرك فيه القوة الغضبية لمواجهته أو دفعه أو تغييره.

فالغضب في أصل وجوده ليس شرًّا ينبغي اقتلاعه، وإنما هو قوة لها وظيفة مهمة؛ فلولاها قد لا يدافع الإنسان عن نفسه وأهله وحقوقه، ولا يقاوم الظلم والباطل. لذلك لا يعني علاجه إلغاء هذه القوة أو ألّا يغضب الإنسان أبدًا؛ لأن ضعفها في المواضع التي ينبغي فيها الغضب ليس كمالًا أيضًا، وإنما المقصود ضبطها وتوجيهها لتتحرك في الموضع والمقدار المناسبين، وبالطريقة التي يجيزها العقل والشرع.

ولمعرفة الضبط المطلوب، لا بد من بيان حالات القوة الغضبية؛ فقد ذكر الشيخ محمد مهدي النراقي أنها تكون على ثلاث حالات[٢٩٨]:

✦ الإفراط: أن تشتد القوة الغضبية وتغلب على الإنسان حتى تخرجه عن حكم العقل والشرع، فيندفع وراء غضبه من غير بصيرة أو ضبط، وقد يقول أو يفعل ما لا يجوز. وقد عبّر النراقي عن ذلك بقوله: «أن تغلب هذه الصفة حتى يخرج عن طاعة العقل والشرع وسياستهما، ولا تبقى له فكرة وبصيرة».

✦ التفريط: أن تضعف القوة الغضبية أو تُفقد، فلا يغضب الإنسان في الموضع الذي ينبغي أن يغضب فيه شرعًا وعقلًا، وقد عدّ النراقي ذلك من الجبن والمهانة.

✦ **الاعتدال**: أن تبقى القوة الغضبية تحت حكم العقل والشرع؛ فتتحرك حيث ينبغي، وبالقدر والطريقة المناسبين. وقد وصف النراقي هذه الحالة بقوله: «أن يصدر غضبه فيما ينبغي، ولا يصدر فيما لا ينبغي... بل يكون تابعًا لهما في الغضب وعدمه»، وعدّها من الشجاعة.

فمثلًا: إذا رأى الأب ولده يعتدي على أخيه، فغضب لخطئه، لكنه لم يُهِنْه أو يظلمه، بل أوقف الاعتداء وبيّن له خطأه وأدّبه بالطريقة المناسبة؛ فهذا غضب معتدل؛ لأنه تحرك في موضعه، وبقي تحت حكم العقل والشرع.

إذن نحن أمام ميزان واضح: الإفراط تجاوز حكم العقل والشرع، والتفريط عدم الغضب في موضعه، والاعتدال توجيه الغضب وفق العقل والشرع.

المطلب الثاني: الغضب الممدوح والغضب المذموم

كثرت النصوص المحذّرة من الغضب حتى قد يُظن أن كل غضب مذموم، مع أن الشريعة لم تذم أصل القوة الغضبية، وإنما ميّزت بين غضب منضبط بالعقل والشرع، وغضب تحرّكه الأهواء ويتجاوز حدود الحق.

فالغضب الممدوح هو الذي يكون دافعه مشروعًا؛ كالغضب لانتهاك حرمات الله تعالى، أو وقوع الظلم، أو الاعتداء على النفس والعِرض والمال، وتكون طريقة التعبير عنه مشروعة أيضًا. فلا يكفي أن يغضب الإنسان للحق، بل يجب ألّا يدفعه غضبه إلى السب أو الإهانة أو الاعتداء بغير حق.

قال الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ: «إنما المؤمن الذي إذا غضب لم يخرجه غضبه من الحق، وإذا رضي لم يدخله رضاه في باطل»[٢٩٩].

ومن شواهده غضب موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ عندما عبد قومه العجل، قال تعالى: ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا﴾[٣٠٠].

أما الغضب المذموم فيتحقق عندما يكون سببه غير مشروع، كالغضب للهوى والكبرياء والمصلحة الشخصية، أو يكون سببه مشروعًا لكن يتجاوز الإنسان في التعبير عنه حدود الشرع، فيتحول من صاحب حق إلى ظالم أو معتدٍ.

وتكمن خطورته في أنه يضعف التفكير، ويدفع إلى المعاصي والاعتداء، ويفسد العلاقات، ويخلّف ندمًا قد لا يمكن تدارك آثاره. وقد أوصى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ رجلًا كرر طلب الوصية بقوله: «آمرك ألّا تغضب»، ثم قال الإمام الباقر عَلَيْهِ السَّلَامُ: «أيُّ شيء أشد من الغضب؟ إن الرجل ليغضب فيقتل النفس التي حرّم الله ويقذف المحصنة»[٣٠١].

إذن لا نحكم على الغضب بمجرد ظهوره، بل نسأل: لماذا غضب الإنسان؟ وكيف تصرّف في غضبه؟ فالعبرة بمشروعية الدافع والوسيلة معًا.

المبحث الثاني: بناء مهارة التحكّم بالغضب

لكي نبني مهارة التحكّم بالغضب، سنتناول مطالب تساعدنا على معرفته والتعامل معه بطريقة صحيحة. وتعتمد أغلبها على التدخل في مرحلته المبكرة، قبل أن يشتد ويدفع الإنسان إلى تصرفات يصعب تداركها.

لماذا يجب أن يبدأ التعامل مع الغضب منذ بدايته؟

لنفترض أن إنسانًا دخل منحدرًا ينتهي بهاوية تشتعل فيها النار؛ ففي خطواته الأولى يستطيع التوقف والرجوع، لكن كلما واصل النزول ازدادت سرعة اندفاعه وصَعُب عليه إنقاذ نفسه. لذلك تكون اللحظة الحاسمة عند بداية المنحدر، لا عند اقترابه من الهاوية.

هكذا هو الغضب؛ ففي بدايته تظهر علامات يمكن ملاحظتها، كارتفاع الصوت، وتسارع ضربات القلب، وحرارة الجسد، وتوتر العضلات، والرغبة

في الرد السريع. وفي هذه المرحلة تكون قدرة الإنسان على ضبط نفسه واتخاذ القرار الصحيح أقوى. أمّا إذا لم يتدخل، اشتد غضبه وتزاحمت في ذهنه أفكار تؤججه، وقد تدفعه إلى الصراخ أو الإهانة أو الاعتداء أو غيرها من السلوكيات الخاطئة، وبعضها محرّم شرعًا.

إذن، الوقت الأنسب للتحكّم بالغضب هو بدايته؛ لأن الإنسان يكون فيها أقدر على إيقاف اندفاعه قبل أن يصدر منه ما يندم عليه. وأما المطالب التي ينبغي التعرّف إليها والتدرّب عليها فهي:

المطلب الأول: اعرف غضبك قبل أن تعالجه

ذكرنا أنّ التحكّم بالغضب لا يبدأ بعد أن يبلغ ذروته، وإنما بمعرفته منذ بدايته؛ فلا يكفي أن يقول الإنسان: «أنا سريع الغضب» أو «أنا عصبي»، بل يحتاج إلى معرفة ما يثير غضبه، وعلاماته المبكرة، وكيف تتصاعد شدته، وما يصاحبه من مشاعر، وما ينتهي إليه من استجابة ونتيجة.

وتكوّن هذه العناصر ما يمكن تسميته خريطة الغضب:

الموقف المثير ← العلامات المبكرة ← تصاعد الغضب ← المشاعر المصاحبة ← الاستجابة والنتيجة.

فمثلًا: تكتشف زوجة أن زوجها يتبادل مع امرأة رسائل تتضمن عبارات غزل؛ فيثير ذلك غضبها، وتتسارع ضربات قلبها، وترتفع حرارة جسدها وصوتها، ويشتد فكها. ثم يتصاعد غضبها، وتصاحبه مشاعر الإهانة والخيانة والخوف على حياتها الزوجية.

فإذا استسلمت لغضبها، فقد تصرخ وتسب، وتتخذ في ذروة انفعالها قرارًا بطلب الطلاق والخروج من البيت، فيتفاقم الخلاف وتتضرر الأسرة والأولاد. ولا يعني ضبط غضبها أن تتجاهل خطأ زوجها أو تتنازل عن حقها، بل

أن تلاحظ علاماته المبكرة، وتطبق خطة الطوارئ، ثم تعالج المشكلة وتتخذ الموقف المناسب بعد أن تهدأ.

وتتضمن خريطة الغضب عناصر متعددة، لكننا سنركّز على أول خطوتين؛ لأنهما تمثلان بداية التدخل:

١. تعرّف إلى المواقف والمثيرات التي تشعل غضبك

تجيب هذه الوسيلة عن سؤال: ما الذي يثير غضبي؟

المثير هو الموقف أو التصرف الذي تبدأ بعده استجابة الغضب؛ فقد يكون كلمة يسمعها الإنسان، أو تصرفًا يراه، أو موقفًا يتكرر معه، أو تعاملًا يصدر من شخص معين.

فمن الناس من يغضب عند الشعور بعدم الاحترام، ومنهم من يستفزه التأخر عن الموعد، أو مقاطعته أثناء الكلام، أو تكرار أولاده الخطأ، أو انتقاده أمام الآخرين، أو عدم الالتزام بالاتفاق، أو الفوضى أو التجاهل.

ولا تهدف معرفة المثيرات إلى الهرب منها، وإنما إلى معرفة المواقف التي يتكرر فيها الغضب؛ لأن الإنسان إذا عرف ما يثيره أصبح أقدر على الاستعداد له ومراقبة نفسه عند وقوعه.

٢. تعرّف إلى علامات الغضب المبكرة

تجيب هذه الوسيلة عن سؤال: كيف أعرف أن غضبي قد بدأ؟

لكل إنسان علامات مبكرة قد تختلف عن علامات غيره، ومنها:

- علامات جسدية: كتسارع ضربات القلب والتنفس، وارتفاع حرارة الوجه أو الجسم، وشد الفك والعضلات، وقبض اليدين.

✦ علامات فكرية: كأن يقول في نفسه: «إنه يتعمد استفزازي»، أو: «يجب أن أرد عليه الآن».

✦ علامات انفعالية: كالضيق، والشعور بالإهانة، وتنامي الرغبة في الجدال أو الانتقام.

✦ علامات سلوكية: كارتفاع الصوت، وتسارع الكلام، ومقاطعة الطرف الآخر، والعبوس، وكثرة الإشارة باليد، والتعامل مع الأشياء بعنف.

لذلك يسأل الإنسان نفسه: ما أوائل العلامات التي تظهر عليّ عند بدء غضبي؟

فهذه العلامات بمنزلة جرس إنذار يخبره بأن غضبه بدأ يتصاعد، وأن عليه التدخل قبل أن يشتد. فإذا عرفها، استطاع تطبيق خطة الطوارئ وإيقاف اندفاعه قبل أن يصدر منه ما يندم عليه.

المطلب الثاني: خطة الطوارئ عند بداية الغضب

تعلّمنا في المطلب السابق كيف نكتشف بداية الغضب من خلال علاماته المبكرة، لكن اكتشافها لا يكفي؛ فبعد أن ينتبه الإنسان إلى تصاعد غضبه يحتاج إلى أن يعرف: ماذا أفعل الآن حتى لا يقودني غضبي إلى ما أندم عليه؟

هنا تأتي خطة الطوارئ، وهي مجموعة من الوسائل التي يستعين بها الإنسان في الدقائق الأولى لاشتعال غضبه؛ ليمنع تصاعده، ويوقف اندفاعه، ويستعيد السيطرة على أقواله وأفعاله وقراراته. فالهدف في هذه اللحظة ليس حل المشكلة، وإنما تهدئة الغضب أولًا، ثم معالجتها بعد ذلك.

وتنقسم هذه الوسائل إلى مرحلتين: ١) إيقاف الاندفاع، و٢) تهدئة الجسد. ولا يلزم تطبيقها جميعًا أو بالترتيب نفسه، بل يختار الإنسان منها ما يناسب

حالـه وموقفـه.

المرحلة الأولى: أوقف الاندفاع واستعد السيطرة على نفسك

وهـي الوسـائل التـي يمكـن اللجـوء إليهـا منـذ اللحظـات الأولى للغضـب؛ لمنـع تحولـه سريعًـا إلى كلام أو فعـل أو قـرار قـد ينـدم عليـه الإنسـان.

الوسيلة الأولى: لا تستجب فورًا: أوقف كلامك وأجّل ردك حتى تهدأ

عندمـا تظهـر علامـات الغضـب المبكـرة، قـد يشـعر الإنسـان بدافـع قـوي إلى الاسـتجابة فـورًا؛ فيـصرخ، أو يسـبّ، أو يرسـل رسـالة جارحـة، أو يرمـي مـا في يـده، أو يقـترب مـن الآخـر بطريقـة عدوانيـة.

لكـن وظيفتـه الأولى أن يوقـف مـا يدفعـه إليـه غضبـه مـن قـول أو فعل، ولا سيما الـكلام؛ لمـا للكلمـة مـن أثـر قـد يبقـى بعـد زوال الغضـب. فقـد ورد عـن رسـول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «إذا غضبـتَ فاسـكت»[٣٠٢]، وروي عـن أمـير المؤمنـين عَلَيْهِ السَّلَامُ: «داووا الغضـبَ بالصمـت»[٣٠٣]. وليـس المقصـود أن يتنـازل عـن حقـه، وإنـما أن يؤجـل الجـدال والـكلام الجـارح حتـى يهـدأ.

ومـن المواقـف الجميلـة التـي تكشـف قيمـة الصمـت عنـد الاسـتفزاز مـا رواه الشـيخ المفيـد بسـنده عـن جابـر، قـال: سـمع أمـير المؤمنـين عَلَيْهِ السَّلَامُ رجـلًا يشـتم قنـبرًا، وقـد رام قنـبر أن يـرد عليـه، فنـاداه أمـير المؤمنـين عَلَيْهِ السَّلَامُ: «مهـلًا يـا قنـبر، دع شـاتمك مهانًـا، تُـرضِ الرحمـن، وتُسـخط الشـيطان، وتعاقـب عـدوك، فوالـذي فلـق الحبـة وبـرأ النسـمة، مـا أرضى المؤمـن ربَّـه بمثـل الحلـم، ولا أسـخط الشـيطان بمثـل الصمـت، ولا عوقـب الأحمـق بمثـل السـكوت عنـه»[٣٠٤]. فالـرد في لحظـة الغضـب قـد يفتـح بابًـا لإسـاءة أخـرى، بينـما يقطـع الصمـت سلسـلة التصعيـد قبـل أن تتسـع؛ ولذلـك لا يكـون الصمـت عجـزًا، بـل اختيـارًا واعيًـا.

ولا تقتصر الاستجابة التي ينبغي تأجيلها على الكلام؛ فقد يظهر الغضب في العبوس والنظرات العدوانية، أو يتحول إلى دفع وضرب وإتلاف للأشياء، أو إلى قرار متسرع كإرسال رسالة جارحة، أو قطع علاقة، أو إصدار عقوبة. لذلك يسأل الإنسان نفسه:

«ما الذي يدفعني غضبي إلى فعله الآن؟ وكيف أؤجله حتى أهدأ؟».

وقد جمع أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ هذا المعنى في عهده لمالك الأشتر رضوان الله عليه، فقال: «املك حميّة أنفك، وسورة حدّك، وسطوة يدك، وغرب لسانك، واحترس من كل ذلك بكفّ البادرة، وتأخير السطوة، حتى يسكن غضبك فتملك الاختيار، ولن تحكم ذلك من نفسك حتى تكثر همومك بذكر المعاد إلى ربك»[٣٠٥].

فـ«كفّ البادرة» أن يمسك الإنسان ما يبدر منه عند الغضب، فلا يحوّل اندفاعه الأول إلى قول أو فعل، و«تأخير السطوة» أن يؤجل ما تدفعه إليه قدرته وغضبه من تصرف أو عقوبة حتى يهدأ. والغاية من ذلك أن يسكن غضبه ويستعيد قدرته على الاختيار، فلا يختار الغضب عنه ما يقول أو يفعل:

بدأ الغضب ← أكفّ اندفاعي الأول ← أؤجل الاستجابة ← أنتظر حتى أهدأ ← أختار التصرف الصحيح.

فمثلًا، قد ينسب أحد الزملاء إلى موظفة تقصيرًا غير صحيح في مجموعة العمل، فتغضب وتكتب ردًا جارحًا تذكر فيه أخطاءه السابقة. هنا تكون خطوتها الأولى ألّا تضغط زر الإرسال، بل تؤجله حتى تهدأ، ثم تعود إليه لتحدد ما يحتاج إلى تصحيح والطريقة الأنسب لحفظ حقها.

إذن، تأجيل الاستجابة لا يعني إلغاء الحق أو ترك المشكلة، وإنما أن يقول الإنسان لنفسه:

«سأتعامل مع هذا الموقف، ولكن ليس وأنا في ذروة غضبي».

الوسيلة الثانية: جمِّد قراراتك عند اشتداد الغضب حتى تهدأ

لا يقتصر التأجيل على الكلام والتصرف، بل يشمل القرارات المهمة التي يمكن تأخيرها؛ لأن الغضب قد يؤثر في التفكير وحسن التقدير، فيختار الإنسان ما يوافق اندفاعه ورغبته في الانتقام، لا ما يقتضيه العقل والحق. قال الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ:

«الغضب ممحقة لقلب الحكيم»[٣٠٦]، وقال عَلَيْهِ السَّلَامُ: «من لم يملك غضبه لم يملك عقله»[٣٠٧].

فمثلًا، يفقد شخص مبلغًا من المال، ويشك في أن أحد معارفه قد سرقه، فيقرر مواجهته وضربه وتقديم شكوى ضده. هنا ينبغي أن يجمّد قراراته حتى يتحقق من الأمر؛ فقد يكون شكه خاطئًا، فيظلم بريئًا ثم يصعب عليه إصلاح آثار اتهامه.

وتظهر أهمية ذلك في التربية؛ فقد يكتشف الأب خطأ ولده، فيفرض عليه عقوبة شديدة وهو غاضب. والأصل أن يوقف الخطأ، ثم يؤجل اختيار العقوبة حتى يهدأ ويقدّر ما يصلح ولده؛ فقد ورد أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ «نهى عن الأدب عند الغضب»[٣٠٨]، وقال أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ:

«لا أدب مع غضب»[٣٠٩].

فالقاعدة: جمِّد القرار الذي يمكن تأجيله، ثم عُد إليه بعد هدوئك، واختر ما يقوم على الحق والمصلحة، لا على الغضب والانتقام.

الوسيلة الثالثة: استعن بذكر الله والتوسل بمحمد وآل محمد

عندما يلحظ الإنسان بداية غضبه، يمكنه أن يقطع الأفكار التي تؤجج انفعاله بالتوجه إلى الله تعالى؛ فذكر الله يبعث الطمأنينة في القلب ويعين المؤمن على ضبط استجابته، قال تعالى: ﴿ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾.[٣١٠]

ومن الوسائل الروحية والإيمانية النافعة عند الغضب:

أولًا: الاستعاذة بالله من الشيطان: بقول: «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم».

ثانيًا: ترديد الذكر: كالتسبيح والاستغفار والصلاة على محمد وآل محمد، أو قول: «لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم»، وترديد أسماء الله المناسبة لحاله، مثل: «يا حليم، يا صبور، يا رحيم»، مستحضرًا معاني الحلم والصبر والرحمة.

ثالثًا: ترديد بعض الآيات: فيستحضر آيات قصيرة تذكّره بكظم الغيظ وحسن التصرف، مثل: ﴿ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ ﴾،[٣١١] و﴿وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾،[٣١٢] و﴿ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ﴾[٣١٣].

رابعًا: الدعاء: فقد ورد عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «اللهم اغفر لي ذنبي، وأذهب غيظ قلبي، وأجرني من الشيطان الرجيم، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم»[٣١٤].

خامسًا: التوسل بمحمد وآل محمد: فقد روي عن أبي الحسن عَلَيْهِ السَّلَامُ أنه قال له إذا كانت له حاجة عند الله: «اللهم إني أسألك بحق محمد وعلي، فإن لهما عندك شأنًا من الشأن، وقدرًا من القدر، فبحق ذلك الشأن، وبحق ذلك القدر، أن تصلّي على محمد وآل محمد وأن تفعل بي كذا وكذا»[٣١٥].

المرحلة الثانية: اخفض شدة الغضب وهدّئ جسدك

الوسيلة الأولى: غيّر وضعية جسدك ومكانك

من الوسائل التي تساعد على تخفيف شدة الغضب وتهدئة الجسد:

✦ تغيير المكان؛ فإذا كان الإنسان في غرفة، فلينتقل مؤقتًا إلى غرفة أخرى أو مكان مناسب حتى يهدأ، مع إفهام الطرف الآخر أن الحوار سيُستأنف بعد الهدوء، وألّا يتحول الابتعاد إلى تهديد أو عقاب أو هجر.

✦ تغيير وضعية الجسد؛ فإذا كان الإنسان واقفًا فليجلس، وإذا كان جالسًا فليقم. فقد ورد عن الإمام الباقر عَلَيْهِ السَّلَامُ: «أَيُّمَا رَجُلٍ غَضِبَ وَهُوَ قَائِمٌ فَلْيَجْلِسْ، فَإِنَّهُ سَيَذْهَبُ عَنْهُ رِجْزُ الشَّيْطَانِ، وَإِنْ كَانَ جَالِسًا فَلْيَقُمْ...»[٣١٦].

كما ورد عنه عَلَيْهِ السَّلَامُ: «إِنَّ هَذَا الْغَضَبَ جَمْرَةٌ مِنَ الشَّيْطَانِ... فَإِذَا خَافَ أَحَدُكُمْ ذَلِكَ مِنْ نَفْسِهِ فَلْيَلْزَمِ الْأَرْضَ...»[٣١٧].

وقد شرح العلامة المجلسي رحمه الله قوله عَلَيْهِ السَّلَامُ: «فليلزم الأرض» بقوله: «ولزوم الأرض يشمل الجلوس والاضطجاع والسجود».[٣١٨] والاضطجاع يعني أن يستلقي الإنسان ويضع جسده على الأرض أو على فراش ونحوه.

وليس المقصود أن هذه الأفعال تعالج المشكلة التي أغضبته، وإنما تساعد على كسر اندفاع اللحظة قبل أن يتحول الغضب إلى قول أو فعل يندم عليه.

ومن أجمل هذه الهيئات السجود لله تعالى، وننصح أن يكون السجود على التربة؛ فقد ذكر بعض الباحثين أن اتصال الجبهة بالأرض يمكن أن يساعد على تفريغ بعض الشحنات الكهربائية المتراكمة في الجسم إلى الأرض.[٣١٩]

وننصح بالسجود على التربة الحسينية بخصوصها؛ لما ورد في روايات أهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ من خصوصيتها وفضل السجود عليها[٣٢٠].

الوسيلة الثانية: نظّم تنفّسك وهدّئ جسدك

من الوسائل التي تساعد على تخفيف شدة الغضب وتهدئة الجسد:

✦ **التنفس**؛ لأن الغضب قد يسرّع التنفس ويزيد توتر الجسم. فيأخذ الإنسان شهيقًا هادئًا من غير مبالغة، ثم يُخرج الهواء ببطء، ويكرر ذلك بحسب حاجته.

وليس المقصود الالتزام بعدد معين من الأنفاس، وإنما الانتقال من التنفس السريع المصاحب للغضب إلى تنفس أبطأ وأكثر انتظامًا. وقد وجدت مراجعة علمية أن التنفس البطيء ارتبط بزيادة الاسترخاء وانخفاض الاستثارة والقلق والغضب.[٣٢١]

✦ **إرخاء العضلات**؛ فينتبه الإنسان إلى مواضع التوتر في جسده، كشدّ الفك، وقبض اليدين، وتوتر الكتفين، ثم يتعمد إرخاءها. ويمكنه، إذا سمح الموقف، أن يجلس أو يستلقي في مكان هادئ، ويقلل الأصوات والمثيرات المحيطة به.

وقد أكدت دراسة جمعت نتائج عدد كبير من الدراسات السابقة أن الوسائل التي تخفّض الاستثارة الجسدية، ومنها التنفس والاسترخاء، تساعد على تقليل الغضب والاندفاع العدواني.[٣٢٢]

فمثلًا: يخرج رجل من اجتماع عمل غاضبًا بسبب طريقة رفض مقترحه، فيجلس قليلًا في مكان هادئ، ويبطئ تنفسه، ثم يرخي يديه وفكّه وكتفيه حتى تنخفض استثارته.

لا تعالج هذه الوسائل المشكلة التي أثارت الغضب، ولا تحدد مَن كان محقًا فيها، لكنها تهيئ الإنسان لمناقشتها بعقل أهدأ واستجابة أقل اندفاعًا.

الوسيلة الثالثة: استعن بالماء

شبّهت روايات أهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ الغضب بالنار؛ فقد روي عن الإمام الباقر عَلَيْهِ السَّلَامُ: «إنَّ هذا الغضبَ جمرةٌ من الشيطان تُوقَد في قلب ابن آدم».[٣٢٣] وكما تُطفأ النار بالماء، يمكن الاستعانة به لتخفيف شدة الغضب؛ فقد روي عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «إذا غضب أحدكم فليتوضأ وليغتسل، فإن الغضب من النار»[٣٢٤].

ويمكن للغاضب أن يتوضأ أو يغتسل، أو يغسل وجهه ورأسه بالماء البارد، أو يشرب الماء؛ فذلك يغيّر حالته الجسدية ويمنحه فرصة للهدوء قبل أن يتصرف. وقد أشارت بعض الدراسات إلى أن تعريض الوجه للماء البارد قد يسهم في خفض معدل ضربات القلب وتهدئة الاستثارة الجسدية.[٣٢٥]

المطلب الثالث: امنع استمرار الغضب بعد انتهاء الموقف

قد ينتهي الخلاف، لكن الإنسان يستمر في إعادته في ذهنه: «كيف قال لي ذلك؟»، و«كان ينبغي أن أجيبه بكذا»، وقد يتخيل حوارًا جديدًا أو انتقامًا لم يقع أصلًا.

وهذا ما يسمى في علم النفس اجترار الغضب (Anger Rumination)؛ أي استمرار الذهن في الرجوع إلى الموقف المثير للغضب وما صاحبه من أفكار ومشاعر. وكلما استعاد الإنسان الموقف، قد يعيد تنشيط غضبه من جديد.

ولتقريب الفكرة، تخيّل أنك تحمل كأسًا صغيرًا من الماء؛ لا يتعبك حمله مدة قصيرة، لكن استمرار حمله ساعات يُتعب ذراعك مع أن وزنه لم يتغير. وكذلك المواقف المؤلمة؛ قد تنتهي منذ ساعات أو أيام، لكننا نستمر في حملها في أذهاننا، فنسترجع الكلمات والتفاصيل ونتخيل ردودًا جديدة، وبذلك نبقي

غضبنا حاضرًا ونرهق أنفسنا.

ولمنع استمرار الغضب يمكن الاستعانة بوسائل، من أهمها ذكر الله تعالى والتوسل بمحمد وآل محمد عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، وهي نافعة في جميع مراحل الغضب، ومن الوسائل الأخرى:

الوسيلة الأولى: اشغل نفسك بنشاط نافع تحبه

من الوسائل التي تساعد على قطع الاستغراق في الموقف المثير للغضب تحويل الانتباه إلى نشاط آخر يحبه الإنسان ويستحوذ على قدر من تركيزه؛ فبدل أن يستمر في تذكّر الإساءة وتخيّل الردود، يشغل نفسه بما يساعده على الابتعاد عن الموقف وتهدئة انفعاله.

يختلف النشاط المناسب من شخص إلى آخر؛ فقد يكون إعداد الطعام، أو ترتيب المنزل، أو العناية بالحديقة، أو ممارسة هواية، أو القراءة، أو مشاهدة برنامج مباح يحبه.

من الأنشطة النافعة أيضًا ممارسة الرياضة؛ لأنها تساعد على تخفيف التوتر وتحسين المزاج، وتشغل الذهن عن اجترار الموقف. وقد بيّنت الدراسات أن التمارين الرياضية تزيد مستوى «بيتا إندورفين» في الدم، وهو من المواد الطبيعية التي يسهم إفرازها في تخفيف الألم وتعزيز الشعور بالراحة.[٣٢٦]

فمثلًا: قد تنتهي امرأة من خلاف عائلي، لكنها تظل تستعيد الكلمات التي قيلت لها؛ فإذا كانت تحب الرياضة، تمارس نشاطًا مناسبًا يشغل ذهنها ويخفف توترها، ثم تعود أهدأ وأكثر قدرة على التعامل مع المشكلة.

ولا يعني ذلك الهروب من المشكلة أو ترك المطالبة بالحق، وإنما قطع التفكير المتكرر الذي لا يضيف فهمًا أو حلًّا جديدًا. كما ينبغي أن يكون النشاط مباحًا وآمنًا، فلا يعالج الإنسان مشكلة غضبه بمشكلة أشد منها.

الوسيلة الثانية: تعلّم العفو وأصلح ما يمكن إصلاحه

قد يستمر الغضب بعد انتهاء الموقف؛ لأن الإنسان يظل يستعيد الإساءة ويفكر في الانتقام، أو لأن الموقف ترك ضررًا لم يُصلح. ومن الوسائل التي تساعده على تخفيف شدة غضبه ومنع استمراره العفو عمّن ظلمه، وهي خصلة لا يوفَّق إليها إلا ذو حظ عظيم؛ قال تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ۚ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ۝ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾[٣٢٧].

ومن أجمل الشواهد على ذلك ما حُكي عن مالك الأشتر رضوان الله عليه: أنه كان مارًّا في سوق الكوفة وعليه قميص وعمامة من خام، فرآه رجل من أهل السوق فاحتقر هيئته ورماه ببندقة تهاونًا به، فمضى مالك ولم يلتفت إليه. فقيل للرجل: أتدري بمن رميت؟ فقال: لا. فقيل له: هذا مالك صاحب أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ. فارتعد الرجل وذهب ليعتذر منه، فوجده قد دخل مسجدًا وهو قائم يصلي. فلما فرغ من صلاته أقبل الرجل معتذرًا، فقال له مالك: «لا بأس عليك، فوالله ما دخلت المسجد إلا لأستغفرنَّ لك»[٣٢٨].

فلم يكتفِ مالك الأشتر بالعفو عنه، بل استغفر له، فقابل إساءته بالإحسان، وصار مصداقًا لقوله تعالى: ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾[٣٢٩].

لكن العفو لا يعني إنكار الخطأ أو ترك الحقوق؛ فقد يعفو الإنسان، ويضع في الوقت نفسه حدودًا تمنع تكرار الأذى، ويطلب إصلاح الضرر. فإذا نُشر عنه كلام باطل، طلب تصحيحه، وإذا أُتلف له شيء، طلب إصلاحه أو تعويضه. كذلك إذا كان هو الذي أحدث الضرر في غضبه، فعليه أن يعتذر، ويردّ الحق، ويصلح ما أفسده.

وبذلك يعالج الإنسان أثر المشكلة من غير أن يبقيها مشتعلةً في داخله، أو

يجعل هدوءه مرهونًا دائمًا بتصرف الآخرين.

الوسيلة الثالثة: استعن بالنوم بعد انتهاء الموقف

من الوسائل التي تساعد على منع استمرار الغضب الراحة والنوم بعد انتهاء الموقف؛ فأخذ قسط معتدل من النوم أو غفوة قصيرة يمنح الجسد والعقل فرصة لاستعادة قدر من التوازن الانفعالي، كما بيّنت البحوث النفسية.[٣٣٠] وقد قال الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ: «النوم راحة للجسد».[٣٣١]

فإذا كانت المشكلة لا تتطلب معالجة عاجلة، فلا حاجة إلى مناقشتها مع استمرار الغضب والتعب، بل يمكن تأجيل الحوار والاستراحة أو النوم، ثم العودة إليها بهدوء أكبر.

فمثلًا: تعود امرأة إلى منزلها مرهقة، فتجد أمرًا عائليًا لم يُنجز، فتؤجل النقاش وتنام، ثم تعالج المشكلة بعد أن تستريح وتصبح أقدر على ضبط انفعالها.

المطلب الرابع: عالج الفكر الذي يغذّي الغضب

بعد أن أوقف الإنسان اندفاعه في لحظة الغضب، وساعد جسده على الخروج من حالة الاستثارة الشديدة، يبقى أمامه جانب بالغ الأهمية: ما الذي يحدث في فكره؟

فقد يهدأ الجسد قليلًا، ولكن الفكر يستمر في إشعال الغضب من جديد؛ لأن الإنسان لا يتأثر بما حدث فقط، وإنما يتأثر أيضًا بالطريقة التي فسّر بها ما حدث. فقد يسمع كلمةً فيفسرها إهانة، أو يرى تصرفًا فيعدّه تعمدًا للإساءة، أو يقع خطأ واحد فيقول: «هو يفعل ذلك دائمًا»، أو يتوقع من الآخرين أن

يتصرفوا كما يريد، فإذا خالفوه اشتد غضبه.

ولهذا فإن معالجة الغضب لا تكتمل بتهدئة الجسد وحده، بل تحتاج أحيانًا إلى مراجعة الأفكار التي تسبق الغضب أو تزيده أو تطيل بقاءه.

ولمعالجة هذا الجانب يمكن الاستعانة بالوسائل الآتية:

الوسيلة الأولى: قيِّم الموقف واكتشف أثر تفسيرك في غضبك

لا ينتج الغضب دائمًا من الموقف وحده، بل قد تزيده الطريقة التي نفسّر بها ما حدث؛ فالذهن يسارع إلى التساؤل: هل تعمّد إهانتي؟ هل يتجاهلني؟ ولهذا قد يواجه شخصان الموقف نفسه، لكن يختلف غضبهما باختلاف تفسيرهما له.

فمثلًا: يرسل شخصان رسالتين مهمتين إلى صديقين لهما، وتظهر لكل واحد منهما علامة تدل على فتح رسالته، لكنهما لا يتلقيان جوابًا. يقول الأول: «لقد قرأ رسالتي وتعمّد تجاهلي؛ فهو لا يحترمني»، فيشتد غضبه، وقد يرسل كلامًا جارحًا أو يتخذ موقفًا

أما الثاني فيقول: «أعلم أن رسالتي فُتحت وأنه لم يجب حتى الآن، لكنني لا أعلم السبب؛ فربما شغله أمر طارئ، أو لم يتمكن من الرد، أو نسيه بعد ذلك». لذلك قد ينزعج من تأخر الإجابة، لكنه لا يغضب غضب الأول؛ لأن الأول أساء الظن وجعل تفسيره السلبي حقيقة ثابتة، بينما أحسن الثاني الظن، ولم يجزم بسبب لا يملك دليلًا عليه.

المقصود بتقييم الموقف أن يفرّق الإنسان بين ما يعلم أنه حدث فعلًا وما يظنه عن سبب حدوثه ونية صاحبه. فإذا ثبت تعمّد الإساءة تعامل مع حقيقة معلومة، أما إذا كان تفسيره مجرد احتمال، فلا يصح أن يجعله حقيقة يبني عليها غضبه؛ قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ

بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ ﴾[٣٣٢].

يساعد على ذلك البحث عن تفسير آخر معقول، لا للجزم بصحته، بل لتذكير النفس بأن التفسير السيئ ليس الاحتمال الوحيد. فقد روي عن الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ: «إذا بلغك عن أخيك ما تكره، فاطلب له العذر إلى سبعين عذرًا، فإن لم تجد له عذرًا، فقل لنفسك: لعل له عذرًا لا نعرفه»[٣٣٣].

الوسيلة الثانية: تعرّف إلى أنماط التفكير الخاطئ وصحّحها

لا يقتصر الفكر المغذّي للغضب على إساءة تفسير موقف معين أو سوء الظن بشخص بعينه، بل قد تكون لدى الإنسان أنماط عامة اعتاد أن ينظر من خلالها إلى المواقف والأشخاص. وقد تتضمن هذه الأنماط قواعد وأحكامًا غير دقيقة أو غير متوازنة، فتجعله يغضب في مواقف متعددة، وإن اختلفت تفاصيلها والأشخاص الذين وقعت معهم.

من أهم أنماط التفكير الخاطئ التي تغذّي الغضب:

١. التعميم: تحويل موقف واحد إلى حكم عام، كقول الزوجة لزوجها عندما ينسى طلبًا: «أنت دائمًا تهملني ولا تهتم بما أطلبه».

٢. التضخيم: جعل المشكلة أكبر من حجمها، كقول الأم لابنها عندما يكسر شيئًا: «لقد خرّبت كل شيء، وهذه مصيبة لا تُحتمل».

٣. الاستنتاج المتسرّع: إصدار حكم من غير دليل كافٍ، كأن يرى شخص زميلين يصمتان عند دخوله فيقول: «كانا يتحدثان عني».

٤. التخصيص: اعتبار تصرفات الآخرين موجهة إليه، كأن ترى الزوجة زوجها عابسًا فتقول: «إنه غاضب مني»، مع أن انزعاجه قد يكون بسبب عمله.

٥. اللوم المطلق: تحميل الآخر مسؤولية الخطأ وردّ الفعل الغاضب معًا، كقول

الإنسان: «هو الذي أجبرني على الصراخ والشتم».

الوسيلة الثالثة: فكّر في نتائج تصرفك قبل أن تقدم عليه

من الوسائل المهمة للسيطرة على الغضب أن يتوقف الإنسان قبل التصرف، ويسأل نفسه: هل سيحل ما أريد فعله المشكلة أم يزيدها؟ وما آثاره الإيجابية والسلبية، القريبة والبعيدة، عليَّ وعلى الآخرين؟

تزداد أهمية ذلك عند اشتداد الغضب؛ لأن الإنسان لا يملك عقله إذا اشتد غضبه؛ لأنه سينشغل في تلك اللحظة بالرد أو الانتقام، قال الإمام الصادق عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: «مَن لم يملك غضبه لم يملك عقله»[٣٣٤]، ولكن سرعان ما يكتشف بعد هدوئه أنه أوجد مشكلة أكبر فيندم، وقد لا ينفع الندم.

مثال: يشعر رجل بأن أحد شركائه في العمل ظلمه في تقسيم مهمة ما، فيغضب ويفكر في مواجهته أمام جميع الزملاء وإحراجه. وقبل أن يفعل ذلك يتوقف ويفكر في النتائج: هل سيعيد إليه هذا التصرف حقه فعلًا؟ أم قد يحوّل الخلاف المهني إلى خصومة شخصية؟ هل سيقوّي موقفه أمام الآخرين أم قد يظهره بمظهر الإنسان المندفع؟ وهل توجد طريقة أهدأ يستطيع بها إثبات حقه من غير أن يضيف إلى المشكلة خسائر أخرى؟

وقد ينتهي بعد التفكير إلى أنه يحتاج فعلًا إلى موقف حازم، ولكن الحزم الذي يحقق الهدف غير الانفعال الذي يضاعف الخسائر.

إذن ينبغي للإنسان أن يؤخّر قراره حتى يهدأ، ثم يفكّر في نتائجه القريبة والبعيدة قبل أن يتخذه؛ لأن إغفال العواقب قد يحوّل قراره إلى سبب لمزيد من الضرر والندم.

المطلب الخامس: طوّر قدرتك على ضبط الغضب وعالج أسبابه

ومن هنا لا يكون الهدف في هذا المطلب معالجة نوبة غضب واحدة، وإنما أن يصبح الإنسان مع مرور الوقت أقل قابلية للاندفاع، وأكثر حلمًا وصبرًا وقدرة على ضبط نفسه والتحكم بالغضب. ومن الوسائل التي تعينه على ذلك:

الوسيلة الأولى: تدرّب على سلوك الحليم حتى تبني خُلُق الحِلم

قد لا يكون الإنسان حليمًا بطبعه، لكنه يستطيع بناء هذا الخُلُق بالتدريب المتكرر، ويتم ذلك من خلال ثلاث خطوات:

١. الحديث مع النفس (Self-talk / Self-instruction):

يهيّئ الإنسان نفسه قبل الموقف الذي يتوقع أن يثير غضبه، فيقول مثلًا: «لن أصرخ أو أهين، وسأستمع أولًا، ثم أجيب بهدوء».

٢. التدريب السلوكي (Behavioral Rehearsal / Role-play):

يتخيل الموقف مسبقًا ويتدرب على كيفية التصرف فيه: كيف سيبدأ كلامه؟ وبأي نبرة؟ وكيف سيجيب إذا استفزه الآخر؟ ويمكن أن يستعين بشخص موثوق لتمثيل دور الطرف الآخر.

٣. التحلُّم: عندما يقع الموقف الحقيقي، ينتقل الإنسان من التدريب إلى التطبيق، فيتعمد ممارسة سلوك الحليم؛ فيملك نفسه، ويتأنى، ويضبط كلامه، ويترك الاندفاع. قال أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ: «إن لم تكن حليمًا فتحلَّم؛ فإنه قلَّ من تشبَّه بقوم إلا أوشك أن يكون منهم».[٣٣٥]

فبدل أن يقول الإنسان: «أنا سريع الغضب، وهذه طبيعتي التي لا تتغير»،

يبدأ بالتشبّه بالحليم في سلوكه، ويكرر ذلك حتى يصبح الحِلم أكثر رسوخًا فيه. وقد وجدت دراسات حديثة أن ممارسة السلوكيات المرتبطة بالصفة التي يريد الإنسان تنميتها يمكن أن تساعد على تغيّر شخصيته في اتجاه تلك الصفة.[٣٣٦]

فمثلًا: اعتاد رجل أن يرد بعصبية إذا انتقده أحد، ثم وجّه إليه نقد في أحد المجالس، فأراد رفع صوته، لكنه تعمّد أن يتصرف تصرف الحليم، فملك نفسه وأجاب بهدوء. ومع تكرار هذا السلوك يصبح الحلم أرسخ وأيسر عليه.

فالإنسان لا ينتظر حتى يصبح حليمًا ليعمل عمل الحليم، بل يتحلَّم ويكرر سلوكه حتى يقوى فيه خُلُق الحلم.

الوسيلة الثانية: تعلّم التغافل عن بعض الأخطاء

من أسباب كثرة الغضب أن يتعامل الإنسان مع كل خطأ يراه وكأنه قضية تستحق المواجهة. لذلك يساعد التغافل على تقليل المواقف التي تثير الغضب؛ إذ يلاحظ الإنسان الهفوة، لكنه يختار عن وعي تجاوزها لأنها لا تستحق استهلاك أعصابه أو إفساد علاقته بالآخرين.

التغافل ليس غفلة؛ فالغافل لا ينتبه إلى الخطأ، أما المتغافل فيراه، لكنه يقدّر أن تجاوزه أحكم من الوقوف عنده. قال الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ: «صلاح حال التعايش والتعاشر ملء مكيال، ثلثاه فطنة وثلثه تغافل»[٣٣٧].

لا يعني التغافل السكوت عن الظلم، أو ترك الحقوق المهمة، أو السماح باستمرار الأذى؛ وإنما يعني التمييز بين خطأ صغير يُتجاوز، وخطأ مهم يحتاج إلى معالجة.

فمثلًا: إذا ترك الابن كوبه على الطاولة، فقد ترى الأم أن الأمر لا يستحق الغضب والتوبيخ فتتغافل عنه هذه المرة. أما إذا اكتشفت دخوله إلى مواقع

إباحية، فلا يصح التغافل؛ لأنه سلوك محرّم وخطير يحتاج إلى معالجة حكيمة وفق المسؤولية الشرعية والتربوية.

لذلك يسأل الإنسان نفسه: هل يحتاج هذا الأمر فعلًا إلى معالجة، أم أن الأفضل أن أتجاوزه؟ وبذلك لا يحوّل كل هفوة صغيرة إلى سبب جديد للغضب.

الوسيلة الثالثة: راقب تقدّمك وقيّم أداءك باستمرار

قد يتحسن الإنسان تدريجيًا من غير أن ينتبه؛ فقد يقل عدد مرات غضبه، أو تخف شدته، أو يكتشفه مبكرًا، أو تقل كلماته الجارحة وتصرفاته المندفعة. لذلك لا يصح أن يحكم على نفسه بقوله: «لم أتغير»، بل عليه أن يراقب تقدمه عمليًا.

فبعد تعلّم مهارات التحكم بالغضب وتطبيقها، ليراجع الإنسان أداءه دوريًا، فيسأل نفسه: هل قلّت المواقف التي أفقد فيها السيطرة؟ هل أصبحت شدة غضبي أخف؟ هل صرت أهدأ في الرد؟ هل أستطيع التوقف قبل قول الكلمة الجارحة؟ ما الذي نجحت فيه، وما الذي لا يزال يحتاج إلى تدريب؟

فقد يكون شخص يدخل في مشادة مع أسرته أربع مرات أسبوعيًا، ثم تنخفض بعد التدريب إلى مرة واحدة. فإذا كان ينتظر زوال غضبه تمامًا، فقد لا يلاحظ هذا التقدّم المهم.

تطبيق عملي: جدول متابعة التحكم بالغضب

يستخدم الإنسان جدولًا لمدة أربعين يومًا، ويسجل فيه يوميًا عدد مرات غضبه، وكم مرة استطاع التحكم فيه، وكم مرة فقد السيطرة. ثم يقارن نتائجه أسبوعيًا؛ ليرى هل تزداد مرات التحكم وتقل مرات فقدان السيطرة.

إذا انتهت المدة ولم يكتسب قدرة كافية، أعاد البرنامج مدة أخرى. وإذا أخفق

في بعض المواقف، فلا يصف نفسه بالفشل، بل يراجع سبب إخفاقه ويواصل التدريب والمجاهدة، مستعينًا بالله تعالى ومتوسلًا بمحمد وآله عَلَيْهِمُ السَّلَامُ.

اليوم	عدد مرات الغضب	عدد مرات التحكم بالغضب	عدد مرات عدم التحكم بالغضب
السبت	3	2	1
الأحد	4	3	1
الاثنين	2	2	0
الثلاثاء	3	1	2
الأربعاء	2	2	0
الخميس	3	3	0
الجمعة	2	1	1

تنبيه: لا يعني التحكم بالغضب إلغاء الغضب الممدوح تجاه انتهاك الحقوق والمقدسات أو انتشار المنكر، وإنما ضبطه وتوجيهه بالطريقة المشروعة، مع مراعاة شروط الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وضوابطه[٣٣٨].

الوسيلة الرابعة: عالج المشكلة بدل أن تغضب

قد يهدأ الإنسان مؤقتًا، لكن غضبه يعود كلما تكرر الموقف؛ لأن المشكلة التي تثيره ما زالت قائمة: حق لم يُرَدّ، أو اتفاق لا يُحترم، أو سلوك مؤذٍ يتكرر. لذلك لا يكفي تهدئة الغضب، بل ينبغي معالجة سببه؛ فالغضب قد ينبّهنا إلى وجود مشكلة، لكنه لا يحلها.

تُعالج المشكلة من خلال خطوات مختصرة:

- حدّد المشكلة بدقة: لا تقل: «هذا الإنسان لا يهتم بي»، بل حدّد السلوك:

«يتأخر ولا يخبرني».

- اقترح عدة حلول: لا تحصر نفسك في أول رد فعل يخطر ببالك، بل فكّر في بدائل متعددة.
- وازن بين النتائج: اسأل عن فوائد كل حل وأضراره، وهل سيصلح المشكلة أم يضيف إليها مشكلة أخرى.
- اختر حلًّا واقعيًا: ينبغي أن يناسب ظروفك وإمكاناتك، وأن تستطيع تطبيقه فعلًا.

نفّذ الحل وراجع نتيجته: فإن لم ينجح، عدّله أو جرّب بديلًا آخر؛ ففشل حل واحد لا يعني أن المشكلة بلا حل.

- اطلب حقك بحزم واحترام: عبّر عن المشكلة من غير صراخ أو إهانة. فبدلًا من قول: «أنت مستهتر»، قل: «أنا أتضايق عندما تتأخر ولا تخبرني؛ لأنني أبقى منتظرًا، وأريد منك إبلاغي عند التأخر». ويمكنكم التعرّف إلى تفاصيل هذه الخطوات وتطبيقاتها بالرجوع إلى كتابنا «مهارة التحكّم بالغضب»[٣٣٩].

بهذا يتحول الإنسان من تكرار الغضب إلى العمل على إزالة سببه، من غير أن يتنازل عن حقه أو يتجاوز حقوق الآخرين. قال الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ: «إنما المؤمن الذي إذا غضب لم يخرجه غضبه من حق»[٣٤٠].

الوسيلة الخامسة: التعرّف على أسباب الغضب ومعالجتها

يمكن تشبيه الغضب المتكرر بألم السن؛ فقد يخفف المسكّن الألم مؤقتًا، لكنه يعود ما دام سببه قائمًا. وكذلك مهارات التحكم تضبط الغضب وتقلل أضراره، أما العلاج الأعمق فيبحث عن الأسباب التي تعيد إشعاله.

وقد يكون وراء غضب الإنسان سببٌ واحد أو عدة أسباب متداخلة؛ لذلك يحتاج إلى اكتشاف ما يغذّي غضبه خاصةً: فما كان خُلُقًا سيئًا هذّبه، وما كان فكرة خاطئة صححها، وما كان مشكلة عالجها، وما كان عاملًا صحيًا أو نفسيًا أخذ بالأسباب المناسبة لعلاجه.

ومن أبرز هذه الأسباب[٣٤١]:

أولًا: ضعف الوازع الإيماني، ثانيًا: الكِبر واحتقار الآخرين، ثالثًا: الأنانية، رابعًا: الحقد والحسد، خامسًا: حب الدنيا والمال والجاه، سادسًا: التصورات الخاطئة عن الغضب والرجولة. سابعًا: سوء الظن، ثامنًا: العناد والمراء، تاسعًا: الإهانة والاستفزاز، عاشرًا: المشكلات والمشاعر غير المعالجة، حادي عشر: الضغوط واختلال نمط الحياة، ثاني عشر: ضعف الاحتمال وفرط الحساسية. ثالث عشر: المشكلات الصحية والألم، رابع عشر: الاضطرابات النفسية والصدمات، خامس عشر: التربية الخاطئة واعتياد الغضب.

وتُعَدّ التربية الخاطئة من أهم أسباب الغضب المذموم؛ فقد ينشأ الطفل في بيئة تعلّمه الصراخ والعدوان، فيعتاد ذلك حتى يصبح جزءًا من سلوكه. أمّا التربية الصالحة فتعلمه ضبط غضبه، وألّا يغضب لهواه، بل للحق والدين والكرامة، مع التزام حدود العقل والشرع.

ومن أعظم نماذج الغضب الممدوح أبو الفضل العباس عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ فقد اتصف بالغضب للحق والغيرة على حرمات الله، وهو الغضب الذي دعت إليه الشريعة وحثّ عليه أهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ.

وقد دفعته غيرته للحق وحميته الإيمانية وغضبه الممدوح إلى نصرة إمامه وحماية عياله، والسعي إلى إيصال الماء إلى أطفال الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ، وبذل يديه ونفسه في سبيل ذلك.

ومن هنا اشتهر بألقاب تعبرّ عن شجاعته وغيرته ووفائه؛ فلُقّب بـ«السقّاء» و«ساقي العطاشى»، و«حامل اللواء»، و«كبش الكتيبة»، و«بطل العلقمي»، و«حامي الظعينة»، و«كفيل زينب». ووصفته زيارة الناحية المقدسة بأنه: «المواسي أخاه بنفسه، الفادي له، الواقي».

ولنتعرّف إلى جانب من غضبه للحق وغيرته ووفائه في كربلاء، نستمع إلى ما ذكرته كتب السيرة والمقاتل:

روي في يوم عاشوراء، لمّا رأى أبو الفضل العباس عَلَيْهِ السَّلَامُ ما حلّ بأخيه الحسين وأهل بيته وأصحابه، أقبل على الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ وقال: «أخي قد ضاق صدري وسئمت الحياة وأريد أن أطلب بثأري من هؤلاء المنافقين، فهل لي من رخصة؟

فقال الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ: أجل اطلب لهؤلاء الأطفال قليلاً من الماء؛ فذهب الى القوم ووعظهم وحذّرهم فما أفاد الوعظ ولا التحذير.

ويروى أنّه سمع الأطفال ينادون العطش، رمق السماء بطرفه وقال: «إلهي أريد أن أعتدُّ بعدّتي، وأملأ لهؤلاء الأطفال قربتي». فركب فرسه وحمل قربته على كتفه، وأخذ الراية معه وقصد المشرعة، ونزل إلى الفرات فلمّا أحسّ ببرد الماء وقد كضّه العطش، اغترف بيده غرفة ليشرب فذكر وصيّة أبيه أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ وتذكّر عطش أخيه الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ وعيالاته، رمى الماء من يده وقال: لا والله لا أشرب الماء وأخي الحسين عطشان، ثم جعل يقول:

يا نفس من بعد الحسين هوني ... وبعده لا كنت أو تكوني

هذا حسين وارد المنون ... وتشربين بارد المعين

ثم ملأ القربة وحملها على كتفه وخرج من المشرعة، استقبله الكتائب وصاح ابن سعد: اقطعوا عليه طريقه، فلما رأى العباس عَلَيْهِ السَّلَامُ ذلك حمل

عليهم بسيفه وهو يقول:

إنّي أنّا العباس اغدوا بالسقا ولا أخاف الشرَّ يوم الملتقى
نفسي لنفس الطاهر الطهر وقا حتى أُوارى ميّتاً عند اللقا

فجعل يقاتلهم مقاتلة الأبطال في ذلك المجال، حتى قتل منهم جماعة، فبينما هو يقاتل فجاء سهم إلى القربة فأصابها وأريق ماؤها، فدمعت عيناه ووقف متحيراً، فبينما هو كذلك إذ أتاه السهم فوقع في عينه اليمنى، وضربه الحكيم بن الطفيل على يمينه فقطعها، أخذ اللواء بشماله وهو يقول:

والله إن قطعتموا يميني إنّي أُحامي أبداً عن ديني

وعن إمامٍ صادق اليقين

فضربه زيد بن ورقاء الجهني على شماله فقطعها، فضمّ اللواء إلى صدره ببقيّة يده وهو يقول:

يا نفس لا تخشي من الكفّار وأبشري برحمة الجبّار
مع النبيّ سيّد الأبرار مع جملة السادات والأطهار
فقد قطعوا ببغيهم يساري فأصلهم يا ربّ حرّ النار

فحمل عليه رجل تميمي من أبناء أبان بن دارم وبيده عمود من حديد فضربه على أم رأسه، خر صريعاً إلى الأرض ونادى بأعلى صوته: أدركني يا أخي، فانقضّ عليه الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ كالصقر، فرآه مقطوع اليدين، مرضوض

الجبين، السهم نابت في العين، المخّ سائل على الكتفين، نادى: الآن انكسر ظهري، الآن قلّت حيلتي، الآن شمت بي عدوي[٣٤٢].

حط راسه ابحضنه او راد الوداع — شاله او ترّبه عباس بالگاع

رد حسين شاله ابگلب مرتاع — شاله اردود للتربان والحر

يخويه من يغمضلك اعيونك — او ياهو اللي يگف يحسين دونك

على افراگي يخويه انخطف لونك — وتظل بعدي يبو اسكينه امحير

(نصاري)

يخويه امودع الله تظل بالبر — نهض محني الظهر للخيم سدّر

اجت سكنه تصيح الله اكبر — يبويه وحّدك عباس چاوين

بچه او ناده يبويه راح عمچ — يبويه اشينفع اعتابچ او ونچ

بعد عمچ يبويه موش يمچ — گضه امطبَّر يسكنه لا تعتبين[٣٤٣]

ليلة ٨ محرم

يوم ذكرى بن تمرد بشباب

السلام على القاسم بن الحسن
بن علي ورحمة الله وبركاته

السلام على الحسين وعلى علي بن الحسين وعلى أولاد الحسين وعلى أصحاب الحسين

الليلة الثامنة من محرّم الحرام

المناسبة: شهادة القاسم بن الحسن عَلَيْهِ السَّلَامُ

القصيدة: لبعض الشعراء الحسينيين

ناهيك بالقاسم ابن المجتبى حسنٍ ... مزاولِ الحربِ لم يَعبأ بما فيها

كأن بيضَ مواضيها تُكلِّمه ... غيدٌ تغازلُه منها غوانيها

لو كان يحذر بأسا أو يخاف وغىً ... ما انصاع يُصلح نعلا وهو صاليها

ما عمّمت بارقاتُ البيضِ هامتَه ... فأحمرّ بالأبيض الهنديّ هاميها

الا غداةَ رأتْه وهو في سِنَةٍ ... عن الكفاح غفولَ النفسِ ساهيها

وتلك غفوةُ ليثٍ غيرِ مكترثٍ ... ما ناله السيفُ إلا وهو غافيها

فخرّ يدعو فلبى السبطُ دعوتَه ... فكان ما كان منه عند داعيها

تقشعت ظلمات الخيل ناكصةً ... فرسانها عنه وانجابت غواشيها

وإذ به حاضنٌ في صدره قمرا ... يزين طلعت الغراء داميها

وافى به حاملا نحو المخيم والآ ... ماق في وجهه حمرٌ مجانيها

تخطُّ رجلاه في لوح الثرى صحفا ... الدمع منقطها والقلب تاليها (٣٤٤)

(نصاري)

يعمي من شرگ هامتك نصين ... يبعد اهلي اصواب اليوجعك وين
يعمي اشلون اشيلك للصواوين ... وانته من الطبر جسمك اخذم
شاله او للمخيم بيه سدَّر ... او حط جاسم يويلي ابصف الأكبر
گعد ما بينهم والدمع فجَّر ... تشب ناره او عليه اتراكم الهم
نوبه ينحني اعله ابنه او يحبَّه ... او يمدِّ ايده او يجس نِكّاد گلبه
او نوبه دمعه الجاسم يصبَّه ... او يگللهم اشبيدي اعله المحتَّم[٣٤٥]

موضوع المحاضرة الثامنة:

لا للعزوبية... نعم للأسرة المؤمنة

روي عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ:

﴿مِنْ سُنَّتِي اَلتَّزْوِيجُ فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي﴾[٣٤٦].

المبحث الأول: الزواج والعزوبية

المطلب الأول: الزواج سنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ

يُعدّ الزواج الشرعي من المستحبات المؤكدة في الإسلام، وهو عقد ينشئ علاقة مشروعة بين الرجل والمرأة، وينظّم حقوقهما وواجباتهما وفق أحكام الله تعالى؛ ليكون أساسًا لتكوين الأسرة وتحقيق السكن والمودة والرحمة، قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾[٣٤٧].

وقد جعله رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ من سننه التي دعا المؤمنين إلى الاقتداء بها، كقوله: «مِنْ سُنَّتِي اَلتَّزْوِيجُ فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي»[٣٤٨].

والمقصود بالسُنّة هنا طريقته ومنهجه، لا مجرد الاستحباب الفقهي؛ فقد أمر الله تعالى بالاقتداء برسوله، فقال: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾[٣٤٩].

وهذا التوجيه يشمل الرجل والمرأة، سواء كانت المرأة بكرًا أم ثيبًا[٣٥٠]، وفي مقتبل العمر أم متقدمة فيه، ما دام الزواج متيسرًا وتتحقق شروطه.

ومعنى قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «فمن رغب عن سنتي فليس مني»[٣٥١]، أي أن من أعرض عن الزواج استخفافًا بسنة النبي، أو اعتقادًا بأن العزوبية أفضل منه، أو زهدًا في هذا المنهج الذي دعا إليه، فقد ابتعد عن هديه.

أما من لم يتزوج لعذر خارج عن إرادته، كالمرض، أو العجز، أو السجن، أو عدم تيسّر أسباب الزواج، فلا يشمله هذا الذم؛ لأنه لم يعرض عن سنة النبي باختياره. كما أن قوله: «فليس مني» لا يعني خروجه من الإسلام، وإنما يعني أنه ليس سائرًا على هدي النبي الكامل في هذا الجانب.

وقد شدّد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ في النهي عن العزوبية مع القدرة على الزواج؛ لما قد يترتب عليها من التعرض للانحراف والوقوع في المعصية. فقد قال لرجل يُدعى عكاف:

«ألك زوجة؟ قال: لا يا رسول الله. قال: ألك جارية؟ قال: لا يا رسول الله. قال: أفأنت موسر؟ قال: نعم. قال: تزوّج، وإلّا فأنت من المذنبين»[٣٥٢]. وروي عنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «شرار موتاكم العُزّاب»[٣٥٣].

فالزواج في الأصل مستحب مؤكد، ولكنه يصبح واجبًا إذا خاف الإنسان الوقوع في الحرام بتركه، كما ورد في جواب مكتب سماحة السيد السيستاني[٣٥٤]؛ لأن حفظ النفس من المعصية واجب.

ومن هنا اخترنا الحديث عن هذا الموضوع؛ لما نلاحظه من تزايد العزوف عن الزواج بين بعض الشباب، حتى أصبح بعضهم يتبنى العزوبية أسلوبًا دائمًا للحياة، ويدعو إليها ويرفض الزواج مع قدرته عليه، وما يترتب على ذلك من آثار فردية واجتماعية خطيرة سنتناول أهمها في المطلب الآتي.

المطلب الثاني: الآثار المترتبة على العزوبية

جعل الإسلام الزواج الطريق الطبيعي لبناء الأسرة، وحفظ الدين والعفة، وتحقيق السكن النفسي والاستقرار الاجتماعي. وقد تكون العزوبية حالةً مؤقتة تفرضها ظروف خارجة عن إرادة الإنسان، كصغر السن، أو المرض، أو ضيق الحال، أو عدم العثور على الشريك المناسب؛ لكن تحويلها مع القدرة على الزواج إلى خيار دائم أو ثقافة يُدعى إليها يترتب عليه عدد من الآثار السلبية، من أهمها:

أولًا: الآثار الإيمانية:

قد تزيد العزوبية الطويلة من التعرض للفتن والشهوات، بينما يسهم الزواج في حفظ الدين والعفة. قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «من تزوج فقد أحرز نصف دينه، فليتق الله في النصف الآخر»[٣٥٥]. وروي عن الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ: «ركعتان يصليهما متزوج أفضل من سبعين ركعة يصليها أعزب»[٣٥٦].

ثانيًا: الآثار النفسية:

جعل الله تعالى الزواج سببًا للسكن النفسي والمودة والرحمة، ولذلك فإن استمرار العزوبية قد يؤدي عند بعض الأشخاص إلى الشعور بالوحدة والفراغ العاطفي والقلق. ولا يُعارض ذلك وجود بعض الزيجات التي تعاني من المشكلات؛ لأن هذه المشكلات غالبًا ما ترجع إلى سوء الاختيار أو التقصير في أداء الحقوق، لا إلى الزواج نفسه، فالأصل في الزواج أنه يحقق قدرًا أكبر من الاستقرار النفسي والعاطفي.

ثالثًا: الآثار السلوكية:

تُسهم الحياة الزوجية، والحرص على نجاحها واستمرارها، في تنمية

الصبر، وتحمل المسؤولية، وضبط النفس، وروح التعاون، كما تُعوِّد الإنسان على مراعاة حقوق الآخرين وتقديم المصلحة الأسرية على بعض رغباته الشخصية. أما استمرار العزوبية فقد يؤدي عند بعض الأشخاص إلى الاعتياد على نمط حياة يغلب عليه الاهتمام بالذات، مما قد يصعّب عليهم التكيف مع متطلبات الحياة الأسرية مستقبلًا.

رابعًا: الآثار الأسرية:

يؤدي انتشار العزوبية إلى قلة تكوين الأسر، مع أن الأسرة هي الأساس الذي يقوم عليه المجتمع، ومنها تنطلق التربية والاستقرار.

خامسًا: الآثار السكانية:

انخفاض الزواج والإنجاب لفترات طويلة يسبب اختلالًا في التركيبة السكانية، وارتفاع نسبة كبار السن، ونقص الأيدي العاملة، ولذلك تشجع كثير من الدول على الزواج والإنجاب.

سادسًا: الآثار الحضارية: ازدهار الأمم يعتمد على تعاقب الأجيال الصالحة، واستمرار العزوف عن الزواج يضعف بناء الإنسان ونقل القيم والخبرات إلى الأجيال اللاحقة.

سابعًا: الآثار التربوية:

الأسرة هي المدرسة الأولى التي تُغرس فيها العقيدة والأخلاق والقيم، ولذلك يؤدي ضعف تكوين الأسر إلى إضعاف البيئة التربوية السليمة.

ثامنًا: الآثار الاجتماعية: يسهم الزواج في توثيق العلاقات الأسرية والاجتماعية وتعزيز روح التكافل، بينما يؤدي انتشار العزوبية إلى زيادة العزلة وضعف الروابط الاجتماعية.

المبحث الثاني: أسباب العزوف عن الزواج وسبل معالجتها

بعد أن تعرّفنا إلى الآثار المترتبة على العزوبية، يبرز سؤال مهم: ما الذي يدفع بعض الناس في الآونة الأخيرة إلى العزوف عن الزواج ورفضه؟ وما أسباب ارتفاع نسبتي العزوبية والعنوسة؟

للإجابة عن ذلك، نتناول في هذا المبحث أبرز الأسباب المؤدية إلى هذه الظاهرة، ونبيّن أهم الحلول المناسبة لمعالجتها، وهي كالآتي:

السبب الأول: الخوف من الفقر

من أسباب العزوف عن الزواج الخوف من الفقر؛ فقد يقول بعض الشباب: أنا أعجز عن إعالة نفسي، فكيف أتحمل نفقة الزوجة والأولاد؟ وقد تكون لهذا الخوف أسباب واقعية، إلا أن من أبرز أسبابه عند بعض الناس ضعف الثقة بوعد الله تعالى وضعف التوكل عليه.

قال تعالى: ﴿وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾[٣٥٧].

والأيامى هم مَن لا زوج لهم من الرجال والنساء، وقوله تعالى: ﴿وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ﴾ أي حثٌّ على تزويج الصالحين. ثم طمأن الله تعالى من يخشى الفقر بقوله: ﴿إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾؛ أي إن الفقر وحده ليس مبررًا لترك الزواج؛ لأن الرزق بيد الله تعالى، فقد روي عن الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ: «من ترك التزويج مخافة الفقر فقد أساء الظن بالله عز وجل»[٣٥٨].

ورزق الله لا يقتصر على زيادة المال؛ فقد يوسّع الله على الإنسان في تجارته أو عمله، وقد يبارك له في دخله وإن كان ثابتًا، فيكفيه ويكفي أسرته مع حسن التدبير والأخذ بالأسباب المشروعة. فالواجب أن يسعى الإنسان في طلب

الرزق الحلال متوكلًا على الله تعالى؛ فهو مسبّب الأسباب، ولهذا قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «اتخذوا الأهل، فإنه أرزق لكم»[٣٥٩].

فوجود الأسرة ليس سببًا للفقر، بل قد يكون من أسباب نزول الرزق والبركة.

السبب الثاني: غلاء المهور

المهر حقٌّ مالي للزوجة، إلا أن ذكره ليس شرطًا في صحة عقد الزواج الدائم، بخلاف الزواج المنقطع الذي يُشترط فيه تعيين المهر.[٣٦٠] ولم يفرض الإسلام للمهر مقدارًا معينًا، بل ترك تحديده لما يتراضى عليه الزوجان؛ فقد سُئل الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ عن مقدار المهر، فقال: «ما تراضى عليه الناس».[٣٦١]

ومع أن المهر حق للمرأة، فقد دعا الإسلام إلى التيسير فيه، وألّا يكون سببًا في تعسير الزواج أو تأخيره؛ لأن المقصود منه تكريم المرأة، لا إثقال كاهل الزوج. ولذلك رغّب رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ في تقليل المهور، فقال: «أفضل نساء أمتي... أقلهن مهرًا»[٣٦٢]، وقال أيضًا: «من بركة المرأة قلة مهرها»[٣٦٣].

وقد رغّبت الشريعة في تخفيف المهور؛ لما يترتب على المغالاة فيها من تعطيل الزواج وإثقال كاهل الشباب. وقد يظن بعض الناس أن ارتفاع مهر الفتاة يضمن لها حياةً زوجية مستقرة، أو يجعل الزوج أكثر وفاءً وإخلاصًا، وهذا تصور غير دقيق؛ لأن الزوج الذي لا يخاف الله تعالى لن يمنعه ارتفاع المهر من ظلم زوجته أو الإساءة إليها؛ فقد يضيّق عليها حتى يدفعها إلى طلب الطلاق الخلعي والتنازل عن مهرها، أو يماطل في أدائه بعد الطلاق. ولذلك فإن استقرار الحياة الزوجية لا يتحقق بارتفاع المهر، وإنما بحسن الاختيار والتقوى وحسن المعاشرة.

وقد عدّ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ غلاء المهر من أسباب الشؤم، فقال: «يُمن المرأة في خفة مهرها، ويُسر نكاحها، وحسن خلقها، وشؤمها غلاء مهرها، وعسر نكاحها، وسوء خلقها»(٣٦٤).

واليُمن هو الخير والبركة، ومن مظاهره قلة المهر وسهولة الزواج وحسن المعاشرة. أما الشؤم فلا يعني أن المرأة أو غيرها يملك قدرة ذاتية على جلب النحس أو الضرر؛ لأن الخير والضر والنفع وتدبير الأمور كلّها بيد الله تعالى، ولا يقع شيء في الكون خارج مشيئته وسلطانه، قال سبحانه: ﴿ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا ﴾(٣٦٥).

وإنما وُصفت هذه الأمور بالشؤم لأنها تؤدي غالبًا إلى المشقة وكثرة المشكلات؛ فغلاء المهر يرهق الخاطب ويؤخر الزواج، وعسر النكاح يظهر في كثرة الشروط والمبالغة في المطالب ووضع العراقيل أمام الراغبين في الزواج، أما سوء الخلق فيظهر في التسلط والعناد وسرعة الغضب وسلاطة اللسان، وهي صفات تُفقد الحياة الزوجية سكينتها واستقرارها.

ومن هنا كان تيسير المهور وتسهيل الزواج من أسباب الخير والبركة؛ لأنه يفتح أبواب العفاف، ويعين الشباب على بناء الأسرة، ويحقق المقصد الذي رغبت فيه الشريعة الإسلامية.

السبب الثالث: المبالغة في الشكليات والمظاهر

من أسباب العزوف عن الزواج المبالغة في الاهتمام بالشكليات والمظاهر، حتى أصبح الزواج عند بعض الناس مشروعًا استعراضيًا أكثر من كونه وسيلةً لبناء أسرة مستقرة. ومن أبرز هذه المظاهر: حجز القاعات الفخمة، وشراء الأثاث الباهظ، واشتراط الملابس والعلامات التجارية مرتفعة الثمن، والإسراف في الولائم والزينة، وإقامة حفلات متعددة للخطوبة والعقد

والزفاف، مما يحمّل الزوج أعباءً مالية تفوق قدرته.

ونتيجةً لذلك، يضطر بعض الشباب إلى الاقتراض، أو العمل أشهرًا وربما سنوات لتسديد ديون ترتبت على يوم واحد، مع أن أكثر هذه النفقات ليست من الحقوق الواجبة شرعًا، وإنما هي عادات اجتماعية يمكن الاستغناء عنها من دون أن ينقص ذلك من صحة الزواج أو كرامة الزوجين.

ومن المؤسف أن بعض المسلمين لا يتمسكون بتوجيهات الإسلام الداعية إلى التيسير، في حين نجد بعض العائلات في المجتمعات الغربية تبدأ حياتها الزوجية بإمكانات بسيطة وخاتم زواج، ثم تؤسس منزلها تدريجيًا بحسب قدرتها، وقد تكتفي بحفل صغير يقتصر على الأقربين، أو توجّه تكاليفه إلى تأسيس حياتها الزوجية أو ادخارها.

وفي المقابل، تفرض بعض الأسر المسلمة على الزوج، إلى جانب المهر، مطالب وتكاليف تثقل كاهله، حتى يصبح الزواج عسيرًا لا يقدر عليه إلا أصحاب الأموال، مع أن هذه المظاهر لا تزيد المرأة شرفًا ولا كرامة.

فالكرامة الحقيقية لا تُقاس بضخامة الحفل، ولا بارتفاع قيمة الأثاث، ولا بكثرة الإنفاق، وإنما تُقاس بالإيمان والتقوى وحسن الخلق، قال تعالى: ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾[٣٦٦]، فالله تعالى لم يقل: أكرمكم عند الله أكثركم مالًا، أو أفخمكم حفلات، أو أعظمكم مظهرًا، وإنما جعل الميزان هو التقوى والعمل الصالح. أما التباهي بالمظاهر والتفاخر بها فهو من الأخلاق المذمومة التي نهى الله تعالى عنها، فقال: [إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾[٣٦٧].

وقد يُقال: هل يعني ذلك أن الإسلام يمنع إقامة حفلات الزواج؟

والجواب: إن الإسلام لا يمنع إظهار الفرح وإعلان الزواج، ولكنه يشترط مراعاة أمور، منها:

◆ أن تكون النفقات في حدود القدرة، فلا توقع الزوج أو أسرته في الديون والحرج المالي. وقد ورد عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «أيما امرأة أدخلت على زوجها في أمر النفقة، وكلّفته مالًا لا يطيق، لا يقبل الله منها صرفًا ولا عدلًا إلا أن تتوب وترجع وتطلب منه طاقته»[٣٦٨].

◆ أن تخلو الحفلات من المحرمات الشرعية، كالاختلاط المحرم، والثياب المثيرة، والغناء، والرقص المحرم، والتفاخر والإسراف؛ فإن هذه المخالفات تنزع البركة من الحياة الزوجية منذ بدايتها. وقد ورد عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «بيت الغناء لا تؤمن فيه الفجيعة، ولا يدخله الملك، ولا تُستجاب فيه الدعوة»[٣٦٩].

ومن هنا، فإن تيسير الزواج والاقتصاد في نفقاته والابتعاد عن المظاهر الفارغة من أهم الوسائل التي تسهم في علاج العزوف عن الزواج، وتعين الشباب على تكوين أسر مستقرة يسودها الخير والبركة.

السبب الرابع: القلق من الاعتداء على الحقوق المالية

من أسباب عزوف بعض الشباب والفتيات عن الزواج الخوف من ضياع حقوقهم المالية، ولا سيما في البلدان التي تختلف قوانينها عن أحكام الشريعة الإسلامية. وقد ينشأ هذا الخوف من الجهل بالحقوق الشرعية، أو من تجارب واقعية اعتدى فيها أحد الزوجين على أموال الآخر. لذلك لا بد أولًا من معرفة أهم الحقوق المالية بين الزوجين في الإسلام.

أولًا: استقلال الذمة المالية للزوجين

قرر الإسلام أن لكلٍّ من الزوج والزوجة ذمةً ماليةً مستقلة، فلا يجوز لأحدهما التصرف في مال الآخر إلا برضاه، قال تعالى: ﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا

اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ ﴾[٣٧٠].

وروي عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «لا يحل مال امرئ مسلم إلا بطيب نفسه»[٣٧١]. فراتب الزوجة وإرثها وذهبها وعقاراتها ملك لها، كما أن أموال الزوج ملك له، ولا يجوز لأحدهما أخذ مال الآخر بغير رضاه، قال تعالى: ﴿ لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ ﴾[٣٧٢].

ثانيًا: المهر حق مالي للزوجة

قال تعالى: ﴿ وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً ﴾[٣٧٣]؛ أي أعطوا النساء مهورهن عطيةً واجبة عن طيب نفس.

ويجوز أن يكون المهر معجلًا أو مؤجلًا بحسب اتفاق الزوجين، فإذا حلّ أجله صار دينًا في ذمة الزوج يجب الوفاء به، ولا يتوقف استحقاقه على وقوع الطلاق. وإذا توفيت الزوجة قبل قبضه انتقل حقها فيه إلى ورثتها.

ثالثًا: النفقة واجبة على الزوج

أوجبت الشريعة على الزوج نفقة زوجته بالمعروف، من المسكن والمأكل والملبس وسائر حاجاتها المتعارفة، قال تعالى: ﴿ الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ... وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ ﴾[٣٧٤] وروي عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «ملعونٌ ملعونٌ من ضيّع من يعول»[٣٧٥].

وقد كان الرجل في كثير من البيئات الماضية يعدّ الإنفاق على أسرته من مسؤولياته ومن مظاهر رجولته وشهامته، ولا ينظر إلى النفقة على أنها خسارة أو عبء. أما في هذا العصر، فصار بعض الأزواج يفرضون على الزوجة العمل والإنفاق، ويعاملون ذلك كأنه من واجباتها. فتجد المرأة نفسها مطالبةً بالجمع بين العمل والإنفاق، وحسن التبعّل، وتربية الأولاد، وإدارة شؤون المنزل، فتحمل أعباءً قد تفوق طاقتها. وقد يدفع ذلك بعض النساء إلى

الطلاق العاطفي أو الواقعي؛ لشعورهن بأنه يطالب بحقوق القوامة، مع أنه لا يؤدي ما أوجبه الله عليه من النفقة.

ولا تمنع الشريعة المرأة من مساعدة زوجها وأسرتها من راتبها، بل يجوز لها ذلك برضاها وإحسانها وتؤجر عليه، ولكن لا يحق للزوج إجبارها على الإنفاق أو عدّه من واجباتها؛ لأن النفقة واجبة عليه وليست عليها.

أما القوانين الوضعية فقد تختلف عن هذه الأحكام؛ ففي السويد مثلًا يُلزم الزوجان بالمساهمة في نفقات الأسرة بحسب قدرة كلٍّ منهما. وعند الطلاق تُحسب ـ في الأصل ـ قيمة أموال الزوجين التي يشملها التقسيم، بعد طرح الديون، ثم يُقسَّم المبلغ المتبقي بينهما بالتساوي. وقد تدخل في هذا الحساب أموالٌ كان أحدهما يملكها قبل الزواج، ما لم تُجعل ملكيةً منفردة لا تدخل في التقسيم.

وقد يولد هذا الاختلاف خوفًا عند بعض المقبلين على الزواج؛ فيخشى الرجل أن يفقد جزءًا من أمواله عند الطلاق، كما تخشى المرأة أن تضيع أموالها أو مساهماتها المالية. ومع تكرار قصص النزاع والاعتداء على الحقوق، قد يظن بعض الشباب والفتيات أن العزوبة هي الطريق الوحيد لحماية أموالهم.

ولكن العلاج لا يكون بترك الزواج، وإنما بمعرفة الأحكام الشرعية والأنظمة القانونية النافذة، والرجوع إلى المحاكم الرسمية إذا انحصر استنقاذ الحق بذلك[٣٧٦]، مع اختيار الزوج الأمين واتخاذ الوسائل المشروعة التي تحفظ حقوق الطرفين.

فشرعًا لا يجوز لأحد الزوجين أن يأخذ من مال الآخر ما لا يستحقه، إلا إذا ثبت له ذلك باتفاق أو شرط صحيح معتبر شرعًا، فقد روي عن الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ: «مَنْ أَكَلَ مِنْ مَالِ أَخِيهِ ظُلْمًا وَلَمْ يَرُدَّهُ إِلَيْهِ أَكَلَ جَذْوَةً مِنَ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ».[٣٧٧] وروي عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ اقْتَطَعَ

مَالَ مُؤْمِنٍ غَصْبًا بِغَيْرِ حَقِّهِ لَمْ يَزَلِ اللهُ مُعْرِضًا عَنْهُ، مَاقِتًا لِأَعْمَالِهِ الَّتِي يَعْمَلُهَا مِنَ الْبِرِّ وَالْخَيْرِ، لَا يُثْبِتُهَا فِي حَسَنَاتِهِ حَتَّى يَتُوبَ وَيَرُدَّ الْمَالَ الَّذِي أَخَذَهُ إِلَى صَاحِبِهِ». (٣٧٨)

ومن أهم الوسائل العملية لحفظ الحقوق:

١. توثيق المهر في الدول التي لا تعترف به

تعترف قوانين كثير من الدول الإسلامية بالمهر وتُلزم الزوج بأدائه. أما في بعض الدول الأوروبية التي لا تعترف به بوصفه حقًا شرعيًا، فيمكن توثيقه بصيغة قانونية أخرى، كإثباته في عقد مستقل على أنه دين في ذمة الزوج، أو بأي صيغة قانونية تحقق الغرض، مع توقيع الطرفين والاستعانة بمحام مختص للتأكد من صحة الاتفاق وإمكان تنفيذه قانونًا. وبهذه الطريقة يُحفظ حق الزوجة شرعًا وقانونًا.

٢. تنظيم اتفاق الزواج لجعل الأموال ملكيةً منفردة

في القانون الأوربي ومنه القانون السويدي قد تدخل قيمة الأموال التي يملكها الزوجان في القسمة بينهما عند الطلاق، حتى لو كان كلٌّ منهما يملك أمواله قبل الزواج. ويمكن تجنّب ذلك بتنظيم اتفاق زواج يسمى Äktenskapsförord، يُحدّد فيه الزوجان الأموال التي تكون ملكيةً منفردة Enskild egendom، أي لا تدخل في القسمة عند الطلاق.

فمثلًا: إذا كان الرجل يملك قبل الزواج بيتًا صافي قيمته مليون كرونة، وكانت المرأة تملك مئتي ألف كرونة، ولم تكن عليهما ديون متعلقة بهذه الأموال، وكانت كلها خاضعةً للقسمة، يكون مجموعها مليونًا ومئتي ألف كرونة، ويكون نصيب كل واحد منهما في الأصل ستمئة ألف كرونة.

أما إذا اتفقا قانونيًا على أن بيت الرجل وأموال المرأة ملكيةٌ منفردة، فإنها لا

تدخل في القسمة عند الطلاق، بل يحتفظ كلٌّ منهما بماله. ويمكن تنظيم هذا الاتفاق قبل الزواج أو بعده.

وقد يصبح المال ملكيةً منفردة عن طريق الهبة أو الوصية أيضًا؛ فإذا وهب شخص مالًا لأحد الزوجين، أو أوصى له به، واشترط أن يكون ملكيةً منفردة، لم يدخل عادةً في القسمة. فلو أوصى الأب لابنته بمال واشترط أن يكون ملكًا منفردًا لها، بقي لها عند الطلاق، أما إذا ورثته من دون هذا الشرط فقد يدخل في القسمة.

ويجب أن يكون اتفاق الزواج مكتوبًا وموقّعًا من الزوجين ومسجلًا لدى مصلحة الضرائب السويدية Skatteverket، ويُستحسن الاستعانة بمحامٍ مختص لضمان صحة صياغته.

٣. توثيق المشاركة في شراء الممتلكات

قد يتفق الزوجان على شراء منزل، فيطلب الزوج من زوجته أن تتحمل من راتبها نفقات الأسرة، بينما يدفع هو أقساط المنزل ويسجله باسمه. وقد يكون هذا الاتفاق مجحفًا بحقها؛ لأنها تنفق أموالها على حاجات تُستهلك يوميًا، في حين تذهب أموال الزوج إلى منزل تبقى له قيمة مالية.

وقد لا تظهر خطورة هذا الاتفاق في بداية الزواج، ولكنها تظهر عند وقوع الخلاف أو الطلاق؛ فعندما تطالب الزوجة بالأموال التي أنفقتها، قد يقول لها الزوج: إنك دفعتِها تبرعًا، وليس لكِ حق في استرجاعها. وقد يصعب عليها إثبات خلاف ذلك، مع أن النفقة واجبة شرعًا على الزوج وليست عليها، لكنها غفلت عن تنظيم الأمر وتوثيقه منذ البداية.

لذلك ينبغي لها ألّا توافق منذ البداية على تحمّل جميع نفقات الأسرة، بل يتفق الزوجان بوضوح على طبيعة المبالغ التي تدفعها: هل هي تبرع في نفقات الأسرة، أم قرض يجب إرجاعه، أم مساهمة مقابل حصة في ملكية المنزل؟

فمثلًا: إذا كان راتب الزوجة ثلاثين ألف كرونة، فيمكنها أن تساهم بثلاثة آلاف كرونة في نفقات الأسرة برضاها، وتدفع خمسة آلاف كرونة شهريًا في أقساط المنزل، وتحتفظ ببقية راتبها. فإذا كان مجموع ما يُدفع شهريًا في ثمن المنزل عشرة آلاف كرونة، وكانت مساهمتها خمسة آلاف، واتفقا على أن هذه المبالغ مشاركة في شراء المنزل، فينبغي أن تُسجَّل لها حصةٌ في ملكيته تعادل مقدار مساهمتها، وهي النصف في هذا المثال.

ولا يكفي أن تدفع نصف الأقساط من دون توثيق، بل ينبغي تسجيل نصف المنزل باسمها، وتنظيم اتفاق زواج يجعل حصة كل واحد منهما ملكيةً منفردة لا تدخل في القسمة عند الطلاق. وبذلك تُحفظ حقوق الطرفين، ولا تضيع مساهمة أحدهما عند وقوع النزاع، مع الاستعانة بمحامٍ مختص لضمان صحة الإجراءات.

وهذه الوسائل الثلاث وغيرها من الإجراءات القانونية لا تحفظ الحقوق المالية فقط، بل تقلل النزاعات والخوف من الزواج؛ لذلك ينبغي للإنسان معرفة القوانين التي تصون حقوقه.

كما أنها تغلق بابًا من أبواب وساوس الشيطان؛ فلا تُقدم المرأة على الزواج طمعًا في أموال الرجل ثم تطلب الطلاق للحصول عليها، ولا يفكر الرجل في الاستيلاء على أموال زوجته أو إنكار مساهمتها. فإذا علم كلٌّ منهما أن أموال الآخر مصونة شرعًا وقانونًا، ضعفت دوافع الاعتداء عليها، واجتمع حفظ الحق الشرعي مع الحماية القانونية.

وقد يستحي بعض الناس من طرح هذه الاتفاقات قبل الزواج، خشية أن تُفهم على أنها سوء ظن أو انعدام للثقة. وهذا من الخجل المذموم إذا أدى إلى التفريط بالحقوق؛ لأن التوثيق لا يعني إساءة الظن بالطرف الآخر، وإنما هو تصرف حكيم يمنع النزاع مستقبلًا، فالثقة مطلوبة، ولكنها لا تغني عن

الأخذ بالأسباب.

وقد أرشد الإمام الهادي عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى مراعاة طبيعة الزمان، فقال: «إذا كان زمانُ العدلُ فيه أغلب من الجور، فحرام أن يُظن بأحد سوءًا حتى يُعلم ذلك منه، وإذا كان زمانُ الجورُ فيه أغلب من العدل، فليس لأحد أن يظن بأحد خيرًا ما لم يعلم ذلك منه»[٣٧٩].

والمقصود ليس الدعوة إلى سوء الظن، وإنما الحذر وعدم إهمال أسباب حفظ الحقوق.

ولهذا حثّ الإسلام على توثيق المعاملات، فقال تعالى:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ ﴾، ثم قال: ﴿ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ ﴾[٣٨٠].

فإذا أمر الله تعالى بالكتابة والإشهاد بين المؤمنين، مع أن الأصل فيهم الصدق والأمانة، فلأن حفظ الحقوق قبل وقوع النزاع خير من الندم بعد ضياعها. والعاقل لا يترك أموره المهمة بلا توثيق، ثم يتحسر إذا ضاع حقه بسبب تفريطه.

السبب الخامس: الهروب من المشاكل الزوجية

من أسباب العزوف عن الزواج الخوف من المشكلات الزوجية، ولا سيما عند من مرّ بتجربة فاشلة، أو شاهد تجارب مؤلمة في محيطه، فتتكوّن لديه صورة سلبية عن الزواج، ويظن أنه لا يجلب إلا القلق والنزاع وكثرة المسؤوليات.

ولا شك في أن الحياة الزوجية قد تواجه بعض الصعوبات، ولكن علاجها لا يكون برفض الزواج من أساسه، ويتضح ذلك من خلال النقاط الآتية:

أولًا: وجود المشكلات لا يبرّر ترك الأمور النافعة

لو كان وجود المشكلات سببًا لترك الزواج، للزم ترك العمل والدراسة وقطع العلاقات الاجتماعية؛ لأنها لا تخلو من الصعوبات والخلافات. والحقيقة أن الحياة كلها دار ابتلاء، سواء أكان الإنسان متزوجًا أم أعزب، قال تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾[٣٨١].

وروي أن الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ قال لأصحابه: «لا تتمنوا المستحيل». فقالوا: ومن يتمنى المستحيل؟ فقال: «أنتم، ألستم تمنون الراحة في الدنيا؟». قالوا: بلى. فقال: «الراحة للمؤمن في الدنيا مستحيلة»[٣٨٢].

ثانيًا: لا ينبغي أن تحجب المشكلات ثمار الزواج

قد ينشغل بعض الناس بمشكلات الزواج، ويغفلون عن ثماره العظيمة، ومنها: إنجاب الذرية الصالحة، والأنس بالأولاد، والامتثال لسنة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، وتحصين النفس من الحرام، وبناء الأسرة المؤمنة، ونيل الثواب بالصبر والإحسان وتربية الأبناء. فلا ينبغي أن تُنسى هذه الثمار بسبب بعض العقبات التي قد تعترض الحياة الزوجية.

ثالثًا: كثير من المشكلات يمكن الوقاية منها أو علاجها

قد تنشأ المشكلات من التسرع في اختيار شريك الحياة، أو الاعتماد على العاطفة وحدها، من دون التحقق من الدين والأخلاق والكفاءة؛ ولذلك يمكن تجنّب جانب منها بحسن الاختيار منذ البداية.

وقد تنشأ بسبب إساءة استعمال بعض الحقوق الشرعية، كأن يجعل أحد الزوجين حقه وسيلةً للضغط والإيذاء، أو يمنع الزوج زوجته من زيارة والديها على نحو ينافي المعاشرة بالمعروف. ومثل هذه التصرفات قد تجعل بعض النساء ينفرن من الزواج بسبب تجاربهن أو تجارب غيرهن.

لكن العلاج لا يكون بترك الزواج، بل بالبحث عن الحلول المشروعة. فيجوز للمرأة أن تتوكّل من زوجها في الإذن لنفسها بالخروج، وإذا أُدرجت هذه الوكالة ضمن عقد لازم لم يحق له عزلها عنها. كما يجوز أن تشترط ضمن عقد الزواج أن تكون وكيلةً عنه في طلاق نفسها، مطلقًا أو عند تحقق حالات معينة، مع مراعاة شروط صحة الطلاق. (٣٨٣)

ثم إن المشكلات الزوجية لا تنتهي كلها بالطلاق؛ فكثير منها يمكن علاجه بالحوار الهادئ، والصبر، والعفو، والتنازل المتبادل، والاستعانة بأهل الحكمة والإصلاح.

والحكيم لا يبدأ بأشد الحلول قبل استنفاد ما دونه؛ فالمريض الذي يشكو ألمًا في إصبعه لا يبدأ ببتره، بل بالعلاج الأبسط، ولا يُلجأ إلى البتر إلا عند تعذر سائر العلاجات. وكذلك المشكلات الزوجية؛ فالأصل معالجتها وإصلاح أسبابها، لا إنهاء الحياة الزوجية عند أول عقبة.

رابعًا: للعزوبية مشكلاتها كما أن للزواج مشكلاته

قد يظن بعض الناس أن ترك الزواج يجنّبه المشكلات، ولكنه ينتقل في الحقيقة إلى مشكلات أخرى؛ فكما أن الزواج لا يخلو من التحديات، فإن للعزوبية آثارًا سلبية أيضًا، وقد تقدّم بيان بعضها.

ولهذا روي عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «إذا جاءكم من ترضون خُلُقه ودينه فزوّجوه، إلا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبير» (٣٨٤)، أي إن الإعراض عن الزواج المشروع يؤدي إلى انتشار الفتنة والفساد؛ لأن الحاجات الفطرية إذا لم تجد طريقها المشروع ظهرت الانحرافات، وضعفت الروابط الأسرية، واختل استقرار المجتمع.

ومن آثار العزوبية أيضًا الشعور بالوحدة والفراغ العاطفي؛ فالإنسان يحتاج إلى من يؤنسه ويشاركه أفراحه وأحزانه. وقد روي عن رسول الله

صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «مسكينٌ مسكينٌ، رجلٌ ليست له امرأة». قالوا: يا رسول الله، وإن كان غنيًّا من المال؟ قال: «وإن كان غنيًّا من المال». وقال: «مسكينةٌ مسكينةٌ مسكينةٌ، امرأةٌ ليس لها زوج». قالوا: يا رسول الله، وإن كانت غنيّةً من المال؟ قال: «وإن كانت غنيّةً من المال»[٣٨٥].

والمقصود ما قد يفقده غير المتزوج من السكن النفسي والمودة والأنس والدعم العاطفي.

خامسًا: لا يصح الحكم على الزواج من خلال سلبياته وحدها

من الخطأ أن ينظر الإنسان إلى مشكلات الزواج ويتجاهل منافعه، أو ينظر إلى مزايا العزوبية ويغفل عن أضرارها؛ فالعاقل يوازن بين المصالح والمفاسد. وعند الموازنة يتبيّن أن مصالح الزواج أعظم من مشكلاته، وأن أضرار العزوبية الدائمة أكبر مما قد يترتب عليها من راحة مؤقتة.

وقد بيّن القرآن أن وجود بعض المنافع في الشيء لا يكفي للحكم بصلاحه إذا كانت أضراره أكبر، فقال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا﴾[٣٨٦].

وكذلك قد يجد بعض الناس في العزوبية شيئًا من الراحة، إلا أن أضرارها قد تكون أكبر؛ ولذلك نهت الشريعة عن التبتل وترك الزواج من غير عذر. فعن الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ: «نهى رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ النساء أن يتبتلن ويعطّلن أنفسهن من الأزواج»[٣٨٧].

ومن هنا، لا ينبغي للإنسان أن يبني موقفه من الزواج على تجربة مؤلمة واحدة، أو على ما يشاهده من تجارب الآخرين؛ لأن التركيز على السلبيات وحدها يحجب المصالح العظيمة، ويؤدي إلى قرار غير متوازن.

السبب السادس: الاستغناء بالحرام عن الزواج

من أسباب العزوف عن الزواج في هذا العصر سهولة الوصول إلى الإشباع الجنسي بطرق محرمة، كالزنا والعلاقات غير المشروعة والشذوذ، ولا سيما مع انتشار التبرج والسفور والاختلاط غير المنضبط والخلوة المحرمة، وضعف الالتزام بأحكام العفة.

وقد يتوهم بعض الشباب، ولا سيما الرجال، أنه ما دام قادرًا على إشباع شهوته بالحرام، فلا حاجة إلى الزواج وتحمل مسؤولياته، فيقول: لماذا أتزوج وألتزم بزوجة واحدة، وأنا أستطيع التنقل بين العلاقات من دون تحمّل أي مسؤولية؟

ويُرد على هذا الوهم بما يأتي:

١. هذا التفكير انحدار عن كرامة الإنسان؛ لأنه يحصر الحياة في إشباع الشهوة، مع أن الإنسان خُلق ليعيش حياة تقوم على السكن والمودة والرحمة وتكوين الأسرة، لا على اللذة العابرة.

٢. العلاقات المحرمة لا تقوم على عقد شرعي يحفظ الحقوق ويحدّد المسؤوليات، وكثيرًا ما تنتهي بالاستغلال والتخلي؛ إذ يسعى كل طرف إلى إشباع رغبته ثم يترك الآخر. وقد تحولت وسائل التواصل عند بعض الناس إلى وسيلة لاصطياد الجنس الآخر، بدل أن تكون العلاقات قائمة على الاحترام والوفاء.

٣. قد ينال من اعتاد الحرام لذة مؤقتة، لكنه يحرم نفسه من أعظم نعم الحياة، كالزوجة الصالحة، والأسرة المستقرة، والذرية الصالحة، والطمأنينة التي لا توفرها العلاقات العابرة، وقد يزداد شعوره بالوحدة كلما تقدم به العمر.

٤. لا يمر الفساد من دون آثار؛ فمن اشتهر بالزنا أو سوء السلوك قد تعزف

الأسر الصالحة عن تزويجه؛ لأن الناس يبحثون عن صاحب الدين والعفة ليأمنوا على مستقبل أبنائهم وأسرهم.

فالإسلام لم يشرّع الزواج لإشباع الغريزة فحسب، بل لبناء أسرة مستقرة، وصيانة كرامة الإنسان، وتحقيق السعادة في الدنيا والآخرة.

وقد يقال: إن المؤمن يستطيع إشباع حاجته الجنسية بطريق شرعي، كالزواج المؤقت، فلا يحتاج إلى الزواج الدائم!!

والجواب: إن الزواج المؤقت زواج شرعي له أحكامه، وقد يحقق العفة ويقي من الوقوع في الحرام، لكنه لا يحقق بالضرورة جميع ما يحققه الزواج الدائم من الاستقرار، وبناء الأسرة، وإنجاب الأولاد وتربيتهم، وتحمل المسؤوليات الأسرية المستمرة. ولذلك لا يغني عن الزواج الدائم لمن يريد تكوين أسرة مستقرة تقوم على السكن والمودة والرحمة.

السبب السابع: تقديم المعايير الاجتماعية على معيار الدين والأخلاق

المعايير الاجتماعية هي الصفات التي يهتم بها الناس عند اختيار الزوج أو الزوجة، كالعلم والمهنة والمال والنسب والمكانة والجمال والحالة الاجتماعية. ولا مانع من مراعاتها، بشرط ألّا تتقدم على الأساس الذي تقوم عليه الحياة الزوجية، وهو الدين والأخلاق.

فالخطأ أن يُرفض صاحب الدين والخلق لفقره، أو محدودية تعليمه، أو بساطة مهنته، أو ضعف مكانة أسرته. فلو تقدم رجل ذو مال ومنصب وشهادة ونسب، لكنه كاذب أو خائن أو سيئ الخلق، فلن تنفع مزاياه في بناء أسرة صالحة. أما المستقيم الأمين الحسن الخلق فهو أولى بالقبول وإن كان محدود الدخل؛ لأن الرزق بيد الله تعالى، قال سبحانه: ﴿وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ... إِنْ

يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ ﴾[٣٨٨].

ويمكن تقريب ذلك بمثال الرقم واحد والأصفار؛ فالدين والأخلاق بمنزلة الرقم (١)، والمال والمنصب والشهادة والنسب والجمال بمنزلة الأصفار؛ فإذا وُضع الواحد أولًا زادت الأصفار قيمته، وإذا غاب بقيت بلا قيمة مهما كثرت.

وقد ورد عن الإمام الرضا عَلَيْهِ السَّلَامُ: «إن خطب إليك رجلٌ رضيت دينه وخُلُقه فزوِّجه، ولا يمنعك فقره وفاقته».[٣٨٩] وجاء أن رجلًا استشار الإمام الحسن عَلَيْهِ السَّلَامُ في تزويج ابنته، فقال عَلَيْهِ السَّلَامُ: «زوّجها من رجل تقي؛ فإنه إن أحبها أكرمها، وإن أبغضها لم يظلمها»[٣٩٠].

والتقي هو من يؤدي الواجبات، ويجتنب المحرمات، ويتحلى بحسن الخلق. فلا يكفي في إثبات تدين الإنسان أن يصلي ويصوم ويحضر المجالس والشعائر، بل يجب أن يظهر أثر الدين في سلوكه ومعاملته وأدائه لحقوق الآخرين. فقد روي عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «لا تنظروا إلى كثرة صلاتهم وصومهم، وكثرة الحج والمعروف، وطنطنتهم بالليل، ولكن انظروا إلى صدق الحديث وأداء الأمانة»[٣٩١].

ومن أداء الأمانة أن يؤدي كلٌّ من الزوجين الحقوق الزوجية الواجبة عليه، ويحسن معاشرة الآخر. فالرجل الذي يصلي ويصوم، ولكنه يسيء إلى زوجته أو يعتدي على حقوقها، لا يُعدّ متدينًا حقًّا؛ لأن أثر عبادته لم يظهر في معاملته. وكذلك المرأة التي تحافظ على عباداتها، لكنها تسيء إلى زوجها أو تضيّع حقوقه، لا يتحقق فيها معنى التقوى الكاملة؛ فالتدين الحقيقي يجمع بين العبادة وحسن المعاملة.

لذلك ينبغي للرجل والمرأة قبل الزواج السؤال عن دين الطرف الآخر وأخلاقه وأمانته وطريقة تعامله مع الناس، فإذا ثبتت استقامته وحصل الاطمئنان إليه كان أهلًا للقبول.

ومن العناوين الاجتماعية التي يجعلها بعض الناس معيارًا لقبول الزواج أو رفضه كون الرجل أو المرأة قد سبق لهما الزواج؛ فبعض الرجال يرفضون المطلقة أو الأرملة، كما ترفض بعض الفتيات الرجل المطلق أو الأرمل. وقد تقول الفتاة: «لم يسبق لي الارتباط برجل، ولذلك أريد رجلًا لم يسبق له الارتباط بامرأة». فكيف نجيب عن ذلك؟

والجواب:

◆ أما من جهة النساء، فلا ينبغي للمرأة أن تقيس حال الرجل على حالها في هذا الجانب وحده؛ لأن الغريزة الجنسية عند الرجل ـ في الغالب ـ أشد، ولا سيما مع كثرة المثيرات والمغريات في هذا العصر.

فإذا قال الرجل إنه لم يسبق له الزواج أو الارتباط بامرأة، فلا يكون قوله وحده دليلًا قاطعًا على عفته وصلاحه، كما لا يكون سبق زواجه دليلًا على نقصه؛ لأن الحالة الاجتماعية وحدها لا تكشف حقيقة الإنسان.

نعم، قد يكون الرجل صادقًا عفيفًا، وقد صان نفسه عن الحرام بقوة إيمانه وضبطه لشهوته، كما في نبي الله عيسى ونبي الله يحيى عَلَيْهِمَا ٱلسَّلَامُ، لكن بلوغ هذه الدرجة من العفة قد يكون أقل في زمان كثرت فيه المثيرات.

وقد يكون الرجل قد مارس الحرام، كالعادة السرية أو الزنا أو إقامة علاقة غير شرعية، ثم أخفى ذلك. وقد يكون تأخره عن الزواج بسبب عارض صحي، كالضعف أو العجز الجنسي، أو عارض نفسي، كالنفور المرضي من العلاقة الجنسية، وقد تخفى هذه المشكلة على المرأة حتى تكتشفها بعد الزواج.

وفي المقابل، قد يكون الرجل قد سبق له الزواج بطريق شرعي، دائمًا كان أم منقطعًا، فحفظ نفسه ودينه من الحرام. فلا تجعل المرأة سبق الزواج عيبًا أو سببًا كافيًا للرفض، بل تنظر إلى دين الرجل وصدقه وعفته وأمانته وأخلاقه وسلامته وقدرته على أداء الحقوق الزوجية وتحمل مسؤولية الأسرة.

فإذا تقدم إليها رجل مؤمن صادق أمين حسن الخلق، فلا ينبغي أن ترفضه لمجرد سبق زواجه؛ لأن التمسك بصورة مثالية قد يؤدي إلى تأخر زواجها، أو وقوعها ضحية رجل يخفي عنها حقيقته.

◆ أما من جهة الرجال، فمع أن الشريعة رغّبت في الزواج من البكر، فقد روي عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «تزوّجوا الأبكار؛ فإنهن أطيب شيء أفواهًا»[٣٩٢]. لكن هذا الترغيب لا يعني أن كل بكر أفضل من كل ثيّب؛ فقد تكون المرأة الثيّب أتقى وأحسن خلقًا من البكر، فتكون أولى منها بالزواج. فالميزان الأساس هو الدين والتقوى والأخلاق، قال تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾[٣٩٣]. أما البكارة وغيرها من الصفات فهي مزايا إضافية تُراعى بعد تحقق هذا الأساس، ولا يصح جعلها قاعدة مطلقة يُرفض بسببها كل امرأة مطلقة أو أرملة.

ويشهد لذلك أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ تزوج عددًا من النساء الثيّبات، فلم تكن حالتهن الاجتماعية مانعًا من الزواج بهن.

السبب الثامن: التأثر بوسائل التواصل الاجتماعي والإعلام

شهدت السنوات الأخيرة انتشار رسائل إعلامية، ولا سيما عبر وسائل التواصل الاجتماعي، تدعو بصورة مباشرة أو غير مباشرة إلى العزوف عن الزواج، من خلال المقاطع والصور والبرامج التي تمجّد العزوبية أو تشوّه الحياة الأسرية.

فقد يُعرض مشهد ساخر يقدم فيه رجل خاتم الخطوبة لامرأة، فتتخيل أعمال المنزل ورعاية الأطفال ودفع الفواتير، فتصرخ: «لا أريد الزواج». وقد يُصوَّر الأعزب مسافرًا مستمتعًا بحريته، في مقابل متزوج مرهق بمسؤوليات أسرته، ليبدو الأعزب رابحًا والزواج مصدرًا للمتاعب.

كما تستضيف بعض البرامج أشخاصًا نادمين على الزواج، وتعرض مشكلاتهم مطولًا، في حين تقل فيها نماذج الأسر الناجحة، فتتكون لدى المشاهد صورة مشوهة، كأن الزواج لا ينتج إلا الفشل والمعاناة.

ولا يخفى أن تمجيد العزوبية تتبناه بعض الجهات والتيارات المعادية للإسلام؛ لما يؤدي إليه من إضعاف الأسرة المسلمة، وإماتة سنة الزواج، وتقليل أعداد المؤمنين الصالحين، وإضعاف تماسك المجتمع. وفي المقابل، يحقق الزواج التكاثر، ولذلك قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «تزوّجوا؛ فإني مكاثر بكم الأمم يوم القيامة»[٣٩٤].

كما أن انتشار العزوبية يساعد أعداء الإسلام والبشرية على إضعاف المجتمعات والسيطرة عليها؛ لما يسببه من انخفاض الإنجاب، وانتشار الانحرافات الناتجة عن إشباع الغريزة بالحرام، حتى يصبح الإنسان أسير شهوته بدل أن يكون عبدًا لله تعالى، فتضعف إرادته ومقاومته للانحراف الفكري والأخلاقي، وتظهر الفتنة والفساد في المجتمع.

وتزداد خطورة هذه الرسائل لأنها لا تُقدَّم غالبًا في صورة دعوة صريحة إلى ترك الزواج، بل من خلال النكات والمقاطع الساخرة والقصص المؤثرة والبرامج الترفيهية. وعندما يتلقى الإنسان الفكرة في أجواء الضحك أو التأثر العاطفي، قد تضعف مقاومته النقدية لها، فتتسلل إلى عقله الباطن تدريجيًا.

وتشير دراسات علم النفس إلى أن تكرار التعرّض للرسائل والأفكار يزيد ألفتها وسهولة معالجتها ذهنيًا، وقد يجعل الإنسان أكثر تقبّلًا لها، بل يزيد اعتقاده بصحتها وإن كانت غير صحيحة؛ وهو ما يُعرف بـ«أثر التعرّض المحض» و«أثر الحقيقة الوهمية»[٣٩٥].

فالشاب الذي يكثر من مشاهدة المقاطع الساخرة من الزواج، أو التي تصوّر الزوجة مصدرًا للمشكلات والحياة الأسرية سجنًا وفقدانًا للحرية،

تتراكم هذه الصور في ذاكرته ومشاعره حتى تتكوّن لديه نظرة سلبية ومخاوف من الزواج، وقد يتبنى هذه الأفكار من غير أن ينتبه إلى مصدرها.

ولهذا حذّر أهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ من الإصغاء إلى أصحاب الأفكار المنحرفة؛ لأن كثرة الاستماع ليست دائمًا أمرًا محايدًا، بل قد تؤدي إلى التأثر والتلقي. قال الإمام الجواد عَلَيْهِ السَّلَامُ:

«مَنْ أَصْغَى إِلَى نَاطِقٍ فَقَدْ عَبَدَهُ، فَإِنْ كَانَ النَّاطِقُ عَنِ اللهِ فَقَدْ عَبَدَ اللهَ، وَإِنْ كَانَ النَّاطِقُ يَنْطِقُ عَنْ لِسَانِ إِبْلِيسَ فَقَدْ عَبَدَ إِبْلِيسَ»[٣٩٦].

فمن يستمع إلى الداعي للحق يتأثر بالحق، ومن يكثر من الإصغاء إلى الداعي للباطل قد يتأثر به تدريجيًا، حتى يتبنى أفكاره من حيث يشعر أو لا يشعر.

ولا تنحصر أسباب العزوف عن الزواج فيما ذكرناه؛ فهناك أسباب أخرى، منها: صعوبة العثور على الشخص المناسب، والخوف من الإساءة الزوجية، وتدخل الأهل، ومشكلات السكن والعمل، ورفع سقف التوقعات، والخوف من تحمّل المسؤولية، وغيرها.

وقد تناولنا بعضًا من هذه الأسباب في محاضرة «العنوسة» المنشورة في الجزء العاشر من سلسلة «زاد المبلّغات».

في ختام حديثنا يتبيّن لنا أن الإسلام نهى عن الإعراض عن الزواج من غير عذر؛ لما قد يترتب على العزوبية من آثار خطيرة، وحثّ على تكوين الأسرة التي يجد فيها الإنسان السكن والمودة والرحمة، ويمتد وجوده من خلالها في ذرية صالحة.

ومن أعمق الأمنيات التي تحملها الأم في قلبها أن ترى ولدها يكبر أمام

عينيها، ثم تراه عريسًا، وتضم أبناءه إلى صدرها. وصدق الشاعر حين قال:

كل أم لولدها بزفته تحضر وتجهّز عروسه وبالولد تفخر
رملة شلون شافت روحها مطبّر منهو يعينها ومنهو اليباريها

نعم، أخواتي، كانت رملة واحدةً من أمهات كربلاء اللاتي لم يمهلهن البلاء حتى تتحقق هذه الأمنية؛ فقد رأت ولدها القاسم في ربيع شبابه يتهيأ لساحة الشهادة بدلًا من أن يتهيأ لليلة زفافه.

لكن الأم المؤمنة إذا دار الأمر بين أمنيات قلبها ونصرة دين الله وإمام زمانها، قدّمت رضا الله ونصرة إمامها، وإن كان الثمن أعز ما تملك. وهكذا فعلت رملة يوم عاشوراء؛ فلما استُشهد أهل بيت الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ وأصحابه، وبقي وحيدًا، وسمعت نداء غربته واستنصاره، غلب إيمانها حنين الأمومة، فقدّمت ولدها لنصرة عمه وإمام زمانه الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ.

فقد روي في أسرار الشهادة:

إن الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ بعدما قتل أصحابه وأهل بيته أخذ ينادي: وا غربتاه، وا قلة ناصراه، أما من معين يعيننا؟ أما من ناصر ينصرنا؟ أما من ذاب يذب عنا؟

فخرج القاسم وهو غلام لم يبلغ الحلم فلما نظر إليه الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ اعتنقه وجعلا يبكيان حتى غشي عليهما، فلما أفاقا طلب القاسم المبارزة فأبى الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ فقال: يا عماه لا طاقة لي على البقاء، وأرى بني عمومتي وإخوتي مجزرين، وأراك وحيدا فريدا.

فقال له الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ يا ابن أخي أنت الوديعة، فلم يزل القاسم يقبل يديه ورجليه فقال له عمه: يا ولدي أتمشي برجلك إلى الموت؟ فقال: وكيف

يا عم وأنت بقيت بين الأعداء وحيدا فريدا لم تجد ناصرا ولا معينا، روحي لروحك الفداء، ونفسي لنفسك الوقاء. فأذن له الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ ولكن قبل أن يبرز قال له: بني قاسم هلم إلي، فدنا منه القاسم فأخذه الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ وشق أزياقه وقطع عمامته نصفين وأدلاهما على وجهه، ثم ألبسه ثيابه على صورة الكفن وأرسله إلى البراز، فحمل على القوم وهو يقول:

إنْ تُنكروني فأنا نجلُ الحسنْ ... سبطِ النبيّ المجتبى والمؤتَمَنْ
هذا حسينٌ كالأسيرِ المرتَهَنْ ... بين أُناس لا سُقوا صوبَ المُزَنْ

يقول حميد بن مسلم:

خرج إلينا القاسم بن الحسن وبيده سيفه ووجهه كفلقة قمر طالع، وعليه قميص وإزار، وفي رجليه نعلان. فبينما هو يقاتل إذ انقطع شسع نعله اليسرى، فوقف ليشدها فقال عمر بن سعد بن نفيل الأزدي:

والله لأشدن عليه، وأثكلن به أمه فقلت: وما تريد بذلك؟ والله لو ضربني ما بسطت يدي، يكفيك هؤلاء الذين تراهم قد احتوشوه من كل جانب. قال: والله لأفعلن.

فشد على الغلام فما ولى حتى ضرب الغلام بالسيف على رأسه، فوقع القاسم لوجهه وصاح: أدركني يا عماه، فأتاه الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ وإذا بالغلام يفحص بيديه ورجليه.

فقال الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ:

عز والله على عمك أن تدعوه فلا يجيبك، أو يجيبك فلا يعينك، أو يعينك فلا يغني عنك، بعدا لقوم قتلوك، ومن خصمهم يوم القيامة جدك وأبوك، هذا يوم والله كثر واتره وقل ناصره[٣٩٧].

(نصاري)

بچه او نـاداه يـا جاسـم اشـبيدي
يريـت السـيف گبلك حـز وريدي
هـان الكـم تخلّـوني اوحيـدي
او عـلى اخيمـي يعمـي الگـوم تفتر
يعمـي اشـگالت امـن الطـبر روحـك
يجاسـم مـا تراوينـي اجروحـك
لـون ابگـه يعمـي چنـت انوحـك
ابگلـب مثـل الغضـا وبدمـع محمـر
گعـد عنده او شـافه ادمومه اتفوح
او كل اكتـار جمسـه مجرّحه اجروح
وهـو يرفس ايعالج نزعـتِ الروح
مـات او ظـل أبـو اسـكينه امحـيَّر

ليلة ٩ محرم

السلام عليك

يا علي بن الحسين الأكبر

السلام على الحسين وعلى علي بن الحسين وعلى أولاد الحسين وعلى أصحاب الحسين

الليلة التاسعة من محرّم الحرام

المناسبة: شهادة عليّ الأكبر عَلَيْهِ السَّلَامُ

القصيدة: للشيخ عبد الحسين العاملي

حجر على عيني يمرُّ بها الكرى ... من بعد نازلةٍ بعترة أحمدِ
أقمارُ تمٍّ غالها خسفُ الردى ... فاغتالها بصورفه الزمنُ الردي
شتّى مصائبُهم فبين مكابدٍ ... سماً ومنحورٍ وبين مصفد
سل كربلا كم من حشاً لمحمد ... نُهبت بها وكم استُجذت من يد
ولَكَمْ دمٍ زاكٍ اُريقَ بها ... وكم جثمانِ قدسٍ بالسيوف مبدَّد
وبها على صدر الحسين ترقرقت ... عبراتُه حُـــــــــزناً لأكرمِ سيِّد
وعليٌّ قدرٍ من ذُؤابَةِ هاشمٍ ... عَبِقَتْ شمائلُه بطِيبِ المَحتِد
أفديه من ريحانة ريّانةٍ ... جفت بحرٍّ ظماً وحرٍّ مهند
للّه بدرٌ من مُراقِ نجيعِه ... مزجَ الحسامُ لجينَه بالعسجد
ماءُ الصِبا ودمُ الوريدِ تجاريا ... فيه ولاهبُ قلبِه لم يخمدِ
جمع الصفاتِ الغرَّ وهي تراثه ... من كل غِطريفٍ وشهمٍ أصيدِ
في بأس حمزةَ في شجاعة حيدرٍ ... بابي الحسينِ وفي مهابة أحمدِ [٣٩٨]

(نصاري)

يبويه واج گلبي امن العطش نار — شمس واحديد تدري والوكت حار

بچه او گله يريت افراتهم غار — اوحط حلگه اعله حلگه اولنَّه ايفور

بچه او گله يبويه اوداعة الله — اشو الساني على السانك تگلَّه

لروح الجدي الهادي وگلَّه — شبع ريحانتك من أمتك جور[٣٩٩]

موضوع المحاضرة التاسعة:

ظاهرة تعليق الزوجة

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ ﴾[٤٠٠].

وردت الآية في سياق العدل بين الزوجات؛ فالعدل التام في الميل القلبي لا يملكه الإنسان، لكنّ الله نهى عن الميل إلى إحداهن حتى تُترك الأخرى كالمعلّقة: لا تنال حقوق الزوجة ولا تستطيع الزواج بغيره.

ولا تنحصر ظاهرة تعليق الزوجة بحالة الرجل المتزوج بأكثر من امرأة، بل قد يكون للرجل زوجة واحدة، فيهجرها ويسلبها حقوقها الزوجية، ثم يرفض طلاقها، فيتركها لا هي زوجة تتمتع بحقوقها، ولا هي مطلّقة تستطيع أن تبدأ حياة زوجية جديدة. وقد نهى القرآن الكريم عن إبقاء المرأة في العصمة بقصد الإضرار بها، فقال تعالى: ﴿ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِتَعْتَدُوا وَمَنْ يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ ﴾[٤٠١].

ولأنّ تعليق الزوجة أخذ ينتشر في السنوات الأخيرة، برزت الحاجة إلى بيان أحكامه وآثاره وسبل علاجه والوقاية منه. ومن هنا سيكون حديثنا في هذه المحاضرة عن تعليق الزوجة بمعناه العام، سواء أكان الزوج متزوجًا بامرأة واحدة أم بأكثر.

المبحث الأول: صور تعليق الزوجة وأسبابه وآثاره

تتعدّد صور تعليق الزوجة ودوافعه، وتنعكس آثاره على الزوجة وأولادها وأسرتها. ونتناول في هذا المبحث صوره، ثم أسبابه، فالآثار المترتبة عليه.

المطلب الأول: صور تعليق الزوجة

تتعدد صور تعليق الزوجة باختلاف الحقوق التي يحرمها الزوج منها، وقد تجتمع أكثر من صورة في حالة واحدة. ونذكر من أبرز هذه الصور ما يأتي:

١. هجر الزوجة مع إبقائها في العصمة

تتمثل الصورة الأوضح للتعليق في أن يهجر الزوج زوجته هجرًا كليًّا، فيعيش بعيدًا عنها، ولا يؤدي حقوقها الزوجية، ثم يرفض طلاقها؛ فتبقى مرتبطة به شرعًا، لكنها لا تعيش حياة زوجية حقيقية، ولا تستطيع الزواج بغيره.

وقد يستمر هذا الهجر أشهرًا أو سنوات، مع انقطاع التواصل أو اقتصاره على المشاجرات والتهديدات. وربما يظن الزوج أن إنفاقه عليها ـ إن كان ينفق ـ يجيز له هجرها، مع أن التعليق قد يتحقق مع بذل النفقة إذا هجرها هجرًا كليًّا وحرمها من سائر حقوقها الزوجية.

٢. هجر المعاشرة الزوجية

قد يعيش الزوج مع زوجته في منزل واحد، لكنه يهجر فراشها ويقطع علاقته الزوجية بها مدة طويلة من غير عذر، فيحرمها من حقها في الوصال، مع رفضه إصلاح العلاقة أو تسريحها.

ومن الصور الخاصة التي تناولها القرآن الكريم «الإيلاء»، وهو أن يحلف الزوج على ترك مقاربة زوجته؛ فقد قال تعالى:

﴿لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِنْ فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ۝ وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[٤٠٢].

كان بعض الرجال يحلفون على هجر الزوجة طويلًا إضرارًا بها؛ فجعلت الشريعة للإيلاء حكمًا يمنع إبقاءها على ذلك من غير معالجة. وللإيلاء شروط فقهية، منها الحلف؛ فلا يُسمّى كل انقطاع عن المعاشرة إيلاءً.

٣. سلب الحقوق المالية والزوجية

قد يمتنع الزوج عن الإنفاق أو توفير المسكن المناسب، ويتركها تتحمل أعباء نفسها وأولادها، وربما يجمع ذلك إلى هجرها ورفض طلاقها.

إنّ منع النفقة ظلمٌ له حكمه، لكنه لا يصبح تعليقًا بالمعنى الخاص إلا إذا اقترن بهجرٍ كليٍّ يجعلها كالمعلّقة.

٤. الميل إلى زوجة وترك الأخرى

قد يتزوج الرجل بأكثر من امرأة، ثم يميل إلى إحداهن كل الميل، فيمنحها وقته واهتمامه وحقوقها، ويهجر الأخرى أو يحرمها من حقوقها، مع إبقائها في عصمته. وهذه هي الصورة التي تناولتها الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ﴾[٤٠٣].

ليس المطلوب من الزوج أن يساوي بين زوجاته في الميل القلبي الذي قد لا يملكه، وإنما يجب عليه العدل في الحقوق التي يملكها، فلا يجوز أن يحمله حبه لإحداهن على هجر الأخرى وتركها كالمعلّقة.

٥. إبقاؤها للضغط عليها ماليًا

قد يضيّق الزوج على زوجته ويمتنع عن تسريحها حتى تملّ وتبذل مهرها لتفتدي نفسها منه. وقد نهى القرآن الكريم عن هذا الأسلوب، فقال تعالى:[وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ][٤٠٤]. فالعضل تضييقٌ يُراد به انتزاع مالها مقابل فراقها، وليس حرصًا على استمرار الأسرة.

المطلب الثاني: أسباب تعليق الزوجة

لا يمكن الحكم بأن جميع حالات التعليق ترجع إلى سبب واحد؛ فقد تختلف الدوافع من زوج إلى آخر، ومن أبرزها:

١. الانتقام من الزوجة: فقد يعلّقها الزوج لأنها اعترضت على ظلمه، أو تركت منزل الزوجية بسبب إساءة معاملته، فيريد معاقبتها وإطالة معاناتها.

٢. الضغط عليها للتنازل عن حقوقها: فيرفض طلاقها حتى تتنازل عن مهرها أو نفقتها أو حقوق مالية أخرى.

٣. الخلاف مع أهل الزوجة: فقد يحول بعض الأزواج خلافهم مع أهل الزوجة إلى عقوبة لها، مع أنها قد لا تكون مسؤولة عن ذلك الخلاف.

٤. الميل إلى زوجة أخرى: فينصرف الزوج إلى الزوجة الجديدة، ويهمل الأولى، لكنه لا يطلقها؛ إما بسبب الأولاد أو خشية كلام الناس أو رغبة في إبقائها تحت سلطته.

٥. حب السيطرة: فقد يعتقد بعض الأزواج أن طلاق المرأة استجابة لطلبها يمس كرامته أو يدل على ضعف شخصيته، فيصر على إبقائها في عصمته لإثبات قدرته على التحكم في مصيرها.

٦. الهروب من مسؤولية القرار: فقد لا يرغب الزوج في استمرار الحياة

الزوجية، لكنه لا يريد أن يتحمل مسؤولية الطلاق، فيترك الزوجة معلّقة حتى تطلب هي الخلع، أو تتحمل أمام الناس مسؤولية إنهاء الزواج.

٧. تأثير الأهل والمحيطين: فقد يكون الزوج ميالًا إلى الإصلاح أو الطلاق، لكن بعض أهله يحرضونه على تعليق زوجته وإذلالها أو إجبارها على التنازل عن حقوقها.

هذه أبرز الأسباب، وسيأتي في مبحث سبل المعالجة بيان الطريقة المناسبة لعلاج كل سبب منها؛ لأن العلاج لا يكون واحدًا في جميع الحالات، بل يختلف باختلاف الدافع الذي يقف وراء التعليق.

المطلب الثالث: الآثار المترتبة على تعليق الزوجة

تتعدد آثار تعليق الزوجة، ولا تقتصر عليها وحدها، بل تمتد إلى أولادها وأسرتها والمجتمع، ونذكر من أبرزها ما يأتي:

١. الآثار النفسية

تعيش الزوجة المعلّقة حالة مستمرة من القلق والحيرة؛ لأنها لا تعرف مصيرها، ولا تستطيع أن تخطط لحياتها. وقد تشعر بالإهانة وفقدان الكرامة والعجز، خصوصًا عندما يستعمل الزوج الطلاق وسيلة لتهديدها أو إذلالها.

وقد يؤدي استمرار هذه الحالة إلى الحزن الشديد، وفقدان الثقة بالنفس، واضطراب النوم، والعزلة الاجتماعية، ولا سيما إذا طالت مدة التعليق ولم تجد من يقف معها.

٢. الآثار الأسرية

لا يبقى أثر التعليق محصورًا بين الزوجين، بل ينتقل إلى العائلتين؛ فتزداد الخصومات وتبادل الاتهامات، وقد يتحول الخلاف الزوجي إلى قطيعة وعداوة بين أسرتين كاملتين. كما قد تبقى الزوجة سنوات في بيت أهلها، فيتحمل أهلها مسؤوليتها المادية والنفسية، مع بقاء زوجها ممتنعًا عن أداء واجباته أو اتخاذ قرار واضح بشأن حياتهما الزوجية.

٣. الآثار الواقعة على الأولاد

يعيش الأولاد في حالة من عدم الاستقرار بين أب غائب أو معادٍ لأمهم، وأم متألمة لا تعرف مصيرها. وقد يُستعملون وسيلة للضغط والانتقام بين الزوجين، أو يحرمون من الرعاية المتوازنة التي يحتاجون إليها.

كما قد تتكون لديهم صورة سلبية عن الزواج والأسرة، ويعتقدون أن العلاقة الزوجية تقوم على السيطرة والانتقام، لا على المودة والرحمة وأداء الحقوق.

٤. الآثار المالية

قد تجد الزوجة نفسها مطالبة بالإنفاق على نفسها وأولادها من غير أن تستطيع بناء حياة مستقلة؛ لأنها ما زالت في عصمة زوج يرفض الإنفاق عليها ويرفض طلاقها. وقد تضطر إلى الاقتراض أو الاعتماد على أهلها، مع أن نفقتها واجبة على زوجها إذا كانت مستحقة لها شرعًا.

٥. الآثار الاجتماعية

تؤدي كثرة حالات التعليق إلى إضعاف ثقة النساء والفتيات بمؤسسة الزواج؛ فعندما تشاهد الفتاة امرأة بقيت سنوات لا هي زوجة تتمتع بحقوقها ولا هي مطلّقة، قد تخشى أن تتعرض للمصير نفسه، فتتردد في الزواج أو

تضعف ثقتها بالرجال وبقدرة المجتمع على حماية حقوقها.

٦. الآثار الدينية والأخلاقية

قد تظنّ الزوجة التي يعلّقها زوجها أنّ الشريعة تُجيز له ظلمها، فيضعف ارتباطها بتعاليمها؛ وقد تدفعها المعاناة إلى سلوكٍ محرّم. وهذا تفسيرٌ لأثر الظلم، لا تبريرٌ للمحرّم: فبقاؤها في عصمته لا يبيح لها علاقةً برجلٍ آخر، كما أنّه لا يُسقط عن الزوج إثم تعليقه لها. ومن أشدّ صوره أن يؤذيها حتى تضطرّ إلى افتداء نفسها منه؛ وقد ورد في ذلك الوعيد بالنار والبراءة من فاعله في الروايتين الآتيتين:

- دخول النار: رُوي عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «ومن أضرَّ بامرأةٍ حتى تفتدي منه نفسها، لم يرضَ الله له بعقوبةٍ دون النار؛ لأنّ الله يغضب للمرأة كما يغضب لليتيم»[٤٠٥].
- البراءة من الله ورسوله: روي عنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ أيضًا: «ألا وإنّ الله ورسوله بريئان ممّن أضرّ بامرأته حتى تختلع منه»[٤٠٦].

يتضح مما تقدم أن تعليق الزوجة ظاهرة متعددة الصور والأسباب والآثار، ولذلك لا يكفي أن ننظر إليها على أنها خلاف خاص بين رجل وامرأة؛ بل هي اعتداء على حقوق الزوجة، وتهديد لاستقرار الأولاد والأسرة والمجتمع.

المبحث الثاني: تعليق الزوجة بين حكم الهجر وأخذ المال

حرّمت الشريعة الإسلامية تعليق الزوجة؛ بأن يحرمها زوجها حقوقها الزوجية، ويرفض في الوقت نفسه طلاقها، فلا تعيش معه حياة الزوجة، ولا تستطيع الزواج بغيره.

لكن هل كل امرأةٍ يرفض زوجها طلاقها تُعدّ معلّقة؟ وهل نفي التعليق عنها يعني بالضرورة أنها غير مظلومة؟ للإجابة عن هذين السؤالين، لا بدّ من التمييز بين ثلاث صور: زوجٌ يؤدي حقوقها ويرفض الطلاق، وزوجٌ يمنع بعض حقوقها من غير هجر كلي، وزوجٌ يهجرها حتى تصير كالمعلّقة. ثم نبيّن حكم المال الذي قد تبذله للفراق.

المطلب الأول: حكم تعليق الزوجة وضابطه

أوجب الإسلام على الزوج أن يؤدي الحقوق الواجبة لزوجته، وأن يعاشرها بالمعروف، وحرّم عليه أن يبقيها في عصمته بقصد الإضرار بها، قال تعالى:

﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِتَعْتَدُوا وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾[٤٠٧].

فالآية تنهى عن إمساك المرأة بقصد إضرارها؛ فلا يجوز أن يحرمها الزوج من الحياة الزوجية ويبقيها في عصمته رافضًا تسريحها.

وقد عدّ السيد السيستاني منع الزوج زوجته من حقوقها الواجبة صورةً من صور نشوز الزوج، فقال:

«وأمّا نشوز الزوج فيتحقّق بمنع الزوجة من حقوقها الواجبة عليه، كترك الإنفاق عليها، أو ترك المبيت عندها في ليلتها، أو هجرها بالمرّة، أو إيذائها ومشاكستها من دون مبرّر شرعي»[٤٠٨].

فالنشوز لا يختص بالزوجة، كما قد يتوهم بعض الناس؛ بل قد يكون الزوج ناشزًا أيضًا.

ولتمييز تعليق الزوجة من مجرد رفض طلاقها، لا بدّ من النظر في الحالتين الآتيتين:

أولًا: متى يكون رفض الطلاق تعليقًا؟

يتحقق التعليق بمعناه الخاص بالهجر الكلي الذي يجعل الزوجة كالمعلّقة؛ قال السيد السيستاني: «إذا هجر زوجته هجرًا كلّيًّا فصارت كالمعلّقة لا هي ذات زوج ولا هي مطلّقة، جاز لها رفع أمرها إلى الحاكم الشرعيّ، فيُلزم الزوج بأحد الأمرين: إمّا العدول عن هجرها... أو تسريحها لتتمكّن من الزواج من رجل آخر»[٤٠٩].

ومن صوره أن يترك الزوج البيت وزوجته مدةً طويلة ولا يعود إلى حياة زوجية معها، مع إبقاء العقد ورفض طلاقها. ولا يغيّر دفعُ نفقتها حكمَ هذه الصورة. فإذا ثبت الهجر، ألزمه الحاكم بالعودة أو الطلاق؛ فإن امتنع وتعذّر إجباره، جاز للحاكم تطليقها بطلبها. أما سفره مع استمرار حياتهما الزوجية، أو ترك المقاربة وحده، فلا يكفي لإثبات الهجر الكلي[٤١٠].

ثانيًا: متى لا يكون رفض الطلاق تعليقًا؟

هناك حالات لا يُعدّ فيها رفض الزوج الطلاق تعليقًا، ومن أبرزها:

١. إذا كان قائمًا بحقوق زوجته

إذا أدى الزوج نفقتها وسائر حقوقها وعاشرها بالمعروف، فطلبت الطلاق، لا يصبح رفضه له تعليقًا؛ فقد اختار استمرار الزواج مع أداء حقوقه:

﴿فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ﴾[٤١١].

وقد تختلف أسباب طلب الزوجة الطلاق. فقد ينشأ الطلب عن تصرّف غير منصف مع الزوج؛ كأن تتزوجه ابتغاء ماله أو للحصول على جنسية، ثم تطلب فراقه بعد أن تنال ما أرادت. وقد تتعلّق برجل آخر وهي في عصمة زوجها، فتتعمّد إثارة المشكلات لتجعلها ذريعةً للطلاق والزواج منه. وهذا السلوك، إن وقع على هذا النحو، إخلالٌ بالوفاء والأمانة بين الزوجين.

وقد تضغط على زوجها ليؤمّن لها ما يزيد على النفقة الواجبة. وقد تطلب الطلاق لأنّ زوجها ينهاها عن الحرام كالنهي عن التبرّج، فتصفه بالتعقيد لمجرّد طلبه منها الالتزام بالحكم الشرعي. وقد ورد عن الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ: «حُرِّمت الجنّة على الديّوث»[٤١٢]. وقد يصعب عليها تقبّل زواج زوجها بامرأة أخرى، وإن كان قادرًا على العدل بينهما، مع أنّ الشريعة أجازت أصل تعدّد الزوجات.

وفي المقابل، قد تطلب الزوجة الطلاق لأسباب تؤلمها وتدعوها إلى القلق؛ كأن يشرب زوجها الخمر، أو يقامر، أو يكذب، أو يمارس الفواحش، أو يترك الصلاة فتخشى أثر سلوكه في أولاده. وقد تشقّ عليها معاشرته لشدّة غضبه أو صعوبة طباعه.

ولا يصحّ التهوين من معاناتها، لكن وجود هذه الأسباب لا يعني، بمفرده، أنه منعها حقوقها الزوجية أو أساء معاشرتها على نحو يثبت لها طلاق الحاكم الشرعي؛ بل يُنظر إلى معاملته لها وما يترتب على سلوكه في واقع حياتهما. أما إذا كان يمنعها النفقة الواجبة، فهذه ليست مجرد سبب لنفورها، بل إخلال بحقٍّ لها، وتُبحث ضمن أحكام الامتناع عن النفقة.[٤١٣]

ومهما كان سبب طلبها، فلا يكون رفض الطلاق وحده تعليقًا ما دام الزوج مؤديًا حقوقها ويعاشرها بالمعروف.

ولها أن تطلب الطلاق أو الخلع إذا تحققت شروطه؛ فإن رفض الزوج فلا يُطلّقها الحاكم لمجرد رغبتها، إلا إذا ثبت موجب شرعي أو كانت وكيلة عنه في طلاق نفسها[٤١٤].

وللزوجة أن تطلب الطلاق من زوجها إذا لم تُطق الاستمرار معه، أو أن تطلب الخلع إذا توفرت شروطه؛ لكن طلبها وحده لا يُوقع الفرقة إن لم يوافق الزوج، ما لم تكن وكيلةً عنه في طلاق نفسها أو يثبت سببٌ شرعي يجيز للحاكم تطليقها[٤١٥].

٢. إذا أخّر الطلاق مدةً معقولةً طلبًا للإصلاح

قد يطلب الزوج مهلةً لمحاولة الإصلاح؛ فلا يصبح تأخير الطلاق تعليقًا ما دام يؤدي حقوقها ويعمل فعلًا لإصلاح الخلاف. أما إذا هجرها وضيّع حقوقها مكتفيًا بوعد الإصلاح، فلا تُغني الوعود عن الفعل.

٣. إذا كانت الزوجة هي التي هجرت زوجها من غير مسوّغ شرعي

إذا هجرت الزوجة زوجها من دون عذر شرعي، مع استعداد الزوج لاستقبالها ومعاشرتها بالمعروف وأداء حقوقها، فإن رفضه طلاقها لا يُعدّ تعليقًا ناشئًا منه. وقد نصّ السيد السيستاني على أنه إذا كانت الزوجة هي التي هجرت زوجها من دون ما يسوّغ لها ذلك، فلا سبيل إلى تطليقها من قِبل الحاكم الشرعي بسبب هذا الهجر[٤١٦].

لكن لا يصح تعميم ذلك على كل امرأة غادرت منزل الزوجية؛ فقد يكون خروجها بسبب الضرب أو التهديد أو الخوف على نفسها أو غير ذلك من الأعذار المشروعة، وتقدير وجود العذر يرجع إلى الحاكم الشرعي بعد التحقق من الواقعة.

٤. إذا أتت الزوجة بفاحشة مبيّنة

قال تعالى: ﴿وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ﴾[٤١٧]، والعضل هنا هو التضييق على الزوجة لتبذل شيئًا من مالها في مقابل مفارقتها.

ذكر بعض فقهاء الإمامية جواز التضييق عليها في صورة الفاحشة المبيّنة لتفتدي نفسها ويفارقها الزوج، وذكروا الزنا من مصاديقها. وهذا لا يجيز إبقاءها معلّقة بلا قصد المفارقة[٤١٨].

المطلب الثاني: حكم المال المبذول للخلاص من التعليق أو الأذى

يختلف حكم هذا المال باختلاف سبب بذله:

أولًا: إذا بذلت المال من غير أن يكون الزوج قد ظلمها

قد تخشى الزوجة أن يطلّقها زوجها أو يتزوّج عليها، فتعرض عليه مالًا أو تتنازل عن بعض حقوقها لاستمالته إلى استمرار الزواج. وقد نصّ السيد السيستاني على صحة هذا البذل وحلّ المال للزوج في الصورة التي ذكرها[٤١٩].

وقد تريد الزوجة الفراق بدلًا من استمرار الزواج؛ فتكره زوجها كراهةً تبلغ الحدّ المعتبر شرعًا، وتبذل له مالًا ليطلّقها خلعًا. وقد تنشأ كراهتها من بعض صفاته أو من تصرّفٍ لا يوافق رغبتها، من غير أن يكون قد ظلمها. ويصحّ الخلع إذا توافرت بقية شروطه[٤٢٠].

ثانيًا: إذا بذلت المال لتتخلّص من ظلم الزوج

قد يمنع الزوج زوجته حقّها في النفقة أو المبيت، أو يهجرها هجرًا كليًّا، أو يؤذيها بالضرب والشتم، ثم لا يطلّقها حتى تدفع له مالًا أو تتنازل عن مهرها. فهي في هذه الصورة تدفع لتخرج من ظلم وقع عليها، لا لمجرّد أنها ترغب في إنهاء الزواج. وقد نصّ السيد السيستاني على حرمة ما يأخذه الزوج إذا بذلت له المال ليؤدي حقًّا واجبًا تركه، أو يكفّ عن أذاه، أو يطلّقها فتتخلّص منه، ولو لم يكن قد قصد حملها على البذل[٤٢١].

وأما صحة الخلع، فقد ذكر السيد الخوئي أن الكراهة الناشئة من ظلم الزوج واعتدائه على حقوق زوجته الواجبة لا يصحّ معها بذل المال للخلع، فلا يقع الطلاق خلعًا. وذكر منع النفقة والقَسْم مثالين صريحين؛ والقَسْم هو حقّها في المبيت عندها في ليلتها[٤٢٢].

المبحث الثالث: معالجة تعليق الزوجة

بعد أن عرفنا صور تعليق الزوجة وآثاره وحكمه الشرعي، ننتقل إلى السؤال العملي: كيف نعالج هذه المشكلة؟

تبدأ المعالجة بمعرفة ما وقع بين الزوجين وسبب استمراره، ثم بمحاولة إصلاحه إذا كان ذلك ممكنًا وآمنًا. فإن بقي الزوج مصرًّا على ظلم زوجته، كان لها أن ترفع أمرها إلى الحاكم الشرعي وفق حكم حالتها.

والمراحل الآتية تُنظّم طريق الإصلاح، لكن إذا كان الزوج يضرب زوجته أو يهدّدها، فلا تُطالَب بمواجهته أو العودة إليه لتجربة الصلح؛ بل تحمي نفسها وتطلب المساعدة، ولها رفع أمرها إلى الحاكم الشرعي دون انتظار انتهاء بقية المراحل.

المرحلة الأولى: تحديد المشكلة والحقّ الذي ضاع

نبدأ بسؤالين: لماذا تطلب الزوجة الطلاق، وماذا يفعل الزوج أو يمتنع عن فعله؟ فالرغبة في الانفصال وحدها لا تُثبت التعليق.

السؤال الأول: لماذا تطلب الطلاق؟

وقد يرجع سبب طلب الزوجة الطلاق إلى تصرّفٍ غير منصف من الزوج؛ كأن يمنع زوجته النفقة المستحقّة، أو يترك حقّها في المبيت، أو يهجرها، أو يسيء معاشرتها بالسبّ والضرب ونحوهما. وقد تطلب الطلاق لأسبابٍ أخرى مع بقائه قائمًا بحقوقها؛ كأن يصعب عليها تقبّل زواجه بأخرى، أو تجد التفاهم معه شاقًّا لكثرة صمته وقلة حواره، أو تنفر من غضبه أو أنانيته أو بخله. وقد يقلقها سلوكٌ أشدّ، كشربه الخمر أو مقامرته أو كذبه أو تركه الصلاة، ولا سيما إذا خافت أثر ذلك في أولادهما. نأخذ معاناتها بجدية، ثم نتحقق: هل

صاحب هذه الأفعال إيذاءٌ لها أو منعٌ لحقوقها، أم بقي الزوج قائمًا بحقوقها ويعاشرها بالمعروف؟ فقد بيّن السيد السيستاني أن ارتكاب الزوج بعض المحرّمات في حدّ نفسه لا يسوّغ مطالبة الحاكم بتطليقها إذا كان مؤديًا حقوقها الشرعية[٤٢٣].

وقد تطلب الزوجة الطلاق لأنها لا تتقبّل بعض الحقوق الشرعية لزوجها؛ كأن ترى اشتراط إذنه لخروجها من المنزل تزمّتًا، أو تريد أن تؤدي حقّه في العلاقة الزوجية بحسب رغبتها وحدها، من غير عذر شرعي يجيز لها الامتناع.

وقد يكون طلبها ناشئًا عن تصرّفٍ آخر غير منصف؛ كأن تكون قد تزوجته ابتغاء ماله أو للحصول على جنسية، ثم تطلب فراقه بعدما تنال ما أرادت. أو تعلّقت برجلٍ آخر وهي في عصمته، فتفتعل المشكلات لتجعلها ذريعةً للطلاق والزواج منه؛ وهذا السلوك، إن وقع فعلًا، خيانةٌ للوفاء والأمانة بين الزوجين.

وقد تضغط عليه ليؤمّن لها ما يزيد على النفقة الواجبة بحسب شأنها، ثم تطلب الطلاق إذا لم يستجب، أو تطلبه لأنه ينهاها عن أمرٍ محرّم. وهذه أمثلة لما ينبغي التحقق منه، فلا نُنسب شيئًا منها إلى امرأة لمجرّد أنها طلبت الطلاق.

السؤال الثاني: ما الذي وقع في الحياة الزوجية؟

هل هجرها الزوج هجرًا كليًّا، فأبقاها في عصمته من غير حياة زوجية؟ أم يعيش معها لكنه يمنعها النفقة المستحقّة، أو يبخس حقّها في المبيت عندها في ليلتها، أو يؤذيها بالضرب أو السبّ أو التهديد؟ وقد يعيش معها لكنه يترك العلاقة في الفراش؛ فننظر هل اقتصر الأمر على ترك هذه العلاقة، أم هجرها في سائر حياتها الزوجية حتى صارت كالمعلّقة؟ فترك العلاقة في الفراش وحده لا يكفي للحكم بتحقق الهجر الكلي[٤٢٤].

وإذا كانت الزوجة هي التي غادرت المنزل، نعرف سبب خروجها: هل خرجت بلا مسوّغ، أم غادرت خوفًا من ضربٍ أو تهديد؟ وإذا ادعى الزوج أنه لا ينفق عليها لأنها ناشز، نتحقق من دعواه، ولا نفترض سقوط نفقتها لمجرّد خروجها. وعند الخلاف على مقدار النفقة، نحدّد ما تستحقه بحسب شأنها؛ فقد تدخل في النفقة ثيابٌ للتجمّل تحتاج إليها، ولا يدخل فيها شراء لباسٍ نفيس جديد لكل مناسبة[٤٢٥].

ولمعرفة حكم ما وقع، نرجع إلى المطلب الأول من المبحث الثاني؛ ونختار العلاج على أساس الحالة الثابتة. ويأتي حكم طلاق الحاكم في المرحلة السادسة.

ثمرة هذه المرحلة: نعرف هل المطلوب عودةٌ من الهجر الكلي، أو أداءُ حقٍّ مستحق، أو وقفُ إيذاء، أو محاولةُ إصلاح خلافٍ مع بقاء الحقوق مؤدّاة.

المرحلة الثانية: مطالبة الزوجين بإصلاح الخلل

نهى الله عن ترك المرأة كالمعلّقة ودعا إلى الإصلاح: ﴿فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ ۚ وَإِنْ تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾[٤٢٦]. يبدأ الإصلاح بتسمية التصرف الذي يجب تغييره من أحد الزوجين أو كليهما بدل عبارةٍ عامة مثل «تغيّر» أو «أصلح حالك».

فإذا كان الخلل من الزوج، كأن يهجر زوجته، أو يمنعها النفقة المستحقّة، أو يؤذيها، تطلب منه إزالة ما وقع منه: أن ينهي الهجر ويعود إلى معاشرتها بالمعروف، أو يؤدي النفقة، أو يكفّ عن الإيذاء. وتبيّن له أن النشوز لا يختص بالزوجة؛ فقد ذكر السيد السيستاني أن منع الزوج حقوقها الواجبة أو إيذاءها بغير مبرّر يدخل في نشوزه. وقد أشار القرآن إلى نشوز الزوج بقوله تعالى: ﴿وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا﴾[٤٢٧]. ولها أن تطالبه بحقوقها

وتعظه وتحذّره إذا منعها ما يجب عليه[٤٢٨].

ويكون وعظها له ببيان حقّها وتذكيره بحكم الله وحرمة ظلمها، بكلامٍ واضح وهادئ؛ فالرفق أدعى للإصغاء، قال تعالى: ﴿ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ﴾[٤٢٩]، وقال تعالى: ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ﴾[٤٣٠]. ويمكنها الاستعانة بنصٍّ شرعي أو مقطع موثوق يبيّن حقّها.

وإذا كان الخلل من الزوجة، كأن تمتنع من غير مسوّغ شرعي عن تمكين زوجها من حقّه في الاستمتاع الزوجي في الفراش، أو تخرج من بيت الزوجية بغير إذنه ولا عذرٍ يبيح لها الخروج، ثم تطلب الطلاق ويرفض الزوج لأنه يريد استمرار حياتهما الزوجية، فلا يكون رفضه الطلاق وحده تعليقًا لها، ما دام لم يهجرها هجرًا كليًّا ولم يمنعها حقوقها. ولإصلاح الخلل، يبيّن لها بهدوء أن هذين الأمرين من حقوقه الواجبة، وأن مخالفتها له فيهما على هذا النحو تدخل في نشوزها، كما ذكر ذلك الفقهاء[٤٣١].

وقد ذكر القرآن في معالجة نشوز الزوجة الوعظَ والهجرَ في المضجع: ﴿ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ ﴾[٤٣٢]؛ أي يبدأ بنصحها، ثم يكون الهجر في موضع النوم وفق شروطه، لا بأن يتركها هجرًا كليًّا ويجعلها كالمعلّقة. وقد فصّل السيد السيستاني أحكام هذه المعالجة وحدودها، وبيّن أنه إذا لم تنفع الإجراءات المشروعة فليس للزوج أن يبتكر وسائل للانتقام منها أو يحبسها أو يؤذيها، وله رفع الأمر إلى الحاكم الشرعي[٤٣٣]. ويمكن للزوج أن يستعين في شرح الحكمة من هذين الحقّين بالمحاضرة الرابعة من الجزء الثاني لكتاب زاد المبلّغات[٤٣٤].

أما إذا كانت المشكلة كثرة المشاجرة أو حدّة الكلام أو العناد، فيُطلب من الطرف الذي يصدر منه هذا السلوك تركه، ويُبحث ما يُثير الخلاف بينهما. ولا يُدفع مالٌ للزوج ليؤدي واجبًا أو يكفّ عن أذاه؛ فقد نصّ السيد السيستاني

على حرمة ما يأخذه من زوجته لهذا الغرض[٤٣٥].

ثمرة هذه المرحلة: يتبيّن استعداد كلٍّ من الزوجين لإزالة الخلل؛ فإن بدأ الإصلاح انتقلا إلى اتفاقٍ واضح، وإلّا فلا تقف المعالجة عند النصائح والوعود.

المرحلة الثالثة: اتفاق واضح للإصلاح

بعد تشخيص المشكلة وتحديد ما يلزم لإصلاحها، لا تكفي وعود التغيير؛ بل يتفق الزوجان على خطواتٍ عملية، وموعد تنفيذها، وكيفية التحقق من نجاحها. قال تعالى:[إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ][٤٣٦].

فإذا كان الخلاف على النفقة، فلا يكفي أن يعد الزوج بالإنفاق وأن تعده الزوجة بتقليل طلباتها، بل يمكنهما الاتفاق على أربع خطوات:

١. تحديد النفقة المستحقة وطريقة أدائها:

يتبيّنان ما تحتاج إليه الزوجة من طعام وكسوة ومسكن وسائر شؤون معيشتها مما يليق بحالها بالقياس إلى زوجها، ثم يحددان كيف يوفّر الزوج ذلك ومتى. فما تحتاج إليه أسرةٌ قد يختلف عمّا تحتاج إليه أخرى، بحسب حالهما وعُرف المكان والزمان؛ ولهذا لم يحدّد السيد السيستاني للنفقة مبلغًا واحدًا لجميع الزوجات[٤٣٧].

٢. معرفة ما يجب على الزوج توفيره وما يزيد على ذلك:

لا تُطالب الزوجة زوجها بما يفوق طاقته أو تُلزمه بمجاراة إنفاق الآخرين، كأن تطلب ثوبًا نفيسًا جديدًا لكل مناسبة. وقد بيّن السيد السيستاني أن ثياب التجمّل قد تدخل في النفقة بحسب شأن الزوجة، لكن تكثير الألبسة

النفيسة، واستبدال الثوب بعد لبسه مرةً أو مرتين في المناسبات، خارجٌ عن النفقة الواجبة. وفي المقابل، إذا طلبت الزوجة شيئًا زائدًا، فلا يتخذ الزوج ذلك ذريعةً لوقف طعامها أو كسوتها أو غيرهما مما تستحقه[٤٣٨].

٣. القناعة وحسن تدبير المصروفات:

يتعاونان على ترتيب الأولويات وتجنّب الإسراف وتقليد الآخرين، من غير أن تعني القناعةُ حرمانَ الزوجة من حقها. وقد رُوي عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «أيّما امرأة أدخلت على زوجها في أمر النفقة وكلّفته ما لا يطيق، لا يقبل الله منها صرفًا ولا عدلًا إلّا أن تتوب وترجع وتطلب منه طاقته»[٤٣٩].

٤. مراجعة ما نُفّذ:

يحددان موعدًا قريبًا، بعد أسبوعين مثلًا، ليتحققا: هل أدّى الزوج النفقة التي اتفقا على استحقاقها؟ وهل نجحا في تنظيم المصروفات؟ وإذا ظهرت حاجةٌ لم يحسبا لها حسابًا، ناقشاها وعدّلا الاتفاق بما يحفظ الحقّ ويراعي القدرة.

والأفضل لهما تدوين هذه الخطوات في ورقة يوقّعانها معًا، ويحتفظ كلٌّ منهما بنسخة؛ فقد يحتاجان إلى الرجوع إليها مستقبلًا، كما سيأتي في المراحل القادمة. وقد حثّ الله تعالى على توثيق الحقوق بالكتابة حفظًا لها، كما في الدَّين؛ قال تعالى: ﴿إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ﴾[٤٤٠]. ونستفيد من الآية أهمية التوثيق، من غير أن نجعل كتابة اتفاق الزوجين واجبةً شرعًا.

ثمرة هذه المرحلة: ينتقل الإصلاح من وعودٍ عامة إلى أعمالٍ محددة يمكن مراجعتها؛ فيظهر ما أُنجز، وما بقي من الخلل، وما يحتاج إلى معالجةٍ أخرى.

المرحلة الرابعة: الاستعانة بمن يصلح بينهما

إذا عجز الزوجان عن حلّ الخلاف وحدهما، استعانا بمن يفهم المشكلة وينصفهما في معالجتها؛ قال تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا﴾[٤٤١]. ولا تكفي القرابة لاختيار الحكمين؛ بل ينبغي أن يكونا أمينين، منصفين، عارفين بحقوق الزوجين، وقادرين على معرفة سبب الشقاق واقتراح حلٍّ جائز. وقد بيّن السيد السيستاني أنّ الحكمين يبحثان عن سبب الخلاف ويسعيان في إصلاحه، وأنّه إذا لم يكن أهل الزوجين أهلًا لهذه المهمة، يُختار غيرهم[٤٤٢].

ويجب الحذر ممّن ينصّب نفسه وسيطًا وهو يزيد الظلم؛ فقد يقول بعض أهل الزوج له: «لا تُطلّقها حتى تتنازل عن مهرها»، أو يشجّعونه على إبقائها معلّقة حتى تخضع له. فهذا إعانةٌ على الظلم، وليس إصلاحًا؛ قال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾[٤٤٣]. ورُوي عن الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ: «العامل بالظلم والمعين له والراضي به شركاء ثلاثتهم»[٤٤٤].

فإن توفّرت الأمانة والخبرة في الأقارب، كانت الاستعانة بهم مناسبة؛ وإلّا اختير غيرهم ممّن تتوفّر فيه الأهلية، كمستشارٍ أسري أمين أو رجل دينٍ يعرف الحقوق الزوجية. ومهمة الوسيط أن يسمع الطرفين ويعمل على رفع الخلل، فلا يضغط على الزوجة للتنازل عن حقّها مع استمرار هجرها، ولا يُغفل حقّ الزوج إذا كانت هي التي تمنعه حقًّا واجبًا. وإذا كان اللقاء المباشر ينطوي على ضربٍ أو تهديد، تُراعى سلامة الزوجة عند ترتيب الوساطة.

ثمرة هذه المرحلة: يتبيّن هل أمكن إصلاح سبب الخلاف واستمرار الحياة بالمعروف، أم بقي الظلم رغم الاستعانة بالوسيط.

المرحلة الخامسة: حفظ ما يثبت الحقوق والوقائع

لا ينبغي أن تتحوّل الحياة الزوجية إلى تسجيلٍ دائمٍ لهفوات الطرف الآخر؛ فالخلافات العادية تحتاج إلى صبرٍ وتفاهم، لا إلى جمع الزلّات لاستعمالها يومًا ما. وقد رُوي عن الإمام الباقر عَلَيْهِ السَّلَامُ:

«إنّ أقرب ما يكون العبد إلى الكفر أن يواخي الرجلُ الرجلَ على الدين فيحصي عليه عثراته وزلّاته ليعنّفه بها يومًا ما»[٤٤٥]. فالمنهيّ عنه في الرواية إحصاء الزلّات بقصد التعيير، وهو سلوكٌ قبيحٌ سواء صدر من الزوجة أم من الزوج.

أمّا إذا طال النزاع، وخشيت الزوجة أن تُنكر حقوقها أو يُنكر ما وقع عليها عند طلب المعالجة، فيفيدها أن تحفظ ما يتعلّق بالحقّ الذي تطالب به: كالرسائل بشأن الهجر أو طلب المال، وتواريخ انقطاع الزوج وعودته، وما دُفع من نفقة، ومحاولات الإصلاح، وما يثبت الإيذاء إن وقع.

وهذا يختلف عن تتبّع عثراته للتشهير به؛ فهي تحفظ ما تحتاج إليه لتوضيح قضيتها، ولا تنشره بين الناس، وتعرضه عند الحاجة على الجهة المختصّة. ولا يُتخذ حفظ الوقائع ذريعةً للتجسّس أو لخرق حرمةٍ شرعية.

إنّ التوثيق وسيلةٌ مساعدة، لا شرطٌ للبدء بالمطالبة بحقّها؛ فلا تؤخّر طلب الحماية أو مراجعة الحاكم الشرعي انتظارًا حتى تجمع ملفًّا كاملًا.

ثمرة هذه المرحلة: تستطيع عرض الوقائع والحقّ الذي تطالب به بوضوح، إذا احتاجت القضية إلى تدخّل الحاكم الشرعي.

المرحلة السادسة: رفع الأمر إلى الحاكم الشرعي عند استمرار الظلم

بعد تشخيص المشكلة، ومطالبة الطرف الذي صدر منه الخلل بإصلاحه، ووضع اتفاقٍ واضح، والاستعانة بمن يصلح بين الزوجين، قد يستمرّ الزوج في هجر زوجته هجرًا كليًّا حتى تبقى كالمعلّقة، أو يمنعها حقوقها أو يؤذيها، ويرفض مع ذلك طلاقها. وقد تختار بعض النساء الصبر، ولا سيّما مراعاةً لأولادهن؛ وقد رُوي عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ:

«مَن صَبَرَتْ على سُوءِ خُلُقِ زَوْجِها، أَعْطاها مِثْلَ ثَوابِ آسِيَةَ بِنْتِ مُزاحِم»[٤٤٦]. لكنّ فضل الصبر لا يعني إلزام المظلومة بالبقاء على حالها؛ فإذا لم تُطق استمرار الظلم، فلها أن ترفع أمرها إلى الحاكم الشرعي. وقد ذكر الله تعالى الافتراق بعد آيات الصلح، فقال: ﴿وَإِنْ يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللهُ كُلًّا مِنْ سَعَتِهِ وَكَانَ اللهُ وَاسِعًا حَكِيمًا﴾[٤٤٧].

السؤال الذي ينبغي علينا طرحه هو: متى يحقّ للزوجة المطالبة بطلاق الحاكم الشرعي؟

الجواب:

إذا امتنع الزوج عن أداء حقوق زوجته ورفض طلاقها، فلها أن ترفع أمرها إلى الحاكم الشرعي؛ فيُلزمه بإعادة حقوقها ومعاشرتها بالمعروف، أو بتطليقها. فإن امتنع من الأمرين وتعذّر إلزامه، جاز للحاكم تطليقها وفق حكم حالتها. وقد بيّن السيد السيستاني (دام ظله) الحالات التي يشملها هذا الحكم، وهي كالآتي[٤٤٨]:

١. ما إذا امتنع من الإنفاق عليها ومن الطلاق، ويلحق بها ما إذا كان غير قادر على الإنفاق عليها وامتنع مع ذلك من طلاقها.

٢. ما إذا كان يؤذيها ويظلمها ولا يعاشرها بالمعروف كما أمر الله تعالى به.

٣.ما إذا هجرها تماماً فصارت كالمعلّقة، لا هي ذات زوج ولا هي خليّة.

وأمّا إذا كان لا يلبّي حاجتها الجنسيّة بصورة كاملة بحيث يخشى معه من وقوعها في الحرام، فإنّه وإن كان الأحوط لزوماً للزوج تلبية حاجتها المذكورة أو استجابة طلبها بالطلاق، إلّا أنّه لو لم يفعل ذلك فعليها الصبر والانتظار.

وهناك أمرٌ ينبغي التنبيه إليه قبل رفع الأمر إلى الحاكم الشرعي: فقد تظنّ الزوجة أنّ تقديم شكواها يكفي لتطليقها، ثم تُفاجأ بأنّ الحاكم يطلب سماع الزوج والتحقّق ممّا وقع. فكيف يتصرّف الحاكم إذا قالت الزوجة إنّ زوجها هجرها أو منعها حقوقها، وأنكر الزوج ذلك؟

الجواب:

لا يطلّق الحاكم الشرعي الزوجة بمجرد سماع شكواها، بل يستدعي الزوج ويسمع من الطرفين ويتحقق من واقع الحال. فإذا ثبت أن الزوج هجرها هجرًا كليًّا، أو منعها حقوقها، أو آذاها ولم يعاشرها بالمعروف، ألزمه بإزالة الظلم أو الطلاق بحسب مورد القضية، فإن امتنع وتعذّر إجباره، جاز للحاكم تطليقها وفق الضوابط الشرعية.

وقد ينكر الزوج كلام زوجته ويدّعي أنه ينفق عليها ويعاشرها بالمعروف. وهنا تنفع الزوجة الأدلة والقرائن التي تثبت دعواها والتي أشرنا إليها في المرحلة الخامسة، كإقرار الزوج، والرسائل، والشهود، وثبوت إقامته بعيدًا عنها، وانقطاع النفقة، وامتناعه المتكرر عن إرجاعها إلى حياة زوجية حقيقية. ويعود تقدير هذه الأدلة إلى الحاكم الشرعي.

وللوقاية من التعليق قبل وقوعه، يمكن للمرأة عند الزواج أن تشترط أن تكون «وكيلةً عن الزوج في طلاق نفسها إمّا مطلقًا أو في حالاتٍ معيّنة»،

كامتناعه عن الإنفاق عليها شهرًا أو سفره سفرًا طويلًا. ولها أيضًا أن تشترط ألّا يتزوّج عليها؛ فيلزمه الوفاء بهذا الشرط، وإن صحّ زواجه الثاني لو خالفه مع إثمه. وتحتاج صياغة هذه الشروط إلى ضبطٍ شرعي؛ لتكون لها وسيلة واضحة للخروج من الزواج إذا تحقّق ما اشترطته[٤٤٩].

وهكذا نختم محاضرتنا بالتذكير بأنّ على الزوجين تقوى الله وحفظ حقوق أحدهما الآخر، وعلى الزوج خاصّةً ألّا يُبقي زوجته معلّقة؛ امتثالًا لقوله تعالى: ﴿فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ﴾[٤٥٠]. ولا يقتصر النهي عن تعليق الزوجة على من كانت له زوجة واحدة؛ بل يشمل من تعدّدت زوجاته أيضًا، فلا يجوز له أن يميل إلى إحداهنّ ويُهمل حقوق الأخرى، كما قال تعالى: ﴿فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ﴾[٤٥١].

ولنا في أئمتنا الأطهار عليهم السلام أُسوةٌ حسنة، ومنهم الإمام الحسين عليه السلام؛ فقد تزوّج خلال حياته أكثر من امرأة، وكان شأنُه أن يرعى حقوق زوجاته بالعدل والمعروف، فلا يظلم إحداهنّ أو يتركها معلّقة.

وهذا العدل الذي يراه الأبناء في بيتهم يُعلّمهم أنّ الحقوق أمانةٌ لا يجوز الاعتداء عليها. ولا ينتهي الدرس عند حقوق الزوجة والأسرة؛ بل يمتدّ إلى حقّ الله تعالى وحقّ إمام الزمان في الطاعة والنصرة. ولنا في صاحب الذكرى، عليّ الأكبر عليه السلام، صورةُ ابنٍ تعلّم من أبيه الوفاء للحقّ؛ فوقف إلى جانب أبيه وإمام زمانه، الحسين عليه السلام، فكان أوّلَ من قدّم نفسه من أهل بيت الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ بين يديه، وبذل روحه في نصرته والدفاع عن الحقّ. فلننظر إلى ما رُوي حين استأذن أباه في القتال، فنظر إليه الحسين عليه السلام وأرخى عينيه وبكى.

فقد ذكر أرباب المقاتل انه لما قُتل أصحاب الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ ولم يبق معه إلا أهل بيته، تقدم ولده عليّ الأكبر، فاستأذنه للبراز. وكان علي الأكبر من

أصْبَحِ النـاس وجهـا وأحسـنهم خلقـا فنظـر إليـه الحسـين عَلَيْهِ السَّلَامُ نظـر آيـس وأرخـى عينيـه بالدمـوع، وأطـرق برأسـه إلى الأرض لئـلا يـراه العـدو فيشـمت بـه. وقيـل إن الإمـام قـال لـه: ولـدي عليّ إليَّ إليَّ أودعـك وتودعنـي أشـمك وتشـمني، فاعتنـق الحسـين ولـده وجعـلا يبكيـان.

(نصاري)

اويـلي مـن تلاگـو عنـد الاوداع — امشـابگ طـول لمـن هـووا للگـاع
لاع ابنـه لبيَّـه والأبـو لاع — عـلى اوليـده يويـلي اوداع الأكـشر
يشـم احسـين خـد ابنـه او يحبـه — او دمعـه مثـل دمـع ابنـه يصبـه
النـار الـلي ابگلـب ابنـه ابگلبـه — يخفِّيهـا عـلى ابنـه او نـوب تظهـر
يگلـه والدمـع بالعـين دفَّـاگ — ابعـبره امكسَّـره وابگلـب خفّـاگ
يبويـه اوداعـة الله هـذا الفـراگ — يبويـه اشـبيدنه هـذا المگـدَّر

ثـم إن الحسـين رفـع رأسـه مشـيرا بسـبابتيه إلى السـماء وقـال: اللهـم اشـهد عـلى هـؤلاء القـوم فقـد بـرز إليهـم غـلام أشـبه النـاس خَلْقًـا وخُلُقًـا ومنطقًـا برسـولك محمـد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ وكنـا إذا اشـتقنا إلى نبيـك نظرنـا إلى هـذا الغـلام، اللهـم امنعهـم بـركات الأرض وفرقهـم تفريقـا ومزقهـم تمزيقـا واجعلهـم طرائـق قـددا ولا تُـرضِ الـولاة عنهـم أبـدا فإنهـم دعونـا لينصرونـا ثـم عـدوا علينـا يقاتلوننـا. وصـاح بعمـر بـن سـعد: قطـع الله رحمـك كـما قطعـت رحمـي، ولا بـارك لـك في أمـرك، وسـلط الله عليـك مـن يذبحـك عـلى فراشـك. ثـم تـلا قولـه تعـالى: ﴿إِنَّ اللهَّ اصْطَفَى آدَمَ وَ نُوحاً وَ آلَ إِبْرَاهِيمَ وَ آلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ * ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَ اللهُّ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[٤٥٢].

فكأنـما علـم عـلي الأكـبر الرخصـة مـن أبيـه فحمـل عـلى القـوم وهـو يرتجـز ويقـول:

أنـا عـليٌّ بـنُ الحسـينِ بـنِ عـليّ نحـن وبيـتِ الله أولى بالنبـيّ
اضربكـم بالسـيف أحمي عن أبي ضربَ غـلامٍ هاشَـميٍّ علـويّ
تالله لا يحكم فينا ابن الدعي

وجعـل يقاتـل القـوم مقاتلـة الأبطـال حتـى قتـل عـلى عطشـه مائـة وعشريـن فارسًـا[٤٥٣].

قـال السـيد بحـر العلـوم: وجعـل عـلي الأكـبر يكـر على القـوم كـرة بعد كـرة حتى رُمـي بسـهم وقـع في حلقـه فخرقـه وأقبـل يتقلـب في دمـه وضربـه مـرة بـن منقـذ العبـدي بالسـيف عـلى رأسـه ثـم طعنـه بالرمـح في ظهـره وضربـه النـاس بأسـيافهم فاعتنـق الفـرس فاحتملـه الفـرس إلى معسـكر الأعـداء فقطعـوه بالسـيوف إربـا إربـا.

ولمـا أقبـل الحسـين إلى ولـده كان في طريقـه يلهـج بأعـلى صوتـه ويصيـح ويكثـر مـن قولـه: ولـدي عـلي، ولـدي عـلي، حتـى وصـل إليـه فأخـلى رجليـه معهـا مـن الـركاب ورمـى بنفسـه عـلى جسـد ولـده وأخـذ رأسـه فوضعـه في حجـره وجعـل يمسـح الـدم والـتراب عـن وجهـه وانكـب عليـه واضعـا خـده عـلى خـده وهـو يقـول: يـا بنـي قتـل الله قومـا قتلـوك....

(مجردات)

يبني وحگ امي الزهـــره بعـدك حيـاتي صفـت مـره
الفگـدك دوت بحشـاي جمره وجـروح فگـدك عيـب تـبره
يلـما بلـغ عشريـن عمـره هـذي ادموعـي اعليـك نثره

(مجردات)

والله عجب يا گرة العين نايم او يمك واجف احسين
يصفج اليسره فوگ اليمين من الوسف ويجر الونين
يعتب عليك او نوب علبين او تجري ادموعه اعله الوجنتين

(أبوذية)

راح اللي تعبت اعليه ربيت ومن گلبي عليه اهموم ربيت
گلت عندي ولد ويصير ربيت يبارينـي لمن تدنه المنيَّه

(تخميس)

بنيَّ بنار الحزنِ قلبي يصطلي عليك وأمسى خاليا منك منزلي
فانك بدرٌ في المخيم كنتَ لي وكنتُ أراني في زفافك تنجلي
همومي وريبُ الدهر خيَّب مقصدي[٤٥٤]

ليلة ١٠ محرم

أعظم الله لكم الأجر

شَهادَةُ عَبدِ اللّهِ الرَّضِيعِ (ع)

السلام على الحسين وعلى علي بن الحسين وعلى أولاد الحسين وعلى أصحاب الحسين

الليلة العاشرة من محرّم الحرام

المناسبة: شهادة عبد الله الرضيع عَلَيْهِ السَّلَامُ

القصيدة: للشيخ محمد تقي آل صاحب الجواهر

أبا صالح يا مدركَ الثارِ كم تُرى ... وغيضُك وارٍ غيرَ أنَّك كاظمُهْ

وهل يملك الموتورُ صبرا وحوله ... يروح ويغدو آمَن السربِ غارمه

أتنسى أبيَّ الضيمِ في الطفّ مفردا ... تحوم عليه للوَداع (فواطمه)

أتنساه فوق التراب منفطرَ الحشا ... تَناهبُه سمرُ الردى وصوارمه

وربَّ رضيعٍ أرضعته قِسيُّهم ... من النبل ثديا درُّه الثَرُّ فاطمه

فلهفي له مذ طوَّق السهمُ جيدَه ... كما زينتْه قبلَ ذاكَ تمائمه

ولهفي له لمّا أحسّ بحرّه ... وناغاه من طير المنيةِ حائمه

هفا لِعناقِ السبطِ مُبتسمَ اللُّما ... وداعا وهل غيرُ العِناقِ يلائمه

ولهفي على أمِّ الرضيعِ وقد دجى ... عليها الدجى والدوحُ ناحت حَمائمه

تسلّلُ بالظلماءِ ترتَادُ طفلَها ... وقَدْ نجمتْ بينَ الضحايا علائمُه

فمُذْ لاحَ سهمُ النحرِ ودّتْ لَوْ انها ... تُشاطرُهُ سَهمَ الرّدى وتُساهمُه

بني لقَدْ كنتَ الأنيسَ لوحشتي ... وسلواي إذ يسطُو مِن الهمِ غائمُه (٤٥٥)

(تجليلة)

أنـوح اعليـك يبني مـن ينـوح اويـاي — والويـاي بلواهـن مثـل بلـواي
أنـوح اعليـك مـدري آنـوع وياهـن — او بلواهـن مثـل بلـواي بلواهـن
ما هـن هـل مصايـب ما جـرن ما هن — ما هـن ما سـمعنه ابهـل مصايـب هـاي
مـاني أمـك يعبـد انطفـت عينـي — يـا ظيهـا العـلى دربي يجدّينـي
سـهم الصابـك الماذيـك ماذينـي — ابنحـرك مـا نبـت يبنـي نبـت بحشـاي
بحشـاي او فطـر گلبـي او مـرد چبدي — عـگلي طـارل منـي او صـبر مـا عنـدي
يبنـي يـا دليـلي او يـا نجـم سـعدي — يـا زينـة حيـاتي او زهـرتي ابدنيـاي[٤٥٦]

موضوع المحاضرة العاشرة:

كيف نصادق أولادنا؟

روي عَنْ الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ:

﴿ دَعِ اِبْنَكَ يَلْعَبُ سَبْعَ سِنِينَ، ويؤدّب سبعاً، وَأَلْزِمْهُ نَفْسَكَ سَبْع سنين، فَإِنْ أَفْلَحَ وَ إِلاَّ فإنه من لا خَيْرَ فيهِ ﴾(٤٥٧).

المبحث الأول: الأساس التربوي لمصادقة الأولاد

المطلب الأول: المنهج التربوي للأولاد

ترسم النصوص الواردة عن أهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ منهجًا تربويًا يراعي مراحل نمو الولد ومتطلبات كل مرحلة، كما يتضح من الحديث المتقدم.

فالسبع الأولى يغلب عليها اللعب؛ لأن الطفل ما زال في طور النمو العقلي والانفعالي، فلا يصح أن نعامله معاملة الكبير.

وفي السبع الثانية يغلب التأديب، والمقصود به التربية والتعليم والتهذيب، وتعليمه عقيدته وأحكام دينه وآدابه، وتعويده تدريجيًا على الواجبات وتحمل المسؤولية، لا القسوة والعقوبة.

أما السبع الثالثة، فيقول الإمام عَلَيْهِ السَّلَامُ فيها: «وَأَلْزِمْهُ نَفْسَكَ»، فينتقل الأسلوب التربوي إلى المصاحبة والقرب والاحتواء، ويجعل المربي ولده مشاركًا له، بدل الاقتصار على لغة الأمر والسلطة.

ولا تبدأ مصادقة الولد في مرحلة المراهقة، بل تُبنى منذ طفولته، ثم تزداد الحاجة إليها كلما اقترب منها. ولذلك سيتركز حديثنا على هذه المرحلة؛ لأن التعامل مع الأولاد يصبح فيها أكثر صعوبة.

فقد يظهر من المراهق العناد، أو رفع الصوت، أو كثرة الاعتراض، أو الرغبة في الاستقلال والتجربة، وقد يدفعه الفضول أو ضغط الأصدقاء إلى بعض السلوكيات المحرمة أو الخطرة، كالتدخين، أو تعاطي المخدرات والمسكرات، أو مشاهدة المواد الإباحية، أو الدخول في علاقات غير مشروعة. ولا يعني ذلك أن كل مراهق يمر بهذه السلوكيات، وإنما أن هذه المرحلة تحمل تحديات جديدة تحتاج إلى أسلوب تربوي يناسبها.

وقد ازدادت التربية صعوبة في زماننا؛ لأن الأسرة لم تعد المؤثر الوحيد في الولد، بل يشاركها الأصدقاء والمدرسة والإعلام ومواقع التواصل والمجتمع، ويظهر ذلك بصورة أوضح في بلاد المهجر. ولذلك تحتاج الأسرة والمراكز الدينية إلى مضاعفة جهودها في تحصين الناشئة وتربيتهم تربية إسلامية صالحة.

فالتربية ليست إنجابًا وتوفيرًا للطعام والسكن فقط، وإنما تحتاج إلى علم ووقت ومتابعة ومهارة؛ فإذا كان الإنسان يحتاج إلى التعلم والتدريب قبل قيادة السيارة، فتربية الإنسان أولى بالتعلم والتأهيل.

لذلك ينبغي للمربي أن يجمع بين الحزم والرحمة، والتوجيه والقرب، من غير قهر أو قسوة؛ فقد روي عن أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ: «لا تقسروا أولادكم على آدابكم؛ فإنهم مخلوقون لزمان غير زمانكم».[٤٥٨] و«لا تقسروا» تعني: لا تحملوهم على ما تريدون بالإكراه والقهر والشدة.

فالحل ليس في ترك التربية ولا في فرضها بالقوة، وإنما في تطوير أسلوب المربي بما يمكّنه من توجيه ولده والتأثير فيه، مع المحافظة على قربه منه. وهذا يقودنا إلى أهمية مصادقة الأولاد.

المطلب الثاني: لماذا ينبغي أن نصادق أولادنا؟

من المشكلات التي تتكرر في الحالات الاستشارية شكوى الآباء والأمهات من شدة تأثر أولادهم بأصدقاء السوء؛ فتقول الأم مثلًا: كان ابني ملتزمًا بصلاته فتغيّر بسبب أصدقائه، أو كانت ابنتي ملتزمة بحجابها فتأثرت بصديقاتها، أو كان ولدي يستجيب لتوجيهي ثم تغيّر بعد مصاحبته لبعض الأصدقاء.

ومن هنا، لا بدّ من الوقوف عند سؤالٍ مهمّ:

لماذا يتأثر أولادنا بأصدقائهم أكثر منا؟ وكيف نجعل تأثير المربي أقوى من تأثير أصدقاء السوء؟

حين ينتقل الولد إلى مرحلة المراهقة يميل تدريجيًا إلى الاستقلال عن أسرته، وتوسيع دائرة علاقاته والانتماء إلى جماعة أقرانه؛ فيزداد قربه من أصدقائه وتأثره بآرائهم وسلوكهم.

كما أن الصداقة من أقوى العلاقات تأثيرًا في الإنسان؛ فقد روي عن أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ: «الْأَصْدِقَاءُ نَفْسٌ وَاحِدَةٌ فِي جُسُومٍ مُتَفَرِّقَةٍ».[٤٥٩] وروي عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «الْمَرْءُ عَلَى دِينِ خَلِيلِهِ، فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ مَنْ يُخَالِلُ»[٤٦٠]. فالمراهق يقضي مع صديقه وقتًا، ويبوح له بأسراره، ويستمع إلى رأيه، ويشعر بأنه يفهمه ويقبله؛ ولذلك يقوى تأثيره في أفكاره وسلوكه.

ولكن ماذا لو أصبح الأب ـ إلى جانب أبوته ـ صديقًا مقرّبًا لولده؟ وماذا لو أصبحت الأم ـ إلى جانب أمومتها ـ صديقة ثقة لابنتها؟

عندئذ تجتمع قوة الأبوة أو الأمومة مع قوة الصداقة، فتزداد قدرة المربي على التأثير في ولده. فإذا أردنا أن ننافس تأثير أصدقاء السوء، فلا يكفي أن نمنع أولادنا منهم، بل ينبغي أن نسعى إلى أن نكون من أقرب الناس إليهم وأكثرهم ثقةً وتأثيرًا فيهم. وقد أشارت النصوص الإسلامية إلى ذلك؛ فروي عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «لاعب ابنك سبعًا، وأدبه سبعًا، وصاحبه سبعًا»[٤٦١]. وروي عنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ أيضًا: «الولد سيد سبع سنين، وعبد سبع سنين، ووزير سبع سنين»[٤٦٢]. وتعبير «الوزير» يشير إلى المصاحبة والقرب؛ فالوزير قريب من صاحبه، يشاركه ويُستمع إلى رأيه.

ولكن السؤال الأهم هو: أي صديق ينبغي أن نكون لأولادنا؟

فالصداقة درجات؛ فقد روي عن أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ: «الإِخْوَانُ صِنْفَانِ: إِخْوَانُ الثِّقَةِ، وَإِخْوَانُ الْمُكَاشَرَةِ»[٤٦٣].

وإخوان المكاشرة[٤٦٤] هم أصدقاء المجاملة الذين لا تبلغ علاقتهم درجة إيداع الأسرار، أما إخوان الثقة فهم المقربون الذين نطمئن إليهم، ونأتمنهم على أسرارنا، ونقبل نصحهم ونرجع إليهم عند الحاجة.

لذلك لا يكفي أن يكون المربي صديق مجاملة لولده، وإنما ينبغي أن يسعى ليصبح صديق ثقته؛ لأن الولد إذا لم يجد عند والديه القرب والأمان، فقد يبحث عنهما عند غيرهما.

وهنا يغيّر المربي زاوية نظره إلى المشكلة؛ فبدل أن يسأل دائمًا: كيف أغيّر ولدي؟ يسأل نفسه أيضًا: ما الذي ينبغي أن أغيّره في أسلوبي حتى أستطيع التأثير فيه؟ قال تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾[٤٦٥].

ومن أهم ما ينبغي أن يتعلمه المربي: كيف يضيف إلى أبوته أو أمومته صداقة حقيقية، ويرتقي بعلاقته مع ولده إلى مرتبة صديق الثقة؟ وهذا ما سنتعرف عليه في المبحث الآتي:

المبحث الثاني: عشر قواعد لكسب صداقة ولدك

ذكرنا أن من أهم وسائل تقوية تأثير المربي في أولاده أن يبني معهم علاقة صداقة حقيقية، ويسعى إلى أن يكون من أقرب أصدقاء الثقة إليهم.

وقد يقول بعض المربين: أنا أتعامل مع ولدي كأنني صديق له، ومع ذلك لا يتأثر بي!

وحين يُسأل: هل توجه إليه الأوامر باستمرار؟ وهل تصرخ في وجهه أو تهينه أحيانًا؟ قد يجيب: نعم؛ لأنه لا يسمع كلامي. وهنا تكمن المشكلة؛ فالرغبة في مصادقة الولد لا تكفي ما لم يكن سلوك المربي معه سلوك صديق الثقة. فلو أن صديقك المقرّب صرخ في وجهك أو أهانك وسخر منك، فهل ستبقيه في هذه المنزلة؟

كذلك لا يمكن أن نفرض على أولادنا أن يجعلونا من أقرب أصدقائهم؛ لأن الثقة والصداقة الحقيقية لا تُفرضان، وإنما تُكتسبان.

ولا تعني مصادقة الولد أن يتخلى الأب أو الأم عن مسؤوليتهما التربوية، أو يعاملاه معاملة الصديق المساوي لهما في جميع الصلاحيات؛ فالوالدان مسؤولان عن توجيهه وحمايته، وأمره بالواجب ونهيه عن الحرام، ووضع الحدود المناسبة لسنه. وإنما تعني المصادقة أن يضيفا إلى هذه المسؤولية القرب والمحبة والثقة والحوار والاحترام؛ فيكونان والدين يربيانه، وصديقين يأمن إليهما ويصارحهما بما يمر به.

ومن هنا نضع «قاعدة المعاملة بالمثل»، وهي: «ما لا أقبله من صديقي المقرّب من إهانة أو سخرية أو قسوة أو خيانة للثقة، لا أمارسه مع ولدي الذي أريد صداقته». ولا تشمل هذه القاعدة ما تقتضيه التربية من توجيه ومتابعة ومحاسبة ووضع للحدود؛ فالصداقة لا تلغي مسؤولية الوالدين، وإنما تهذّب الأسلوب الذي يؤديان به هذه المسؤولية.

وقد أرشد أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى هذا المبدأ في وصيته لابنه الإمام الحسن عَلَيْهِ السَّلَامُ، فقال:

«يا بُنَيَّ، اجعل نفسك ميزانًا فيما بينك وبين غيرك، فأحبب لغيرك ما تحب لنفسك، واكره له ما تكره لها».[٤٦٦] فقبل أن يمارس المربي قولًا أو فعلًا مع ولده، يسأل نفسه: هل أقبل أن يعاملني به شخص مقرّب مني؟

والمعيار الحقيقي ليس أن يقول المربي: أنا صديق لولدي، وإنما أن يسأل:

كيف يراني ولدي؟ هل يراني موضعًا للثقة والأمان، أم لا يلجأ إليَّ إلا عند الضرورة؟ فصديق الثقة يتصف بالصدق والأمانة، وحفظ السر، والنصيحة المخلصة، والمحبة الصادقة، والوقوف مع صديقه عند الحاجة.

ولكن كيف أعرف أن علاقتي بولدي بلغت مرتبة صديق الثقة؟

يمكن للمربي أن يستعين بالقواعد العشر الآتية في مراجعة علاقته بولده، فيمنح نفسه في كل قاعدة درجة تقريبية من صفر إلى عشر، بحسب ما يراه من مدى تطبيقه لها. وهذا التقويم ليس اختبارًا علميًا ولا حكمًا نهائيًا على العلاقة، وإنما وسيلة للمراجعة الذاتية؛ تساعده على معرفة ما يحسنه، وما يحتاج منه إلى تطوير وإصلاح. وبذلك تتحول عبارة «صادق ولدك» إلى قواعد عملية يتعلمها المربي ويتدرب عليها، حتى يرتقي بعلاقته مع ولده إلى صداقة الثقة.

القاعدة الأولى: صاحِب ولدك

والمقصود بهذه القاعدة أن يخصص المربي لولده وقتًا، ويكون قريبًا منه في حياته اليومية، لا في أوقات المشكلات والمحاسبة فقط.

لنطبّق «قاعدة المعاملة بالمثل» على صحبة أولادنا: إذا كنا نحب من صديقنا

المقرّب أن يحرص على صحبتنا ومشاركتنا وقته، وننزعج إذا تجنب صحبتنا وفضّل غيرنا علينا، فعلينا أن نعامل أولادنا بالمثل.

فقد تقدم قول رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «... وصاحبه سبعًا». والصحبة في اللغة تعني الملازمة والمرافقة والمعاشرة؛ فلا تتحقق الصداقة بمجرد الحب أو القرابة، بل تحتاج إلى وقت مشترك وتواصل مستمر.

فليحرص المربي على أن يصاحب ولده في حياته اليومية: يجلس ويتحدث معه، ويأكل معه، ويشرب معه الشاي أو القهوة، ويخرج معه للتسوق أو المشي، ويصطحبه في زيارة الأقارب والأصدقاء، وإلى المسجد ومجالس أهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ وزيارة مراقدهم، وغيرها من المناسبات. وكذلك تحرص الأم على تخصيص وقت لابنتها، والخروج معها، والقرب منها في حياتها اليومية.

ولا ينبغي أن تكون لقاءات المربي بولده مقتصرة على الأوامر والأسئلة من قبيل: «صلِّ، ادرس، اترك الهاتف، لماذا تأخرت؟»؛ لأن الولد إذا لم يجد المربي إلا عند الأمر والنهي والمحاسبة، فقد يرتبط وجوده في ذهنه بالضغط والتوتر بدل الأنس، فيبتعد عنه ولا يرغب في مصاحبته.

وقد يحرم بعض المربين أولادهم من هذه الصحبة بسبب الانشغال؛ فتعود الأم مثلًا متعبة من عملها، ويحاول ولدها أن يحدثها أو يطلب منها الخروج معه، فتجيبه: «أنا متعبة، ليس لدي وقت لك الآن». وإذا تكرر ذلك، فقد يتوقف عن المحاولة، ويأكل وحده، ويخرج وحده، ثم يبحث عند أصدقائه عمن يسمعه ويعوّضه عن الصحبة التي افتقدها في بيته.

ومن هنا، فإن رفض الولد المتكرر لمصاحبة المربي قد يكون مؤشرًا يحتاج إلى الانتباه؛ فقد يدل على وجود مسافة بينهما أو ضعف في علاقة الصداقة، وإن لم يكن ذلك دليلًا قاطعًا بمفرده.

فالقاعدة العملية هي: لا تنتظر ولدك حتى يأتي إليك؛ اصنع أنت فرص الصحبة معه، واجعل لك نصيبًا من وقته الجميل، لا من وقت مشكلاته فقط.

القاعدة الثانية: أظهر محبتك لولدك

والمقصود بهذه القاعدة ألا تبقى محبة الولد في قلب المربي، بل يُظهرها له بالكلمة والتقبيل والاحتضان وسائر صور التعبير عن المحبة.

لنطبّق «قاعدة المعاملة بالمثل» على المحبة: إذا كنا نرغب في أن يُظهر صديقنا المقرّب مودته لنا، فعلينا ألا نكتفي بمحبة أولادنا في قلوبنا، بل نظهرها لهم حتى يشعروا بأنهم محبوبون.

وقد روي عن الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ: «وسُمّوا أصدقاء لأنهم تصادقوا حقوق المودة».[٤٦٧] وعبّر العلامة الطباطبائي عن المودة بأنها «الحب الظاهر أثره في مقام العمل»[٤٦٨]؛ فالمحبة تكون في القلب، أما المودة فتظهر في السلوك، قال تعالى: ﴿قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾[٤٦٩].

لذلك لا يكفي أن يقول المربي: ومَن منا لا يحب أولاده؟ بل يسأل نفسه: هل أُظهر محبتي بطريقة تجعل ولدي يشعر بأنه محبوب؟ فيعبّر عنها بالتقبيل والاحتضان والابتسام والهدية والكلمات الطيبة، كأن يقول: «حبيبي، قرة عيني، أنت عزيز عليَّ، وأنا سعيد بوجودك في حياتي».

لكن بعض المربين يحبون أولادهم ولا يوصلون إليهم هذه المحبة؛ فلا يسمع الولد كلمات الحب والتقدير، بينما يسمع باستمرار: «افعل، لا تفعل، صلِّ، ادرس، اترك الهاتف، لماذا أخطأت؟». وهكذا قد يكون قلب المربي ممتلئًا بالحب، بينما تصل إلى الولد رسالة معاكسة: «أبي أو أمي لا يحبني».

ولنا في رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ قدوة حسنة في إظهار المحبة؛ فقد عبّر عنها بالكلمة، فقال في ابنته فاطمة عَلَيْهَا السَّلَامُ: «فاطمة بضعة مني، وهي نور عيني، وهي ثمرة فؤادي، وهي روحي التي بين جنبي».[٤٧٠] وعبّر عنها بالفعل؛ فقد روي أنه كان يقبّل الحسنين عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، فقال له الأقرع بن حابس: «إنّ لي عشرةً من الولد ما قبّلت أحدًا منهم»، فقال رسول الله

صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «مَـن لا يَرحـم لا يُرحـم»[٤٧١].

وقد يقال: كيف أُظهر محبتي لولدي وهو يرتكب الحرام أو يصرّ عليه؟ ألا يتعارض ذلك مع إظهار الكراهة للمعصية؟

لا تعارض بين الأمرين؛ فالمربي يحب ولده ولا يرضى بمعصيته، فيقول له: «أنا أحبك وأنت عزيز عليَّ، لكنني غير راضٍ عن هذا السلوك؛ لأنه لا يرضي الله تعالى». وبذلك يفرّق بين محبة الولد والرضا عن فعله، فلا يسحب محبته منه أو يجعلها وسيلة لابتزازه بقوله: «إذا فعلت ذلك فلن أحبك».

ولا تعني المحبة التساهل مع الحرام؛ فقد نص السيد السيستاني على وجوب إظهار الكراهة قولًا أو فعلًا عند ترك الواجب أو فعل الحرام، مع مراعاة الضوابط الشرعية للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، مستشهدًا بقول أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ:

«أمرنا رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ أن نلقى أهل المعاصي بوجوه مكفهرة»[٤٧٢].

لذلك ينكر المربي السلوك الخاطئ بالأسلوب الشرعي الأكثر تأثيرًا والأقل تنفيرًا.

وقد ورد عن الإمام الكاظم عَلَيْهِ السَّلَامُ في تأديب الولد: «لا تضربه، واهجره ولا تُطل»[٤٧٣]؛ فالهجر وسيلة مؤقتة للإصلاح عند تأثيره، لا للانتقام أو إذلال الولد.

فالخلاصة: أظهر محبتك لولدك، ولا تُظهر الرضا عن خطئه؛ أحبّه، وأنكر معصيته، واختر لإصلاحه الأسلوب الذي يحفظ قربه منك ويعينه على الرجوع إلى الصواب.[٤٧٤]

القاعدة الثالثة: كن قدوةً لولدك

والمقصود بهذه القاعدة أن يرى الولد القيم التي يسمعها من والديه مطبّقةً في سلوكهما.

لنطبّق «قاعدة المعاملة بالمثل» على القدوة: إذا كان صديقنا ينصحنا بالصدق وهو يكذب، ويطالبنا بالأمانة والوفاء وهو يخون ويخلف وعده، فإن كلامه يفقد أثره وتضعف ثقتنا به. وكذلك أولادنا؛ فلا يكفي أن نحدثهم عن القيم، بل ينبغي أن يروها في سلوكنا.

فالولد يتعلم مما يراه ويعيشه، لا مما يسمعه فقط. والقدوة العليا للمسلم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، قال تعالى:

﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾[٤٧٥]، ومن بعده أهل بيته عَلَيْهِمُ السَّلَامُ .

وفي الأسرة، يكون الأب والأم أقرب النماذج إلى الولد؛ فيلاحظ صدقهما وأمانتهما وعبادتهما وتعاملهما مع الآخرين، ثم يحاكيهما، ولا سيما في سنواته الأولى. فقد يشتكي المربي قائلًا: «ولدي يكذب»، أو: «ابنتي لا تفي بوعدها»، ثم يتبين أن هذا السلوك موجود في البيت. وهنا عليه ألا ينشغل بإصلاح ولده وحده، بل يسأل نفسه: هل يتعلم هذا السلوك مني؟

وقد لخّص أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ هذا المعنى بقوله: «مَنْ نَصَبَ نَفْسَهُ لِلنَّاسِ إِمَامًا، فَلْيَبْدَأْ بِتَعْلِيمِ نَفْسِهِ قَبْلَ تَعْلِيمِ غَيْرِهِ، وَلْيَكُنْ تَأْدِيبُهُ بِسِيرَتِهِ قَبْلَ تَأْدِيبِهِ بِلِسَانِهِ...»[٤٧٦].

ولا يعني ذلك أن يكون المربي معصومًا من الخطأ، بل أن يجاهد نفسه، وإذا أخطأ اعترف بخطئه وأصلحه. فإذا أراد ولدًا صادقًا، فليجد الصدق فيه، وإذا أراده وفيًّا بوعده، فلا يخلف وعده له من غير عذر، وإذا أراده محافظًا

على الصلاة، فليجد للصلاة مكانًا حقيقيًا في حياته. وقد روي عن الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ: «لَا تَنْظُرُوا إِلَى طُولِ رُكُوعِ الرَّجُلِ وَسُجُودِهِ... وَلَكِنِ انْظُرُوا إِلَى صِدْقِ حَدِيثِهِ وَأَدَاءِ أَمَانَتِهِ»[٤٧٧]. فالولد يختبر صدق والديه في المواقف؛ فلا يقل له المربي: «قل لي الحقيقة ولن أعاقبك»، ثم يعاقبه إذا اعترف؛ لأنه بذلك يعلّمه ألا يطمئن إلى كلامه مرة أخرى.

وقد ذم الله تعالى التناقض بين القول والعمل فقال: [يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ][٤٧٨].

فالقاعدة العملية هي: لا تكتفِ بتعليم ولدك القيم بلسانك؛ بل اجعله يراها في سيرتك.

القاعدة الرابعة: اضبط غضبك

المقصود بهذه القاعدة ألا يسمح المربي لغضبه بأن يحوّل تصحيح الخطأ إلى صراخ أو إهانة تقطع ثقة الولد به.

لنطبّق «قاعدة المعاملة بالمثل» على الغضب: إذا كنا لا نختار صديقًا يثور علينا ويهيننا كلما أخطأنا، فعلينا ألا نجعل غضبنا سببًا في ابتعاد أولادنا عنا أو خوفهم من مصارحتنا بأخطائهم وأسرارهم، ولا سيما عند اكتشاف خطأ أو فعل محرم.

فلو جاءت فتاة إلى أمها وصارحتها بأن شابًا تواصل معها عبر مواقع التواصل، فانخدعت بكلامه، وتبادلت معه كلامًا غزليًا محرمًا، وأرسلت إليه صورتها، فكيف تتصرف الأم؟

قد تثور الأم وتبدأ بالسب والتوبيخ والصراخ: «أنعل هيچي منچ! يا مستهترة! إنتِ مو متربية؟ شلون تسوين هيچي؟»، ثم تفرض عليها العقوبة. وهنا قد لا تتعلم البنت ترك الخطأ بقدر ما تتعلم إخفاءه عن أمها، فتقول:

«التوبة! بعد ما أحجي لأمي بأسراري!».

وقد تلجأ بعد ذلك إلى صديقاتها، وربما إلى صديقات السوء، فتجد من يشجعها ويقول: «هل يحبك؟ ولماذا لا تقابلينه؟ لا تهتمي بكلام أمك!». وهكذا تغلق الأم بابًا كان يمكن أن تدخل منه إلى حياة ابنتها، وتفتح المجال لتأثير الآخرين فيها.

وقد يقول المربي: فما الحل؟ هل أوافق على سلوكها المنحرف وأشجعها عليه؟

الجواب: ليس أمامنا خياران فقط: إما الغضب والإهانة، وإما الرضا عن السلوك المنحرف؛ وإنما هناك طريق ثالث يجمع بين الرفق والحزم: نرفض المعصية بوضوح ونعالجها بالحكمة والأسلوب المؤثر. قال تعالى: ﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ﴾[٤٧٩].

وقال تعالى مخاطبًا نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ: ﴿ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ﴾[٤٨٠].

وقد روي عن أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ: «لا أدب مع غضب»[٤٨١]؛ لأن الغضب قد يحوّل التأديب من إصلاح إلى صراخ وإهانة. فإذا اشتد غضب المربي، توقف حتى يهدأ، ثم عالج الخطأ بحزم من غير إساءة.

أما وسائل ضبط الغضب، كإيقاف الرد وتأجيل المواجهة وتغيير المكان وتهدئة الجسد، فقد فُصّلت في المحاضرة السابقة المعنونة بـ«كيف نتحكم بالغضب؟» في هذا الجزء من الكتاب.

ومن النماذج الجميلة ما روي أن شابًا أتى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ فقال: «يا رسول الله، ائذن لي بالزنا»، فزجره بعض الحاضرين، أما رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ فلم يقابله بالغضب أو الإهانة، بل قرّبه وسأله: «أتحبه

لأمـك؟» قـال: لا والله.

فقـال: «ولا النـاس يحبونـه لأمهاتهـم»، ثـم سـأله عـن ابنتـه وأختـه وعمتـه وخالتـه، وكان الشـاب يجيـب بالنفـي. ثـم وضـع النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ يـده عليه ودعـا لـه: «اللهـم اغفـر ذنبـه، وطهّـر قلبـه، وحصّـن فرجـه»، فلـم يكـن الفتـى بعـد ذلـك يلتفـت إلى ذلـك.[٤٨٢]

فرسـول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ أنكـر الفعـل المحـرم، لكنـه لم يُهـن صاحبـه؛ بـل ضبـط الموقـف، وخاطـب عقلـه، وحـاوره برفـق، وفتـح أمامـه بـاب الإصـلاح.

وهكـذا يمكـن لـلأم أن تقـول لابنتهـا: «ابنتـي، مـا فعلتِـه خطـأ وحـرام، وأنـا غـير راضيـة عنـه، لكننـي سـعيدة لأنـك صارحتنـي. تعـالي نفكـر كيـف نعالـج المشـكلة قبـل أن تتفاقـم».

ثـم تحذرهـا مـن أن العلاقـات غـير الشرعيـة قـد تبـدأ بـكلام جميـل، ثـم تتطـور إلى طلـب الصـور أو فتـح الكاميـرا أو اللقـاء، وقـد تنتهـي بالابتـزاز والتهديـد. وبذلـك تنكـر الأم المنكـر، وتحمـي ابنتهـا، وتحافـظ عـلى ثقتهـا بهـا.

وإلى جانـب ضبـط الغضـب والتوجيـه، يدعـو المـربي لولـده، ويتوسـل إلى الله تعـالى برسـوله وأهـل بيتـه عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، ويسـأله صلاحـه وحفظـه مـن الحـرام، قـال تعـالى: ﴿ يَـا أَيُّهَـا الَّذِيـنَ آمَنُـوا اتَّقُـوا اللهَ وَابْتَغُـوا إِلَيْـهِ الْوَسِـيلَةَ ﴾[٤٨٣].

أمـا إذا ضبـط المـربي غضبـه وحـاور ولـده، ولكنـه بقـي مـصرًّا عـلى المعصيـة، فيرجـع إلى مـا تقـدم في القاعـدة الثانيـة عـن كيفيـة التعامـل معـه؛ تجنبًـا لتكـراره هنـا.

القاعدة الخامسة: حاور ولدك بالحكمة والرفق

المقصود بهذه القاعدة أن يكون الحديث مع الولد أخذًا وعطاءً لفهم أفكاره ومشاعره وأسئلته، ثم مخاطبة عقله وقلبه بما يناسبه.

لنطبّق «قاعدة المعاملة بالمثل» على الحوار: كما نحب من صديقنا أن يستمع إلينا ويحاورنا بهدوء، ينبغي أن نمنح أولادنا فرصة للتعبير عن أفكارهم ومشاعرهم؛ فالحوار يقرب المربي من ولده ويعينه على فهمه وكسب ثقته. ولا يقتصر على وقت الخطأ، بل يشمل الحديث عن حياته واهتماماته ومشكلاته والإجابة عن أسئلته وشبهاته، حتى لا تصبح العلاقة سلسلة من الأوامر والمحاسبة.

وقد رسم القرآن منهج الحوار بقوله تعالى: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾[٤٨٤].

وذكر العلامة الطباطبائي أن الحكمة فُسّرت بـ«إصابة الحق بالعلم والعقل»[٤٨٥]، وأن الموعظة هي «البيان الذي تلين به النفس ويرق له القلب»[٤٨٦]؛ فالحكمة تخاطب العقل وتقنعه، والموعظة الحسنة تخاطب القلب وتحركه.

ومن الحكمة أن نفهم سبب المشكلة، ونبيّن الدليل، ونجيب عن الشبهة بما يناسب فهم الولد. فلا نقول للفتاة فقط: «تحجبي؛ لأن الحجاب واجب»، بل نبيّن لها دليله وحكمته وأهدافه، ونجيب عن أسئلتها وشبهاتها.

كذلك لا نكرر للابن الذي لا يصلي: «صلِّ، لماذا لا تصلي؟»، بل نفهم السبب: هل لديه شبهة؟ أم لا يعرف أهمية الصلاة؟ أم يؤمن بوجوبها ولكن يغلبه الكسل والانشغال؟ فإذا كانت لديه شبهة احتاج إلى حوار يخاطب عقله، وإذا كان مقتنعًا ولكنه ضعيف الدافع احتاج إلى موعظة تحرك قلبه، كأن يقال له: «أعطانا الله أربعًا وعشرين ساعة، وطلب منا دقائق نقف فيها

بين يديه؛ فلا تجعل الهاتف أو النوم أحب إليك من نداء ربك».

وحتى ينجح الحوار مع الولد، ينبغي مراعاة الضوابط الآتية:

١. اجعل الحوار أخذًا وعطاءً. استمع إلى ولدك ولا تحوّل الحديث إلى محاضرة طويلة. فإذا قال: «أنا أكره المدرسة»، فلا تتعجل في وعظه، بل اسأله: «لماذا؟ هل حدث شيء؟». فالاستماع لا يعني الموافقة، وإنما فهمه قبل توجيهه، وقد يكون دليل واحد مقنع أنفع من حجج كثيرة.

٢. ناقش الفكرة ولا تُهن صاحبها. لا تقل: «أنت لا تفهم»، أو: «هذا تفكير سخيف»، بل قل: «هذه الفكرة فيها إشكال»، أو: «تعال ننظر إليها من جهة أخرى»؛ لأن الإهانة تدفع الولد إلى إخفاء أفكاره بدل عرضها ومناقشتها.

٣. اجعل كلامك مقنعًا، لا مجرد أوامر. كلما تقدم الولد في العمر احتاج إلى فهم الأسباب والأدلة. وإذا سألك عما لا تعرفه، فقل: «سأبحث عن الجواب»، وارجع إلى أهل الاختصاص والمصادر الموثوقة.

٤. اختر الحالة والوقت والمكان المناسبين. لا تبدأ حوارًا حساسًا والولد غاضب أو مرهق، ولا تناقش أخطاءه أمام الآخرين. وإذا احتد النقاش، فأجّله حتى يهدأ الطرفان، كما تقدم في قاعدة ضبط الغضب.

٥. راعِ عمره ومستوى فهمه. فلا نخاطب ابن السابعة كما نخاطب ابن السَابعة عشرة، بل نختار الكلمات والأمثلة والأدلة المناسبة له.

٦. ناقش المشكلة الحالية. لا تحوّل الحوار إلى محاكمة للماضي، ولا تقل: «أنت دائمًا هكذا»، أو تجمع أخطاءه السابقة؛ لأن ذلك يدفعه إلى الدفاع عن نفسه بدل معالجة المشكلة.

فالقاعدة العملية هي: حاور ولدك بطريقة تجعله يشعر بأنك تفهمه وتحترم عقله، ويرغب معها في العودة إليك والتحدث معك مرة أخرى.

القاعدة السادسة: كن ناصحًا لولدك

والمقصود بهذه القاعدة ألا يجامل المربي ولده على حساب مصلحته، بل يبيّن له الخطأ والخطر بصدق ومحبة.

لنطبّق «قاعدة المعاملة بالمثل» على النصيحة: إذا كنا ننتظر من صديقنا المقرّب أن ينصحنا عندما يرى منا خطأً أو أمرًا يضرنا، ونحزن إذا رآنا نسير نحو الضرر ثم سكت، فعلينا أن نعامل أولادنا بالمثل؛ فصديق الثقة لا يجامل صديقه على حساب مصلحته، وإنما ينصحه بصدق ومحبة.

فلو كنت نائمًا، ورأى صديقك خطرًا يقترب منك، كالعقرب أو النار، وهو يستطيع تحذيرك منه، ثم تركك ولم يخبرك، فإنك ستتألم من موقفه وتقول: كيف رأيت الضرر مقبلًا عليَّ ولم تحذرني؟ وكذلك من يرى صديقه يرتكب فعلًا محرمًا أو يسلك طريقًا يضرّه في دينه أو دنياه، فإن مقتضى الصداقة الصادقة أن ينصحه ولا يتركه.

وقد روي عن أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ: «إنما سُمّي الصديق صديقًا؛ لأنه يصدقك في نفسك ومعايبك، فمن فعل ذلك فاستنم إليه؛ فإنه الصديق».[٤٨٧] والمقصود بـ «استنم إليه»: اطمئن إليه واعتمد عليه؛ لأنه لم يخدعك بالمجاملة، بل صدقك فيما ينفعك.

ومن هنا، فالمربي الذي يريد أن يكون من أصدقاء الثقة لولده لا يتركه عند الخطأ بحجة المحافظة على صداقته؛ فمصادقة الولد لا تعني مجاملته على الحرام أو السكوت عما يضرّه، وإنما تعني أن ننصحه لأننا نحبه ونريد له الخير.

قد يقول المربي: نصحت ولدي مرارًا، ولكنه لم يقبل نصيحتي، فما الفائدة؟

الجواب: قد يرفض الولد النصيحة لأنه يعرف الحق ويعاند، أو لأن شهوته تغلبه، أو بسبب تأثره ببيئته وأصدقائه، وقد يكون الخلل أحيانًا في طريقة

تقديم النصيحة نفسها. فالنصيحة الصحيحة إذا قُدمت في صورة أوامر متكررة، أو صاحبها التجريح والإهانة، أو قُدمت في وقت غير مناسب، فقد ينفر منها الولد بدل أن ينتفع بها.

ولهذا ينبغي تقديم النصيحة وفق ضوابط الحوار التي تقدم بيانها في القاعدة الخامسة؛ فتكون بالحكمة والرفق، وفي الوقت والأسلوب المناسبين، من غير أن نعيد هنا ما تقدم تفصيله.

ولا ينبغي أن تتحول النصيحة إلى محاضرة تتكرر كل يوم بالطريقة والعبارات نفسيهما؛ لأن كثرة التكرار قد تُفقد الكلام أثره، وتدفع الولد إلى الإعراض عنه قبل أن يسمعه. فإذا لم تنفع طريقة، بحث المربي عن طريقة أخرى أقرب إلى قلب ولده وعقله.

فالقاعدة العملية هي: لا تسكت عن خطأ ولدك، ولا تجرحه وأنت تصححه؛ بل انصحه بصدق ومحبة، واختر لنصيحتك الكلمة والأسلوب والوقت الذي يجعلها أقرب إلى القبول.

القاعدة السابعة: اهتم بولدك

المقصود بهذه القاعدة أن يلاحظ المربي حاجات ولده وأحواله وما يطرأ عليه من تغير، ثم يساعده عند الحاجة.

لنطبّق «قاعدة المعاملة بالمثل» على الاهتمام: إذا كان صديقنا المقرّب لا يسأل عنا ولا يبالي بما يفرحنا أو يؤلمنا، فستضعف منزلته في نفوسنا. وكذلك أولادنا؛ فلا يكفي أن نحبهم، بل ينبغي أن يجدوا ما يدل على اهتمامنا بهم. وقد روي عن أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ: «مَنِ اهتمَّ بك فهو صديقك»[٤٨٨]؛ فالاهتمام يظهر في متابعة حال الولد، وملاحظة تغيره، ومعرفة حاجاته ومشكلاته، ومساعدته في الوقت المناسب.

وقد يقول المربي: الحمد لله، أنا مهتم بأولادي، ولولا اهتمامي بهم لما عملت ليلًا ونهارًا من أجلهم، ووفرت لهم ما يحتاجون إليه.

ولا شك أن توفير الطعام والملبس والمسكن صورة مهمة من صور الاهتمام، لكنه ليس الاهتمام كله. فقد يوفر الوالدان لأولادهما أغلى الأجهزة والماركات، ومع ذلك يقول الولد: «أبي لا يهتم بي»، أو: «أمي لا تهتم بي».

فأين المشكلة؟

المشكلة أن المربي قد يقيس اهتمامه بما يقدمه من أشياء، بينما يقيسه الولد بما يجده من متابعة لحاله. فقد يكون البيت ممتلئًا بالأشياء، لكنه يفتقد من يلاحظ حزنه ويسأله: «ماذا بك؟ وماذا حدث معك؟ وكيف أستطيع مساعدتك؟».

ولا يعني الاهتمام تلبية كل رغبات الولد المادية؛ فالإفراط في الدلال لا يبني شخصية متوازنة، بل ينبغي معرفة ما يحتاج إليه فعلًا، وتربيته على القناعة ومعرفة قيمة المال.

ويظهر الاهتمام بصورة أوضح عند الشدة؛ فقد يرسب الولد، أو يتعرض للتنمر أو الابتزاز، أو يتورط في علاقة خاطئة أو رفقة سيئة. وهنا يحتاج إلى والديه ليعيناه على الخروج من المشكلة. ولا يعني ذلك تبرير خطئه، وإنما تكون الرسالة: «سنساعدك أولًا، ثم نعالج الخطأ الذي أوصلك إلى المشكلة». وكلما كان الوالدان أول من يلجأ إليه الولد عند الشدة، دل ذلك على عمق ثقته بهما.

ولا يكتمل الاهتمام إذا اقتصر على صحة الولد ودراسته ومستقبله الدنيوي؛ فمن أعظمه الاهتمام بهدايته ومستقبله الأخروي، وتعريفه بالله تعالى، وربطه برسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ وأهل بيته عَلَيْهِمُ السَّلَامُ وإمام زمانه، وتعليمه القرآن والعقائد والأحكام التي يحتاج إليها.

وروي عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ أنه نظر إلى بعض الأطفال فقال: «ويلٌ لأولاد آخر الزمان من آبائهم». فقيل: يا رسول الله، من آبائهم المشركين؟ فقال: «لا، من آبائهم المؤمنين، لا يعلّمونهم شيئًا من الفرائض، وإذا تعلّم أولادهم منعوهم، ورضوا عنهم بعَرَضٍ يسير من الدنيا، فأنا منهم بريء وهم مني براء»[٤٨٩].

ومن الاهتمام بدين الولد تقوية صلته بالله تعالى؛ لأن الإيمان به والتوكل عليه يمنحانه السكينة والثبات، قال تعالى:[أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ][٤٩٠]. ويمكن إلحاقه بالدورات أو الحوزات الدينية المناسبَة لعمره؛ ليزداد علمه وارتباطه بدينه.

فالقاعدة العملية هي: لا تقس اهتمامك بولدك بما توفره له من أشياء فقط، بل بمعرفتك لحاجاته وأحواله، ومساعدتك له فيما يصلح دنياه وآخرته.

القاعدة الثامنة: شارك ولدك هواياته وألعابه

والمقصود بهذه القاعدة أن يدخل المربي عالم ولده، ويتعرف إلى ما يحبه، ويشاركه فيه بقدر مناسب.

لنطبّق «قاعدة المعاملة بالمثل» على المشاركة: إذا كان صديقنا المقرّب لا يشاركنا شيئًا مما نحبه، ولا يبدي أي اهتمام بهواياتنا، بينما نجد غيره يشاركنا فيها ويقضي معنا أوقاتًا ممتعة، فقد نشعر أن الآخر أقرب إلينا. وكذلك أولادنا؛ فإذا أردنا أن نكون من أصدقاء ثقتهم، فمن المهم أن ندخل عالمهم، ونشاركهم، بقدر مناسب، بعض هواياتهم وألعابهم.

وتختلف المشاركة عن مجرد وجود المربي مع ولده؛ فهي تعني أن يتعرف إلى ما يحبه الولد، ويقترب منه من خلاله. فإذا كان ولدك يحب الألعاب الإلكترونية، فاجلس معه أحيانًا وشاركه شوطًا أو شوطين. وإذا كان يحب كرة

القدم أو السلة، أو الرسم، أو الأعمال اليدوية، أو القراءة، فحاول أن تشاركه في شيء من ذلك، وتشعره بأن اهتماماته لها قيمة عندك.

وقد يقول المربي: لكنني مشغول، وليس لدي وقت لهذه الأمور!

لا نطلب من المربي أن يقضي ساعات طويلة في اللعب، وإنما أن يشارك ولده بما يتناسب مع وقته وظروفه. ولنا في رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ أسوة حسنة؛ فقد روي عنه: «مَن كان عنده صبيٌّ فليتصابَ له»؛[٤٩١] أي ينزل إلى مستوى الصبي في ملاعبته والتعامل معه.

وروي عن جابر أنه دخل على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ والحسن والحسين على ظهره، وهو يجثو بهما ويقول: «نِعْمَ الجملُ جملُكما»[٤٩٢]، وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «ونِعْمَ الراكبان هما»[٤٩٣].

ولا تعني المشاركة بالضرورة أن يمارس الأب أو الأم النشاط نفسه؛ فقد لا يستطيعان مشاركة الولد رياضته، لكن يمكنهما حضور مباراته وتشجيعه، أو إيصاله إلى التدريب، أو مشاهدة ما أنجزه من رسم أو عمل، أو الاستماع إليه وهو يتحدث عن هوايته. والمهم أن تصله الرسالة: «ما يهمك يهمني؛ لأنك تهمني».

ولهذه المشاركة فائدة تربوية أخرى؛ فهي تعرّف المربي إلى عالم ولده: طبيعة ألعابه ومحتواها، والأشخاص الذين يتواصل معهم، وأصدقاءه وبيئته المحيطة. وبذلك تصبح المشاركة وسيلة للقرب والمتابعة والتوجيه، كما تفتح مجالًا للأحاديث العفوية؛ فقد يخبر الولد والديه أثناء اللعب أو ممارسة الهواية بما لا يقوله عند الأسئلة المباشرة.

ولا تعني المشاركة الموافقة على كل هواية أو لعبة؛ فإذا كان النشاط محرمًا، أو مضرًّا، أو غير مناسب لعمر الولد، فعلى المربي أن يبيّن له سبب رفضه، ويوجّهه بالحكمة إلى بديل نافع. فالمشاركة وسيلة للقرب والتربية، وليست تنازلًا عن المسؤولية.

فالقاعدة العملية هي: تعرّف إلى ما يحبه ولدك، وشاركه فيه بما تستطيع؛ فقد تفتح لعبة أو هواية مشتركة بينكما بابًا للقرب والحوار لا تفتحه جلسات التوجيه الرسمية.

القاعدة التاسعة: صُنْ ولدك واحفظ كرامته

والمقصود بهذه القاعدة أن يصون المربي كرامة ولده؛ فيصحح سلوكه من غير تحقير أو إحباط أو مقارنات جارحة، ويحفظه في غيبته، ويصون سره وخصوصيته.

لنطبّق «قاعدة المعاملة بالمثل» على حفظ الكرامة: إذا كنا نحب من صديقنا المقرّب أن يصون كرامتنا، ويحفظنا في غيابنا، ولا يكشف أسرارنا أو ينتقص منا أمام الآخرين، فعلينا أن نعامل أولادنا بالمثل؛ فإذا أردنا أن نكون من أصدقاء ثقتهم، فعلينا أن نصون كرامتهم ونحفظ أسرارهم وسترهم.

وقد روي عن أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ: «لا يكون الصديق صديقًا حتى يحفظ أخاه في ثلاث: في نكبته، وغيبته، ووفاته».[٤٩٤] ومن صور حفظ الولد وصيانة كرامته ما يأتي:

١. صحّح سلوكه ولا تُحقّر شخصه

من حفظ كرامة الولد ألا نجعل التربية بابًا للسب والسخرية والتحقير، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ... وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ﴾[٤٩٥].

ففرق كبير بين أن تقول لولدك: «تصرفك هذا خطأ»، وبين أن تقول: «أنت فاشل» أو «أنت غبي». الأولى تصحح سلوكًا يمكن تغييره، أما الثانية فتجرح شخصيته وكرامته، وقد تبقى كلمة الأب أو الأم في نفسه سنوات طويلة.

ولا ينبغي أن يتحول التصحيح إلى تحطيم أو إحباط. فإذا عرض الولد على والديه شيئًا أنجزه، فلا يستخفان به، بل يصححان له من غير تجريح، كأن يقولا: «فكرتك جميلة، ولو طورت هذه النقطة سيكون عملك أفضل».

ومن صور التحقير أيضًا المقارنات الجارحة، كأن يقول المربي: «انظر إلى أخيك، هو أفضل منك». فقد تولد هذه المقارنة الشعور بالنقص والغيرة بدل التحفيز. والأفضل أن نقارن الولد بنفسه، فنقول: «درجتك هذه السنة أقل من السنة الماضية، وأنت قادر على العودة إلى مستواك»، أو نقدم له رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ وأهل بيته عَلَيْهِمُ السَّلَامُ قدوةً من غير أن نحتقره أو نقلل من شأنه.

٢. احفظه في غيبته

من صيانة كرامة الولد ألا يكشف المربي عيوبه، ولا يجعل أخطاءه موضع حديث أمام الأقارب والآخرين، ولا يسمح بانتقاصه في مجلسه. فالوالدان من أكثر الناس اطلاعًا على جوانب ضعف ولدهما، ولذلك هما أولى الناس بحفظ ستره.

فإن كان الولد مظلومًا، دافع المربي عنه بهدوء وأدب. وإن كان مخطئًا، فإن حفظه لا يعني تبرير خطئه، وإنما يعني عدم السماح بأن يتحول الخطأ إلى غيبة وتشهير. فيمكن أن يقول: «هذه غيبة، ولا يجوز لنا أن نتحدث عنه بهذه الطريقة»، أو يغيّر مجرى الحديث. وقد روي عن الإمام الكاظم عَلَيْهِ السَّلَامُ: «ملعونٌ من اغتاب أخاه».[٤٩٦]

٣. احفظ سره وخصوصيته

من أهم صفات صديق الثقة أن يكون أمينًا على السر. فإذا أخبر الولد والديه بأمر خاص، ثم وجد أن سره أصبح حديثًا بين الأقارب، فقد يفقد ثقته بهما ويتوقف عن مصارحتهما.

لذلك ينبغي للمربي ألا يجعل أسرار ولده وعيوبه مادة للحديث مع الآخرين. والأصل حفظ السر والخصوصية، إلا إذا كان هناك خطر حقيقي يستدعي تدخل شخص آخر لحماية الولد أو غيره؛ فعندئذ يستعين المربي بمن تدعو الحاجة إليه وبقدر الحاجة، من غير نشر للسر أو تشهير بالولد.

فإذا أخطأ المربي، فأفشى سر ولده أو أهانه أو جرحه بكلمة، فعليه أن يعترف بخطئه ويعتذر إليه؛ لأن الاعتذار يعيد إلى الولد شيئًا من كرامته، ويساعد على ترميم الثقة بينهما.

فالقاعدة العملية هي: صحّح خطأ ولدك من غير أن تحقّر شخصه، واحفظه في غيبته، ولا تجعل أسراره وعيوبه حديثًا للآخرين؛ لأن الولد لا يأتمن على نفسه من يخشى أن يهينه أو يفضحه.

القاعدة العاشرة: استشر ولدك

والمقصود بهذه القاعدة أن يطلب المربي رأي ولده في الأمور المناسبة لعمره، ويشركه في التفكير وبعض القرارات، من غير أن يتخلى عن مسؤوليته في التوجيه.

وبتطبيق «قاعدة المعاملة بالمثل» نقول: إذا كان صديقنا المقرّب يستشير الآخرين ويهتم بآرائهم، بينما يتجاهل رأينا دائمًا، فقد نشعر بأن مكانتنا عنده ليست كما نظن. وكذلك أولادنا؛ فإن استشارتهم والاستماع إلى آرائهم يشعرهم بقيمتهم ومكانتهم عند المربي، ويقوّي قربهم وثقتهم به.

وقبل أن نعلّم ولدنا الاستشارة، ينبغي أن نعلّمه حسن اختيار المستشار؛ فقد روي عن أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ: «خَيْرُ مَنْ شَاوَرْتَ ذَوُو النُّهَى وَالْعِلْمِ، وَأُولُو التَّجَارِبِ وَالْحَزْمِ»[٤٩٧]. فالمستشار يختلف باختلاف الموضوع؛ ففي المسألة الشرعية نرجع إلى أهل الاختصاص، وفي المسألة الطبية إلى الطبيب،

وفي غيرها إلى أهل العلم والخبرة، قال تعالى: ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[٤٩٨].

وقد يُقال: كيف نستشير أولادنا، ولا سيما المراهقين، مع قلة خبرتهم؟

الجواب: صغر السن لا يعني انعدام الرأي النافع؛ فقد يكون الولد أدرى من والديه ببعض الأمور، أو يرى جانبًا لم ينتبها إليه. وقد روي عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «الولد سيد سبع سنين، وعبد سبع سنين، ووزير سبع سنين»[٤٩٩]. وتعبير «الوزير» يشير إلى إشراك الولد في النظر والرأي في المرحلة المناسبة.

وتُنقل في هذا السياق قصة فتى كان مع أمه في السيارة، فوجدا الطريق متوقفًا بسبب شاحنة علقت تحت جسر، فاقترح تفريغ شيء من هواء إطاراتها لينخفض ارتفاعها ويمكن إخراجها. ومن النماذج الواقعية أيضًا الفتى العراقي محمد التميمي، المقيم في السويد، الذي لفت الأنظار في السادسة عشرة من عمره عندما توصل بعد أشهر من البحث إلى صيغة رياضية تتعلق بأعداد برنولي، وعرض عمله على مختصين في جامعة أوبسالا فأعجبوا بقدرته في هذه السن[٥٠٠]. والمقصود ليس تقديم رأي الصغير على أهل الخبرة، وإنما عدم إلغائه لمجرد صغر سنه.

ويبدأ المربي باستشارة ولده في الأمور البسيطة المناسبة لعمره: «ما الهدية المناسبة؟»، «كيف نرتب الغرفة؟»، «ما البرنامج الذي تقترحه للأسرة؟»، ثم يوسّع مساحة مشاركته تدريجيًا. وعندما يبلغ مرحلة اختيار تخصصه الدراسي، لا يقرر عنه كل شيء، ولا يتركه بلا توجيه، بل يناقشه في الخيارات وإيجابياتها وسلبياتها، ويساعده على أن يتخذ قراره على بصيرة.

فالاستشارة تنمي ثقة الولد بنفسه، وتدربه على التفكير والموازنة وتحمل المسؤولية، وتمهد لاستقلاله المسؤول، ضمن الحدود الشرعية والتربوية.

ويمكن للمربي أن يتعمّد أحيانًا استشارة ولده في بعض الأمور؛ لا لأنه يجهل الجواب بالضرورة، وإنما ليعرف كيف يفكر، وما الأفكار والقيم التي يحملها، ثم يجعل من الأخذ والعطاء في الحوار فرصةً لتصحيح ما يحتاج إلى تصحيح، وتعزيز ما لديه من أفكار سليمة. وبهذا تتحول الاستشارة إلى وسيلة تربوية للتوجيه غير المباشر، بدل أن يكون المربي دائمًا في موقع الآمر والناهي.

فالقاعدة العملية هي: لا تستشر ولدك استشارة شكلية، بل امنحه فرصة حقيقية للتفكير والتعبير، وخذ برأيه إذا كان صائبًا، واجعل من جوابه نافذة تعرف منها أفكاره وقيمه، وفرصة لتوجيهه من غير إلغاء لشخصيته.

فقد تقول الأم: «أريد أن نعرّف الناس بقضية الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ، وفكرت في إعداد بطاقات قصيرة عن النهضة الحسينية، فما رأيك؟ وهل لديك فكرة أفضل؟».

وهنا لا ينبغي أن يكون سؤال المربي شكليًا، وهو قد قرر مسبقًا رفض كل ما يقوله ولده؛ بل يسمع رأيه ويناقشه، وإذا كانت فكرته جيدة أخذ بها. ويمكنه أن يعرض عليه مشكلة حقيقية يحتار فيها ويقول له: «ما رأيك؟ لو كنت مكاني، ماذا كنت ستفعل؟». فهذه العبارة قد تفتح أمام المربي نافذة يعرف منها طريقة تفكير ولده.

فمثلًا، قد تقول الأم لولدها: ماما، أشعر اليوم بشيء من الضيق والملل، ماذا تقترح عليَّ أن أفعل؟

فإذا قال: «اسمعي الأغاني، ستشعرين بالراحة»، فقد كشفت إجابته للأم عن تصوره لطريق الراحة النفسية. وهنا لا تسخر من جوابه ولا تقول: «ما هذه الأفكار؟»، بل تستثمر الموقف في حوار هادئ، فتقول له ما مضمونه:

لا يا ولدي، أنا أبحث عن شيء يريح قلبي ولا يكون فيه معصية لله تعالى؛

فكيف أطلب راحتي فيما يغضبه؟ فقد روي عن الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ: «بَيْتُ الغِنَاءِ لَا تُؤْمَنُ فِيهِ الفَجِيعَةُ، وَلَا تُجَابُ فِيهِ الدَّعْوَةُ، وَلَا يَدْخُلُهُ المَلَكُ»[٥٠١].

ثم يمكنها أن تواصل الحوار فتسأله: «يا ولدي، هناك شيء أخبرنا الله تعالى بأنه يمنح القلب الطمأنينة، فهل تذكر ما هو؟».

وقد يجيب: «ذكر الله تعالى»، فتقول الأم: «أحسنت»، ثم تستشهد بقوله تعالى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾[٥٠٢]. ثم تقول له: أستشيرك يا ولدي: كيف يمكنني أن أذكر الله حتى أشعر بهذه الطمأنينة؟

فقد يقول: «اقرئي القرآن»، أو: «صلّي وادعي الله»، فتقول: «أحسنت، ويمكننا أيضًا أن نتوسل برسول الله وأهل بيته عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، ونقرأ في سيرتهم ومصائبهم؛ لأنهم يذكّروننا بالله تعالى ويقربون قلوبنا إليه». فقد روي عن الإمام علي عَلَيْهِ السَّلَامُ أنه قال: «ذكرنا أهل البيت شفاء من العلل والأسقام ووسواس الريب»[٥٠٣].

ومصائب أهل البيت عديدة ومتنوعة، وبالأخص مصيبة عاشوراء، التي قال عنها الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ: (مُصيبَةً ما اَعْظَمَها وَأَعْظَمَ رَزِيَّتَها فِي الإسْلام وَفِي جَميعِ السَّماواتِ وَالأرْضِ)، منها مصيبة العطش وقتل مسلم والأنصار والعباس والقاسم والأكبر، وأيضا مصيبة عبد الله الرضيع، فقد ورد في زيارة الناحية المنسوبة إلى الإمام الثاني عشر الحجة بن الحسن (عج): السلام على عبد الله الرضيع المرمي الصريع المتشحط دما والمصعد بدمه إلى السماء المذبوح بالسهم في حجر أبيه. وفي خبر أن الحوراء جاءت به إلى أخيها الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ تحمله فدفعته إليه وهي باكية وقالت: أخي خذ طفلك. قيل: فأجلسه في حجرة يقبله، ويقول: بُعداً لهؤلاء القوم إذا كان جدك المصطفى خصمهم. ثم أتى به نحو القوم يطلب له الماء قائلا:

يا قوم قد قتلتم إخوتي، وأولادي، وأنصاري، وما بقي غير هذا الطفل، وهو يتلظى عطشًا من غير ذنب أتاه إليكم فاسقوه شربة من الماء. فاختلف

العسكر فيما بينهم، فمنهم من قال: إذا كان ذنب للكبار فما ذنب هذا الطفل؟ ومنهم من قال: اقتلوه ولا تبقوا لأهل هذا البيت باقية.

فلما رأى ابن سعد ذلك صاح بحرملة: ويلك يا حرملة اقطع نزاع القوم، قال: فما أصنع؟ قال: ارم الطفل بسهم، قال حرملة: فرأيت رقبته تلمع على عضد أبيه الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ، فرميت الطفل بسهمي، فذبحته من الوريد إلى الوريد فلما أحس الطفل الرضيع بحرارة السهم أخرج يديه من القماط واعتنق أباه، وجعل يرفرف كالطير المذبوح.

فملأ الحسين كفه من دمه، ورمى به نحو السماء، قائلا: اللهم لا يكن أهون عليك من فصيل ناقة صالح[٥٠٤].

(نصاري)

تلگّه احسين دم الطفل بيده ... اشحاله اليچتل ابحضنه اوليده

سال او ترس كفه من وريده ... او ذبَّه للسمه او للارض ما خرَ

اشلون احسين يوم الطفل عنده ... عبد الله انذبح من فوگ زنده

ظل محتار بيه احسين وحده ... يدفنه لو يجيبه للصواوين

على خدِّ الطفل سالت دمعته ... اشيگل العمِّتَه اشيعتذر لختة

كف ايده انترس من دم رگبته ... ذبه للسما او ظل بالسمه اسنين

نظر طفله او رگبته اشلون مالت ... حنِّ او دمعته امن العين سالت

يبويه من السهم روحك اشگالت ... ذبح او عطش بويه ضگت الاثنين[٥٠٥]

١٠ محرم

ذكرى استشهاد الإمام الحسين (عليه السلام)

عظم الله أجوركم

الشريف الرضي

السلام على الحسين وعلى علي بن الحسين وعلى أولاد الحسين وعلى أصحاب الحسين

اليوم العاشر من محرّم الحرام

المناسبة: مصيبة عاشوراء

القصيدة: للسيد رضا الهندي

يا صاحب العصر أدركنا فليس لنا ... وردٌ هنيٌّ ولا عيشٌ لنا رغدُ

طالت علينا ليالي الانتظارِ فهل ... يا ابن الزكيِّ لليلِ الانتظارِ غد

فاكحَلْ بطلعتِك الغرّا لنا مقلا ... يكاد يأتي على إنسانِها الرمد

ها نحن مرمى لنبلِ النائباتِ وهل ... يغني اصطبارٌ هي مِن درعِه الزرد

فانهض فدتك بقايا أنفسٍ ظَفَرَتْ ... بها النوائبُ لما خانها الجَلَد

يا ثاويا في هجيرِ الشمسِ كفّنه ... ساقي الرياحِ ووارتْه القنا القُصُد

على النبيِّ عزيزٌ لو يراك وقد ... شَفَى بمصرعِكَ الأعداءُ ما حقدوا

ولو ترى أعينُ الزهراءِ قُرَّتَها ... والنبلُ في جسمِه كالهُدْبِ ينعقد

له على السمرِ رأسٌ تستضيءُ به ... سمرُ القنا وعلى وجه الثرى جسد

إذاً لحنَّت وأنَّت وانهمتْ مُقَلٌ ... منها وأجرتْ بنيرانِ الأسى كبد[٥٠٦]

(موشح)

يابـو صالـح يـا فخـر عدنانهـا
صدگ زينـب توگـف ابديوانها

صدگ زينب وگفت ابمجلس يزيد
او بالطشت جدامها راس الشهيد

صدگ واتشمت او گلها اشما يريد
ويـن أهلـچ يـا فخـر نسـوانها

سيدي هـذا الأمـر كلش صعب
مثل زينب مجلس الطاغي تطب

اتگول اهلك لو بگت فوگ الترب
الشـهاده الهـا او فخـر مـن شـانها

لاكـن النسـوان بيديـن اللئـام
مِنِ الكوفة او توصل الديرة الشام

اشلون عينك سيدي ابهذي تنام
گـوم واشـعل يـا نفـل نيرانهـا

سيدي انهض يبن حامي الحمه
سيدي انهض يبن يراعي الغانمه

سيدي ترضه الحريم امجدّمه
ابمجلس اميه او بني مروانها

اشتنتظر يبن الحسن شنهو تريد
سيدي إِنهض الثارات الشهيد

سيدي واعدم امن الدنيه يزيد
اگلوب شيعتكم صفت بحزانها[٥٠٧]

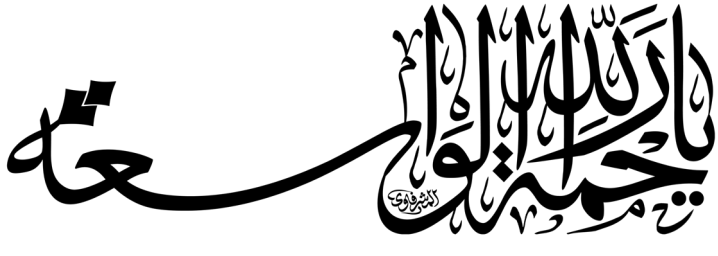

موضوع المحاضرة الحادية عشرة:
لاَ يَوْمَ كَيَوْمِكَ يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ

روي عن الإمام الحسن بن علي عَلَيْهِ السَّلَامُ:

﴿ لاَ يَوْمَ كَيَوْمِكَ يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ ﴾[٥٠٨].

دلت روايات أهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ على أن مصيبة الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ أعظم المصائب، وأن يوم عاشوراء لا يماثله يوم في شدة مصابه؛ فقد قال الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ: «إنّ يوم الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ أعظم مصيبة من جميع سائر الأيام»[٥٠٩].

وقال الإمام زين العابدين عَلَيْهِ السَّلَامُ: «ولا يوم كيوم الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ»[٥١٠].

كما نقرأ في زيارة عاشوراء: «مُصِيبَةً مَا أَعْظَمَهَا وَأَعْظَمَ رَزِيَّتَهَا فِي الْإِسْلَامِ وَفِي جَمِيعِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ»[٥١١]. وهذا يدل على أن أثر مصيبة الإمام الحسين لم يقتصر على أهل الأرض، بل امتد إلى أهل السماوات أيضًا.

أما الرواية التي ستكون محور حديثنا، فقد وردت ضمن حوار مؤثر دار بين الإمامين الحسن والحسين عَلَيْهِمَا السَّلَامُ قبيل شهادة الإمام الحسن؛ إذ دخل الإمام الحسين على أخيه، وقد اشتد به أثر السم، فتألم لما رآه وبكى. عند ذلك أخبره الإمام الحسن بما سيجري عليه في كربلاء، وقال:

«لَا يَوْمَ كَيَوْمِكَ يَا أَبَا عَبْدِ اللهِ، يَزْدَلِفُ إِلَيْكَ ثَلَاثُونَ أَلْفَ رَجُلٍ، يَدَّعُونَ أَنَّهُمْ مِنْ أُمَّةِ جَدِّنَا مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، وَيَنْتَحِلُونَ دِينَ الْإِسْلَامِ، فَيَجْتَمِعُونَ

عَلَى قَتْلِكَ، وَسَفْكِ دَمِكَ، وَانْتِهَاكِ حُرْمَتِكَ، وَسَبْيِ ذَرَارِيِّكَ وَنِسَائِكَ، وَانْتِهَابِ ثَقَلِكَ، فَعِنْدَهَا تَحِلُّ بِبَنِي أُمَيَّةَ اللَّعْنَةُ، وَتُمْطِرُ السَّمَاءُ رَمَادًا وَدَمًا، وَيَبْكِي عَلَيْكَ كُلُّ شَيْءٍ، حَتَّى الْوُحُوشُ فِي الْفَلَوَاتِ، وَالْحِيتَانُ فِي الْبِحَارِ»[٥١٢].

وهنا نسأل: ما معنى قوله عَلَيْهِ السَّلَامُ: «لا يوم كيومك يا أبا عبد الله»؟

«لا» في هذه العبارة هي النافية للجنس، أي إنها تنفي وجود أي يوم مماثل ليوم الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ في عِظم المصيبة وشدة البلاء. والمقصود بـ«اليوم» هنا ليس عدد ساعاته فقط، بل واقعة عاشوراء وما اشتملت عليه من أحداث وآثار، كما يقال: يوم بدر ويوم أُحد.

كأن الإمام الحسن عَلَيْهِ السَّلَامُ يقول لأخيه: إن مصيبتي، على عِظمها، لا تبلغ ما سيجتمع عليك في يوم عاشوراء.

لكن لماذا اختص يوم الإمام الحسين بهذه المنزلة حتى قيل: «لا يوم كيومك»؟ وما الأسباب التي جعلت مصيبته أعظم المصائب؟

ترجع هذه الخصوصية إلى أسباب متعددة سنسلط الضوء عليها في المباحث الآتية؛ ليتضح لنا جانب من المعنى العميق لهذه الكلمة: «لَا يَوْمَ كَيَوْمِكَ يَا أَبَا عَبْدِ اللهِ».

المبحث الأول: عِظَمُ مَن وقعت عليه المصيبة

إنّ عِظم المصيبة لا يُقاس بما وقع فيها من ألم فحسب، بل يُقاس كذلك بمن وقعت عليه؛ فليس فقد إنسان عادي كفقد عالم يحمل علم الدين، وليس قتل أحد الصالحين كقتل إمام جعله الله حجة على خلقه. فكلما علت منزلة من وقعت عليه المصيبة، كان فقده أشد، وكانت المصيبة به أعظم.

من هنا، فإن أول ما يكشف لنا جانبًا من معنى قول الإمام الحسن عَلَيْهِ السَّلَامُ: «لا يوم كيومك يا أبا عبد الله» أن نعرف منزلة الإمام الحسين الذي قُتل في يوم عاشوراء، ويمكن بيانها من خلال النقاط الآتية:

١. سبط رسول الله وريحانته

كان الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ سبط رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ وريحانته من الدنيا، وابن أمير المؤمنين وفاطمة الزهراء عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، ومن أهل البيت الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهّرهم تطهيرًا.

وقد عبّر رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ عن عمق الصلة بينه وبين سبطه بقوله: «حسين مني وأنا من حسين، أحب الله من أحب حسينًا». فقوله: «حسين مني» يشير إلى صلته بالنبي نسبًا ورسالةً ونهجًا، أما قوله: «وأنا من حسين» فيكشف عما سيكون لتضحيته من أثر في حفظ دين جده وإبقاء رسالته حيةً في الأمة.

٢. سيد شباب أهل الجنة

أعلن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ منزلة الحسين وأخيه الحسن عَلَيْهِمَا السَّلَامُ بقوله: «الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة». فإذا كان الإمام الحسين سيدًا لشباب أهل الجنة، فإن منزلته لا تختص بالدنيا، بل تمتد إلى الآخرة، وتشهد له بالسيادة بين أولياء الله والصالحين.

٣. إمام مفترض الطاعة

كان الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ إمامًا مفترض الطاعة وحجة الله على أهل زمانه، وقد ورد عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ في الحسن والحسين عَلَيْهِمَا السَّلَامُ: «ابناي هذان إمامان، قاما أو قعدا»[٥١٣].

فالإمام الحسين لم يكتسب إمامته من ثورته على يزيد، بل كان إمامًا منصوبًا من الله؛ لذلك لم يكن الاعتداء عليه اعتداءً على شخص عظيم فحسب، بل كان اعتداءً على إمام الزمان وحجة الله على خلقه.

٤. سيد الشهداء من الأولين والآخرين

اختص الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ بلقب «سيد الشهداء»، فقد جاء في الحديث: «أما إنه سيد الشهداء من الأولين والآخرين في الدنيا والآخرة»[٥١٤].

تكشف هذه السيادة أن شهادته بلغت منزلة لم تبلغها شهادة غيره؛ لعظمة مقامه وهدفه، ولما أحدثته تضحيته من أثر عظيم في حفظ الدين.

٥. الإمامة في ذريته

من خصائص الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ أن الله جعل الأئمة من ذريته؛ فقد روي عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «الأئمة بعدي اثنا عشر، تسعة من صلب الحسين، والتاسع قائمهم، فطوبى لمن أحبهم، والويل لمن أبغضهم»[٥١٥].

فقد امتدت الإمامة في ذريته من الإمام زين العابدين عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى خاتم الأئمة الإمام المهدي عجل الله فرجه الشريف.

٦. الشفاء في تربته

من خصائصه عَلَيْهِ السَّلَامُ أن الله جعل الشفاء في تربته، فقد روي عن الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ: «إن الله عوّض الحسين من قتله أن جعل الإمامة من ذريته، والشفاء في تربته»[٥١٦].

وروي عنه أيضًا: «في طين قبر الحسين الشفاء من كل داء، وهو الدواء الأكبر»[٥١٧]. وقد اختص الله تربته بهذه الكرامة إظهارًا لمنزلته وتكريمًا لجسده الطاهر الذي احتضنته أرض كربلاء.

٧. عِظَم فضل زيارته وبركاتها

ورد في فضل زيارة الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ وثوابها وآثارها عدد كبير من الروايات لم يرد بهذا الاتساع في زيارة غيره من المعصومين عَلَيْهِمُ السَّلَامُ. فقد جعل الله الدعاء عند قبره موضعًا للرجاء والإجابة، وكتب لزائره الأجر العظيم، وجعل أيام ذهابه إلى زيارته ورجوعه منها أيامًا مباركة لا تُحسب من عمره.

٨. كان بقاؤه بقاءً لأصحاب الكساء جميعًا

لتقريب المعنى، تخيّلي أسرةً عزيزةً عليكِ، قدّم أفرادها لكِ خيرًا كثيرًا، ثم تعرّضوا لحادث لم ينجُ منه إلا واحد منهم. سيصبح هذا الناجي عزيزًا عليكِ بصورة خاصة؛ لأنكِ حين ترينه تتذكرين أسرته كلها، ويصبح بقاؤه كأنه بقاءٌ لهم في قلبكِ.

هكذا كان الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ فبعد رحيل جده رسول الله، وأمه الزهراء، وأبيه أمير المؤمنين، وأخيه الإمام الحسن عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، بقي هو آخر أصحاب الكساء، فكان الناس يجدون في وجوده ذكرىً لهم وعزاءً عن فقدهم.

فلما قُتل، كان ذهابه كذهابهم جميعًا، كما كان بقاؤه كبقائهم جميعًا.

وقد أشار الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى هذا المعنى عندما سُئل:

كيف صار يوم عاشوراء يوم مصيبة وغم وجزع وبكاء دون اليوم الذي قُبض فيه رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، واليوم الذي ماتت فيه فاطمة عَلَيْهَا السَّلَامُ، واليوم الذي قُتل فيه أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ، واليوم الذي قُتل فيه الإمام الحسن عَلَيْهِ السَّلَامُ؟

فقال عَلَيْهِ السَّلَامُ:

«إن يوم الحسين أعظم مصيبة من جميع سائر الأيام؛ وذلك أن أصحاب الكساء الذين كانوا أكرم الخلق على الله عز وجل كانوا خمسة، فلما مضى عنهم

النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ بقي أمير المؤمنين وفاطمة والحسن والحسين، فكان فيهم للناس عزاء وسلوة، فلما مضت فاطمة عَلَيْهَا السَّلَامُ كان في أمير المؤمنين والحسن والحسين للناس عزاء وسلوة، فلما مضى أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ كان للناس في الحسن والحسين عزاء وسلوة، فلما مضى الحسن عَلَيْهِ السَّلَامُ كان للناس في الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ عزاء وسلوة، فلما قُتل الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ لم يكن بقي من أصحاب الكساء أحد للناس فيه بعده عزاء وسلوة، فكان ذهابه كذهابهم جميعًا، كما كان بقاؤه كبقائهم جميعًا؛ فلذلك صار يومه أعظم مصيبة»[٥١٨].

تكشف الرواية أن الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ لم يكن يمثل نفسه وحده؛ فببقائه كان الناس يستحضرون رسول الله وأمير المؤمنين وفاطمة الزهراء والإمام الحسن عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، ولذلك كان فقده بمنزلة فقدهم جميعًا.

من هنا نفهم لماذا نادت العقيلة زينب عَلَيْهَا السَّلَامُ يوم عاشوراء:

«اليوم مات جدي محمد، اليوم مات أبي علي، اليوم ماتت أمي فاطمة، اليوم مات أخي الحسن»[٥١٩].

لم تكن العقيلة تعدد أسماءً غائبين، بل كانت تكشف أن مصيبة الحسين أعادت إلى قلبها مصائب أهل الكساء جميعًا؛ لأن ذهابه كان كذهابهم، كما كان بقاؤه كبقائهم.

إذا عرفنا هذه المنزلة، أدركنا أن الذي قُتل يوم عاشوراء لم يكن فردًا من أفراد الأمة، بل كان سبط رسول الله وريحانته، وسيد شباب أهل الجنة، وإمام زمانه وحجة الله على خلقه، وآخر من بقي من أصحاب الكساء.

فبقتله فُقد الحسين، وتجدد فقد محمد وعلي وفاطمة والحسن عَلَيْهِمُ السَّلَامُ؛ ومن هنا يتضح أول أسباب قول الإمام الحسن عَلَيْهِ السَّلَامُ: «لا يوم كيومك يا أبا عبد الله».

المبحث الثاني: عِظَمُ الجناية من جهة مرتكبيها

لا تتساوى الجرائم في مقدار ما تتركه من ألم؛ فقد يقع القتل على يد عدوٍّ أعلن عداوته، وأظهر بغضه للدين وأهله، فتكون الجريمة مؤلمةً وعظيمة، لكنها لا تكون مستغربة؛ لأن العداوة المعلنة يُتوقَّع منها الاعتداء. وقد يقع القتل خطأً أو عن جهلٍ بحقيقة المقتول ومكانته، فيختلف الحكم عليه باختلاف قصد الفاعل وعلمه.

أما المصيبة الأشد، فهي أن تقع الجريمة عن معرفةٍ وعمد، وأن تأتي الخيانة ممن يدّعي الانتماء إلى الضحية، ويعرف حقها ومكانتها، ثم ينقلب عليها ويشارك في قتلها.

ومن هنا نفهم دقة قول الإمام الحسن عَلَيْهِ السَّلَامُ لأخيه الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ: «يَزْدَلِفُ إِلَيْكَ ثَلَاثُونَ أَلْفَ رَجُلٍ، يَدَّعُونَ أَنَّهُمْ مِنْ أُمَّةِ جَدِّنَا مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، وَيَنْتَحِلُونَ دِينَ الْإِسْلَامِ، فَيَجْتَمِعُونَ عَلَى قَتْلِكَ وَسَفْكِ دَمِكَ»(٥٢٠).

لم يقل الإمام عَلَيْهِ السَّلَامُ إنهم كانوا من الروم أو الفرس، أو من المشركين الذين أعلنوا حربهم على الإسلام، وإنما قال: «يدّعون أنهم من أمة جدنا»، و«ينتحلون دين الإسلام». وهذه العبارة تكشف وجهًا عظيمًا من فاجعة عاشوراء؛ فالذين خرجوا لقتال الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ كانوا يتظاهرون بالإسلام، ويتوجهون إلى القبلة التي كان يتوجه إليها، ويقرؤون القرآن الذي نزل على جده، ويسمعون في الأذان اسم رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، ثم يجتمعون على قتل سبطه وريحانته.

ولم تكن منزلة الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ مجهولةً لديهم؛ فقد عرفوا أنه ابن بنت رسول الله، وسيد شباب أهل الجنة، وإمام المسلمين وحجة الله عليهم.

بل إن بعض أهل الكوفة كانوا قد كتبوا إليه يدعونه إلى القدوم، ويعلنون استعدادهم لنصرته، ثم خذله بعضهم، وانضم بعضهم الآخر إلى الجيش الذي خرج لقتاله.

ولو فُرض أن بعضهم غفل عن شخصيته، فقد قطع الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ عذرهم؛ إذ خطب فيهم يوم عاشوراء، وعرّفهم بنفسه ونسبه، وذكّرهم بأنه ابن بنت نبيهم، وسألهم: «أليس حمزة سيد الشهداء عمَّ أبي؟ أليس جعفر الطيار عمي؟» ثم ذكّرهم بقول رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ فيه وفي أخيه: «هذان سيدا شباب أهل الجنة»[٥٢١].

وقد بلغت المفارقة ذروتها يوم عاشوراء؛ فلم يكن الذين واجهوا الإمام ينكرون وجود الله أو نبوة محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ بألسنتهم، لكن أفعالهم ناقضت ما كانوا يدّعونه.

وأي تناقض أعظم من أن يقر الإنسان بنبوة محمد، ثم يقتل ابن بنته؟ وأي انتساب إلى الإسلام يبقى له معنى إذا انقلب صاحبه على إمام زمانه، واستحل دمه طلبًا لرضا سلطان جائر؟

لقد بلغ هذا التناقض حدًّا استنكره حتى غير المسلمين؛ فقد قال رسول قيصر المسيحي ليزيد:

«إن عندنا في بعض الجزائر حافر حمار عيسى، ونحن نحج إليه في كل عام من الأقطار، ونهدي إليه النذور، ونعظمه كما تعظمون كتبكم، فأشهد أنكم على باطل»[٥٢٢].

فقد رأى النصراني قومه يعظّمون أثرًا منسوبًا إلى دابة نبيهم، بينما رأى المنتسبين إلى أمة محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ قد قتلوا ابن بنته؛ فاستنكر الغريب ما أقدم عليه القريب.

ولم تقف الجناية عند هذا الحد، بل حاولت الدعاية الأموية قلب الحقائق،

فصوّرت الإمام وأهل بيته خارجين على الدين، وروّجت بين الناس أن السبايا من الخوارج؛ ليظهر الجناة بمظهر المدافعين عن الإسلام، بينما يُتَّهَم ابن رسول الله وأهل بيته بما ارتكبه قاتلوهم أنفسهم.

ولا يعني ذلك أن الأمة كلها شاركت في قتل الإمام؛ فقد نصره بعض أبنائها، ورفض آخرون الجريمة، وبقي المؤمنون يحملون ولاءه ويبكون مصابه، لكن الناصرين كانوا قلّة، بينما قصّر الكثيرون في حق إمامهم بين قاتل وخاذل وساكت ومداهن.

فالمسؤولية لا تنحصر فيمن باشر القتل؛ بل تمتد إلى من أعان الجناة أو رضي بفعلهم. وقد روي عن الإمام الباقر عَلَيْهِ السَّلَامُ أن الله أوحى إلى شعيب أنه معذب من قومه مائة ألف: أربعين ألفًا من أشرارهم وستين ألفًا من خيارهم، فلما سأله شعيب عن الأخيار قال: «داهنوا أهل المعاصي ولم يغضبوا لغضبي»[٥٢٣].

ونقرأ في زيارة وارث: «لعن الله أمة قتلتكم، ولعن الله أمة ظلمتكم، ولعن الله أمة سمعت بذلك فرضيت به»[٥٢٤].

إذن، ارتكبت الجريمة جماعة تنتسب ظاهرًا إلى أمة النبي، وتحت راية سلطة تدّعي حكم المسلمين؛ فكانت عاشوراء مصيبة انقلاب المنتسبين إلى الإسلام على وصية الله ورسوله بأهل البيت، مع أن الله أمر بمودتهم فقال: ﴿قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾[٥٢٥].

فإذا بجماعة منهم تجتمع على قتل أحب الناس إلى رسول الله، ومن هذه الجهة أيضًا صار يوم الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ يومًا لا يشبهه يومًا.

المبحث الثالث: اجتماع المصائب على الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ

لم تكن مصيبة الإمام الحسين عليه السلام ألمًا واحدًا انتهى في لحظة استشهاده، بل اجتمعت عليه في يوم عاشوراء مصائب متتابعة، كل واحدة منها تكفي لأن تجعل يومها يوم حزن عظيم.

عاش الإمام عَلَيْهِ السَّلَامُ الحصار ومنع الماء، وسمع استغاثة الأطفال والنساء، ثم رأى أصحابه يخرجون إلى القتال واحدًا بعد آخر، فيستشهدون بين يديه. وبعدهم تقدّم أهل بيته وشباب بني هاشم، فكان يودّعهم، ويراقبهم وهم يتساقطون شهداء، ويحمل بعض أجسادهم إلى المخيم. وهكذا اجتمع عليه ألم القائد بفقد أصحابه، وألم الأخ بفقد إخوته، وألم الأب بفقد أبنائه، وألم الإمام لما أصاب أهل بيته وأمته.

ثم بقي وحيدًا بعد فقد الأنصار والأهل، وقد اجتمع عليه العطش والإعياء والحزن وكثرة الجراح، فأحاط به القوم وافترقوا عليه ثلاث فرق: فرقة ترميه بالنبال والحجارة والسهام، وقيل إن الرماة كانوا أربعة آلاف، فرموه حتى صار جسده كالقنفذ من كثرة السهام، وفرقة تطعنه بالرماح، وفرقة تضربه بالسيوف حتى أثخنوه بالجراح.[٥٢٦]

وقف الإمام عَلَيْهِ السَّلَامُ ليستريح ساعة وقد ضعف عن القتال، فأتاه حجر أصاب جبهته، فسالت الدماء على وجهه ولحيته. ولما أخذ ثوبه ليمسح الدم عن وجهه، أتاه سهم محدّد مسموم له ثلاث شعب، فوقع في قلبه.[٥٢٧] وتتابعت عليه الضربات والجراح حتى سقط على أرض كربلاء، ثم انتهت الجناية إلى حزّ نحره الشريف واحتزاز رأسه.

تكشف كثرة ما أصاب جسده الطاهر مقدار ما اجتمع عليه من الآلام؛ فقد روي عن الإمام الباقر عَلَيْهِ السَّلَامُ أنه قال: «أُصيب الحسين بن علي عَلَيْهِ السَّلَامُ، ووُجد به ثلاثمائة وبضعة وعشرون طعنة برمح، أو ضربة بسيف، أو رمية

بسهم، فروي أنها كانت كلها في مقدّمه؛ لأنه عَلَيْهِ السَّلَامُ كان لا يولي»[٥٢٨].

لم يكتفوا بقتله، بل سلبوا ثيابه ومتاعه، ثم نادى عمر بن سعد: مَن يوطئ الخيل صدره وظهره؟ فتقدّم جماعة فداسوا جسده الشريف بحوافر الخيل.

لم تنتهِ المصيبة باستشهاده؛ فقد امتدت إلى نسائه وأطفاله، فهوجمت الخيام وسُلبت وأُحرقت، ورُوّع العيال، واقتيد حرم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ سبايا من كربلاء إلى الكوفة، ثم إلى الشام.

من هنا كان يوم الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ يومًا لا يشبهه يوم؛ لأنه جمع في ساعات قليلة ألوانًا متتابعة من الفقد والعطش والجراح والوحدة، ثم امتد البلاء بعد شهادته إلى جسده وعياله.

ولعِظَم هذه الفاجعة وكثرة أحداثها، لا يمكن استيفاء تفاصيلها في هذا المبحث المختصر؛ لذلك تُحال تفاصيلها إلى المحاضرة المختصة بمصيبة اليوم العاشر من محرم، في الجزء الثاني عشر من كتاب «زاد المبلّغات».

المبحث الرابع: يوم الحسين جمع مصائب الأنبياء

نقرأ في زيارة وارث مخاطبين الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ: «السلام عليك يا وارث آدم صفوة الله، السلام عليك يا وارث نوح نبي الله، السلام عليك يا وارث إبراهيم خليل الله، السلام عليك يا وارث موسى كليم الله، السلام عليك يا وارث عيسى روح الله، السلام عليك يا وارث محمد حبيب الله»[٥٢٩].

ترى ما معنى أن يكون الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ وارثًا للأنبياء؟ هل المقصود أنه ورث منهم أشياء مادية فحسب؟

لقد ورث أئمة أهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ مواريث الأنبياء، ولم تقتصر وراثتهم على الآثار المادية، بل ورثوا خطهم الإلهي، وعلومهم ومعارفهم، وفضائلهم

ومقاماتهم، وحملوا الرسالة نفسها التي ضحّى الأنبياء من أجلها. كما كان لهم نصيب من الابتلاءات والمحن التي تعرض لها الأنبياء، غير أن الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ اختص باجتماع صور متعددة منها في مصيبته؛ فما توزّع على عدد من الأنبياء اجتمع عليه في يوم واحد، كما يتضح من المقارنات الآتية(٥٣٠):

١. آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ ومصيبة فقد الولد

- ابتُلي آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ بالخروج من الجنة وفراقها، أما الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ، فقد ابتُلي بفراق وطنه وأحبته.
- ابتُلي آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ بمقتل ولده هابيل، أمّا الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ فابتُلي بمقتل أحبّته جميعًا؛ أبناؤه وإخوته وأبناء إخوته وأصحابه، فرآهم يتساقطون شهداء أمام عينيه، وكان كلّ واحد منهم عزيزًا على قلبه بمنزلة الولد أو الأخ.

٢. نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ وأذى قومه

- لبث نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ في قومه ألف سنة إلا خمسين عامًا، يدعوهم إلى الله تعالى، فقابلوه بالتكذيب والأذى، لكنهم لم يقتلوه، بل نجّاه الله تعالى بالسفينة. أما الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ، فقد دعا قومه إلى الله، ولا سيما في يوم عاشوراء، وذكّرهم بالله ورسوله وحقه عليهم، فقابلوه بالتكذيب والأذى، ثم قتلوه وتركوا جسده الشريف مطروحًا على أرض كربلاء ثلاثة أيام؛ فشابه ابتلاؤه ابتلاء نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ من جهة تكذيب القوم وأذاهم، لكنه كان أشد من جهة ما انتهى إليه من القتل والتنكيل.

٣. إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ والنار

- قذف قومُ إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ نبيَّهم في النار، غير أنّ الله تعالى قال: ﴿يَا نَارُ

كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾[٥٣١] فسقط فيها آمنًا، ولم تمسّه بسوء.

أمّا الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ، فقد رشقوه بالسهام، وطعنوه بالرماح، وضربوه بالسيوف، حتى أثخنته الجراح فسقط على رمضاء كربلاء الملتهبة بحرّ الشمس.

- سقط إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ وبين يديه خضرةٌ وماء، بينما سقط الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ بين أجساد أهل بيته وأصحابه ودمائهم.
- وكان لإبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ موضعٌ يستقر عليه، أمّا الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ فكانت وسادته تراب كربلاء. وخرج إبراهيم من النار سالمًا، بينما سقط الحسين مثخنًا بالجراح.

٤. يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ وفقد يوسف

- خاف يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ فراق ولده يوسف، فقال لإخوته: ﴿إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ﴾[٥٣٢]، ثم جاءه قميص يوسف بشارةً بلقائه، فارتدّ إليه بصره. أمّا الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ، فلما توجّه ولده عليّ الأكبر إلى القتال تعلّقت به النساء ليمنعنه، فقال: «دعنه؛ فقد اشتاق إلى جدّه». ثم سمع نداءه بعد إصابته، فخرج إليه فوجده صريعًا، فأظلمت الدنيا في عينيه.

٥. صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ وفصيل الناقة

- عقر قوم صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ الناقة، ففزع فصيلها وصعد الجبل وهو يرغو لفقد أمه. أمّا الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ، فلما ذُبح طفله الرضيع بسهم بين يديه، رفع صوته من شدة المصاب قائلًا: «اللهم لا يكن هذا أهون عليك من فصيل ناقة صالح، فانتقم لنا، اللهم إن كنت حبست عنا النصر من السماء، فاجعل ذلك لما هو خير لنا»[٥٣٣].

٦. يحيى عَلَيْهِ السَّلَامُ وقطع الرأس

- تكلّم رأس نبي الله يحيى عَلَيْهِ السَّلَامُ مرة، أمّا رأس الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ فقد تكلّم مراتٍ عديدة، وسُمع منه القرآن.
- بكت السماء على يحيى، كما بكت على الحسين دمًا عبيطًا وترابًا أحمر.
- قُتل يحيى بالسكين، أمّا الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ فلم يكتفِ أعداؤه بذبحه، بل قتلوه مثخنًا بضربات السيوف وطعنات الرماح ورميات السهام، ثم مثّلوا بجسده الشريف ورضّوه بحوافر الخيل. كما فارق الحسين الدنيا وهو يرى نساءه وأطفاله في الخيام حيارى عطاشى، ويعلم ما سيجري عليهم بعد شهادته.

٧. عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ والمطاردة

- كان عيسى بن مريم عَلَيْهِ السَّلَامُ يتوسّد الحجر، أمّا الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ، فبقي جسده الشريف على تراب كربلاء محزوز الرأس، فلم يكن له رأسٌ يتوسّد به حجرًا أو ترابًا.
- كان عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ يلبس الثياب الخشنة زهدًا، أمّا الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ فسلب أعداؤه ثيابه بعد استشهاده.
- كان عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ يأكل الطعام الجشب، أمّا الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ فقضى أيامه الأخيرة جائعًا عطشانًا.
- لم يكن لعيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ مالٌ يُنهب، أمّا الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ فنُهبت خيامه وسُلبت أمتعته.
- لم يكن لعيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ ولدٌ يتجرّع ألم فقده، أمّا الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ فرأى ولده صريعًا أمامه، فهدّت مصيبته قواه وأظلمت الدنيا في عينيه، فصبر احتسابًا لله تعالى.

- حاصر اليهود عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ وأرادوا قتله، فنجّاه الله من بينهم ورفعه إليه؛ أمّا الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ فقد أحاط به أعداؤه من كل جانب، ومنعوه من ماء الفرات، ثم قتلوه بأفجع قتلة.

وهكذا لم يكن الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ وارث نبي واحد، ولم تشبه مصيبته ابتلاء رسول واحد، بل ظهرت في يومه صور من ابتلاءات الأنبياء، منهم: آدم ونوح وإبراهيم ويعقوب وصالح ويحيى وعيسى عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، ثم زادت عليها مصائب اختص بها يوم عاشوراء. وما وقع على الأنبياء متفرقًا في الأزمنة اجتمع على وارثهم الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ في ساعات؛ فمن هذه الجهة أيضًا نفهم معنى قول الإمام الحسن عَلَيْهِ السَّلَامُ: «لا يوم كيومك يا أبا عبد الله».

المبحث الخامس: مصيبة عظمت في السماوات والأرض

لم تكن مصيبة الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ حادثةً وقعت في بقعة من الأرض ثم انتهت بانتهاء يوم عاشوراء، بل امتد أثرها إلى عوالم متعددة؛ فحزن لها أهل الأرض، وبكى لها أهل السماوات، وظهرت آثارها في مخلوقات الكون. وقد أشار الإمام الحسن عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى هذا الامتداد في الحديث الذي هو محل بحثنا، حين قال لأخيه: «فَعِنْدَهَا تَحِلُّ بِبَنِي أُمَيَّةَ اللَّعْنَةُ، وَتُمْطِرُ السَّمَاءُ رَمَادًا وَدَمًا، وَيَبْكِي عَلَيْكَ كُلُّ شَيْءٍ، حَتَّى الْوُحُوشُ فِي الْفَلَوَاتِ، وَالْحِيتَانُ فِي الْبِحَارِ»(٥٣٤).

تكشف هذه الكلمات أن عظمة المصيبة لم تُعرف من خلال ما أصاب الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ وحده، بل ظهرت كذلك في اتساع دائرة المتأثرين بها، وفي الآثار التي خلّفتها في الأرض والسماوات.

ويمكن توضيح ذلك من خلال الجهات الآتية:

أولًا: مصيبة عظمت على أهل الأرض

عظمت مصيبة الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ وأهل بيته قبل وقوعها؛ فقد أخبر جبرئيل النبيَّ بما سيجري على سبطه، وأراه تربة الأرض التي يُقتل فيها، فبكى عليه. ثم توارث أئمة أهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ الحزن عليه، فكانوا إذا ذُكر الحسين جرت دموعهم وظهر الحزن عليهم.

كما عظمت المصيبة على المؤمنين، ولم ينتهِ الحزن عليها بانتهاء يوم عاشوراء، بل بقي حاضرًا في قلوبهم، تتوارثه الأجيال وتحيي ذكراه عامًا بعد عام. وبذلك لم تبقَ الفاجعة محصورةً في أرض كربلاء ولا في سنة إحدى وستين للهجرة، وإنما امتد أثرها في حياة الأمة ووجدانها إلى يومنا هذا.

ثانيًا: مصيبة عظمت على أهل السماوات

لم يختص الحزن بالمؤمنين من أهل الأرض، بل عظمت المصيبة على أهل السماوات أيضًا. فقد ورد أن الملائكة بكت على الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ، وأن الملائكة المحيطة بقبره الشريف لا تزال تبكيه.

قال الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ: «وَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ عِنْدَ قَبْرِهِ لَيَبْكُونَ، فَيَبْكِي لِبُكَائِهِمْ كُلُّ مَنْ فِي الْهَوَاءِ وَالسَّمَاءِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ»(٥٣٥).

وتكشف هذه الرواية أن مصيبة الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ لم تكن معلومةً عند البشر وحدهم، بل عرف أهل العالم العلوي منزلته وعظمة ما ارتُكب في حقه، فشاركوا أهل الأرض في الحزن والبكاء عليه.

ثالثًا: ظهور آثار المصيبة في الكون

لم تقتصر الروايات على ذكر بكاء الناس والملائكة، بل تحدثت عن ظهور آثار المصيبة في مخلوقات الكون. فقد روي عن الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ: «يَا

زُرَارَةُ، إِنَّ السَّمَاءَ بَكَتْ عَلَى الْحُسَيْنِ أَرْبَعِينَ صَبَاحًا بِالدَّمِ، وَإِنَّ الْأَرْضَ بَكَتْ أَرْبَعِينَ صَبَاحًا بِالسَّوَادِ، وَإِنَّ الشَّمْسَ بَكَتْ أَرْبَعِينَ صَبَاحًا بِالْكُسُوفِ وَالْحُمْرَةِ، وَإِنَّ الْجِبَالَ تَقَطَّعَتْ وَانْتَثَرَتْ، وَإِنَّ الْبِحَارَ تَفَجَّرَتْ، وَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ بَكَتْ أَرْبَعِينَ صَبَاحًا عَلَى الْحُسَيْنِ عَلَيْهِ السَّلَامُ»[٥٣٦].

وليس بكاء جميع المخلوقات على صورة واحدة؛ فبكاء الإنسان يكون بالدموع، أما بكاء السماء والأرض والشمس فيظهر بما يناسب طبيعتها من علامات وآثار. لذلك فسّرت الرواية بكاء السماء بالدم، وبكاء الأرض بالسواد، وبكاء الشمس بالكسوف والحمرة.

وامتد الحزن إلى الحيوانات أيضًا، كما قال الإمام الحسن عَلَيْهِ السَّلَامُ: «ويبكي عليك كل شيء، حتى الوحوش في الفلوات والحيتان في البحار»[٥٣٧]. وهكذا شملت آثار المصيبة الإنسان والملائكة والسماء والأرض والشمس والجبال والبحار والحيوانات.

رابعًا: عِظَم الجريمة عند الله تعالى

إن تأثر هذه العوالم جميعًا يكشف عن عظمة الجريمة عند الله تعالى؛ لأن المقتول لم يكن إنسانًا صالحًا فحسب، بل كان إمامًا معصومًا وحجةً لله وسبطًا لرسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ.

لذلك أخبر الإمام الحسن عَلَيْهِ السَّلَامُ أنه عند وقوع الجريمة «تحل ببني أمية اللعنة»؛ أي يستحق مرتكبوها الطرد من رحمة الله. ولم تكن العلامات التي ظهرت في الكون أحداثًا منفصلةً عن المصيبة، بل كانت شواهد تكشف عن فداحة ما ارتُكب بحق وليّ الله.

من هنا نفهم أن قول الإمام الحسن عَلَيْهِ السَّلَامُ: «لا يوم كيومك يا أبا عبد الله» لا يتصل بكثرة ما جرى في عاشوراء فقط، بل باتساع أثره أيضًا؛ فبعض

المصائب تحزن لها أسرة، وبعضها تحزن لها أمة، أما مصيبة الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ فقد بكى لها أهل الأرض وأهل السماوات، وظهرت آثارها في مخلوقات الكون.

المبحث السادس: عِظَم المصيبة من جهة استهداف الدين

لم تعظم مصيبة عاشوراء بسبب ما وقع فيها على الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ وأهل بيته وأصحابه فحسب، بل لأن ما جرى كان يستهدف الدين الذي جاء به رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ. فلم يخرج الإمام الحسين طلبًا للسلطة أو انتقامًا لنفسه، وإنما وقف في وجه مشروع أموي أراد إلباس الانحراف لباس الإسلام، وانتزاع اعتراف الإمام ليمنح الحكم الجائر شرعيةً دينيةً لا يستحقها.

من هنا، لا يكتمل فهم عظمة المصيبة بالنظر إلى ما أصاب الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ وحده، بل لا بد من معرفة الخطر الذي واجهه، والدين الذي ضحّى لحفظه، والنتائج التي حققتها شهادته. ويمكن توضيح ذلك في مطلبين:

المطلب الأول: الخطر الذي كان يهدد الدين

لم يكن النزاع بين الإمام الحسين ويزيد خلافًا شخصيًا، ولا تنافسًا بين رجلين على الحكم، بل كان صراعًا بين منهجين: منهجٍ يريد حفظ الإسلام كما أنزله الله وبلّغه رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، ومنهجٍ يستغل اسم الإسلام لتثبيت سلطة منحرفة.

كان يزيد يتولى حكم المسلمين، ولكنه لم يكن ملتزمًا بقيم الإسلام وأحكامه، ثم طلب من الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ أن يبايعه. ولم تكن البيعة مجرد مصافحة أو اعتراف بوجود حاكم، بل كانت تعني إقرار الإمام بشرعية يزيد وقبول

قيادته للأمة. فإذا بايعه سبط رسول الله وإمام زمانه، أمكن للسلطة أن تقول للناس: إن الحسين قد رضي بهذا الحكم وأقرّه، وبذلك يُقدَّم الحكم المنحرف للأمة على أنه حكم شرعي يمثل الإسلام.

من هنا ندرك أن رفض الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ للبيعة لم يكن دفاعًا عن مكانته الشخصية، بل دفاعًا عن حقيقة الإسلام؛ ولذلك قال: «مِثْلِي لَا يُبَايِعُ مِثْلَهُ»(٥٣٨). فقوله: «مثلي» و«مثله» يكشف أن القضية أكبر من شخص الحسين وشخص يزيد؛ إنها قضية كل إنسان يمثل خط النبوة في مواجهة مَن يمثل الفساد والانحراف.

وقد بيّن الإمام هدفه بقوله: «إِنَّمَا خَرَجْتُ لِطَلَبِ الْإِصْلَاحِ فِي أُمَّةِ جَدِّي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، أُرِيدُ أَنْ آمُرَ بِالْمَعْرُوفِ وَأَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ، وَأَسِيرَ بِسِيرَةِ جَدِّي وَأَبِي عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ»(٥٣٩).

تكشف هذه الكلمات أن المستهدف الحقيقي كان دين رسول الله وسيرته؛ فقد أصبح المنكر يُمارس باسم الحكم الإسلامي، وأصبحت طاعة السلطان الجائر تُقدَّم على طاعة الله. ولو سكت الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ أو بايع يزيد، لاعتاد الناس على أن الحاكم يستطيع أن يغيّر أحكام الدين ويخالف سيرة النبي، ثم يطالب الأمة بطاعته باسم الإسلام.

لهذا وقف الإمام موقفًا حاسمًا، وبيّن مسؤولية الأمة تجاه الانحراف قائلًا: «أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ قَالَ: مَنْ رَأَى سُلْطَانًا جَائِرًا، مُسْتَحِلًّا لِحُرَمِ اللهِ، نَاكِثًا لِعَهْدِ اللهِ، مُخَالِفًا لِسُنَّةِ رَسُولِ اللهِ، يَعْمَلُ فِي عِبَادِ اللهِ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ، فَلَمْ يُغَيِّرْ عَلَيْهِ بِفِعْلٍ وَلَا قَوْلٍ، كَانَ حَقًّا عَلَى اللهِ أَنْ يُدْخِلَهُ مُدْخَلَهُ»(٥٤٠).

بهذا أصبحت عاشوراء يومًا للفرقان؛ فقد سمّى الله يوم بدر «يوم الفرقان» لأنه ميّز الحق من الباطل، فقال تعالى: [يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ](٥٤١).

وفي عاشوراء ظهر الفرقان بصورة أخرى؛ ففي بدر وقف الإسلام في مواجهة الشرك المعلن، أما في عاشوراء فوقف الإسلام الأصيل في مواجهة إسلام محرّف تستتر خلفه السلطة.

وقف الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ ممثلًا لخط النبوة والعدل والإصلاح، ووقف يزيد وجيشه ممثلين للظلم وتحريف الدين واستغلال اسمه. وبذلك كشفت عاشوراء حقيقة الطرفين، وأسقطت الأقنعة التي كان الانحراف يختبئ خلفها؛ فصار الحسين ميزانًا يُعرف به طريق الحق، وصار قاتلوه مثالًا للانقلاب على قيم الإسلام.

من هنا عظمت المصيبة؛ لأن القوم لم يستهدفوا حياة الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ وحدها، بل أرادوا إخضاع حجة الله لسلطانهم، واستعمال بيعته لتثبيت الانحراف. كان قتل الحسين اعتداءً على الإنسان الذي يحمل الرسالة، واعتداءً على الرسالة التي يحملها في الوقت نفسه.

المطلب الثاني: حفظ الدين وخلود النهضة

تمكّن جيش يزيد في ظاهر المعركة من قتل الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ وأهل بيته وأصحابه، لكنه لم يستطع أن يحقق الهدف الأهم، وهو إخضاع الإمام وانتزاع اعترافه بشرعية الحكم المنحرف. فقد بقي الحسين ثابتًا على موقفه حتى آخر لحظة، ولم يمنح الظالمين الكلمة التي أرادوها منه.

لذلك لا يُقاس الانتصار في عاشوراء بعدد مَن بقي حيًا، ولا بمن امتلك الجيش والسلاح، بل يُقاس بما بقي من أهداف الطرفين. أراد يزيد تثبيت حكمه باسم الإسلام، فكشفت عاشوراء زيفه. وأراد إسكات صوت الإمام، فتحولت شهادته إلى صوتٍ باقٍ يوقظ الضمائر. وأراد أن تنتهي القضية بمقتل الحسين، فإذا بدمه يحفظ الدين ويكشف الانحراف على امتداد الأجيال.

وقد بيّن الإمام زين العابدين عَلَيْهِ السَّلَامُ هذه الحقيقة عندما سأله إبراهيم بن طلحة: مَن غلب؟ فقال له: «إِذَا أَرَدْتَ أَنْ تَعْلَمَ مَنْ غَلَبَ، وَدَخَلَ وَقْتُ الصَّلَاةِ، فَأَذِّنْ ثُمَّ أَقِمْ»(٥٤٢).

يشهد الأذان في كل يوم بوحدانية الله ورسالة محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، وتُقام الصلاة التي هي عمود الدين. فما دام اسم رسول الله يُرفع على المآذن، وتبقى الصلاة قائمة، فقد بقي الدين الذي استشهد الإمام الحسين دفاعًا عنه. أما المشروع الأموي الذي أراد فصل الحكم عن قيم النبوة، فقد سقط وبقي مقترنًا في ذاكرة الأمة بالظلم وقتل ابن رسول الله.

كما حفظت عاشوراء للأمة ميزانًا واضحًا تميّز به بين الإسلام الأصيل والإسلام الذي تستعمله السلطة لخدمة مصالحها. فقد يستطيع الظالم أن يرفع الشعارات الدينية، ويؤدي بعض المظاهر، لكنه يُعرف بموقفه من الحق والعدل وأحكام الله.

من هنا لم تعد كثرة الجيوش أو ادعاء الانتساب إلى الإسلام دليلًا على صحة الموقف؛ لأن جيش يزيد كان كثيرًا ويدّعي الإسلام، بينما كان الحسين وأصحابه قلة، لكن الحق كان معهم.

وبقيت نهضة الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ حيّة؛ لأن القضية التي نهض من أجلها لا ترتبط بزمن معين. ففي كل عصر يوجد حق يحتاج إلى مَن ينصره، وظلم يحتاج إلى مَن يقاومه، ودين قد يحاول بعض الناس تحريفه أو استغلاله.

لذلك ظل موقف الإمام يوقظ الضمائر، ويعلّم الأجيال أن حفظ الدين قد يتطلب التضحية، وأن المؤمن لا يمنح الظلم شرعيةً بصمته أو خضوعه.

لقد قُتل الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ جسدًا، لكن الهدف الذي قُتل من أجله بقي حيًا. وذهبت الدولة التي قاتلته، بينما بقي اسمه مقترنًا بالصلاة والإيمان والكرامة والإصلاح. ولا تزال الملايين تحيي ذكراه، وتتعلم من نهضته، وتجدد عهدها بالسير على طريقه.

وهـذه جهـة أخـرى تكشـف معنـى قـول الإمـام الحسـن عَلَيْهِ السَّلَامُ: «لَا يَـوْمَ كَيَوْمِكَ يَا أَبَا عَبْدِ الله»؛ لأن المصيبة لم تكن فقد إمام عظيم فحسب، بل كانت محاولةً لضرب الدينَ وقتل مَن نهض لحمايته. غير أن الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ قدّم نفسه وأهل بيته وأصحابه ليبقى الإسلام نقيًا، فتحولت شهادته من مصيبة وقعت في يوم واحد إلى نهضة خالدة تحفظ للأمة دينها، وتكشف لها طريق الحق من طريق الباطل.

إذن نفهم من قول الإمام الحسن عَلَيْهِ السَّلَامُ: «لَا يَوْمَ كَيَوْمِكَ يَا أَبَا عَبْدِ الله» أن يوم عاشوراء تفرّد بعِظَم مَن وقعت عليه المصيبة، وفظاعة مَن ارتكبها، واجتماع المصائب فيه، واتساع أثرها في الأرض والسماوات، واستهداف الدين من خلالها. ومع أن الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ انتصر بحفظ دين جده وكشف الانحراف، فإن لهذا الانتصار ثمنًا عظيمًا؛ فقد دفع دمه الشريف، وقدّم أهل بيته وأصحابه، ومضى إلى الشهادة معلنًا الغاية التي ضحّى من أجلها. فقد روي أنه عَلَيْهِ السَّلَامُ كان يقول عندما برز إلى القتال:

أنا الحسينُ بنُ علي آليتُ أن لا أَنثـــني
أحمي عيالاتِ أبي أمضي على دين النبي

وهكذا أعلن الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ ثباته على دين جده، ثم صدّق قوله بفعله؛ فبرز بشجاعة عظيمة، وقاتل القوم قتالًا شديدًا على الرغم مما أصابه من العطش والإعياء وكثرة الجراح. وقد روي أنه أخذ يضرب فيهم يمينًا وشمالًا، حتى قتل منهم خلقًا كثيرًا. فلما نظر الشمر إلى ذلك أقبل إلى عمر بن سعد وقال: أيها الأمير إن هذا الرجل يفنينا عن آخرنا مبارزة. قال: كيف نصنع به؟ قال:

نفترق عليه من كل مكان، فافترقوا عليه: فرقة ترميه بالنبال والسهام والحجارة. وفرقة يطعنونه بالرماح، وفرقة يضربونه بالسيوف حتى أثخنوه بالجراح. قال في اللهوف: حتى أصابته اثنتان وسبعون جراحة، وقيل ثلاثمائة وبضع وعشرون، وقيل أكثر من ذلك. فوقف ليستريح ساعة، وقد ضعف عن القتال؛ فبينما هو واقف! إذ أتاه حجر فوقع في جبهته فسالت الدماء على وجهه ولحيته.

(نصاري)

اوچب يستريح احسين ساعه ضعف حيله او ثگل بالسيف باعه
رن الحجر من وجهه ابشعاعه او دمه مثل ماي العين فجَّر

فأخذ الثوب ليمسح الدم عن وجهه إذ أتاه سهم محدد مسموم له ثلاث شعب فوقع في قلبه.

(نصاري)

شال احسين ثوبه يمسح الدم لن سهم المثلث ناجع ابسم
ابچبده طاح لاخر او تجدم هوه واظلم هواهه والسمه احمر

(نصاري)

شال الثوب يمسح دم جبينه او شابح للخيم والحرب عينه
أثاري اعداه چبده امعينينه رموه ابسهم لاكن ناجع ابسم

فقال الحسين: بسم الله، وبالله وعلى ملة رسول الله، ورفع رأسه إلى السماء، وقال: إلهي إنك تعلم إنهم يقتلون رجلا ليس على وجه الأرض ابن نبي

غيره، ثم أخذ السهم وأخرجه من وراء ظهره فانبعث الدم كالميزاب.

فوضع يده على الجرح، فلما امتلأت دماً رمى به إلى السماء فما رجع من ذلك الدم قطرة.

ثم وضع يده تحت الجرح فلما امتلأت دما لطخ به رأسه ولحيته، وقال: هكذا والله أكون حتى ألقى جدي محمدا، وأنا مخضوب، وأقول: يا رسول الله قتلني فلان وفلان[٥٤٣].[٥٤٤]

(نصاري)

ما خلّوا احسين ايشوف دربه — عليه اترادفت ضربه اعله ضربه

والمثلث ابحين الصاب گلبه — لزم جرحه ولطخ دمه اعله شيبه

وروي لما أثخن الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ بالجراح طعنه صالح بن وهب المزني على خاصرته طعنة فسقط الحسين عن فرسه إلى الأرض على خده الأيمن وهو يقول بسم الله وعلى ملة رسول الله.

وصاح شمر بأصحابه ما تنتظرون بالرجل؟ فحملوا عليه من كل جانب فضربه زرعة بن شريك على كتفه اليسرى ثم ضربه على عاتقه وضربه زرعة فصرعه، وضربه آخر على عاتقه المقدس بالسيف ضربة كبا عَلَيْهِ السَّلَامُ بها لوجهه وكان قد أعيا وجعل ينوء ويكبو فطعنه سنان بن أنس النخعي في ترقوته ثم انتزع الرمح فطعنه في بواني صدره والحصين بن نمير في فيه وأبو أيوب بسهم مسموم في حلقه فقال عَلَيْهِ السَّلَامُ :

بسم الله ولا حول ولا قوة إلا بالله وهذا قتيل في رضا الله وأخذ دمه بكفيه وصبه على رأسه مرارا.[٥٤٥]

(نصاري)

اجته خيل عدوانه وهو اجريح — او ظل احسين ويلي ايگوم وايطيح
گعد ودموم گلبه اتفيض واتسيح — او كل اكتار جسمه ادمومها اتفور
مشاله مالك بن النسر بالسيف — اوصاب احسين فوگ الراس يا حيف
او ظل دمه يفيض ابغير توصيف — توزع برنسه واتشطر اشطور
ظل احسين واگع وانغشه عليه — ثلث ساعات محَّد يجسر ايجيه
بس مهره بگه يفتر حواليه — أيَّس وانگلب يصهل بالخدود

قال في المنتخب: كان عَلَيْهِ السَّلَامُ ينادي وا جداه وا محمداه وا أبا قاسماه وا أبتاه وا علياه أأقتل عطشانا وجدي محمد المصطفى أأقتل عطشانا وأبي علي المرتضى وأمي فاطمة الزهراء. وكأني بزينب تسمعه وتقول:

(أبوذية)

يخويه اللي يخلصك ليش مايه — او دم احسين صار الدمع مايه
يريت العلگمي ينگطع مايه — ولا ظامي تظل يبن الزكيه

وقال بعضهم لبعض ما تنتظرون بالرجل انزلوا إليه وأريحوه فنزل إليه شمر وسنان وهو بآخر رمق يلوك بلسانه من شدة العطش فرفسه شمر وقال لسنان احتز رأسه فقال والله ما أفعل فيكون جده محمد خصمي.

فغضب شمر وجلس على صدر الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ وقبض على لحيته وقال أقتلك ولا أبالي فضربه بالسيف اثنتي عشرة ضربة واحتز رأسه الشريف.

أي وا إماماه وا سيداه وا حسيناه.

(نصاري)

هوت فوگه تشم كسر البضلعه أخوي الما طبع يشبه الطبعه
غابت روحها او فزت تودعه او لن راسه على الميّاد يزهر

وأعظم ما بي شجوُ زينبَ إذ رأت أخاها طريحا للمنايا يُمارسُ
أخي اليومَ ماتَ المصطفى ووصيُّه ولم يبقَ للإسلامِ بعدَك حارسُ
أخي مَن لأطفال النبوةِ يا أخي ومن لليتامى إن مضيتَ يوانس[٥٤٦]

١٣ محرم

دفن شهداء الطف
الإمام الحسين و أهل بيته (عليهم السلام)

السلام على العترة الغريبة

اليوم الثالث عشر من محرّم الحرام

المناسبة: دفن شهداء الطف

القصيدة: للشيخ عبد الحسين شكر

البِدارَ البِدارَ آلَ نِزارِ ... قد فُنيتم ما بين بيضِ الشِفار

سلبتْكُم بالطفِّ أيَّ نفوسٍ ... ألبستْكُمْ ذُلا مدى الأعمار

يومَ جَدَّتْ بالطفِّ كل يمين ... من بني غالبٍ وكلَّ يسار

لا تَلِدْ هاشميةٌ علوياً ... إن تركتم أميةً بقرار

طأطئوا الرؤوسَ إن رأسَ حسينٍ ... رفعتْه فوق القنا الخَطَّار

لا تذوقوا المعينَ واقضوا ظمايا ... بعد ظامٍ قضى بحدِّ الغِرار

أنِزارُ نضُّوا بُرودَ التهاني ... فحسينٌ على البسيطةِ عاري

لا تُمُّدوا لكم عن الشمسِ ظِلّا ... إن في الشمسِ مهجةَ المختار

حقَّ أنْ لا تكفِّنوا علويا ... بعد ما كَفَّنَ الحسينَ الذاري

لا تَشُقّوا لآلِ فِهرٍ قبورا ... فابنُ طه ملقىً بلا إقبارِ

هتِّكوا عن نسائِكم كلَّ خدرِ ... هذه زينبٌ على الأكوار

شـأنُها النـوحُ ليـس تهـدأُ آنـاً ... علـى بـكاً بالعشـيِّ والإبـكار

أيـن مَـن أهلُها بنـو شيبـةِ الحمـدِ ... ليـوثُ الوغـى حمـاةُ الذمـار[٥٤٧]

(موشح)

جينـه ننشـد كربلـه اعليـه انعتـب ... اتگـول هـاي ارجـال واتـدور الغلـب

حرمـه زينـب بيـش مطلوبـه ابذنـب ... فـوگ چتل احسـين واميسرينها

ارد انشـدچ كربلـه عـن النـزِل ... بـالله خبريني او گولـچ مـا يـزل

زينـب اتركـب اليتامـى اعلـه الهـزل ... يـو عـلي السـجاد گام ايعينهـا

ارد انشـدچ هـم صـدگ بالشـام عيـد ... حطـوا ابطشـت الذهـب راس الشـهيد

مـن مشـت زينـب ابديوانـه يزيـد ... جاعـده يـو واجعفـه اخلينـا[٥٤٨]

موضوع المحاضرة الثانية عشرة:

مشروعية الجزع على الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ

روي عن الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ:

﴿كل الجزع والبكاء مكروه ما خلا الجزع والبكاء لقتل الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ﴾(٥٤٩).

يُحيي أتباع أهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ ذكرى الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ بصور متعددة من الحزن والمواساة؛ كالبكاء والندب وإقامة مجالس العزاء وارتداء السواد وبذل المال والطعام. وقد يمارس بعض المؤمنين هذه الشعائر حبًّا للإمام الحسين وتأسيًا برسول الله وأهل بيته عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، من دون معرفة تفصيلية بأدلتها الشرعية، أو القدرة على الإجابة عما يُثار حولها من شبهات.

قد يقال:

كيف يجوز الجزع على الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ، مع أن القرآن الكريم والروايات حثّا على الصبر ونهيا عن الجزع عند المصائب؟

كما تصف بعض الجهات هذه الممارسات بأنها مبالغة في الحزن أو أعمال لا أصل لها في الشريعة. لذلك ينبغي للمؤمن أن يؤديها عن معرفة وبصيرة، لا بدافع العادة وحدها.

تأتي هذه المحاضرة لتوضيح مفهوم الجزع وأنواعه وأحكامه، وبيان الأدلة على مشروعية الجزع على الإمام الحسين والشعائر الحسينية.

كما تجيب عن شبهة مهمة، وهي:

لماذا نبكي على الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ ونجزع لمصابه، مع علمنا بأنه سيد شباب أهل الجنة، وأنه فاز بالشهادة والكرامة والنعيم الأبدي؟

المبحث الأول: مفهوم الجزع وأحكامه

المطلب الأول: مفهوم الجزع

الجَزَع نقيض الصبر[٥٥٠]، ويُراد به خروج الإنسان عند المصيبة عن حالته المعتادة، ومجاوزته الحدّ المتعارف في إظهار الحزن والألم، سواء ظهر ذلك في باطنه أم قوله أم فعله.

ولا يُعدّ كل إظهار للحزن جزعًا؛ لأن الحزن عند فقد الأحبّة أمر فطري، وله مظاهر معتادة، كالبكاء، وهو جريان الدموع وقد يصاحبه صوت؛ والنحيب، وهو البكاء المتقطّع المصحوب بالشهقات؛ والنوح، وهو إظهار التفجّع على الميت بصوت مسموع، شعرًا أو نثرًا؛ والندب، وهو تعداد محاسن الميت والتحسّر عليه بعبارات الرثاء، كقولهم: «وا أبتاه» أو «وا فلاناه». ولا تُعدّ هذه المظاهر بمجردها جزعًا خارجًا عن المتعارف، ما دامت في حدود الاعتدال ولم تقترن باعتراض على الله تعالى أو بفعل محرّم.

أما إذا اشتدّ الحزن وتجاوز الإنسان في التعبير عنه الحدّ المعتاد، عُدّ ذلك من الجزع. ومن مظاهره العويل، وهو رفع الصوت بشدة مع الصراخ والبكاء؛ والدعاء بالويل والثبور، والويل كناية عن الشدة والعذاب، والثبور بمعنى الهلاك؛ وكذلك ضرب الجبين أو الخد أو الفخذ، وشقّ الثوب، ونتف الشعر أو جزّه، والامتناع عن الطعام، ونحو ذلك مما يكشف عن شدة الحزن وعدم التحمّل.

فالفرق بين الحزن الطبيعي والجزع يرجع إلى مقدار التعبير عن الحزن وكيفيته؛ فما بقي ضمن الحدّ المعتاد كان حزنًا طبيعيًا، وما تجاوزه عُدّ جزعًا. ولا يعني ذلك أن جميع صور الجزع محرّمة؛ بل يختلف حكمها باختلاف ما تشتمل عليه والدليل الوارد فيها.

المطلب الثاني: أحكام الجزع

الحكم الأصلي للجزع عند المصائب الاعتيادية هو الكراهة، إذا لم يشتمل على محرّم؛ فقد قال الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ: «كلّ الجزع والبكاء مكروه»[٥٥١]. وقد يتحول بعض مصاديقه إلى الحرمة إذا اقترن بالاعتراض على الله تعالى أو بقول أو فعل محرّم، كما استُثني الجزع على الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ من الكراهة، ودلّت النصوص الخاصة على رجحانه واستحبابه، ما لم يقترن بمحرّم مستقل.

وعلى هذا، يمكن بحث أحكام الجزع في ثلاثة أقسام: الجزع المحرّم، والجزع المكروه، والجزع المستحب على الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ.

أولًا: الجزع المحرّم

هو الجزع الذي يشتمل على اعتراض على الله تعالى، أو يقترن بقول أو فعل محرّم، وله صورتان:

- الجزع الظاهري

كالجزع القولي ومنه النوح أو النياحة المتضمن للكذب، وكالجزع الفعلي المحرّم، كالانتحار، أو إتلاف عضو من أعضاء البدن، أو إحداث ضرر بليغ بالنفس. فهذه الأفعال لا تصبح جائزة بسبب شدة المصيبة؛ لأنها محرّمة بعناوينها الخاصة.

◆ الجزع الباطني الاعتقادي

هو أن تؤدي المصيبة بالإنسان إلى التسخّط على قضاء الله تعالى، أو إساءة الظن بعدله وحكمته، أو اتهامه بالظلم والعبث؛ كأن يقول: لماذا ظلمني الله؟ ولماذا أخذ مني فلانًا؟ ولماذا يعيش غيري في العافية بينما أنتقل أنا من مصيبة إلى أخرى؟ ألست أعبد الله وأصلّي له؟ فلماذا يفعل بي ذلك؟

فهذه العبارات لا تعبّر عن مجرد الحزن، بل تتضمن اعتراضًا على الله تعالى والمنّ عليه بالعبادة، مع أنه سبحانه يقول: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾[٥٥٢]. وقد لخّص أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ هذا المعنى بقوله: «التوحيد أن لا تتوهّمه، والعدل أن لا تتّهمه»[٥٥٣]، فالعدل يقتضي ألا يتهم الإنسان ربّه بالظلم أو العبث بسبب ما نزل به، وإن خفيت عليه الحكمة من المصيبة.

ولا يعني ذلك أن المؤمن لا يحزن أو يتألم؛ فدمع العين وحرقة القلب لا ينافيان الرضا بقضاء الله. كما لا يُعدّ كل سؤال عن سبب المصيبة اعتراضًا؛ فقد يسأل الإنسان ليعرف أسباب البلاء أو ما ينبغي له فعله. وإنما يكون المحرّم هو التسخّط على الله واتهامه في عدله وحكمته، لا مجرد الحزن أو الخاطر العابر الذي لا يستقر عليه الإنسان.

ثانيًا: الجزع المكروه

هو الجزع الذي يخلو من الاعتراض على الله ومن الأقوال والأفعال المحرّمة، لكنه يعبّر عن فقدان الصبر والتماسك؛ فيكون جائزًا على نحو الكراهة، أي لا يستحق فاعله العقاب، لكن تركه أولى وأفضل.

ومن أمثلة الجزع المكروه:

١. البكاء الشديد أو المستمر: وهو ما يتجاوز المقدار المتعارف في شدته أو

مدته، من دون أن يقترن بعدم الرضا بقضاء الله أو بفعل محرّم.

٢. الضرب واللطم: كضرب الفخذين أو لطم الصدر أو الرأس بما يتجاوز المقدار المعتاد من دون إحداث ضرر بليغ.

٣. الصراخ والعويل: وهو رفع الصوت بالبكاء أو النوح رفعًا شديدًا ومستمرًّا يتجاوز المقدار المتعارف من دون أن يبلغ درجة الفعل المحرّم.

فهذه المظاهر قد تدخل في الجزع المكروه إذا تجاوزت الحد المعتاد من دون أن تقترن بمحرّم. وهناك أفعال اختلف الفقهاء في أحكامها؛ فحكم بعضهم بحرمة بعضها، واحتاط بعضهم في اجتنابها، بينما حكم آخرون بكراهتها أو جوازها بحسب ما ثبت لديهم من الأدلة؛ لذلك يرجع المكلّف إلى فتوى مرجع تقليده. ومن أبرزها:

١ـ جزّ الشعر أو نتفه: الجزّ قصّ الشعر، والنتف اقتلاعه من جذوره. وقد تناول البحث الفقهي خصوصًا جزّ المرأة شعرها أو نتفه عند المصيبة.

٢ـ خدش الوجه مع الإدماء: هو جرح المرأة وجهها حتى يخرج الدم، أما الخدش الذي لا يسبب خروج الدم فلا يدخل في الحكم الخاص المتعلق بالإدماء.

٣ـ شقّ الثوب: هو تمزيقه تعبيرًا عن شدة الحزن، وقد ورد البحث الفقهي خصوصًا في شقّ الرجل ثوبه عند موت زوجته أو ولده.

٤ـ الدعاء بالويل والثبور: هو أن يدعو الإنسان عند المصيبة بالهلاك، كقوله: «وا ويلاه، وا ثبوراه». وقد تقاربه في زماننا عبارات مثل: «اللهم أمتني» أو «خلّصني من هذه الحياة» إذا قُصد بها طلب الموت والهلاك. أما قول الإنسان: «يا ويلي» لمجرد التعبير عن الألم، من دون قصد الهلاك أو الاعتراض على الله تعالى، فلا يحمل الحكم نفسه.

لكن ينبغي الانتباه إلى أنه لا يصح الحكم على جميع مظاهر الجزع بحكم واحد؛ لأن الحكم قد يختلف باختلاف نوع الفعل؛ فالبكاء يختلف عن الانتحار:

الأول جائز في نفسه، وقد يكون راجحًا، أما الثاني فمحرّم.

وقد يختلف أيضًا باختلاف كيفية الفعل ونتيجته؛ فاللطم الذي لا يسبب ضررًا بليغًا يختلف عن اللطم العنيف المؤدي إلى جرح خطير: الأول قد يكون جائزًا، أما الثاني فيحرم إذا صدق عليه عنوان الإضرار المحرّم.

وبذلك يكون الجزع في سائر المصائب مكروهًا إذا عبّر عن فقدان الصبر من دون أن يقترن بمحرّم، ومحرّمًا إذا اشتمل على اعتراض على الله أو على قول أو فعل محرّم.

والمطلوب من المؤمن أن يسعى إلى الصبر والتماسك، قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ۝ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾[٥٥٤].

وهذا لا يعني أن الإنسان مأمور بألّا يحزن أو يتأثر؛ فهو ليس مَلَكًا ولا يُطالب بإلغاء مشاعره، وإنما المطلوب ألّا يتحول حزنه إلى اعتراض على الله أو إلى فعل محرّم، وأن يسعى إلى الصبر بقدر استطاعته.

ثالثًا: الجزع المستحب على الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ

أما الجزع الذي نصّت الروايات الخاصة على رجحانه واستحقاق الأجر عليه، فهو الجزع على الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ، بشرط ألا يقترن بمحرّم مستقل، كالاعتراض على الله تعالى أو الكذب أو الإضرار البليغ بالنفس. وسيأتي بيان أدلة استحبابه ومظاهره في المبحث الآتي:

المبحث الثاني: مشروعية الجزع على الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ

انتهى المبحث السابق إلى أن الجزع في سائر المصائب قد يكون محرّمًا إذا اشتمل على اعتراض على الله تعالى أو على قول أو فعل محرّم، وقد يكون مكروهًا إذا عبّر عن فقدان الصبر من دون أن يبلغ درجة الحرمة. غير أن النصوص الشرعية أثبتت للجزع على الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ حكمًا خاصًّا، فاستثنته من الحكم الوارد في سائر المصائب، ورتّبت الأجر عليه.

والأحكام الشرعية لا تثبت بالأذواق والانطباعات، وإنما تُعرف من أدلتها، ومن أهمها القرآن الكريم والسنّة الشريفة. والسنّة هي: «قول المعصوم وفعله وتقريره»[٥٥٥]؛ فالحكم قد يُعرف من كلام المعصوم، أو من الفعل الصادر عنه، أو من إقراره فعلًا صادرًا من غيره.

ولتقريب ذلك بمثال مختصر: إذا قال المعصوم: «يجوز الطواف حول الكعبة راكبًا»، ثبت الجواز بقوله، وإذا شوهد يطوف راكبًا، استفيد الجواز من فعله، وإذا طاف شخص أمامه راكبًا فسكت عنه مع علمه وقدرته على الإنكار، دلّ سكوته على الجواز من جهة تقريره.

وعلى هذا الأساس، سنتناول مشروعية الجزع في مطلبين: نثبت في الأول أصل جواز الجزع على حجج الله وأوليائه، ثم نبيّن في الثاني خصوصية الجزع على الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ، ودلالة النصوص على رجحانه واستحبابه.

المطلب الأول: مشروعية الجزع على أولياء الله

لا تنحصر مشروعية الجزع بالإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ فقد دلّت النصوص على جواز الحزن البالغ والجزع على حجج الله وأوليائه إذا لم يقترن بمحرّم. وإذا ثبت أصل الجواز في حق أولياء الله، شمل الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ لأنه

من أعظم حجج الله وأوليائه، ولأن «حكم الأمثال فيما يجوز وفيما لا يجوز واحد»[٥٥٦]. وقد دلّ على مشروعية ذلك القرآن الكريم والسنّة الشريفة، كما يأتي:

أولًا: الدليل القرآني

يعرض القرآن الكريم في قصة نبي الله يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ نموذجًا واضحًا للجزع على أحد أولياء الله، فقال تعالى: ﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾[٥٥٧].

فلم يقف حزن يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ على ولده يوسف عند المقدار المتعارف، بل اشتدّ واستمرّ حتى بلغ حدّ الجزع؛ فابيضّت عيناه من كثرة البكاء، كما ابيضّ شعره، واحدودب ظهره، وأسرع إليه الهرم. ولما سُئل الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ عن مقدار حزن يعقوب على يوسف عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، قال: «حزن سبعين ثكلى بأولادها»[٥٥٨].

ومع بلوغ حزنه هذه المرتبة، لم يذمّه القرآن ولم يعدّه معترضًا على الله تعالى، بل نقل عنه قوله: ﴿إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾[٥٥٩]؛ فجمع بين شدة الحزن وكثرة البكاء، وبين الصبر والتسليم والالتجاء إلى الله. وهذا يثبت أن الحزن البالغ لا ينافي الصبر ما دام خاليًا من الاعتراض على الله والتسخّط على قضائه.

وإذا ثبتت مشروعية هذا الحزن على نبي الله يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ، كانت مشروعيته على الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ أوضح من جهتين:

الحيثية الأولى: عِظم منزلة الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ

قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «حسين مني وأنا من حسين»، فالإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ امتدادٌ للنبي ومظهرٌ لرحمته. وإذا كان النبي رحمةً للعالمين،

والعالمون يشملون الأنبياء ومنهم يعقوب ويوسف عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، فإن الحسين رحمةٌ لهم بهذا المعنى؛ لذلك كانت أولوية الحزن على الإمام الحسين أعظم من الحزن على يوسف عَلَيْهِمَا السَّلَامُ.

الحيثية الثانية: عِظم ما جرى عليه

كان يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ حيًّا محفوظًا بعناية الله، ولم يكن يعقوب يعلم بموته، ومع ذلك بلغ حزنه عليه تلك المرتبة. أما الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ فقد قُتل مظلومًا عطشانًا مع أهل بيته وأصحابه، وشاهد الإمام زين العابدين عَلَيْهِ السَّلَامُ تلك المصائب بعينيه.

ولهذا استشهد الإمام زين العابدين عَلَيْهِ السَّلَامُ بقصة يعقوب حين سُئل عن كثرة بكائه، فقال: «لا تلوموني، فإن يعقوب فقد سبطًا من ولده فبكى حتى ابيضّت عيناه، ولم يعلم أنه مات، وقد نظرت إلى أربعة عشر رجلًا من أهل بيتي في غداة واحدة، أفترون حزنهم يذهب من قلبي؟»[٥٦٠].

وبذلك لا يكون تطبيق قصة يعقوب على مصيبة كربلاء قائمًا على مجرد القياس؛ فقد استدل الإمام زين العابدين عَلَيْهِ السَّلَامُ نفسه بها على مشروعية استمرار حزنه وبكائه على أهل بيته.

ثانيًا: الدليل الروائي

وردت روايات تدل على صدور الجزع والحزن البالغ من المعصومين عَلَيْهِمُ السَّلَامُ على حجج الله وأوليائه، ونذكر منها:

١ـ رُوي عن أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ أنه قال عند وقوفه على قبر رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «إنّ الصبر لجميل إلا عنك، وإنّ الجزع لقبيح إلا عليك»[٥٦١].

٢ـ عدّ الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ السيدة فاطمة الزهراء عَلَيْهَا السَّلَامُ من البكّائين

الخمسة، فقال: «البكّاؤون خمسة: آدم، ويعقوب، ويوسف، وفاطمة بنت محمد، وعلي بن الحسين عَلَيْهِمُ السَّلَامُ»، ثم قال: «وأما فاطمة فبكت على رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ حتى تأذّى بها أهل المدينة، فقالوا لها: قد آذيتنا بكثرة بكائك، فكانت تخرج إلى المقابر ـ مقابر الشهداء ـ فتبكي حتى تقضي حاجتها، ثم تنصرف»[٥٦٢].

فلم يكن بكاؤها عابرًا، بل كان شديدًا ومستمرًّا، فتجاوز المقدار المتعارف ودخل في معنى الجزع.

وهكذا تثبت الآيات والروايات أصل جواز الجزع على حجج الله وأوليائه، ما لم يقترن بمحرّم. غير أن هذه الأدلة تثبت الجواز ولا تكفي وحدها لإثبات استحباب جميع صور الجزع على الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ لأن الاستحباب يحتاج إلى دليل خاص، وهذا ما نتناوله في المطلب الآتي:

المطلب الثاني: خصوصية الجزع على الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ

ثبت في المطلب السابق جواز الجزع على حجج الله وأوليائه، لكن مجرد الجواز لا يبيّن أن الجزع على الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ مستحب ومأجور عليه. وقد أثبتت النصوص الخاصة هذه الخصوصية بأقوال المعصومين وأفعالهم وتقريراتهم، ويمكن ترتيبها في أربعة أقسام:

أولًا: روايات استثناء الجزع على الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ

وردت روايات صريحة تستثني الجزع والبكاء على الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ من الحكم الوارد في سائر المصائب، منها:

١ـ قول الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ: «كل الجزع والبكاء مكروه، ما خلا الجزع والبكاء لقتل الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ»(٥٦٣).

٢ـ ما رُوي عن علي بن أبي حمزة، عن الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ أنه قال: «إنّ البكاء والجزع مكروه للعبد في كل ما جزع، ما خلا البكاء والجزع على الحسين بن علي عَلَيْهِمَا السَّلَامُ؛ فإنه فيه مأجور»(٥٦٤).

تدل الرواية الأولى على استثناء الجزع والبكاء على الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ من الكراهة، بينما صرّحت الثانية بترتب الأجر عليهما؛ فدلّتا معًا على رجحانهما واستحبابهما، لا على مجرد جوازهما.

ولا غرابة في ورود هذا الاستثناء؛ فقد يأتي في الشريعة حكم عام، ثم يرد دليل خاص يستثني منه بعض الحالات. فصيام شهر رمضان واجب، لكن المريض الذي يضرّه الصوم والمسافر مستثنيان من وجوب أدائه. وكذلك الجزع؛ فقد ورد حكم عام في سائر المصائب، ثم استثنت النصوص منه الجزع على الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ لما لمصيبته ومكانته من خصوصية عظيمة.

ولكن ما المقصود بالكراهة في الرواية؟

قد يقال: لو حُملت الكراهة هنا على معناها الفقهي، لزم الحكم بكراهة كل بكاء على غير الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ، مع أن نصوصًا أخرى دلّت على رجحان البكاء على المؤمنين والصالحين. فقد رُوي أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ لما رجع من واقعة أُحد وسمع البكاء على قتلى الأنصار، قال متألمًا لعدم وجود من يبكي عمه: «لكنّ حمزة لا بواكي له»، فصار أهل المدينة يبدؤون بالبكاء على حمزة قبل موتاهم(٥٦٥). وروي عنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ أنه سأل ربّه: «أيّ عبادك أحبّ إليك؟ قال: الذي يبكي لفقد الصالحين، كما يبكي الصبي لفقد أبويه»(٥٦٦).

ولهذا حمل بعض العلماء الكراهة في رواية الجزع على معنى ينسجم مع هذه

النصوص. قال السيد السبزواري (ره): «فلا بد من تأويله، كالإرشاد إلى أقلية ثواب البكاء على غيره عَلَيْهِ السَّلَامُ عن البكاء عليه، أو نحو ذلك»[٥٦٧].

وذكر المحقق النراقي أن الرواية محمولة على المبالغة في بيان عِظم أجر البكاء على الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ[٥٦٨].

ولتقريب المعنى: لو افترضنا أن البكاء على المؤمن يوجب خمس درجات من الأجر، فإن البكاء على الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ يوجب أضعاف ذلك، وهذه الأعداد للتوضيح لا لتحديد مقدار الثواب. وقد فسّر علماء آخرون الكراهة بالكراهة العرفية أو بعدم ترتب أجر خاص على بعض صور البكاء الاعتيادي[٥٦٩]. وهذه التفسيرات تشترك في أن الرواية لا تريد ذمّ كل بكاء على غير الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ، وإنما تريد بيان خصوصية البكاء والجزع عليه وعِظم ثوابهما.

ثانيًا: روايات الحث على الجزع على الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ

لم تكتفِ الروايات باستثناء الجزع على الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ من الكراهة، بل حثّت على إظهاره، ومدحت أهل الجزع ودعت لهم بالرحمة، ومن ذلك:

١ـ جاء في دعاء الندبة: «فعلى الأطايب من أهل بيت محمد وعلي فليبكِ الباكون، وإياهم فليندب النادبون، ولمثلهم فلتذرف الدموع، وليصرخ الصارخون... هل من معين فأطيل معه العويل والبكاء؟ هل من جزوع فأساعد جزعه إذا خلا؟»[٥٧٠].

٢ـ رُوي عن مالك الجهني أن الإمام الباقر عَلَيْهِ السَّلَامُ قال في بيان وظيفة من أراد إحياء يوم عاشوراء وهو بعيد عن كربلاء: «ليندب الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ ويبكيه، ويأمر من في داره بالبكاء عليه، ويقيم في داره مصيبته بإظهار الجزع عليه، ويتلاقون بالبكاء بعضهم بعضًا بمصاب الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ، فأنا ضامن لهم

إذا فعلوا ذلك على الله عز وجل جميع هذا الثواب»[٥٧١].

٣ـ رُوي عن مسمع بن عبد الملك أنه قال: قال لي الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ: «أما تذكر ما صُنع به؟» قلت: نعم. قال: «فتجزع؟» قلت: إي والله، وأستعبر لذلك، حتى يرى أهلي أثر ذلك عليّ، فأمتنع عن الطعام حتى يستبين ذلك في وجهي. فقال عَلَيْهِ السَّلَامُ: «رحم الله دمعتك، أما إنك من الذين يُعدّون من أهل الجزع لنا، والذين يفرحون لفرحنا، ويحزنون لحزننا»[٥٧٢].

٤ـ وروي عن معاوية بن وهب أنه سمع الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ يناجي ربّه ويقول في دعائه لزوّار الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ: «وارحم تلك الأعين التي جرت دموعها رحمةً لنا، وارحم تلك القلوب التي جزعت واحترقت لنا، وارحم الصرخة التي كانت لنا»[٥٧٣].

وهذه النصوص صريحة في الحث على البكاء والندب والجزع والصرخة، وفي مدح أهل الجزع والدعاء لهم بالرحمة، فتدل على رجحان الجزع على الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ وترتب الثواب عليه.

ثالثًا: روايات صدور الجزع عن المعصوم

لم يقتصر الأمر على حثّ المعصومين على الجزع، بل صدر منهم أيضًا. وكان من أبرز مظاهره بكاؤهم الشديد أو المتكرر أو المستمر؛ فليس كل بكاء جزعًا، وإنما يدخل في الجزع إذا تجاوز المقدار المتعارف في شدته أو استمراره.

ويشهد لذلك قول الإمام الرضا عَلَيْهِ السَّلَامُ: «إنَّ يوم الحسين أقرح جفوننا وأسبل دموعنا»[٥٧٤]. فنسب الإمام ذلك إلى أهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ بقوله: «جفوننا» و«دموعنا»، مبينًا أن مصيبة الحسين عليه السلام أورثتهم بكاءً شديدًا ومتواصلًا، بلغ من كثرته أن آلم جفونهم وأصابها بالتقرّح؛ مما يجعله من أوضح مصاديق الجزع. ومن نماذج ذلك:

✦ بكاء رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ

لم يكن بكاء رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ على الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ بكاءً عابرًا واقعًا ضمن المقدار المتعارف، بل تكرّر وتجدّد في أزمنة وأمكنة متعددة، فدخل بذلك في الحزن البالغ والجزع. فقد بكى عليه مرارًا وهو ما يزال طفلًا، كلما أخبره الوحي بمقتله، كما تعدّد الملائكة الذين أخبروه وحملوا إليه تربة كربلاء؛ فكان منهم جبرئيل وملك المطر وغيرهما. ولو كان المقصود حزنًا عابرًا، لكفى إخباره بالمصيبة مرة واحدة، لكن تكرار الإخبار وتجدد بكائه في كل مرة يكشفان عن عظمة المصاب وإرادة إبقائه حاضرًا في الوجدان. ولتفصيل هذه الروايات وطرقها يُراجع كتاب الشيخ أحمد الماحوزي: الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ فوق ما قيل ويقال[٥٧٥].

✦ بكاء الإمام زين العابدين عَلَيْهِ السَّلَامُ

بلغ حزن الإمام زين العابدين عَلَيْهِ السَّلَامُ على أبيه حدًّا جعله من «البكّائين الخمسة». وروي عن الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ:

«إنّ زين العابدين عَلَيْهِ السَّلَامُ بكى على أبيه أربعين سنة، صائمًا نهاره، قائمًا ليله، فإذا حضر الإفطار جاء غلامه بطعامه وشرابه، فيقول: كُلْ يا مولاي، فيقول: قُتل ابن رسول الله جائعًا، قُتل ابن رسول الله عطشانًا، فلا يزال يكرّر ذلك ويبكي حتى يبلّ طعامه بدموعه، ويمزج شرابه بدموعه، فلم يزل كذلك حتى لحق بالله عز وجل»[٥٧٦].

ولشدة حزنه كان يربط بعض المشاهد بمصيبة أبيه؛ فنُقل أنه رأى جزارًا يريد ذبح شاة، فسأله: «هل سقيتها الماء؟»، فلما أجابه بالإيجاب بكى وقال: «لقد ذُبح أبو عبد الله عطشانًا»[٥٧٧].

ولم تُعرف دلالة جزعه من شدة بكائه واستمراره فقط، بل صرّح الإمام نفسه به حين وصف ما شاهده يوم الطف، فقال: «فكادت نفسي تخرج»، فلما قالت له عمته زينب عَلَيْهَا السَّلَامُ: «ما لي أراك تجود بنفسك يا بقية جدي وأبي وإخوتي؟»، أجابها: «وكيف لا أجزع وأهلع، وقد أرى سيدي وإخوتي وعمومتي ووُلد عمي وأهلي مصرّعين بدمائهم، مرمّلين بالعراء؟»(٥٧٨).

وهذه الرواية صريحة في صدور الجزع عن الإمام؛ لقوله: «وكيف لا أجزع وأهلع».

رابعًا: روايات إقرار المعصوم للجزع

وردت كذلك نصوص تدل على إقرار المعصوم بعض مظاهر الجزع الصادرة من غيره؛ أي علمه بها وعدم إنكاره لها، أو تصريحه باستحسانها، ومن ذلك:

١ـ رُوي عن خالد بن سدير، عن الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ أنه قال: «وقد شققن الجيوب، ولطمن الخدود ـ الفاطميات ـ على الحسين بن علي عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، وعلى مثله تُلطم الخدود وتُشقّ الجيوب»(٥٧٩).

ولا تقتصر الرواية على نقل فعل الفاطميات؛ فإن قول الإمام: «وعلى مثله تُلطم الخدود وتُشقّ الجيوب» يتضمن إقرارًا صريحًا لما صدر منهن، وبيانًا لخصوصية مصيبة الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ.

٢ـ وروي أن دعبل الخزاعي أنشد في محضر الإمام الرضا عَلَيْهِ السَّلَامُ:

«أفاطمُ لو خِلتِ الحسينَ مجدّلًا وقد مات عطشانًا بشطّ فراتِ

إذًا للطمتِ الخدَّ فاطمُ عنده وأجريتِ دمعَ العين في الوجناتِ»(٥٨٠).

فلم ينكر الإمام الرضا عَلَيْهِ السَّلَامُ مضمون الأبيات، بل تأثر وبكى عند سماعها؛ فيكون ذلك مؤيدًا لمشروعية ما تضمّنته من مظاهر الجزع.

المبحث الثالث: مشروعية الشعائر الحسينية

بعد أن تبيّن رجحان الجزع على الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ واستحبابه، يبقى السؤال عن كيفية التعبير عنه. وقد ظهر هذا الحزن في صور متعددة، كالبكاء، ومجالس العزاء، وإنشاد المراثي، والزيارة، وبذل المال والطعام، ولبس السواد، واللطم، وتمثيل واقعة الطف. وتُسمّى هذه المظاهر بالشعائر الحسينية؛ لأنها تُظهر الحزن على الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ وتُبقي قضيته حاضرة في النفوس. وتُراعى فيها الضوابط الشرعية، فلا تشتمل على الكذب أو الهتك أو الضرر البليغ أو الإساءة إلى الدين والمذهب. وفيما يأتي أبرز هذه الشعائر، مع نماذج من النصوص الدالة على مشروعيتها:

١. شعيرة زيارة الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ

تُعدّ زيارة الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ من أعظم الشعائر الحسينية؛ لما تشتمل عليه من تجديد العهد والولاء له، وإحياء قضيته وإعلان التمسك بنهجه. وقد وردت روايات كثيرة تحثّ على زيارته وتبيّن عظيم ثوابها، منها قول الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ: «مَن زار الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ عارفًا بحقّه، كتب الله له ثواب ألف حجّة مقبولة وألف عمرة مقبولة، وغفر له ما تقدّم من ذنبه وما تأخّر»[٥٨١].

٢. شعيرة مجالس العزاء

تُعدّ مجالس العزاء من أبرز الشعائر الحسينية؛ إذ تُذكر فيها مصيبة الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ، وتُبيّن أهداف نهضته، وتُنشد المراثي والقصائد الحزينة. وقد كان الأئمة عَلَيْهِمُ السَّلَامُ يستدعون الشعراء لينشدوا بين أيديهم ما قيل في رثائه، فيبكون ويُبكون الحاضرين.

فقد رُوي عن أبي هارون المكفوف أنه قال: قال لي أبو عبد الله عَلَيْهِ السَّلَامُ: «يا أبا هارون، أنشدني في الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ». قال: فأنشدته، فبكى، فقال: «أنشدني كما تنشدون ـ يعني بالرقة ـ»، فأنشدته:

امرُرْ على جَدَثِ الحسينِ فقلْ لأعظُمِهِ الزكيّة

قال: فبكى، ثم قال: «زدني»، فأنشدته قصيدة أخرى، فبكى، وسمعت البكاء من خلف الستر[٥٨٢].

ولا تقتصر وظيفة المجلس الحسيني على البكاء، بل تشمل تعليم الناس سيرة أهل البيت وقيمهم وأهدافهم؛ فقد قال الإمام الرضا عَلَيْهِ السَّلَامُ: «رحم الله عبدًا أحيا أمرنا». فقيل له: وكيف يحيي أمركم؟ قال: «يتعلّم علومنا ويعلّمها الناس؛ فإن الناس لو علموا محاسن كلامنا لاتّبعونا»[٥٨٣]. وبذلك يجمع المجلس الحسيني بين العاطفة والمعرفة، فيحزن الإنسان للمصيبة ويتعلم من أهدافها ودروسها.

٣. شعيرة البكاء

يُعدّ البكاء أوضح مظاهر الحزن على الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ، وقد دلّت روايات كثيرة على استحبابه وعظيم ثوابه. رُوي عن الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ أنه قال في حديث طويل: «وكان جدّي إذا ذكره بكى حتى تملأ عيناه لحيته، وحتى يبكي لبكائه ـ رحمةً له ـ من رآه... وما من عين أحبّ إلى الله، ولا عبرة، من عين بكت ودمعت عليه، وما من باكٍ يبكيه إلا وقد وصل فاطمة عَلَيْهَا السَّلَامُ وأسعدها عليه، ووصل رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ وأدّى حقنا»[٥٨٤].

وتدل الرواية على أن البكاء على الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ لم يكن مجرد انفعال شخصي، بل عبادة يتقرب بها المؤمن إلى الله، ويواسي بها رسول الله والزهراء وأهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ.

٤. شعيرة بذل المال والطعام

يدخل الإنفاق على المجالس والمواكب وإطعام المعزّين وخدمة الزائرين في بذل المال لإحياء أمر أهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ. وقد وصف أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ شيعتهم بقوله: «يفرحون لفرحنا، ويحزنون لحزننا، ويبذلون أموالهم وأنفسهم فينا؛ أولئك منّا وإلينا»(٥٨٥).

ومن أوضح ما يدل على إعداد الطعام في المأتم ما رُوي عن عمر بن علي بن الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ أنه قال: «لما قُتل الحسين بن علي عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، لبس نساء بني هاشم السواد والمسوح، وكنّ لا يشتكين من حرّ ولا برد، وكان علي بن الحسين عَلَيْهِمَا السَّلَامُ يعمل لهنّ الطعام للمأتم»(٥٨٦).

فكان الإمام زين العابدين عَلَيْهِ السَّلَامُ يعدّ الطعام للقائمات بالعزاء حتى يتفرغن لإقامة المأتم. كما دعا الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ لزوّار الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ الذين «أنفقوا أموالهم، وأشخصوا أبدانهم، رغبةً في برّنا، ورجاءً لما عند الله في صلتنا»(٥٨٧). وهذا يدل على رجحان الإنفاق في طريق زيارته وإحياء أمره، بشرط أن يكون من مال حلال، بعيدًا عن الإسراف والرياء والتقصير في الحقوق الواجبة.

٥. شعيرة لبس السواد

لبس السواد من العلامات العرفية الدالة على الحزن؛ فبارتدائه في أيام المصيبة يعلن المؤمن مشاركته الوجدانية في عزاء أهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ. وقد دلّت الرواية المتقدمة على أن نساء بني هاشم لبسن السواد والمسوح بعد استشهاد الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ، وأن الإمام زين العابدين عَلَيْهِ السَّلَامُ أقرّهن على ذلك وأعانهن بإعداد الطعام لهنّ.

والمسوح جمع «مِسْح»، وهو الثوب الخشن المصنوع غالبًا من الشعر أو

الصوف، وكان يُلبس عند المصائب تعبيرًا عن شدة الحزن وترك الزينة والراحة. أما قول الراوي: «وكنّ لا يشتكين من حرّ ولا برد»، فمعناه أنهن واصلن ارتداء لباس الحداد في الحر والبرد، ولم يحملهن تعبه وخشونته على تركه.

٦. شعيرة اللطم

اللطم من صور إظهار الحزن الشديد، وقد ورد النص عليه في مصاب الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ. فقد رُوي عن الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ أنه قال: «وقد شققن الجيوب، ولطمن الخدود ـ الفاطميات ـ على الحسين بن علي عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، وعلى مثله تُلطم الخدود وتُشقّ الجيوب»[٥٨٨].

فالرواية لم تكتفِ بنقل فعل الفاطميات، بل أضاف الإمام عَلَيْهِ السَّلَامُ: «وعلى مثله تُلطم الخدود وتُشقّ الجيوب»، فدلّ ذلك على مشروعية هذا المظهر في مصاب عظيم كمصاب الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ. واللطم المتعارف على الصدر وسيلة للتعبير عن شدة الألم والتفاعل مع المصيبة، لا لتعذيب النفس أو إلحاق الضرر البليغ بها.

٧. شعيرة التشابيه

التشابيه هي تمثيل بعض أحداث كربلاء أمام الناس؛ لتقريبها إلى أذهانهم وتحريك وجدانهم، ولا سيما الناشئة. وهي جائزة إذا خلت من المحرّمات، كالكذب والهتك والإساءة إلى مقام المعصومين والشخصيات الإسلامية المحترمة.

وقد أقرّ الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ هذا الفعل؛ إذ رُوي عن الكميت بن زيد الأسدي أنه قال: «دخلت على أبي عبد الله الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ يوم عاشوراء فأنشدته قصيدةً في جده الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ فبكى وبكى الحاضرون وكان قد

ضرب سترًا في المجلس وأجلس خلفه الفاطميات فبينما أنا أنشد والإمام يبكي إذ خرجت جارية من وراء الستار وعلى يدها طفل رضيع مقمط حتى وضعته في حجر الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ فلما نظر الإمام إلى ذلك الطفل اشتد بكاؤه وعلا نحيبه»[٥٨٩].

فإحضار الطفل الرضيع محاكاةٌ لمصيبة عبد الله الرضيع، بقصد استحضارها وتجديد الحزن عليها.

المبحث الرابع: لماذا نجزع على الحسين رغم فوزه بالجنة؟

بعد أن تبيّنت مشروعية الجزع والشعائر الحسينية، يبقى السؤال: لماذا نبكي على الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ ونجزع لمصابه، مع علمنا بأنه سيد شباب أهل الجنة، وأنه فاز بالشهادة والكرامة والنعيم الأبدي؟

الجواب:

نعتقد يقينًا أن الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ في أعلى درجات الجنة فهو سيد شباب أهل الجنة، وأنه لم يُهزم في كربلاء، بل انتصر بثباته على الحق وحفظه رسالة الإسلام. غير أن فوزه بالجنة وانتصار قضيته لا يتعارضان مع البكاء والجزع عليه؛ لأن لكل منهما جهة مختلفة، كما يأتي:

١. فظاعة الجريمة

نحن لا نبكي خوفًا على مصير الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ فمصيره الفوز والكرامة، وإنما نبكي على فظاعة الجريمة التي ارتُكبت بحقّه: قُتل سبط رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ مظلومًا، ومُنع الماء، وقُتل أهل بيته وأصحابه، ومُثّل بالأجساد، وسُبيت نساؤه وعياله.

ولتقريب المعنى، لو هاجمت عصابة منزل إنسان، فقتلت أفراد عائلته

الأبرياء، ونكّلت بهم ومثّلت بأجسادهم، ثم حلّت ذكرى تلك الجريمة؛ فهل يقيم مجلس فرح لأنهم كانوا مؤمنين ومصيرهم الجنة، أم يقيم مجلس حزن يتذكر فيه أحباءه وما تعرّضوا له من ظلم؟ لا شك أنه يحزن، ولا ينافي حزنه إيمانه بحسن مصيرهم؛ لأنه لا يبكي خوفًا عليهم في الآخرة، بل يتألم للجريمة التي وقعت عليهم في الدنيا.

ولو كان دخول المظلوم الجنة مانعًا من الحزن عليه، لما أصبح البكاء على المؤمنين سنّة جارية، ابتداءً من بكاء نبي الله آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ على ولده هابيل بعد مقتله، ثم تعاقبت الأجيال واستمر البكاء على الأنبياء والأولياء والشهداء، حتى أكّد رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ذلك في مواقف متعددة؛ ومنها أنه لما استُشهد عمّه حمزة، وسمع البكاء على شهداء الأنصار، قال متألمًا: «لكنّ حمزة لا بواكي له»، فصار أهل المدينة يبدؤون بالبكاء عليه قبل موتاهم[٥٩٠].

فالجنة تبيّن كرامة الشهيد، لكنها لا تمحو بشاعة قتله؛ ولذلك نبكي على ما جرى على الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ، لا خوفًا على منزلته ومصيره.

٢. عِظم التضحية

انتصار الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ لا يلغي الآلام والتضحيات التي أوصلت إليه؛ فقد حفظ الدين وكشف انحراف الحكم الأموي، لكن ذلك تحقق بعد أن قدّم نفسه وأهل بيته وأصحابه، وتحمّل العطش والجراح وفقد الأحبة.

وهكذا تجتمع في كربلاء حقيقتان لا تتعارضان: انتصار الهدف والمبدأ، وعِظم الثمن والتضحية. فنحن نفتخر بانتصاره، ونبكي على عِظم ما بذله في سبيله.

ومثال ذلك طبيب أنقذ مريضًا مصابًا بمرض خطير ومُعدٍ، ثم انتقل المرض إليه فتوفي؛ فإن المريض يفرح بنجاته، لكنه يحزن كلما تذكّر تضحية الطبيب. وكذلك أنقذ الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ بتضحيته دين الأمة وضميرها، لكن

انتصاره تحقق بدمه ودماء أهل بيته وأصحابه.

ولذلك قال الإمام الرضا عَلَيْهِ السَّلَامُ للريّان بن شبيب: «يا ابن شبيب، إن كنت باكيًا لشيء فابكِ للحسين بن علي عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ فإنه ذُبح كما يُذبح الكبش، وقُتل معه من أهل بيته ثمانية عشر رجلًا، ما لهم في الأرض شبيهون»[٥٩١].

٣. طاعة الله ورسوله وآله

بكاؤنا على الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ ليس عادة اجتماعية اخترعها الناس، وإنما يستند إلى أصول قرآنية وتوجيهات روائية صريحة؛ ولذلك يكون طاعة لله، واقتداءً برسوله، وامتثالًا لتوجيهات أهل بيته عَلَيْهِمُ السَّلَامُ.

فمن القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾[٥٩٢]، ومن مصاديق المودة أن نفرح لفرح أهل البيت ونحزن لحزنهم. وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ﴾[٥٩٣]، وقال: ﴿وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾[٥٩٤]، وإحياء مصيبة الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ من مصاديق تعظيم حرمات الله وشعائر دينه.

كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾[٥٩٥]، فنقتدي برسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ الذي بكى على الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ مرارًا عندما أُخبر بما سيجري عليه، مع علمه بأنه من سادة أهل الجنة.

وأما النصوص الروائية الواردة في السنّة فهي كثيرة، ومنها ما رُوي عن الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ:

«من ذُكر الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ عنده، فخرج من عينيه من الدموع مقدار جناح ذباب، كان ثوابه على الله، ولم يرضَ له بدون الجنة»[٥٩٦]. فبكاؤنا عليه تطبيق للمودة، وتأسي برسول الله، وامتثال لتوجيهات أهل بيته.

٤. رفض الظلم

البكاء على الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ ليس استسلامًا أو يأسًا، وإنما إعلان رفض للجريمة وموقف ضد الظالم؛ فالدمعة على الحسين تقول: نحن مع المظلوم لا مع الظالم، ومع العدل لا مع الاستبداد، ومع الإصلاح لا مع الفساد، ومع كرامة الإنسان لا مع إذلاله، ومع نهج الحسين لا مع نهج يزيد.

فبكاؤنا لا يعني أن الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ قد هُزم، بل يدل على أن ضمير الإنسان ما زال حيًّا يرفض أن تمر جريمة كربلاء من دون إدانة. فعندما يرى الإنسان طفلًا مظلومًا قُتل في حرب فيبكي عليه، فإن بكاءه لا يعني أن القاتل أصبح محقًّا أو منتصرًا، بل يعني أن الإنسان يرفض فعل القاتل ويتضامن مع الضحية.

كذلك البكاء على الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ هو انحياز وجداني وأخلاقي إلى جانبه، وإدانة مستمرة للذين قتلوه وخذلوه ورضوا بقتله. ولهذا نقول في زيارة عاشوراء: «إِنِّي سِلْمٌ لِمَنْ سَالَمَكُمْ، وَحَرْبٌ لِمَنْ حَارَبَكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ».

فالحزن هنا ليس مجرد شعور شخصي، بل يتضمن تحديد الموقف: مع أي طريق نقف؟ مع طريق الحسين أم طريق يزيد؟

٥. إحياء الرسالة

يحفظ البكاء والمجالس الحسينية قضية الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ من النسيان، وينقلانها بين الأجيال، وهذا من مصاديق التذكير بأيام الله وما تشتمل عليه من عِبر، قال تعالى: ﴿وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾[٥٩٧].

فلو بقيت واقعة كربلاء خبرًا مكتوبًا في بعض كتب التاريخ، فقد يجهلها أكثر الناس، أو يُحرَّف معناها، أو يُصوَّر الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ على أنه مجرد

رجل نازع السلطة في زمانه. لكن استمرار إحياء المصيبة يدفع كل جيل إلى السؤال: من هو الإمام الحسين؟ ولماذا رفض مبايعة يزيد؟ ولماذا خرج؟ وماذا أراد أن يصلح؟ وكيف عومل سبط رسول الله؟ وما واجب الإنسان تجاه الظلم والفساد؟ وهكذا تصبح الدمعة بابًا للمعرفة، ويصبح المجلس وسيلة لحفظ رسالة كربلاء.

وقد قال الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ للفضيل بن يسار: «تجلسون وتتحدثون؟»، فقال: نعم، جُعلت فداك. فقال عَلَيْهِ السَّلَامُ: «إن تلك المجالس أحبّها، فأحيوا أمرنا، رحم الله من أحيا أمرنا»[٥٩٨].

فإحياء أمرهم لا يقتصر على ذكر المصيبة، بل يشمل تعريف الناس بأهدافهم وقيمهم والاقتداء بهم. وقد نُسيت حوادث تاريخية كبيرة؛ لأن الأجيال لم تستمر في الحديث عنها، أما كربلاء فبقيت حيّة؛ لأن الآباء نقلوها إلى الأبناء، ولأن المجالس الحسينية جمعت بين الحزن والمعرفة.

إذن فهمنا أن مصيبة الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ بقيت حيّةً في القلوب لما تحمله من معانٍ عظيمة؛ ففي إحيائها وفاءٌ لعِظم تضحيته، وطاعةٌ لله ورسوله وآله، ورفضٌ للظلم، وحفظٌ لرسالة كربلاء، فضلًا عن فظاعة الجريمة التي ارتُكبت بحقّه. ولم تنتهِ فصول تلك الجريمة بما تعرّض له من التنكيل ثم استشهاده، بل حمل القوم رأسه، وساقوا نساءه وعياله سبايا إلى الكوفة، وتركوا جسده الطاهر وأجساد أهل بيته وأصحابه مطروحةً على الثرى بلا غسل ولا كفن ولا دفن.

فمن تولّى دفن سيد شباب أهل الجنة والشهداء من حوله؟

قال أرباب المقاتل[٥٩٩]: بأنه لما ارتحل عسكر ابن سعد عن كربلاء وساروا بالسبايا والرؤوس مشت نساء من بني أسد إلى المعركة كانت في حي قريب

من الواقعة فرأت جثث أولاد الرسول وأفلاذ حشاشة الزهراء البتول وجثث أنصارهم تشخب الدماء من جراحاتهم فتداخل النساء من ذلك تمام العجب فابتدرن إلى حيهن وقلن لأزواجهن ما شهدن ثم قلن لهم بماذا تعتذرون من رسول الله وأمير المؤمنين وفاطمة الزهراء إذا وردتم عليهم حيث إنكم لم تنصروا أولادهم ولا دفعتم عنهم بضربة سيف ولا بطعنة رمح وبقيت النسوة يجلن حولهم ويقلن لهم إن فاتتكم نصرة تلك العصابة النبوية فقوموا الآن إلى أجسادهم الزكية فواروها فبادروا إلى مواراة أجساد آل الرسول وادفعوا عنكم بذلك العار.

فقالوا: إنّا نخاف من عبيد الله بن زياد وابن سعد تصبحنا خيولهم وينهبوننا أو يقتلوا أحدنا.

وقال كبيرهم: الرأي أن نجعل عينا على طريق الكوفة ونحن نتولى دفنهم قالوا: هذا الرأي السديد.

ثم إنهم وضعوا لهم عينا وأقبلوا إلى جسد الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ وصار لهم بكاء وعويل، ثم إنهم اجتهدوا على أن يحركوه من مكانه ليشقوا له ضريحا فلم يقدروا أن يحركوا عضوا من أعضائه فقال أحدهم: ما ترون؟ قالوا: نجتهد أول في دفن أهل بيته ونرى رأينا فيه (في جسد الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ).

فقال كبيرهم: كيف يكون دفنكم لهم وما فيكم من يعرف هذا من هذا وهم كما ترون جثث بلا رؤوس قد غيرت محاسنهم الشمس والتراب.

وإذا بفارس طلع عليهم على متن جواده وقد ضيق لثامه فلما رأوه انكشفوا عن تلك الجثث الزواكي فأقبل ونزل عن جواده وصار منحنيا كهيئة الراكع حتى أتى ورمى بنفسه على جسد الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ فجعل يشمه تارة ويقبله أخرى وقد بل لثامه من دموع عينيه ثم رفع رأسه ونظر إلى بني أسد وقال:

ما وقوفكم حول هذه الجثث؟ قالوا: أتينا للتفرج عليها، قال: ما كان هذا قصدكم، فقالوا: نعم يا أخا العرب الآن نطلعك على ما في ضمائرنا أتينا لندفن

جسد الحسين.

قال بنو أسد: فخط لنا خطا في الأرض وقال: احفروا هاهنا ففعلنا، ووضعنا فيها، سبع عشرة جثة. ثم خط لنا خطا آخر وقال: احفروا هاهنا ففعلنا، ووضعنا فيها باقي الجثث واستثنى جثة واحدة فأمرنا أن نشق لها ضريحا مما يلي الرأس الشريف ففعلنا.

وقال لهم: أما الحفيرة الأولى ففيها أهل بيته، وأما الحفيرة الثانية ففيها أصحابه، وأما القبر المنفرد مما يلي الرأس الشريف، فهو حامل راية الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ حبيب ابن مظاهر.

ثم أقبلنا لنعينه على جسد الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ وإذا هو يقال لنا بخضوع وخشوع: أنا أكفيكم أمره، فقلنا: يا أخا العرب كيف تكفينا أمره وكلنا اجتهدنا على أن نحرك عضوا من أعضائه فلم نقدر عليه، فبكى بكاء شديدا وقال: إن معي من يعينني عليه، ثم جثى على الأرض وبسط كفيه تحت ظهره الشريف وهو يقول: بسم الله وبالله، وفي سبيل الله، وعلى ملة رسول الله، هذا ما وعد الله ورسوله، وصدق الله ورسوله، ما شاء الله، لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

وقيل أنه قال: يا بني أسد علي بحصيرة!! قالوا: ما تصنع بها؟ قال: لأضع عليها أوصال الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ المقطعة. فناولوه حصيرة جمع عليها أوصال الحسين، وقيل أيضا: أنه عليه السلام أخذ يبحث قريبا من جسد الحسين عن شيء لم يكن يدري أحد ما هو، وإذا به ينحني إلى الأرض فيحمل إصبعا كان قد قطع من أصابع الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ ثم وضعه في محله من يد أبيه الحسين وأنزل أباه في قبره وحده ولم يشرك معه أحد من بني أسد.

قال بنو أسد فرأيناه قد وضع خده على نحره الشريف وهو يبكي وسمعناه يقول: طوبى لأرض تضمنت جسدك الشريف، أما الدنيا فبعدك مظلمة، وأما

الآخرة فبنورك مشرقة، أما الحزن فسرمد، وأما الليل فمسهد، حتى يختار الله لأهل بيتك دارك التي أنت مقيم بها، وعليك مني سلام الله يا ابن رسول الله ورحمة الله وبركاته. ثم أشرج عليه اللبن وأهال عليه التراب.

(نصاري)

بعد ما نزّله او وسده ابگبره — أخذ ينتحب واجره العبره

هوه فوگه يشمه او يحب نحره — صاح اوداعة الله الراس چاوين

انه اللي صار بيه او ما جره ابناس — شفتك علثره بالخيل تنداس

تالي الوكت نزلتك ابلا راس — جسد والراس صارت له ابمچانين

العذر لله تارني ابولية اعداي — مشيت اويه العدو ما هو على اهواي

لو بيدي لجيب الراس وياي — لچنّه راح للشام اويه سبعين[٦٠٠]

٢٥ محرم

ذكرى استشهاد الإمام السجاد (عليه السلام)

عظم الله أجوركم

الشريفاوي

اليوم الخامس والعشرون من محرّم الحرام

المناسبة: شهادة الإمام السجاد عَلَيْهِ السَّلَامُ

القصيدة: لأحد الأدباء

فوا لهفاهُ للسجاد مضىً ... برته سمومُه بريَ القُداحِ

تُذكِّره السمومُ لظى سمومٍ ... يكابدها أبوه لدى الكفاح

فيسلو سمَّه بلظى أبيه ... وما ذكرُ السمومِ بمستراح

ويذكر إذ تُجرعه سمومٌ ... أباه حين أُثخن بالجراح

إلى أنْ سمُّه استوفى قُواه ... فأُطفأ منه مصباحُ الفلاح

قضى السجادُ مظلوما بسمٍّ ... فما طِيبُ الكَرى لي من مباح

قضى السجادُ فالصدقاتُ سرا ... تُقيم عليه مأدُبةَ النياح

قضى عينُ الحياةِ فأيُّ عينٍ ... عقيبَ العينِ تَبخَل بالسَفاح

قضى فالحقُّ منه في مَضيقٍ ... وضيقُ الكفرِ منه في انفساح

وصدرُ العلم في حَرَجِ اكتئابٍ ... وصدرُ الجهلِ منه في انشراح

بكتْه الجامداتُ فلا عجيبٌ ... بأنْ تبكي بألسنةٍ فِصاح[٦٠١]

(موشح)

هـم مصايـب كربلـه او هـم علتـه
وفگـد اخوتـه او ذبـح ابـوه او غربتـه

وگطَّعـوا بالسـم يويـلي كبدتـه
ليـش ابـن حامـي الحمـه يسـمونه

يـا عـلي السـجاد تبگـه امصيبتـك
او كل وكـت تنصـب مناحه شـيعتك

سـيدي او لازم نشـيِّد حضرتـك
او نوصلـك رغـم الـذي ايمنعونـه

بعـد يـا جـرح البقيـع انـزف او جور
اشـوكت يحمـد غضب حسرات الصدور[٦٠٢]

موضوع المحاضرة الثالثة عشرة:

فلسفة الابتلاء

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً ﴾[٦٠٣].

المبحث الأول: تفسير الآية الكريمة

من المعلوم أن الله تعالى لم يخلق الإنسان عبثًا، قال تعالى: ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾[٦٠٤]، وإنما خلقه ليرحمه ويقوده إلى السعادة الأبدية، قال تعالى:

﴿ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ﴾[٦٠٥]، وقد ورد عن الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ: «خلقهم ليفعلوا ما يستوجبون به رحمته، فيرحمهم»، وعن الإمام الباقر عَلَيْهِ السَّلَامُ: «للرحمة خلقهم»[٦٠٦].

إلا أن الوصول إلى الجنة يحتاج إلى ما يؤهّل الإنسان لدخولها؛ فكما أن دخول بعض البلدان يحتاج إلى جواز، فإن جواز العبور إلى الجنة يتمثل في الإيمان الذي تصدقه الأعمال الصالحة، قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾[٦٠٧]، وروي عن الإمام الباقر عَلَيْهِ السَّلَامُ:

«ولو كانوا مؤمنين لدخلوا الجنة كما دخلها المؤمنون، ولو كانوا كافرين لدخلوا النار كما دخلها الكافرون»[٦٠٨].

ولكن الإيمان ليس مجرد ادعاء أو أمنية؛ فقد روي عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «ليس الإيمان بالتحلّي ولا بالتمنّي، ولكن الإيمان ما خلص في القلب وصدقه الأعمال»[٦٠٩]. وروي عن أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ: «فبالإيمان يُستدل على الصالحات، وبالصالحات يُستدل على الإيمان».[٦١٠] وعن الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ: «الإيمان لا يكون إلا بعمل، والعمل منه، ولا يثبت الإيمان إلا بعمل»[٦١١].

فإذا كان الإيمان لا يتحقق بمجرد الادعاء، فإن حقيقته تظهر عند الامتحان والابتلاء؛ إذ يتبين مدى ثبات الإنسان على طاعة الله تعالى، وصبره عند الشدة، وشكره عند النعمة.

ومن هنا قال تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾[٦١٢]، فالآية الكريمة تبين أن الإنسان في هذه الحياة معرّض للابتلاء والامتحان بالشر والخير على حدٍّ سواء.

فما المراد بقوله تعالى: وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾[٦١٣]؟

الجواب:

✦ قوله تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُمْ﴾[٦١٤] أي نختبركم ونمتحنكم.

✦ وقوله: ﴿بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ﴾ أي نختبركم بالفقر والغنى، والضراء والسراء، والشدة والرخاء[٦١٥]، والصحة والسقم، والحلال والحرام، والطاعة والمعصية، والهدى والضلالة[٦١٦].

قال الشيخ الطبرسي (ره) في تفسيره مجمع البيان «وقيل بما تكرهون وما تحبون، ليظهر صبركم على ما تكرهون، وشكركم فيما تحبون»[٦١٧]. وعقب سماحة السيد الطباطبائي (ره) على تفسير الآية: «أي ونمتحنكم بما تكرهونه من مرض وفقر ونحوه وما تريدونه من صحة وغنى ونحوهما امتحانا»[٦١٨].

فالشر هنا هو ما يكرهه الإنسان بطبعه ويشق عليه، كالفقر والمرض وفقد الأحبة، والخير هو ما يحبه ويفرح به، كالصحة والعافية والغنى والأمن وسعة الرزق.

وقد أشار الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى هذا المعنى، فروى أن أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ مرض، فعاده إخوانه فقالوا: كيف تجدك يا أمير المؤمنين؟ قال: «بشر». فقالوا: ما هذا كلام مثلك؟ قال: «إن الله تعالى يقول:﴿ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً ﴾، فالخير الصحة والغنى، والشر المرض والفقر».[٦١٩]

ومن الجدير بالملاحظة أن الله تعالى قدم «الشر» على «الخير» في الآية الكريمة، فقال:﴿ وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ ﴾[٦٢٠]، ولعل من أسرار ذلك أن الابتلاء بالمصائب والشدائد أشد وقعًا على النفس، وأعظم قدرة على كشف حقيقة الإنسان وإظهار ما في باطنه من إيمان أو ضعف أو صبر أو جزع.

@ قوله تعالى:﴿ فِتْنَةً ﴾ معناه الاختبار والامتحان. وقد ذكر بعض العلماء أن الابتلاء يراد به وقوع الاختبار، أما الفتنة فهي ما يكشفه هذا الاختبار من نتيجة؛ فقد يخرج الإنسان منه بالصبر والشكر والقرب من الله، وقد تكون نتيجته الجزع أو الكفر أو الاستدراج.[٦٢١]

المبحث الثاني: صور الابتلاء وتفاوتها

المطلب الأول: الابتلاء لا يقتصر على الشدائد

من الدروس المهمة التي تكشف عنها الآية الكريمة﴿ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً ﴾ أن الابتلاء لا يختص بالمصائب والشدائد، بل يكون بالنعم والخيرات أيضًا. فالإنسان يشعر عادةً بأنه مبتلى عندما يمرض، أو يفتقر، أو يفقد عزيزًا، لكنه قد لا يشعر بذلك عندما يكون صحيحًا أو غنيًا أو آمنًا. فقد تقارن امرأة

حياتها بحياة صديقتها، فتقول: لماذا أنا دائمًا مبتلاة، بينما تعيش فلانة في سعة ورفاهية، ويوفر لها زوجها ما تريد؟

وهذا التصور غير صحيح؛ فالقرآن سمّى الحالتين ابتلاءً حينما قال:

﴿ فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ۝ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ ۝ كَلَّا ﴾[٦٢٢].

أي إن الإنسان إذا وسّع الله تعالى عليه في الرزق وأنعم عليه قال: ﴿ رَبِّي أَكْرَمَنِ ﴾، أي عدَّ هذا العطاء دليلًا على كرامته عند الله؛ وإذا ﴿ قَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ ﴾، أي ضيّقه عليه، قال: ﴿ رَبِّي أَهَانَنِ ﴾، أي ظنَّ أن هذا التضييق دليل على إهانة الله تعالى له، فجاء الرد: ﴿ كَلَّا ﴾، أي ليس الأمر كما ظنّ، وإنما كلا الحالين ميدان للابتلاء والامتحان.

وعليه:

- لا الغنى دليل الكرامة، ولا الفقر دليل الإهانة.
- ولا العافية دليل الكرامة، ولا المرض دليل الإهانة.
- ولا المنصب والجاه دليل الكرامة، ولا فقدهما دليل الإهانة.
- ولا الأمن دليل الكرامة، ولا الخوف دليل الإهانة.

فالابتلاء لا يعني المصيبة وحدها، بل هو امتحان لموقف الإنسان في حالتي النعمة والشدة؛ فالمرض مصيبة وابتلاء، أمّا الصحة فليست مصيبة، لكنها ابتلاء يُمتحن الإنسان في شكرها وحسن استعمالها. فمن أُعطي نعمةً من مال أو صحة أو جاه أو أولاد، يُمتحن في شكرها وأداء حقها، ومن حُرمها أو سُلبت منه يُمتحن في صبره وحسن تعامله مع ما أصابه.

ولتوضيح ذلك نذكر ثلاثة نماذج:

◇ يُمتحن الفقير في صبره:

هل يحفظ حدود الله تعالى ويسعى في طلب الرزق من الطرق المشروعة، أم يدفعه فقره إلى الجزع أو الاعتراض أو الغش والسرقة والاعتداء على حقوق الآخرين؟

أما الغني فيُمتحن في شكره، والشكر لا يقتصر على التلفظ بالحمد، بل يظهر في كيفية التعامل مع النعمة. فقد روي عن الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ: «شُكْرُ النِّعْمَةِ اجْتِنَابُ الْمَحَارِمِ، وَتَمَامُ الشُّكْرِ قَوْلُ الرَّجُلِ: الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ». (٦٢٣)

ومن شكر المال اكتسابه من الحلال، وأداء ما وجب فيه من الخمس والزكاة والنفقات والحقوق المالية، وعدم استعماله في المعصية. أما من اكتسبه من الحرام، أو منع حقوقه الواجبة، أو أنفقه في الحرام، فقد كفر بهذه النعمة ولم يشكرها، قال تعالى: ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ (٦٢٤).

◇ يُمتحن المريض في صبره:

هل يحسن الظن بالله تعالى، ويأخذ بأسباب العلاج، ويؤدي ما يقدر عليه من الواجبات، أم يجزع ويتسخط وييأس من رحمته؟

أما الصحيح فيُمتحن في شكر نعمة العافية، فيستعمل بدنه فيما يرضي الله تعالى؛ فيحفظ عينه وأذنه ولسانه ويده وقدمه عن الحرام، ويستعين بصحته على أداء الواجبات وفعل الخير وخدمة الآخرين. فحفظ الجوارح عن المعصية صورة عملية من صور شكر العافية.

◇ يُمتحن فاقدُ المنصب أو السلطة في صبره:

هل يتقبل ما وقع، ويبقى ملتزمًا بالحق، أم يدفعه ذلك إلى الحقد والانتقام

وتشويه سمعة الآخرين والاعتداء على حقوقهم؟

أما من مُنح منصبًا أو سلطة فيُمتحن في شكره: هل يعدّها أمانةً ومسؤولية، فيعدل بين الناس ويحفظ حقوقهم ويبتعد عن المحاباة واستغلال النفوذ، أم يستعملها لمصالحه، ويظلم الآخرين، ويقرّب من يحب ويبعد من لا يحب؟ فمن استعمل سلطته فيما يرضي الله تعالى شكرها، ومن استعملها في الظلم والحرام كفر بها.

وهكذا يكون الإنسان ممتحنًا فيما أُعطي كما هو ممتحن فيما مُنع، وفيما يملك كما هو ممتحن فيما فقد؛ فموطن الصبر عند الشدة والحرمان، وموطن الشكر عند النعمة والعطاء. وهذا من المعاني العميقة لقوله تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾[٦٢٥].

المطلب الثاني: لماذا تتفاوت صور الابتلاء بين الناس؟

بعد أن تبيّن أن الإنسان يُبتلى بالخير والشر، يبرز سؤال مهم: لماذا تختلف صور الابتلاء بين الناس، فيُبتلى أحدهم بالمرض والآخر بالصحة، وهذا بضيق الرزق وذاك بسعته؟ ويمكن إرجاع هذا التفاوت إلى سببين رئيسين:

أولًا: اختلاف الناس في طبائعهم واستعداداتهم وقابلياتهم

لا يتساوى الناس في طبائعهم واستعداداتهم؛ فما يصلح لإنسان قد لا يصلح لآخر، وما يكون سببًا في ثبات أحد قد يكون سببًا في انحراف غيره. وقد روي عن الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ: «الناس معادن كمعادن الذهب والفضة»[٦٢٦]. فكما تختلف المعادن في خصائصها وقيمتها وما تتحمله، يختلف الناس أيضًا في استعداداتهم وطبائعهم وقابلياتهم.

ولتقريب الفكرة: لو راجع عددٌ من المرضى طبيبًا باطنيًا؛ أحدهم مريض بالقلب، وآخر بالكلى، وثالث بالسكري، ورابع بارتفاع ضغط الدم، وخامس بالمعدة، فهل يعطيهم جميعًا الدواء نفسه، كأن يعطيهم مثلًا إبر الأنسولين المخصّصة لمريض السكري؟ بالطبع لا؛ لأن لكل مريض حالةً وعلاجًا يناسبه، بل إن إعطاء الأنسولين لمن لا يحتاج إليه قد يعرّضه للخطر. وهكذا تختلف أحوال الناس واستعداداتهم، فما يصلح لأحدهم قد لا يصلح لغيره.

فإذا كان الطبيب البشري يراعي اختلاف أجسام مرضاه، فكيف بحكمة الله تعالى وعلمه بعباده، وهو خالقهم والعالم بسرائرهم واستعداداتهم وما يصلحهم وما يفسدهم؟

وقد ورد هذا المعنى بصورة واضحة في حديث قدسي عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، عن جبرئيل عَلَيْهِ السَّلَامُ، عن الله تعالى: «وَإِنَّ مِنْ عِبَادِيَ الْمُؤْمِنِينَ لَمَنْ لَا يَصْلُحُ إِيمَانُهُ إِلَّا بِالْفَقْرِ، وَلَوْ أَغْنَيْتُهُ لَأَفْسَدَهُ ذَلِكَ، وَإِنَّ مِنْ عِبَادِيَ الْمُؤْمِنِينَ لَمَنْ لَا يَصْلُحُ إِيمَانُهُ إِلَّا بِالْغِنَى، وَلَوْ أَفْقَرْتُهُ لَأَفْسَدَهُ ذَلِكَ، وَإِنَّ مِنْ عِبَادِيَ الْمُؤْمِنِينَ لَمَنْ لَا يَصْلُحُ إِيمَانُهُ إِلَّا بِالسُّقْمِ، وَلَوْ صَحَّحْتُ جِسْمَهُ لَأَفْسَدَهُ ذَلِكَ، وَإِنَّ مِنْ عِبَادِيَ الْمُؤْمِنِينَ لَمَنْ لَا يَصْلُحُ إِيمَانُهُ إِلَّا بِالصِّحَّةِ، وَلَوْ أَسْقَمْتُهُ لَأَفْسَدَهُ ذَلِكَ، إِنِّي أُدَبِّرُ عِبَادِي لِعِلْمِي بِقُلُوبِهِمْ، فَإِنِّي عَلِيمٌ خَبِيرٌ»[٦٢٧].

فالحديث يبيّن أن ما يصلح إنسانًا قد لا يصلح غيره؛ فقد يكون الغنى أصلح لأحد، والفقر أصلح لآخر، وكذلك الصحة والمرض، والله سبحانه أعلم بما يصلح عباده.

وهذا المعنى تؤكده الآية الكريمة: ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾[٦٢٨].

وقد نقل الشيخ الطبرسي في كتابه «مجمع البيان»[٦٢٩] قصة ثعلبة بن حاطب، وكان فقيرًا، فطلب من رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ أن يدعو الله أن

يرزقه مالًا، فقال له النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «يا ثعلبة، قليل تؤدي شكره خير من كثير لا تطيقه»(٦٣٠).

لكنه كرر طلبه ووعد بأداء الحقوق، فدعا له النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، فكثر ماله حتى شغله عن الجمعة والجماعة، ثم بخل بالصدقة الواجبة. ونقل الطبرسي ارتباط ذلك بقوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ ۝ فَلَمَّا آتَاهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾(٦٣١).

وتبيّن هذه القصة ـ على ما نُقل في سبب النزول ـ أن الإنسان قد يطلب مالًا أو منصبًا أو شهرة يظنها خيرًا له، ثم تصبح سببًا في تقصيره أو ظلمه أو غفلته.

لذلك لا يصح أن يجعل الإنسان العطاء أو الحرمان مقياسًا لمنزلته عند الله، فيقول: لماذا أعطى فلانًا ومنعني، أو لماذا عافاه وأمرضني؟ فنحن نرى الظاهر، أمّا الله تعالى فيعلم ما يصلح دين عبده ودنياه.

ومن هنا نفهم أن تفاوت بعض صور الابتلاء لا يعني أن من أُعطي أفضل ممن مُنع، أو أن من عوفي أحب إلى الله ممن مرض؛ بل قد يرجع إلى اختلاف أحوال الناس واستعداداتهم وما يعلمه الله تعالى من مصالحهم، وهو سبحانه ﴿بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾.

ثانيًا: اختلاف المناشئ المباشرة للمكروهات

يرجع تفاوت ما يصيب الناس أيضًا إلى اختلاف أسبابه المباشرة؛ فقد ينشأ المكروه من عمل الإنسان نفسه، أو من فعل الآخرين، أو من أسباب أخرى سيأتي بيانها في المبحث الآتي.

ولا يعني نشوء المكروه من عمل الإنسان أو من فعل الآخرين أنه خارج عن دائرة الابتلاء؛ لأنه يُمتحن بعد وقوعه في كيفية تعامله معه. فقد يُصاب شخص بالمرض بسبب إهماله لصحته، ثم يُمتحن: هل يصبر، ويسعى إلى العلاج، ويصلح خطأه، أم يعترض ويستمر في إهماله؟

المبحث الثالث: المناشئ المباشرة للمكروهات في حياة الإنسان

نتعرض في حياتنا لأمور نكرهها؛ كالمرض، وضيق الرزق، وفقد الأحبة، والمشكلات الزوجية، وعقوق الأولاد. وهنا يبرز سؤال: من أين تأتي هذه المكروهات؟ وهل تنشأ جميعها من سبب واحد، أم أن لها مناشئ مختلفة؟

وقد تقدّم أن المكروه، مهما كان منشؤه، يصبح بعد وقوعه ميدانًا لابتلاء الإنسان في كيفية تعامله معه؛ فيُمتحن في صبره وثباته واختياره الموقف الذي يرضي الله تعالى. ويمكن إرجاع أبرز مناشئ المكروهات إلى ثلاثة:

١. مكروهات يكون منشؤها عمل الإنسان واختياره

قد يكون لعمل الإنسان واختياره دور في وقوع بعض المكروهات؛ لأن الله تعالى أجرى العالم وفق سنن وقوانين، وجعل للأسباب آثارًا وللأعمال نتائج، قال تعالى: ﴿فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾[٦٣٢]، وروي عن الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ أنه قال: «أبى الله أن يجري الأشياء إلا بأسباب، فجعل لكل شيء سببًا»[٦٣٣].

ومن هذه السنن ما يرتبط بسلوك الفرد؛ فقد جعل الله تعالى لأعمال الإنسان واختياراته نتائج تعود عليه، قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾[٦٣٤]، وقال تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾[٦٣٥].

وقد تكون هذه النتائج ماديةً ظاهرة، أو غيبيةً لا نعرف ارتباطها بعمل الإنسان إلا عن طريق الوحي. فمن يتناول الطعام المضر فيمرض، أو يهمل قواعد السلامة فيتأذى، أو يسرف في إنفاق ماله فيعاني ضيقًا ماليًّا، يكون قد أسهم باختياره في إيجاد السبب المادي للنتيجة.

أما الأثر الغيبي فلا تظهر بينه وبين العمل علاقة مادية مباشرة، وإنما نعرفه من القرآن الكريم وروايات أهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ؛ فقد جعل الله تعالى للطاعات آثارًا حسنة، وللمعاصي آثارًا قد تظهر في الدنيا أو الآخرة، قال تعالى: ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾[٦٣٦] وهذا يؤكد أن ما يفعله الإنسان تجاه نِعَم الله تعالى ليس منفصلًا عما يترتب عليه من نتائج وآثار.

وقد أشار أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ في دعاء كميل إلى هذه الحقيقة بقوله: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِيَ الذُّنُوبَ الَّتِي تَهْتِكُ الْعِصَمَ، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِيَ الذُّنُوبَ الَّتِي تُنْزِلُ النِّقَمَ، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِيَ الذُّنُوبَ الَّتِي تُغَيِّرُ النِّعَمَ، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِيَ الذُّنُوبَ الَّتِي تَحْبِسُ الدُّعَاءَ، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِيَ الذُّنُوبَ الَّتِي تُنْزِلُ الْبَلَاءَ».

فهذا النص ينبّه إلى أن بعض المكروهات قد يكون مرتبطًا بأعمال الإنسان، وهو لا يلتفت إلى العلاقة بين عمله وما أصابه. ومن أمثلة ذلك:

- الغناء: فقد روي عن الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ أنه قال: «بيت الغناء لا تؤمن فيه الفجيعة، ولا تجاب فيه الدعوة، ولا تدخله الملائكة»[٦٣٧]. فالإنسان قد يراه فعلًا عابرًا، بينما تكشف الرواية عن آثار قد لا يلتفت إليها.
- الاستخفاف بالصلاة: فقد ورد في بعض الروايات ذكر آثار للمستخف بصلاته، ومنها ذهاب البركة من العمر والرزق[٦٣٨]. فقد يشكو الإنسان من فقدان البركة، ولا يلتفت إلى ما يمكن أن يترتب على تقصيره في الصلاة.

◆ **الرضا بالمعصية والباطل**: فقد روي عن أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ أنه قال: «الراضي بفعل قوم كالداخل فيه معهم»[٦٣٩]، وقال عَلَيْهِ السَّلَامُ في شأن قوم ثمود: «إنما عقر ناقة ثمود رجل واحد، فعمهم الله بالعذاب لما عموه بالرضا»[٦٤٠].

فمسؤولية الإنسان لا تقتصر على المعصية التي يباشرها بنفسه، بل قد تشمل رضاه بها أو تأييده لها؛ كمن لا تتبرج بنفسها، لكنها تستحسن التبرج المحرم من غيرها، مع علمها بعدم رضا الله تعالى عنه، قال تعالى:[إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ][٦٤١].

ويؤكد هذا المعنى ما ورد في زيارة عاشوراء فيمن رضي بجريمة قتل الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ: «ولعن الله أمةً سمعت بذلك فرضيت به». فالمسؤولية لا تقتصر على مباشرة الباطل، بل قد تشمل الرضا به أيضًا.

ومن هنا، عندما ينزل بالإنسان مكروه، يناسب أن يراجع نفسه: هل كان لبعض أعمالي أو اختياراتي أثر فيما أصابني؟ وهل هناك ذنب أستغفر الله تعالى منه، أو حق للناس يجب أن أؤديه، أو تقصير ينبغي أن أصلحه؟ غير أن هذه المراجعة لا تعني الجزم بأن كل مكروه سببه ذنب؛ لأن للمكروهات مناشئ أخرى يأتي بيانها.

٢. مكروهات يكون منشؤها أعمال الآخرين

يتحمل الإنسان تبعة عمله، قال تعالى:﴿ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ﴾[٦٤٢]. غير أن آثار العمل قد تتجاوز صاحبه فتصيب غيره؛ فيتعرض الإنسان لمكروه لم يكن هو سببًا فيه، وإنما نشأ من فعل شخص آخر أو مجموعة من الناس.

فقد يقود شخص سيارته بتهور فيصيب غيره، أو ينقل إليه العدوى، أو

يعتدي على ماله أو بدنه، أو يظلم الزوج زوجته ويسيء معاشرتها. ففي هذه الصور يكون منشأ المكروه عمل الغير، وتترتب عليه آثاره وفق نظام الأسباب الذي أودعه الله تعالى في العالم.

وقد يتحول الفعل الفردي إلى سلوك منتشر في المجتمع، فتظهر آثاره العامة؛ فالظلم سبب للفساد والاضطراب، والعدل سبب للاستقرار، والتعاون سبب للقوة، والتنازع والفرقة سبب للضعف، قال تعالى: ﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾[٦٤٣].

وقد لا تقف آثار الفساد عند من باشره، قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾[٦٤٤].

ومن مصاديق ذلك ما روي عن الإمام الباقر عَلَيْهِ السَّلَامُ: أوحى الله تعالى إلى شعيب النبي: إني معذب من قومك مائة ألف: أربعين ألفا من شرارهم وستين ألفا من خيارهم، فقال: يا رب هؤلاء الأشرار فما بال الأخيار؟ فأوحى الله عز وجل إليه: داهنوا أهل المعاصي فلم يغضبوا لغضبي[٦٤٥].

والمداهنة هي السكوت عن المعصية والتستر عليها، وترك نصح أهلها وتغيير المنكر بالطرق المشروعة. ولذلك روي عن الإمام الكاظم عَلَيْهِ السَّلَامُ: «لتأمرن بالمعروف ولتنهن عن المنكر، أو ليستعملن عليكم شراركم، فيدعو خياركم فلا يستجاب لهم»[٦٤٦].

وروي عن أبي جعفر عَلَيْهِ السَّلَامُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «خمسٌ إن أدركتموهن فتعوّذوا بالله منهن: لم تظهر الفاحشة في قوم قط حتى يعلنوها إلا ظهر فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن في أسلافهم الذين مضوا. ولم يُنقصوا المكيال والميزان إلا أخذوا بالسنين وشدة المؤونة وجور السلطان. ولم يُمنعوا الزكاة إلا مُنعوا القطر من السماء، ولولا البهائم لم يُمطروا. ولم ينقضوا عهد الله وعهد رسوله، إلا سلّط عليهم عدوّهم، وأخذ بعض ما في أيديهم»[٦٤٧].

والمقصود بالفاحشة في الرواية الزنا، وبالسنين الجدب والقحط، وبشدة المؤونة ضيق القوت وعسر تحصيله.

٣.مكروهات يكون منشؤها الابتلاء والامتحان الإلهي

بعد أن تبيّن أن بعض المكروهات ينشأ من عمل الإنسان، وبعضها من أعمال الآخرين، يبقى نوع لا ينشأ من ذنب أو تقصير أو فعل الآخرين، وإنما يقع في إطار سنة الابتلاء العامة في هذه الدنيا.

فليس كل مرض عقوبةً على ذنب، ولا كل فقد أو مصيبة نتيجة تقصير؛ فقد يبتلي الله تعالى عبده ليظهر موقفه وصبره وثباته، قال تعالى: [وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً][٦٤٨].

وهذه السنة لا تختص بالعاصين؛ فقد ابتُلي الأنبياء والأوصياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، وهم صفوة خلق الله تعالى؛ لذلك لا يصح أن نجعل نزول المكروه بالإنسان دليلًا على ذنبه، أو علامةً على سخط الله عليه.

وقد قال تعالى: ﴿ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾[٦٤٩]، فالابتلاء سنة ملازمة للحياة الدنيا؛ لأنها دار عمل وامتحان.

وقد أشار القرآن الكريم إلى بعض صور الابتلاء بقوله تعالى: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴾[٦٥٠]، فالخوف والجوع ونقص الأموال والأنفس والثمرات صور يُمتحن الإنسان عندها في صبره وثباته وحسن تعامله معها.

ولهذا ينبغي أن يدرك الإنسان أنه ما دام في الدنيا فهو معرّض للابتلاء والتمحيص، وقد روي عن أبي بصير، عن الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ أنه قال: «لا بد للناس من أن يُمحَّصوا ويُميَّزوا ويُغربلوا، وسيخرج من الغربال خلق كثير»[٦٥١].

تنبيه: عن تداخل مناشئ المكروهات

لا يعني التقسيم المتقدم أن مناشئ المكروهات منفصلة دائمًا؛ فقد يكون للمكروه منشأ واحد، وقد تجتمع عدة مناشئ في وقوعه.

فقد تنشأ المشكلة الزوجية من تقصير أحد الزوجين؛ كخروج الزوجة من بيتها من دون إذن زوجها، أو منعها حقه في الفراش، أو تقصير الزوج في النفقة وحسن المعاشرة. وقد يسهم الآخرون فيها بتدخل الأهل أو نقل الكلام والتحريض، وقد يقع ابتلاء كمرض أحد الزوجين أو فقد ولد أو ضيق الرزق، فتنعكس آثاره على حياتهما.

لذلك لا يصح أن يُنسب كل مكروه إلى سبب واحد، بل ينبغي النظر في أسبابه وظروفه، مع الالتفات إلى أنه يصبح بعد وقوعه ميدانًا لامتحان الإنسان في صبره وحسن تعامله معه.

المبحث الرابع: فلسفة الابتلاء وحِكَمُه

بعد بيان مصادر المكروهات، ننتقل إلى سؤال آخر يطرحه الإنسان عند مواجهة الشدائد: لماذا أُصبت بهذا المرض؟ ولماذا فقدت عزيزًا، أو ابتُليت بزوج سيئ الخلق، أو حُرمت من الأولاد، بينما يعيش غيري في سعة ورخاء؟

فالإنسان هنا لا يسأل عن مصدر المكروه، وإنما عن الحكمة التي قد تتحقق منه، وهذا هو المقصود بفلسفة الابتلاء وحِكَمِه. وقد بيّن القرآن الكريم وروايات أهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ حِكَمًا متعددة، أهمها:

أولًا: لتمييز المؤمن الصادق من المدّعي

من حِكَم الابتلاء أن يظهر صدق إيمان الإنسان في مواقف الحياة؛ فالإيمان لا يكفي فيه الادعاء، وإنما تظهر حقيقته عند الامتحان. قال تعالى: ﴿أَحَسِبَ

النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴾[٦٥٢].

وقد هيّأ الله تعالى للإنسان أسباب الهداية والنجاح؛ فمنحه العقل والإرادة، وأرسل الأنبياء والرسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، وجعل الأئمة الأطهار عَلَيْهِمُ السَّلَامُ هداةً من بعد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، وأنزل القرآن الكريم، وبيّن طريق الخير والشر، ثم ترك للإنسان الاختيار.

وتكشف مواقف الحياة حقيقة اختياره؛ فعندما يتعارض حكم الله تعالى مع شهوته أو مصلحته، أو يُعرض عليه المال الحرام، أو تنزل به شدة، يظهر مقدار ثباته، قال تعالى: ﴿ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾[٦٥٣].

وقد يُسأل: إذا كان الله تعالى يعلم مسبقًا من هو المؤمن الصادق ومن هو الكاذب، فلماذا يمتحن الناس؟

الجواب: ليس الامتحان ليعلم الله تعالى شيئًا كان يجهله، تعالى الله عن ذلك؛ فعلمه أزليّ محيط بكل شيء قبل إيجاده[٦٥٤]، وإنما ليصدر العمل من الإنسان باختياره، فيستحق على أساسه الثواب أو العقاب وتقوم عليه الحجة؛ إذ ليس من العدل أن يعاقَب على عمل لم يصدر منه لمجرد أن الله يعلم أنه سيفعله.

ولتقريب الفكرة: قد يعرف المعلّم أن طالبًا مجتهد وآخر مقصّر، لكنه لا ينجّح الأول أو يرسب الثاني اعتمادًا على معرفته، بل يمتحنهما لتظهر نتيجة كل منهما على أساس عمله. وكذلك جعل الله تعالى الدنيا دار امتحان، والجزاء على ما صدر من الإنسان فعلًا، قال سبحانه: ﴿ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ﴾[٦٥٥].

فالابتلاء يكشف صدق الإيمان في مقام العمل، ويميّز من يثبت على طاعة الله تعالى ممن يكون إيمانه مجرد دعوى لا تصمد أمام الامتحان.

ثانيًا: لتكفير الذنوب وتطهير الإنسان منها

خلق الله تعالى الإنسان طاهرًا من الذنوب، فإذا لوّث نفسه بالمعاصي فعليه أن يبادر إلى تطهيرها، قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ۝ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾[٦٥٦].

فالذنوب لا تنتهي آثارها بانتهاء الفعل، بل لها حقائق باطنية قد لا يراها الإنسان في الدنيا. وقد كشف القرآن حقيقة بعض المعاصي، فقال في أكل أموال اليتامى ظلمًا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾[٦٥٧] فالآية تصف حقيقة ما يأكلونه بأنه نار، وإن كانت محجوبة عن أبصارهم في الدنيا.

لذلك ينبغي للإنسان تطهير نفسه قبل لقاء الله؛ فالذنب الذي لا يُغفر قد يلقى أثره في البرزخ أو يوم القيامة. ويمكن تقريب ذلك بالذهب الذي خالطته الشوائب، فلا يصفو إلا بعد تنقيته؛ وكذلك لا يدخل الإنسان الجنة إلا طاهرًا مما يحول بينه وبينها.

ويكون تطهير النفس بالتوبة والاستغفار، وردّ حقوق الناس، وأداء الواجبات، والإكثار من الأعمال الصالحة، قال تعالى: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾[٦٥٨]، والتوسل إلى الله تعالى بمحمد وآله عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾[٦٥٩].

ومن أسباب تكفير الذنوب الصبر عند الشدة؛ فإذا نزل بالمؤمن ما يكرهه فصبر واحتسب، كان ما يصيبه من الحزن والمرض سببًا لتكفير ذنوبه. فقد روي عن الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ: «إن العبد إذا كثرت ذنوبه ولم يجد ما يكفّرها به، ابتلاه الله عز وجل بالحزن في الدنيا ليكفّرها به، فإن فعل ذلك به وإلا أسقم بدنه ليكفّرها به، فإن فعل ذلك به وإلا شدّد عليه عند موته ليكفّرها

به، فإن فعل ذلك به وإلا عذّبه في قبره، ليلقى الله عز وجل يوم يلقاه وليس شيء يشهد عليه بشيء من ذنوبه»[٦٦٠].

وبذلك قد يكون المرض أو الحزن رحمةً بالإنسان من جهة تكفير ذنوبه وتخفيف ما قد يواجهه في الآخرة، وقد روي عن الإمام الباقر عَلَيْهِ السَّلَامُ: «لو يعلم المؤمن ما له في المصائب من الأجر لتمنى أن يُقرض بالمقاريض»[٦٦١].

ولا يعني ذلك أن يطلب المؤمن البلاء؛ بل يسأل الله تعالى العفو والعافية، ويبادر إلى التوبة، فإذا نزل به البلاء صبر واحتسب ورجا ما فيه من التكفير والأجر، ويدعو: «إلهي لا تؤدبني بعقوبتك»[٦٦٢]، و﴿ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا ﴾[٦٦٣].

ثالثًا: لتربية الإنسان وتأديبه وتكامله

من حِكَم الابتلاء أنه قد يكون وسيلةً لتربية الإنسان وتأديبه ودفعه نحو التكامل؛ لأن التربية لا تكون دائمًا بإعطائه ما يحب، بل قد يحتاج إلى موقف مؤلم يردعه ويصحح مساره. وهذا ما نراه في حياتنا اليومية؛ فمن يتجاوز إشارة المرور تُفرض عليه غرامة لردعه عن تكرار المخالفة. ومن هذا الباب قد تؤدي بعض العقوبات والشدائد وظيفةً تربوية وإصلاحية، قال تعالى: ﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ ﴾[٦٦٤].

وقد أشار أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى هذا المعنى بقوله: «إنَّ الله يبتلي عباده عند الأعمال السيئة بنقص الثمرات، وحبس البركات، وإغلاق خزائن الخيرات؛ ليتوب تائب، ويُقلع مُقلع، ويتذكر متذكر، ويزدجر مزدجر»[٦٦٥].

وتظهر الآثار التربوية للابتلاء في صور متعددة، منها:

١. تنبيه الإنسان إلى أخطائه ومعاصيه:

قد يتمادى الإنسان في سلوك خاطئ، ولا يدرك خطورته حتى توقظه نتيجة مؤلمة؛ فقد تدخل فتاة في علاقة محرمة عبر مواقع التواصل، ثم تتعرض للابتزاز والتهديد، فتدرك أن الأحكام الشرعية لم توضع لتقييدها، وإنما لحمايتها وصيانة كرامتها. فإذا اتعظت بما وقع، أصبحت المحنة درسًا يدفعها إلى التوبة والحذر من العودة إلى الطريق نفسه. وقد قال أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ: «رُبَّ شهوةِ ساعةٍ أورثت حزنًا طويلًا»(٦٦٦).

٢. تعريف الإنسان بقيمة النعم التي غفل عنها:

قد يعيش الإنسان صحيح البدن سنوات فلا يشعر بعظمة نعمة العافية، فإذا مرض عرف قيمتها. وكذلك من أُعطي المال فأسرف فيه قد لا يعرف قيمته حتى يمر بضيق مالي، فيتعلم الاقتصاد وحسن التدبير. وهكذا قد يكون فقد بعض النعم تنبيهًا للإنسان إلى قيمتها، ودافعًا إلى حسن استعمالها وشكر الله تعالى عليها.

وقد ورد في الدعاء: «اللهم اغفر لي الذنوب التي تغيّر النعم»، وهو تنبيه إلى أن بعض الذنوب قد يكون لها أثر في زوال النعم. وقد بيّن الإمام زين العابدين عَلَيْهِ السَّلَامُ بعض هذه الذنوب؛ فعن أبي خالد الكابلي أنه قال: سمعت زين العابدين عَلَيْهِ السَّلَامُ يقول: «الذنوب التي تغيّر النِّعَم: البغي على الناس، والزوال عن العادة في الخير واصطناع المعروف، وكفران النعم، وترك الشكر»، ثم استشهد عَلَيْهِ السَّلَامُ بقوله تعالى:

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾(٦٦٧). ومعنى «الزوال عن العادة في الخير واصطناع المعروف»: أن يعتاد الإنسان فعل الخير وقضاء حوائج الناس، ثم يترك ذلك وينصرف عنه.

٣. كشف عيوب النفس وتدريبها على الصفات الحسنة:

يكشف الابتلاء للإنسان حقيقة نفسه، ويضعه أمام ميدان عملي لإصلاحها؛ فقد يظن أنه صبور حتى تنزل به شدة، أو أنه حليم حتى يستفزه أحد، أو أنه متواضع حتى يُنتقد أو يخالفه الآخرون. فالشدائد مرآة تكشف للإنسان ما قد لا يراه في نفسه وقت الراحة.

ولا يكفي اكتشاف العيب، بل لا بد من التدريب على إصلاحه. فمن أراد أن يصبح مصممًا ماهرًا لا تكفيه محاضرة واحدة، بل يحتاج إلى التطبيق المتكرر حتى تترسخ لديه المهارة. وكذلك الأخلاق؛ فلا يكتسب الإنسان الصبر والحلم والشجاعة وكظم الغيظ وضبط النفس بمجرد الموعظة، بل بمواقف متكررة يتدرب فيها عليها حتى تصبح صفات راسخة في شخصيته.

والحياة الدنيا ميدان هذا التدريب؛ فكلما واجه الإنسان موقفًا يستفزه في البيت أو الشارع أو العمل، كان أمام امتحان عملي: هل يغضب أم يكظم غيظه؟ وهل يجزع أم يصبر؟ وهل يتراجع خوفًا أم يتصرف بشجاعة وحكمة؟ فإذا راقب نفسه وحاسبها بعد كل موقف، استطاع أن يربيها ويتقدم بها نحو الكمال.

وهكذا قد يكون المكروه درسًا يصحح خطأً، أو تنبيهًا إلى نعمة، أو مرآة تكشف عيبًا، أو تدريبًا يبني صفةً حسنة؛ فإذا أحسن الإنسان التعامل معه خرج منه أفضل مما كان، قال تعالى: ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾[٦٦٨].

رابعًا: تحقيق مصلحةٍ خفيّة للإنسان

قد يبتلي الله تعالى الإنسان بأمر يراه شرًّا، بينما يشتمل في واقعه على خيرٍ ومصلحة لا يدركها حين وقوعه؛ لأن الإنسان يحكم على الأحداث بعلمه المحدود ونتائجها القريبة، أما الله تعالى فيعلم عواقب الأمور وما ستؤول إليه.

وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه الحقيقة بقوله تعالى:

﴿ وَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَىٰ أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾[٦٦٩].

ومن النماذج القرآنية التي تكشف عن وجود مصالح خفية وراء بعض الأحداث قصة موسى والخضر عَلَيْهِمَا السَّلَامُ؛ فقد شاهد موسى من الخضر ثلاثة أفعال لم تتضح له حكمتها في بادئ الأمر، ثم كشف له الخضر عَلَيْهِ السَّلَامُ ما وراءها من مصالح:

١. خرق السفينة: كانت لمساكين يعملون في البحر، فعيَّبها الخضر عَلَيْهِ السَّلَامُ ليحفظها من الملك الذي كان يغتصب كل سفينة صالحة، قال تعالى: ﴿ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴾[٦٧٠]، فكان الضرر الظاهر وسيلةً لحفظ السفينة.

٢. قتل الغلام: كان ظاهره شرًّا عظيمًا، لكن الله تعالى علم أن بقاءه سيوقع أبويه المؤمنين في الطغيان والكفر، فأراد أن يعوضهما خيرًا منه، قال تعالى: ﴿ فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴾[٦٧١]. فكان وراء الحدث المؤلم دفع شرٍّ عنهما وتعويضهما بخير منه.

٣. إقامة الجدار: أقامه الخضر عَلَيْهِ السَّلَامُ من غير مقابل في قرية رفض أهلها ضيافتهما؛ لأن تحته كنزًا لغلامين يتيمين، فأراد الله تعالى حفظه لهما حتى يبلغا، قال تعالى: ﴿ فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ ﴾[٦٧٢].

وتكشف هذه الأحداث أن الإنسان قد يرى ظاهر الحادثة ولا يرى ما وراءها، فيحسبها شرًّا، بينما تكون مشتملةً على مصلحة خفية أو دفعٍ لضرر أكبر.

خامسًا: لمعاقبة المتمادين في الظلم والفساد

قد يتمادى بعض الناس في المعاصي والظلم، فلا ينتفعون بالنصح والإنذار، حتى يستحقوا العقوبة؛ فيأخذهم الله تعالى بذنوبهم، كما أخذ أقوامًا من الأمم السابقة كذّبوا الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ وأصرّوا على طغيانهم.

وقد جمع القرآن الكريم صورًا من عقابهم بقوله تعالى: ﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا(٦٧٣) وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ(٦٧٤) وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا(٦٧٥) بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا(٦٧٦) وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾(٦٧٧)، فالآية تبيّن أن ما نزل بهم لم يكن ظلمًا من الله تعالى، وإنما كان نتيجة ذنوبهم وإصرارهم عليها.

وقد يُمهل الله تعالى الظالمين، ويفتح عليهم أبواب النعم حتى يغتروا ويتمادوا، ثم يأخذهم وهم غافلون، قال تعالى: ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴾(٦٧٨).

وهذا من الاستدراج؛ أي تجدّد النعم على العاصي مع استمراره في المعصية، حتى يغفل عن التوبة، قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴾(٦٧٩).

وقد فسّر الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ الاستدراج بقوله: «هو العبد يذنب الذنب فيُملى له، وتُجدَّد له عندها النعم، فتلهيه عن الاستغفار من الذنوب، فهو مستدرج من حيث لا يعلم»(٦٨٠).

وفي رواية أخرى عنه عَلَيْهِ السَّلَامُ: «إن الله إذا أراد بعبد خيرًا فأذنب ذنبًا أتبعه بنقمة ويذكّره الاستغفار، وإذا أراد بعبد شرًّا فأذنب ذنبًا أتبعه بنعمة لينسيه الاستغفار ويتمادى بها»(٦٨١).

وقد يُسأل: إذا انتشر الظلم والمعاصي في زماننا، فلماذا لا ينزل عذاب الاستئصال كما نزل بالأمم السابقة؟

بيّن القرآن الكريم وجود موانع للعذاب، فقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾[٦٨٢]. فالآية تذكر وجود رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ والاستغفار أمانًا من العذاب المذكور في سياقها.

وبعد رحيل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، دلّت الروايات على أن وجود الحجة الإلهية أمان لأهل الأرض، وتتمثل الحجة في عصرنا بالإمام المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف؛ فقد روي عن الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ: «لو بقيت الأرض بغير إمام لساخت»[٦٨٣]، أي لغاصت وانخسفت بأهلها. ومن هنا يُفهم أن وجود الحجة عَلَيْهِ السَّلَامُ من أسباب حفظ أهل الأرض، إلى جانب الاستغفار والتوبة.

وقد يقول قائل: ظلمني شخص، فلماذا لا أرى عقوبة الله نازلةً به؟

الجواب:

الدنيا ليست دار الجزاء النهائي؛ فقد يعجّل الله تعالى بعض العقوبات فيها، وقد يؤخرها إلى الآخرة، حيث يستوفي كل إنسان جزاء عمله. كما أن عدم رؤيتنا للعقوبة لا يعني عدم وقوعها؛ فقد يُبتلى الظالم بما لا نعلم، وقد يكون بلاؤه في قلبه ودينه أشد من بلاء المال والبدن. وقد روي عن أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ: «ألا وإن من البلاء الفاقة، وأشد من الفاقة مرض البدن، وأشد من مرض البدن مرض القلب»[٦٨٤].

وقد يمهل الله تعالى الظالم لعلّه يتوب ويرجع، فإن أصرّ على طغيانه فقد يكون توالي النعم عليه استدراجًا لا إكرامًا. لذلك لا ينبغي للمظلوم أن يستعجل العقوبة؛ فقد يقع كل واحد منا في ظلم غيره من حيث لا يشعر، ولو عُجِّلت العقوبة لكل مخطئ لعُجِّلت علينا أيضًا. والأولى أن يفوّض المظلوم أمره إلى عدل الله تعالى، ويقول: ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾[٦٨٥]، فهو سبحانه أعلم بالظالم ووقت مؤاخذته وكيفيتها.

سادسًا: لرفع درجة الإنسان ومنزلته عند الله تعالى

تقدّم أن من حِكَم الابتلاء تكفير الذنوب، وتربية الإنسان وتأديبه، ومعاقبة المتمادين في الظلم والفساد. ولكن ماذا عن الإنسان الصالح الذي لا يكون بلاؤه بسبب ذنب أو معصية؟ وماذا عن الأنبياء والأوصياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، وهم معصومون من الذنوب، مع أنهم كانوا من أشد الناس بلاءً؟

هنا تظهر حكمة أخرى، وهي رفع درجة الإنسان ومنزلته عند الله تعالى؛ فالناس ليسوا في مرتبة واحدة، وإنما تتفاوت درجاتهم بحسب إيمانهم وأعمالهم ومواقفهم في طاعة الله تعالى، قال سبحانه: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا﴾[٦٨٦].

ولتقريب الفكرة: قد ينجح عدد من الطلاب، ولكن بتقديرات مختلفة؛ فهذا مقبول، وذاك جيد، وآخر امتياز. وكذلك تتفاوت درجات المؤمنين في الإيمان والصبر والتسليم، وقد يكون الابتلاء طريقًا لارتقائهم إلى درجات أعلى.

ولهذا لا يصح أن نجعل كل بلاء عقوبةً على ذنب؛ فلو كان كذلك لكان الأنبياء والأوصياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ أقل الناس بلاءً، بينما روي عن الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ: «إن أشد الناس بلاءً الأنبياء، ثم الذين يلونهم، ثم الأمثل فالأمثل»[٦٨٧]، وروي عنه عَلَيْهِ السَّلَامُ: «إن الله إذا أحبّ عبدًا غتّه بالبلاء غتًّا»[٦٨٨]، أي أحاطه بالبلاء إحاطة شديدة.

ويمكن تقريب ذلك بمتسابقي تسلّق الجبال؛ فليس من بلغ ربع الطريق كمن بلغ القمة، وكلما ارتفع المتسابق أصبح الطريق أشق واحتاج إلى صبر وثبات أكبر. وكذلك المؤمن؛ كلما اجتاز ابتلاءه بالصبر والطاعة ارتقى في درجات القرب من الله تعالى. ومن هنا نفهم لماذا كان الأنبياء والأوصياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ أشد الناس بلاءً؛ فلم يكن بلاؤهم لتكفير ذنوب ـ حاشاهم ـ وإنما كان ميدانًا ظهرت فيه أسمى مراتب صبرهم وثباتهم وتسليمهم لله تعالى.

وهكذا قد يكون البلاء طريقًا لرفعة درجة الإنسان؛ فليست منزلته عند الله بكثرة ما يصيبه من البلاء، وإنما بما يصدر منه عند البلاء من صبر وثبات وطاعة وتسليم لله تعالى.

ومن النماذج العظيمة الإمام علي بن الحسين زين العابدين عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ فقد شهد مأساة كربلاء وما جرى على أبيه الإمام الحسين وأهل بيته وأصحابه عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، ثم تحمّل آلام الأسر والطريق إلى الكوفة والشام. وكان مرضه يوم عاشوراء سببًا في بقائه حيًّا، لتستمر به الإمامة بعد أبيه عَلَيْهِ السَّلَامُ، فحمل مسؤولية حفظ رسالة كربلاء وبيان مظلومية أهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ.

ولم تفارق مصائب كربلاء قلب الإمام زين العابدين عَلَيْهِ السَّلَامُ ما دام حيًّا؛ فقد ذكرت الأخبار أنه بقي يبكي على أبيه الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ مدة حياته بعد واقعة الطف، وهي أربع وثلاثون سنة، وكان يقول:

«كلما نظرت إلى أخواتي وعماتي خنقتني العبرة، وذكرت فرارهن من خيمة إلى خيمة، والمنادي ينادي: أحرقوا بيوت الظالمين على أهلها»(٦٨٩).

وسرّ حزنه وبكائه معلوم؛ فقد عاش الإمام عَلَيْهِ السَّلَامُ أحداث كربلاء كلها، فما من مصيبة وقعت فيها إلا وكان من المفجوعين بها. رأى أصحاب أبيه وإخوته وعمومته وأبناء عمومته يُصرعون واحدًا بعد آخر، وسمع نداء أبيه:

«هل من ناصر ينصرنا؟ هل من ذابٍّ يذبّ عن حرم رسول الله؟»، ورأى النساء الفاقدات يتعلقن بالإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ عند الوداع؛ هذه تقبّل يديه، وتلك تقبّل رأسه، وأخرى تصرخ: إلى أين يا حمانا؟ إلى أين يا رجاءنا؟ والحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ يقول لهن: «عليكن بالصبر، فهذا آخر الوداع، وقد قرب منكن الافتجاع».

أمّا المصيبة العظمى فكانت مصرع أبيه عَلَيْهِ السَّلَامُ، ورضّ الخيول صدره وظهره. ثم أُحرقت الخيام، فجاءت إليه عمته زينب عَلَيْهَا السَّلَامُ تسأله: ماذا

نصنع؟ فقال لها: «يا عمة، فررن على وجوهكن في البيداء».

وشاهد عَلَيْهِ السَّلَامُ سلب عماته وأخواته، ولم يستطع القيام للدفاع عنهن من شدة المرض الذي ألمَّ به؛ فبقيت هذه المشاهد تؤلمه كلما تذكرها، بل ما كانت تغيب عن باله.

ولما حُملت مخدّرات الرسالة سبايا إلى الكوفة، كان عَلَيْهِ السَّلَامُ معهن عليلًا قد أخذ الضعف من جسده مأخذًا. قال الراوي: فلم يتمالك الإمام الركوب من شدة ضعفه، فأُخبر ابن سعد، فقال: قيدوا رجليه من تحت بطن الناقة، ففعلوا. وعن دخولهم على يزيد يقول عَلَيْهِ السَّلَامُ:

«أُدخلنا ونحن مقيدون بالحبال، والحبل ممدود من عنقي إلى كتف عمتي زينب وباقي البنيات».

فيا بنفسي، كم كابد الإمام زين العابدين عَلَيْهِ السَّلَامُ من مصائب عظيمة، وكم تحمّل من رزايا جسيمة تندكّ لبعضها شامخات الجبال، وتشيب لقليلها رؤوس الأطفال! (٦٩٠)

أقول: لم يكتفِ الأعداء بما أنزلوه بالإمام عَلَيْهِ السَّلَامُ من ظلم وأذى، بل امتدت أيديهم الآثمة إلى اغتياله بالسمّ. فقد روي لمّا هلك عبد الملك وجلس ابنه الوليد على سرير الخلافة جعل يحتال في قتل إمامنا زين العابدين عَلَيْهِ السَّلَامُ ولذلك بعث سماً قاتلاً إلى والي المدينة وأمره أن يقتله بالسم سرا، ففعل الوالي فلما سُقي إمامنا زين العابدين السم مرض مرضا شديدا وصار يغشى عليه ساعة بعد ساعة حتى غشى عليه في تلك الليلة ثلاث مرات فلما أفاق من غشيته الأخيرة تلا هذه الآية: "الحمد لله الذي صدقنا وعده وأورثنا الأرض نتبوأ من الجنة حيث نشاء فنعم أجر العالمين".

ثم دعا ولده الباقر عَلَيْهِ السَّلَامُ وأوصى إليه بوصاياه فأول ما أوصاه كما قال الباقر عَلَيْهِ السَّلَامُ ضمني أبي إلى صدره الشريف وقال: يا بني أوصيك بما أوصاني

بـه أبي الحسـين حـين حضرتـه الوفـاة وقـال:

إن أبـاه أوصـاه بـه، قـال: يـا بنـي إيـاك وظلـم مـن لا يجـد عليـك نـاصرا إلا الله، وقـال: يـا بنـي إذا مـت فـلا يـلي غسـلي غـيرك، فـإن الإمـام لا يـلي غسـله إلا إمـام مثلـه يكـون بعـده.

ثـم دعـا بـماء ليتوضـأ فجـاء الإمـام الباقـر إليـه بالمـاء فتوضـأ وكان في تلـك الليلة يقـول لولـده الباقـر عَلَيْهِ السَّلَامُ هـذه الليلـة هـي التـي وعدتهـا فـإذا قضيـت نحبـي فغسـلني وحنطنـي وادفنـي، ثـم مـدوا عليـه الثـوب وفاضـت روحـه، رحـم الله مـن نـادى: وا إمامـاه، وا مسـموماه، وا سـيداه[٦٩١].

(نصاري)

طـول الليـــل مـا فـتر ونينـه ... بعـد مـا صـد لبـو جعفـر ابعينـه
يبويـه امودعـين الله گضينـه ... بچـوا حنَّوا حنين افراگ شـفجين
اويـلي مـن گضـه السـجاد يومـه ... حـن امحمـد او هاجـت اهمومـه
يحگلـه لـو بچـه او منهـو اليلومـه ... فـارگ طـود عـز او علـم للديـن

(نصاري)

اويـلي اعـلى العليـل المـات بالسـم ... عگـب ذاك اليـسر والهظـم والهـم
عگـب ذيچ الهظيمـه ومحنة الطف ... او يـسره البـي تگيَّـد والتكتـف
ونّـه مـا بطـل سـاعه ولا خـف ... لمـن كبـده يويـلي انمـرد بالسـم
گام او غسـله الباقـر ابايـده ... او شـاف الجامعـه امأثـره ابجيـده
او شـاف السـاگ بيـه اشـعمل گيـده ... گعـد يبكـي او عـلى حالـه ايتهظـم

(مجردات)

يگلبي اعله ابو الباقر تسلّه
خلَّف ابلب احشاي علَّه
وارتج عليه الكون كله
والباقر اينوح او يگلَّه
اخلافك تصيب الدين خلَّه
او تمسي أهل بيتك ابذلَّه

(أبوذية)

علي حايز مراجلها وسمها
علامه الغصص يجرعها وسمها
گضه والجامعه ابچبده وسمها
او سمّه بالچبد ناره سريه[٦٩٢]

يوم كيومك
يا ابا عبدالله
قال الإمام الحسن المجتبى عليه السلام

الهوامش

(١) الأحزاب/ ٣٩.

(٢) التبليغ الديني مفهومه مضمونه أساليبه-مركز المعارف للتأليف-ص١١-١٢.

(٣) الكافي-الشيخ الكليني-ج١-ص٢٣.

(٤) شرح نهج البلاغة -ابن أبي الحديد -ج ٧ -ص ١٨٣.

(٥) مجمع مصائب أهل البيت ع، للشيخ الهنداوي، ج١، ص٤٥-٤٦.

(٦) بحار الأنوار -العلامة المجلسي -ج ٤٤ -ص ٢٨٢.

(٧) بحار الأنوار -العلامة المجلسي -ج ٤٤ -ص ٢٨٢.

(٨) «للوهلة الأولى» عند النظرة الأولى إلى الشيء، وقبل التأمل والتدقيق فيه.

(٩) الكافي-الشيخ الكليني-ج٢-ص١٧٥-باب التراحم والتعاطف.

(١٠) كامل الزيارات-ابن قولويه القمي-ب ٣٦-ح٢-ص١٠٨.

(١١) الأمالي-الشيخ الصدوق-ص٢٠٠-ح٨.

(١٢) بحار الأنوار-المجلسي-ج٢-ص٣٠-الحديث رقم١٣.

(١٣) النجم/ ٣-٤.

(١٤) الكافي-الشيخ الكليني-ج١-ص٣٩٩-ح٣.

(١٥) صوت الحق ودعوة الصدق-الشيخ الصافي-ج١-ص٧١.

(١٦) بحار الأنوار -العلامة المجلسي -ج ٤٤ -ص ٢٨٢.

(١٧) الأمالي-الشيخ الصدوق-المجلس السابع عشر-ح ٤ -ص١٣١.

(١٨) الكافي-الكليني-ج٢-ص١٧٦-باب زيارة الإخوان-ح ٢.

(١٩) آل عمران/ ٣١.

(٢٠) ٢٣.

(٢١) مختصر الميزان في تفسير القرآن-السيد -الطباطبائي -ج ٥-ص١٧.

(٢٢) أي منشد الشعر الحزين.

(٢٣) مجمع مصائب أهل البيت ع-الشيخ الهنداوي-ج١-ص٤٨.

(٢٤) مثير الأحزان ص٩٩ للشيخ شريف الجواهري وفي الدرر المثور ص٣٠٨.

(٢٥) مجمع مصائب أهل البيت ع-الشيخ الهنداوي-ج١-ص٢٠٣-٢٠٤.

(٢٦) الحج/ ٣٠.
(٢٧) الحج/ ٣٠.
(٢٨) الميزان في تفسير القرآن-السيد محمد حسين الطباطبائي-ج١٤-ص٣٧٤-في تفسير قوله تعالى:[ذَٰلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ]. الحج/ ٣٠.
(٢٩) معجم اللغة العربية المعاصر.
(٣٠) مجمع البيان في تفسير القرآن-الشيخ الطبرسي-ج٧-ص١٤٧-في تفسير سورة الحج، الآية ٣٠.
(٣١) التوبة/ ٣٦.
(٣٢) الميزان في تفسير القرآن-السيد الطباطبائي -ج٩-ص٢٦٤، في تفسير قوله تعالى:[فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ]؛ وراجع مجمع البيان-الشيخ الطبرسي-ج٥-في تفسير سورة التوبة/ ٣٦.
(٣٣) المائدة/ ٩٧.
(٣٤) البقرة/ ١٩١.
(٣٥) قال الشيخ الطبرسي في تفسير قوله تعالى:[الَّذِي حَرَّمَهَا]: أي جعلها «حرمًا آمنًا يحرم فيها ما يحل في غيرها، لا يُنفَّر صيدها، ولا يُختلى خلاها...». ومعنى «لا يُختلى خلاها»: لا يُقطع نباتها؛ مما يكشف عن عظيم حرمة هذا المكان وما اختص به من أحكام.
(٣٦) النمل/ ٩١.
(٣٧) المشاهدُ المشَّرفة للمعصومين عَلَيْهِمُ السَّلَامُ المقصود بها في هذا الحكم الحرم، أي الحجرة التي تضم الضريح الشريف، دون الصحن والأروقة التي لم يثبت كونها مسجدًا. المصدر: موقع مكتب سماحة السيد السيستاني/ sistani.org/ الاستفتاءات/ العتبات المقدسة.
(٣٨) منهاج الصالحين -السيد السيستاني-ج١-كتاب الطهارة-الفصل الثاني: فيما يتوقّف صحّته أو جوازه على غسل الجنابة. ومنهاج الصالحين-ج١-كتاب الطهارة-الفصل السادس: نجاسة المسجد والمصحف والملحق بهما، المسألة ٤٤٢.
(٣٩) الخصال-الشيخ الصدوق-ص١٧٥.
(٤٠) بحار الأنوار-العلامة المجلسي-ج٤٤-ص٣٦٤.
(٤١) مجمع البيان-الشيخ الطبرسي-ج٧-ص١٥٠.
(٤٢) للتفصيل في بيان كون الشعائر الحسينية من مصاديق شعائر الله، راجع: زاد المبلِّغات-مياسة شبع-ج١٢-المحاضرة الثالثة: «فلسفة الشعائر الحسينية».
(٤٣) الحج/ ٣٢.
(٤٤) معاني الأخبار-الشيخ الصدوق-ص٤٠؛ بحار الأنوار-العلامة المجلسي-

ج ٢٤-ص ١٨٥- ١٨٦.

(٤٥) منهاج الصالحين-السيد السيستاني-ج١-أحكام الوضوء-مسألة ١٦٣.

(٤٦) الواقعة/ ٧٩.

(٤٧) م.ن-ج١-أحكام الجنابة.بتصرف.

(٤٨) م.ن-ج١-أحكام سجود التلاوة.

(٤٩) الخصال-الشيخ الصدوق-ج١-باب الثلاثة الذين يشكون إلى الله عز وجل يوم القيامة-ح٢٣٢-عن جابر بن عبد الله الأنصاري، عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ.

(٥٠) الحج/ ٣٠.

(٥١) بحار الأنوار-العلامة المجلسي-ج٢٤-ص١٨٦-نقلًا عن كنز الفوائد-ص١٧١.

(٥٢) الكافي-الشيخ الكليني-ج٢-ص٦٢٧-كتاب فضل القرآن-باب النوادر-ح١.

(٥٣) الإسراء/ ٢٣.

(٥٤) الأحزاب/ ٥٩.

(٥٥) الفرقان/ ٣٠

(٥٦) بحار الأنوار-العلامة المجلسي-ج٩٢-ص١٨٤-نقلًا عن جامع الأخبار-ص٥٦.

(٥٧) النحل/ ٤٤.

(٥٨) النساء/ ٥٩.

(٥٩) الكافي-الكليني-ج١-ص٥٣،

(٦٠) منهاج الصالحين-السيستاني-ج١-كتاب التقليد-مسألة ١.

(٦١) النحل/ ٤٤.

(٦٢) النساء/ ٥٩

(٦٣) الكافي-الشيخ الكليني-ج١-كتاب الحجة-باب ما نص الله عز وجل ورسوله على الأئمة عَلَيْهِمُ السَّلَامُ واحدًا فواحدًا؛ والرواية عن أبي بصير، عن الإمام الباقر عَلَيْهِ السَّلَامُ.

(٦٤) يوسف/ ٤٠.

(٦٥) الحج/ ٣٠.

(٦٦)

(٦٧) البقرة/ ٢٢٩.

(٦٨) مجمع البيان في تفسير القرآن-الشيخ الطبرسي-ج٧-ص١٤٧-في تفسير قوله تعالى:[وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللهِ]الحج/ ٣٠. وراجع: الميزان في تفسير القرآن-السيد الطباطبائي-ج١٤-في تفسير سورة الحج/ ٣٠.

(٦٩) منهاج الصالحين-السيد علي السيستاني-ج١-مسألة ٣٠-فصل المحرّمات في الشريعة المقدسة-بتصرف.
(٧٠) النحل/ ١١٦.
(٧١) المقصود بالعِرض شرف الإنسان وسمعته وما يصونه عن الهتك والانتقاص، ويدخل في ذلك ما يتصل بأهله، كوالديه وزوجه وأبنائه وبناته.
(٧٢) حكم رسول الله (ص)-علاء الدين اعلمي-ص ٢٣٥.
(٧٣) بحار الأنوار-العلامة المجلسي-ج٦٤-ص٧١-ح٣٩.
(٧٤) مشكاة الأنوار في غرر الأخبار-علي بن الحسن الطبرسي-ص٧٨.
(٧٥) مستدرك الوسائل-ميرزا حسين النوري الطبرسي-ج ٩-ص ٩٨.
(٧٦) الحجرات/ ١٣.
(٧٧) الإسراء/ ٥٥.
(٧٨) الحج/ ٣٠.
(٧٩) بحار الأنوار-العلامة محمد باقر المجلسي-ج٢٤-ص١٨٦-نقلًا عن كنز الفوائد-ص١٧١.
(٨٠) معاني الأخبار-الشيخ الصدوق-ص٤٠-باب «معنى ثلاث حرمات».
(٨١) الخصال-الشيخ الصدوق-ص١٤٦-ح١٧٣-تحت عنوان «ثلاثة أشياء تحترم لله».
(٨٢) الأمالي-الشيخ الصدوق-ص٥٠٠-المجلس الخامس والستون-ح١٥ (ح٦٨٦).
(٨٣) النحل/ ١٢٠
(٨٤) الأنبياء/ ١٠٧.
(٨٥) بحار الأنوار-العلامة المجلسي-ج٤٣-ص٢٧١.
(٨٦) كامل الزيارات-بن قولويه القمي-ص٢٠٩-في زيارة الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ.
(٨٧) المزار-الشهيد الأول محمد بن مكي العاملي-ص١٧٤.
(٨٨) بحار الأنوار العلامة-المجلسي-ج٤٤-ص٣٢٩.
(٨٩) معالي السبطين -محمد مهدي الحائري-ج١ -ص٢١١.
(٩٠) ديوان الكعبي: قسم المراثي الحسينية-هاشم الكعبي-ص١٢.
(٩١) محمد/ ٧.
(٩٢) تحف العقول عن آل الرسول ص- ابن شعبة الحرّاني-ص ٢٤٥.
(٩٣) محمد/ ٧.
(٩٤) محمد/ ٧.
(٩٥) فاطر/ ١٥.

(٩٦) الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل-الشيخ ناصر مكارم الشيرازي-ج١٦-ص٣٤٤في تفسير سورة محمد، الآيات ٧-١١، تحت عنوان: «إن تنصروا الله ينصركم».

(٩٧) محمد/ ٧.

(٩٨) النساء/ ١٢٢

(٩٩) راجع: الميزان في تفسير القرآن، العلامة الطباطبائي-ج١٨-ص٢٢٩، في تفسير سورة محمد، الآية ٧.

(١٠٠) الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل-الشيخ ناصر مكارم الشيرازي-ج١٦-ص٣٤٤ وما بعدها، في تفسير سورة محمد، الآيات ٧-١١، تحت عنوان: «إن تنصروا الله ينصركم».

(١٠١) النساء/ ٧٩.

(١٠٢) محمد/ ٧.

(١٠٣) التوبة/ ٥٢.

(١٠٤) راجع: مجمع البيان في تفسير القرآن-الشيخ الطبرسي-ج٥-ص٥٨، تفسير سورة التوبة، الآية ٥٢-بتصرف.

(١٠٥) آل عمران/ ١٣٩.

(١٠٦) مجمع البيان في تفسير القرآن-الطبرسي-سورة آل عمران-تفسير الآيتين (١٣٩-١٤٠).

(١٠٧) كامل الزيارات-ابن قولويه القمي-الباب ٢٣-ح٢٠-ص١٥٧.

(١٠٨) الأنفال/ ٦٠.

(١٠٩) الأنعام:/ ١٦٤.

(١١٠) المائدة/ ٨.

(١١١) الأحزاب/ ٣٦.

(١١٢) تاريخ الطبري-الطبري-ج ٤-ص ٣٠٣.

(١١٣) مقتل العوالم-البحراني-ص ٥٤.

(١١٤) بحار الأنوار-المجلسي-ج٤٥ -ص ١٧٧.

(١١٥) محمد/ ٧.

(١١٦) مجمع البيان في تفسير القرآن-الشيخ الطبرسي-ج٩-ص١٤٩، تفسير سورة محمد، الآية ٧.

(١١٧) الأمالي-الشيخ الصدوق-ص٢١٧.

(١١٨) الإسراء/ ٣٣.

(١١٩) الإسراء/ ٣٣.

(١٢٠) تفسير كنز الدقائق وبحر الغرائب-الشيخ محمد المشهدي -ج٧-ص٤٠٤.

(١٢١) ثقافة عاشوراء-جواد محدثي-ص٤٧١. نقلًا عن حياة الإمام الحسين-ج٢٧٤-ص٣.
(١٢٢) اللهوف في قتلى الطفوف -السيد بن طاووس -ص٤٣.
(١٢٣) ذريعة النجاة-محمد التبريزي-ص١٢٩.
(١٢٤) أضواء على ثورة الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ-السيِّد محمد الصدر-ص١١٩-١٢٢-بتصرف.
(١٢٥) أي كانا من الخوارج.
(١٢٦) تاريخ النهضة الحسينية-معهد سيد الشهداء عَلَيْهِ السَّلَامُ للمنبر الحسيني-ص ٢٢٩-بتصرف.
(١٢٧) سبأ/ ٤٧.
(١٢٨) (الواعية) تعني الصرخة والاستغاثة التي أطلقها الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ طلبًا للنصرة.
(١٢٩) البحار-المجلسي-ج ٢٧-ص٢٠٤، نقلًا عن ثواب الأعمال للصدوق.
(١٣٠) الصف/ ٢.
(١٣١) صحيفة الإمام-الإمام السيد روح الله الموسوي الخميني-ج٩-ص٣٤٥؛ في بيان معنى «كل يوم عاشوراء وكل أرض كربلاء».
(١٣٢) النساء/ ١٣٥.
(١٣٣) المائدة/ ٨
(١٣٤) الغيبة-الشيخ محمد بن إبراهيم النعماني-ص٢٠٧-الباب ١١-الحديث ١٦.
(١٣٥) الدمعة الساكبة-محمد باقر البهبهاني -ج٤ -ص٢٥١-٢٥٦.
(١٣٦) مثير الأحزان -ابن نما الحلي -ص١٢٦.
(١٣٧) مجمع مصائب أهل البيت ع-الشيخ الهنداوي-ج١-ص٢٩٠-٢٩١.
(١٣٨) طه/ ١٣٢.
(١٣٩) ميزان الحكمة-محمد الريشهري-ج٢-ص١٦٢٦.
(١٤٠) انظر: التعليقة على العروة الوثقى-السيد علي السيستاني-ج٢-كتاب الصلاة-فصل واجبات الصلاة وأركانها.
(١٤١) طه/ ١٣٢.
(١٤٢) يقول الشيخ محمد هادي معرفة تحت عنوان «العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص المورد»: إن أحكام الشريعة وتكاليفها لا تختص بالمورد الذي نزلت فيه، مع التنبيه إلى وجود خطابات خاصة يدل الدليل على خصوصيتها. المصدر: التمهيد في علوم القرآن-ج١-ص٢٦١.
(١٤٣) الكافي-الشيخ الكليني-ج٢-ص٦٣١-كتاب فضل القرآن-باب النوادر.
(١٤٤) عيون أخبار الرضا عَلَيْهِ السَّلَامُ-الشيخ الصدوق-ج١-ص١٨٠.
(١٤٥) التحريم/ ٦.

(١٤٦) الكافي الشيخ-الكليني -ج٥-ص٦٢-ح٢.

(١٤٧) قال الشيخ الطبرسي في مجمع البيان-ج٧-ص٦٦-٦٨: «[واصطبر عليها]أي واصبر على فعلها وعلى أمرهم بها». أي الاصطبار عنده لا يتعلق فقط بأن يصلي الإنسان بنفسه، وإنما يشمل أمرين: أن يصبر على الصلاة بنفسه، وأن يصبر على أمر أهله بها.

(١٤٨) قال الفيض الكاشاني في تفسير الصافي-ج٣-ص٣٢٧-٣٢٨: «[واصطبر عليها]وداوم عليها». أي أنه فسّر الاصطبار بـ المداومة، لا بمجرد صبر يوم أو أسبوع، بل استمرار ومداومة.

(١٤٩) قال الشيخ محمد النهاوندي في نفحات الرحمن في تفسير القرآن-ج٤-ص٢٦٢: «واصطبر وداوم أنت وهم عليها واجتهدوا فيها». لاحظ الجمع بين: داوموا + اجتهدوا. فهنا صار المعنى أوسع من مجرد تحمّل، بل: ثبات، واستمرار، وبذل جهد.

(١٥٠) قال الشيخ الشعراوي وهو من علماء السنّة في الخواطر -ج١٥، ص٩٤٥٩: «وفرق بين اصبر واصطبر: اصبر الفعل العادي، إنما اصطبر فيها مبالغة، أي تكلّف حتى الصبر وتعمده».

(١٥١) لمسات تربوية-مياسة شبع-ج٢٥-قيمة الحرص على الصلاة.

(١٥٢) عيون أخبار الرضا عَلَيْهِ السَّلَامُ-الشيخ الصدوق-ج١-باب ٢٣-باب ذكر مجلس الرضا عَلَيْهِ السَّلَامُ مع المأمون في الفرق بين العترة والأمة-ح١.

(١٥٣) التحريم/ ٦.

(١٥٤) مستدرك الوسائل-الميرزا النوري-ج١٥-ص١٦٤-ح١٧٨٧١.

(١٥٥) الذاريات/ ٥٦.

(١٥٦) إن المسلم الذي يؤدي الصلوات الخمس يقول:[إِيَّاكَ نَعْبُدُ]عشر مرات على الأقل كل يوم؛ لأنها تُقرأ في سورة الفاتحة في الركعتين الأوليين من كل صلاة فريضة. وقد يكررها أكثر من ذلك إذا قرأ الفاتحة في الركعتين الثالثة والرابعة بدل التسبيحات. ومع هذا التكرار قد تمر الكلمة على لسان الإنسان من غير أن ينتبه إلى معناها؛ فهو يقول كل يوم مرارًا:[إِيَّاكَ نَعْبُدُ]، أي: يا الله، نحن عبادك، وعبادتنا وخضوعنا لك وحدك.

(١٥٧) وسائل الشيعة-الحر العاملي-ج٦-ص٢٩٦-٢٩٧، باب استحباب رفع اليدين بالتكبير عند الركوع والسجود والرفع منهما-ح٣.

(١٥٨) الجاثية/ ٢٣.

(١٥٩) نهج البلاغة-الكتاب ٣١-من وصية أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ لابنه الإمام الحسن عَلَيْهِ السَّلَامُ.

(١٦٠) الرعد/ ٢٨.

(١٦١) الفاتحة/ ٢.

(١٦٢) الفاتحة/ ٦.

(١٦٣) الفاتحة/ ٥.
(١٦٤) التوبة/ ١٠٥.
(١٦٥) وسائل الشيعة -الحر العاملي -ج ٢ -ص ٤٥٥.
(١٦٦) وسائل الشيعة -الحر العاملي -ج ٢ -ص ٤٥٥.
(١٦٧) النحل/ ١٨.
(١٦٨) الفاتحة/ ٢.
(١٦٩) الشمس/ ٩-١٠.
(١٧٠) هود/ ١١٤.
(١٧١) بحار الأنوار -العلامة المجلسي -ج ٨٢ -ص ٢٣٦ / ٦٦.
(١٧٢) بحار الأنوار -العلامة المجلسي-ج ٨٢ -ص ٢٠٨ / ١٧.
(١٧٣) العنكبوت/ ٤٥.
(١٧٤) الفاتحة/ ٥.
(١٧٥) الفاتحة/ ٦.
(١٧٦) الفاتحة/ ٤.
(١٧٧) علل الشرائع-الشيخ الصدوق-ص٣١٧-باب: العلة التي من أجلها فرض الله عز وجل الصلاة-ح٢.
(١٧٨) جامع الأخبار - السبزواري-ج ١ -ص ١٨٣.
(١٧٩) المؤمنون/ ٩-١١.
(١٨٠) المدثر/ ٤٢-٤٣.
(١٨١) علل الشرائع-الشيخ الصدوق-باب علة خلق الخلق واختلاف أحوالهم-ج١-ص٩-ح١.
(١٨٢) زاد المبلغات-مياسة شبع-ج٢-المحاضرة الأولى، وج٣-المحاضرة الثانية.
(١٨٣) الكافي - الشيخ الكليني -ج ٢ -ص ١٨.
(١٨٤) الكافي-الشيخ الكليني - ج ٣ - ص ٢٦٤ / ١.
(١٨٥) الكافي -الشيخ الكليني - ج ٣ - ص ٢٦٨/ ٤.
(١٨٦) الكافي-الكليني -ج٦-ص٤٣٢.
(١٨٧) شرح نهج البلاغة-ابن أبي الحديد المعتزلي-تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم-ج٢٠-ص٢٦٧.
(١٨٨) تحف العقول-ابن شعبة الحراني-ص٢٨٥.
(١٨٩) من الضوابط الشرعية للضرب: أن يكون الضرب خفيفًا غير مبرّح، ولا يتجاوز ثلاث ضربات خفيفة على الأحوط وجوبًا، ولا يؤدي إلى احمرار جلده؛ فإن أحدث احمرارًا أو أزرقاقًا أو اسودادًا

وجبت الدية. أمّا البالغ فالأحوط وجوبًا عدم ضربه مطلقًا. المصدر: موقع مكتب سماحة السيد السيستاني/ sistani.org/ الاستفتاءات/ الضرب.

(١٩٠) طه/ ٤٤.

(١٩١) آل عمران/ ١٥٩.

(١٩٢) العنكبوت/ ٤٥.

(١٩٣) البقرة/ ٢١.

(١٩٤) أم البنين عَلَيْهَاالسَّلَامُ النجم الساطع في مدينة النبي الأمين-الشيخ علي رباني الخلخالي-ص١٤٨-١٥٠-بتصرف.

(١٩٥) مجمع مصائب أهل البيت ع-الشيخ الهنداوي-ج٣-ص٢٩٢.

(١٩٦) ديوان شعراء الحسين -محمد باقر الارواني -ص١٨٠.

(١٩٧) مجمع مصائب أهل البيت ع-الشيخ الهنداوي-ج١-ص٢٤٤-٢٤٥.

(١٩٨) الأحزاب/ ٥٩.

(١٩٩) الميزان في تفسير القرآن-العلامة الطباطبائي-ج١٦-تفسير سورة الأحزاب-الآية ٥٩.

(٢٠٠) المؤمنون/ ١١٥.

(٢٠١) الذاريات/ ٥٦.

(٢٠٢) البقرة/ ٢١.

(٢٠٣) الشمس/ ٩-١٠.

(٢٠٤) الكافي-الشيخ الكليني-ج١-كتاب العقل والجهل-ح٣.

(٢٠٥) غرر الحكم ودرر الكلم-عبد الواحد بن محمد التميمي الآمدي-ح٦٢٩٨.

(٢٠٦) تحف العقول-ابن شعبة الحرّاني-ص٩٩.

(٢٠٧) فصلت/ ٤٦.

(٢٠٨) بحار الأنوار-العلامة المجلسي-ج٨١-ص٦١.

(٢٠٩) النحل/ ١١٤.

(٢١٠) الرعد/ ٢٨.

(٢١١) الملك/ ٢.

(٢١٢) المقصود بالناس في الرواية: الرجال الأجانب.

(٢١٣) عيون أخبار الرضا عَلَيْهِ السَّلَامُ-الشيخ الصدوق-ج٢-ص١٠.

(٢١٤) علل الشرائع -الشيخ الصدوق -ج ٢ -ص ٥٦٥.

(٢١٥) النور/ ٣٠.

(٢١٦) النور/ ٣١.
(٢١٧) الأحزاب/ ٣٢.
(٢١٨) موقع سماحة السيد السيستاني/ sistani.org / الاستفتاءات/ العطور/ سؤال رقم (١).
(٢١٩) الحجاب، مركز نون للتأليف والترجمة، ص٥٤.
(٢٢٠) ميزان الحكمة-محمد الريشهري-ج٣-ص٢٠٠٨.
(٢٢١) الأحزاب/ ٥٩.
(٢٢٢) الميزان في تفسير القرآن-العلامة الطباطبائي-تفسير سورة الأحزاب-الآية ٥٩.
(٢٢٣) ميزان الحكمة-محمد الريشهري-ج٣-ص٢٠٠٨.
(٢٢٤) FRA, EIGE & Eurostat, EU Gender-Based Violence Survey – Key Results: Experiences of Women in the EU-27, Publications Office of the European Union, Luxembourg, 2024.

(٢٢٥) Federal Bureau of Investigation (FBI), Crime in the United States 1997, Uniform Crime Reports, Section II, Crime Clock 1997: “One forcible rape every 5 minutes“.

(٢٢٦) الأحزاب/ ٥٩
(٢٢٧) النور/ ٣٠.
(٢٢٨) قوله «وما نَدَا دمًا» أي: لم يصب دمًا ولم يباشر سفكه.
(٢٢٩) سهمًا، أي نصيبًا من المسؤولية؛ لأنه أسهم بسبب فعله في وصول الأمر إلى القاتل.
(٢٣٠) الكافي-الشيخ الكليني-ج٢-ص٢٧٥، ح٥
(٢٣١) الكافي-الشيخ الكليني-ج٢-باب عقوبات المعاصي العاجلة-ص٣٧٣
(٢٣٢) الكافي-الشيخ الكليني-ج٢-باب عقوبات المعاصي العاجلة-ح٢.
(٢٣٣) آل عمران/ ١٩٥.
(٢٣٤) الكافي-الشيخ الكليني-ج٥-ص٦٣.
(٢٣٥) ميزان الحكمة-محمد الريشهري-ج٣-ص٢٠٠٨.
(٢٣٦) آل عمران:/ ١٩.
(٢٣٧) آل عمران/ ١١٠.
(٢٣٨) البينة/ ٧.
(٢٣٩) الأحزاب/ ٥٩.
(٢٤٠) الميزان في تفسير القرآن-العلامة الطباطبائي-ج١٦-ص٢٧٤.
(٢٤١) ذكر الشيخ الطبرسي في مجمع البيان، في تفسير الآية ٣٢ من سورة الحج:[وَمَنْ يُعَظِّمْ

شَعَائِرَ اللهِ]أن شعائر الله هي «معالم دين الله، والأعلام التي نصبها لطاعته»، ونقل أيضًا قولًا بأن المراد بها «دين الله كله». وعلى هذا المعنى العام يمكن النظر إلى الحجاب، بوصفه حكمًا إلهيًا وعلامةً ظاهرةً على الالتزام بالدين، على أنه من الشعائر بالمعنى العام، لا بمعنى أن الآية نزلت في الحجاب بخصوصه.

(٢٤٢) الحج/ ٣٢.

(٢٤٣) الدمعة الساكبة -محمد باقر البهبهاني -ج٤ ص٢١٦.

(٢٤٤) مجمع مصائب أهل البيت ع-الشيخ الهنداوي-ج١-ص٢٤٦.

(٢٤٥) مجمع مصائب أهل البيت ع-الشيخ الهنداوي-ج١-ص٢٩٣-٢٩٤.

(٢٤٦) الإقبال بالأعمال الحسنة-ابن طاووس -ج ٢-ص ٢٥٢.

(٢٤٧) الإقبال بالأعمال الحسنة-ابن طاووس -ج ٢-ص ٢٥٢.

(٢٤٨) الإقبال بالأعمال الحسنة-ابن طاووس -ج ٢-ص ٢٥٢.

(٢٤٩) المدثر/ ٤٢-٤٣.

(٢٥٠) نهج البلاغة، لأمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ-جمع الشريف الرضي-الخطبة الأولى. والنص موجود فعلًا في بداية الخطبة الأولى.

(٢٥١) الكافي-الشيخ الكليني-ج١-كتاب فضل العلم، باب استعمال العلم-ح ٢.

(٢٥٢) بحار الأنوار-العلامة المجلسي-ج ٢-ص ١٢٠.

(٢٥٣) الإقبال بالأعمال الحسنة-ابن طاووس -ج ٢-ص ٢٥٢.

(٢٥٤) الكافي-الشيخ الكليني-ج١-ص٢٧١-كتاب الحجة-باب أن الأئمة عَلَيْهِمُ السَّلَامُ محدَّثون مفهَّمون-ح٣.

(٢٥٥) الكافي-الشيخ الكليني-ج١-ص٢٧١-كتاب الحجة-باب أن الأئمة عَلَيْهِمُ السَّلَامُ محدَّثون مفهَّمون-ح٤.

(٢٥٦) القصص/ ٧.

(٢٥٧) البقرة/ ١٢٤.

(٢٥٨) راجع: بصائر الدرجات-محمد بن الحسن الصفّار القمّي-ص٩٤-باب في ولاية الأئمة عَلَيْهِمُ السَّلَامُ؛ ومنه قول الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ: «ما نُبِّئ نبيٌّ قط إلا بمعرفة حقنا وبفضلنا عمّن سوانا»، وقوله عَلَيْهِ السَّلَامُ: «ما من نبي نُبِّئ ولا من رسول أُرسل إلا بولايتنا وبفضلنا عمّن سوانا».

(٢٥٩) المائدة/ ٥٥.

(٢٦٠) الطرائف في معرفة مذاهب الطوائف-السيد ابن طاووس-ص١٥٠-في حديث غدير خم: «ألست أولى بالمؤمنين من أنفسهم؟... من كنت مولاه فعلي مولاه».

(٢٦١) الجمعة/ ٢.
(٢٦٢) بحار الأنوار -العلامة المجلسي-ج ٢-ص ١٢٠.
(٢٦٣) الأحزاب/ ٣٣.
(٢٦٤) بحار الأنوار -العلامة المجلسي-ج٦٦-ص١٩-نقلًا عن كنز الكراجكي.
(٢٦٥) النساء/ ٥٩.
(٢٦٦) الكافي-الكليني-ج١-ص٢٨٦-ح١.
(٢٦٧) النساء/ ٦٥.
(٢٦٨) أصول الكافي-الكليني-ج٢-ص٨٧.
(٢٦٩) الصافات/ ١٠٣.
(٢٧٠) الاحتجاج-الطبرسي -ج١-ص٥٥
(٢٧١) مناقب آل أبي طالب-ابن شهرآشوب-ج٤-ص٢٣٧.
(٢٧٢) آل عمران/ ١٥٢.
(٢٧٣) الميزان في تفسير القرآن-السيد الطباطبائي-ج٤-في تفسير قوله تعالى:[وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللهُ وَعْدَهُ...]-آل عمران: ١٥٢.
(٢٧٤) النساء/ ٦٥.
(٢٧٥) الكافي-الشيخ الكليني-ج١-ص٦٧-ح١٠.
(٢٧٦) تَدارى: أي وقع بينهما تنازعٌ واختلافٌ في شيءٍ من الأخذ والعطاء والمعاملات المالية.
(٢٧٧) الكافي-الشيخ الكليني-ج٧-ص٤١٢.
(٢٧٨) منهاج الصالحين-السيد علي الحسيني السيستاني-ج١-مسألة ٢١.
(٢٧٩) بحار الأنوار-العلامة المجلسي-ج ٢-ص ١٢٠.
(٢٨٠) النساء/ ١٦٥.
(٢٨١) المقالات والفرق-سعد بن عبد الله الأشعري القمي-ص٨٧-٨٨.
(٢٨٢) كمال الدين وتمام النعمة-الشيخ الصدوق-ص٤٧٥—٤٧٦-بتصرف.
(٢٨٣) م.ن-ص٦٥٠-باب ٥٧-ح٧.
(٢٨٤) الإقبال بالأعمال الحسنة-ابن طاووس -ج ٢-ص ٢٥٢.
(٢٨٥) الإرشاد -الشيخ المفيد -ج ٢ -ص ٩١.
(٢٨٦) أنساب الأشراف-البلاذري-ج٣-ص١٦٧؛ تاريخ الطبري-الطبري-ج٤-ص٢٩٨.
(٢٨٧) الفسطاط: الخيمة.
(٢٨٨) أنساب الأشراف-البلاذري-ج٣-ص١٦٧-١٦٨. وتاريخ الطبري-الطبري-ج٤-ص ٢٩٨.

(٢٨٩) فتى المعارف/ child.almaaref.org/ قصص/ أبطال كربلاء/ زهير بن القين-بتصرف.
(٢٩٠) مقتل الحسين-الخوارزمي-ج٢-ص٢٠.
(٢٩١) مناقب آل ابي طالب-بن شهراشوب-ج ٣-ص ٢٢٥. وتاريخ الطبري-الطبري-ج ٤، ص ٣٣٦.
(٢٩٢) مقتل الحسين-الخوارزمي-ج٢-ص٢٣.
(٢٩٣) إقبال الأعمال-ابن طاووس-ج٣-ص٧٧-٧٨.
(٢٩٤) أدب الطف أو شعراء الحسين عليه السلام-جواد شُبَّر-ج ٨-ص ١١٠-١١١.
(٢٩٥) مجمع مصائب أهل البيت ع-الشيخ الهنداوي-ج١-ص٣١٥-٣١٦.
(٢٩٦) الشيخ الكليني-الكافي -ج ٢ -ص ٣٠٣ -ح ٣.
(٢٩٧) الشيخ الكليني-الكافي -ج ٢ -ص ٣٠٣ -ح ٣.
(٢٩٨) جامع السعادات-محمد مهدي النراقي-ج١-ص٣٢٢-٣٢٤.
(٢٩٩) بحار الأنوار المجلسي-ج٦٤-ص٣٥٤.
(٣٠٠) الأعراف/ ١٥٠.
(٣٠١) الكافي-الكليني-ج٢-ص٣٠٣-باب الغضب-ح٤.
(٣٠٢) جامع الأخبار-الشيخ الصدوق-ص١٦٠.
(٣٠٣) غرر الحكم ودرر الكلم-الآمدي-ص٨١٩-ح٥١٥٥.
(٣٠٤) الأمالي-الشيخ المفيد-ص١١٨-المجلس الخامس عشر-ح٢.
(٣٠٥) نهج البلاغة-الكتاب رقم ٥٣-من عهد أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى مالك الأشتر-تحقيق صبحي الصالح-ص٤٤٥.
(٣٠٦) الكافي-الشيخ الكليني-ج٢-كتاب الإيمان والكفر-باب الغضب-ص٣٠٥-ح١٣.
(٣٠٧) الكافي-الكليني-ج٢-ص٣٠٥-باب الغضب-ح١٣.
(٣٠٨) الكافي-الكليني -ج٧-ص٢٦٠-ح٣.
(٣٠٩) غرر الحكم ودرر الكلم-الآمدي-ح١٠٥٢٩.
(٣١٠) الرعد/ ٢٨.
(٣١١) آل عمران/ ١٣٤.
(٣١٢) الشورى/ ٣٧.
(٣١٣) الفرقان/ ٦٣.
(٣١٤) مكارم الأخلاق-رضي الدين الطبرسي-ص٤٠٣
(٣١٥) الكافي-الكليني-ج٢-ص٥٦٢-ح٢١.

(٣١٦) الكافي-الكليني-ج٢-ص٣٠٥.
(٣١٧) الكافي-الشيخ الكليني-ج٢-ص٣٠٤-كتاب الإيمان والكفر-باب الغضب-ح١٢.
(٣١٨) بحار الأنوار-المجلسي-ج٧٠-ص٢٧٨.
(٣١٩) Sharifi, M. et al., Int. J. Multicult. Multirelig. Underst., 2021, 8(7): 293–302. DOI: 10.18415/ijmmu.v8i7.2772.
(٣٢٠) روي عن الإمام الصادق عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: «السجود على تربة الحسين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ يخرق الحجب السبع». المصدر: الشيخ الطوسي، مصباح المتهجد، ص٧٣٣-٧٣٤.
(٣٢١) Zaccaro, A. et al., Frontiers in Human Neuroscience, 2018, 12:353. DOI: 10.3389/fnhum.2018.00353.
(٣٢٢) Kjærvik, S. L. & Bushman, B. J., Clinical Psychology Review, 2024, 109: 102414. DOI: 10.1016/j.cpr.2024.102414.
(٣٢٣) الكافي-الشيخ الكليني-ج٢، كتاب الإيمان والكفر-باب الغضب-ص٣٠٤-ح١٢.
(٣٢٤) بحار الأنوار-المجلسي-ج٧٠-ص٢٧٢.
(٣٢٥) Al Haddad et al., European Journal of Applied Physiology, 2010, 108(3): 599–606. DOI: 10.1007/s00421-009-1253-9.
(٣٢٦) Goldfarb & A. Jamurtas, "Beta-Endorphin Response to Exercise," Sports Medicine, 1997, 24(1): 8–16. DOI: 10.2165/00007256-199724010-00002.
(٣٢٧) فصّلت/ ٣٤-٣٥.
(٣٢٨) تنبيه الخواطر ونزهة النواظر (مجموعة ورّام) -ورّام بن أبي فراس ج١، ص٢.
(٣٢٩) آل عمران/ ١٣٤.
(٣٣٠) Palmer, C. A. & Alfano, C. A., Sleep Medicine Reviews, 2017, 31: 6–16.
(٣٣١) الأمالي-الشيخ الصدوق-المجلس ٦٨-ح١.
(٣٣٢) الحجرات/ ١٢.
(٣٣٣) إحقاق الحق-الشوشتري-ج١٢-ص ٢٧٩.
(٣٣٤) الكافي الشيخ-الكليني-ج٢-ص٣٠٣-باب الغضب.
(٣٣٥) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، ج١٩، ص٢٧.
(٣٣٦) Hudson et al., 2019, Journal of Personality and Social Psychology, 117(4), 839–857.
(٣٣٧) تحف العقول-ابن شُعبة الحرّاني-ص٣٥٩.
(٣٣٨) موقع سماحة السيد السيستاني/ sistani.org/ الاستفتاءات/ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر/

سؤال رقم٢.

(٣٣٩) مهارة التحكم بالغضب-تأليف مياسة شبع.

(٣٤٠) الكافي الشيخ-الكليني-ج٢-ص٢٣٣.

(٣٤١) لمعرفة علاقة كل سبب بالغضب وكيفية اكتشافه ومعالجته، يمكنكم الرجوع إلى كتاب «مهارة التحكّم بالغضب» -مياسة شبع.

(٣٤٢) ثمرات الأعواد-علي عبد الحسين الخطيب-ج١-ص٢٢٢-٢٢٤.

(٣٤٣) مجمع مصائب أهل البيت ع-الشيخ الهنداوي-ج١-٣٢٥-٣٢٦.

(٣٤٤) مقتل الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ-عبد الرزاق المقرم -ص٢٦٥.

(٣٤٥) مجمع مصائب أهل البيت ع-الشيخ الهنداوي-ج١-ص٣٦٤-٣٦٥.

(٣٤٦) مستدرك الوسائل-الميرزا النوري -ج ١٤ -ص ١٥٢.

(٣٤٧) الروم/ ٢١.

(٣٤٨) مستدرك الوسائل-الميرزا النوري -ج ١٤ -ص ١٥٢.

(٣٤٩) الأحزاب/ ٢١.

(٣٥٠) الثيّب هي التي دُخل بها سابقاً بزواج صحيح كالمطلقة أو الأرملة. المصدر: مكتب سماحة السيد السيستاني/ sistani.org/ الاستفتاءات/ الثيّب.

(٣٥١) مستدرك الوسائل-الميرزا النوري -ج ١٤ -ص ١٥٢.

(٣٥٢) ميزان الحكمة-محمدي الريشهري-ج٢-ص١١٨٠.

(٣٥٣) ميزان الحكمة-الريشهري -ج٢ -ص ١١٨٠.

(٣٥٤) مكتب سماحة السيد السيستاني/ sistani.org/ الاستفتاءات/ الزواج.

(٣٥٥) من لا يحضره الفقيه-الشيخ الصدوق-ج٣-ص٣٨٣.

(٣٥٦) وسائل الشيعة-الحر العاملي-ج٢٠-ص١٧.

(٣٥٧) النور/ ٣٢.

(٣٥٨) مكارم الأخلاق -الشيخ الطبرسي -ص١٩٧.

(٣٥٩) من لا يحضره الفقيه -الشيخ الصدوق -ج ٣ -ص ٣٨٥.

(٣٦٠) راجع: منهاج الصالحين-السيد علي الحسيني السيستاني-ج٣-كتاب النكاح-المسألة ٢٩٢ في العقد الدائم-والمسألة ٢٣٣ في العقد المنقطع.

(٣٦١) الكافي-الكليني-ج٥-ص٣٧٨.

(٣٦٢) مكارم الأخلاق-الطبرسي-ص ٣٠٨.

(٣٦٣) م.ن-ص ٣٠٨.

(٣٦٤) فقه السنّة-سيد سابق-ج٢-ص١٥٨-١٥٩.
(٣٦٥) الفتح/ ١١.
(٣٦٦) الحجرات/ ١٣.
(٣٦٧) لقمان/ ١٨.
(٣٦٨) الكافي - الشيخ الكليني-ج ٥ -ص ٥٠٨.
(٣٦٩) الكافي -الشيخ الكليني -ج ٦ -ص ٤٣٣.
(٣٧٠) النساء/ ٣٢.
(٣٧١) وسائل الشيعة-الحر العاملي-ج٥-ص١٢٠.
(٣٧٢) النساء/ ٢٩.
(٣٧٣) النساء/ ٤.
(٣٧٤) النساء/ ٣٤.
(٣٧٥) وسائل الشيعة-الحر العاملي-ج١٧-ص٦٨.
(٣٧٦) لا يجوز الترافع إلى القاضي غير المؤهل شرعًا، إلا إذا انحصر استنقاذ الحق المعلوم بذلك، ولا يجوز للإنسان أن يأخذ بحكمه أكثر من حقه الثابت شرعًا. راجع: منهاج الصالحين-السيد علي الحسيني السيستاني-ج١-كتاب التقليد، المسألة ٢١.
(٣٧٧) الكافي-الكليني-ج ٢-ص ٣٣٣.
(٣٧٨) ثواب الأعمال وعقاب الأعمال-الشيخ الصدوق-ج١-ص٢٧٣.
(٣٧٩) ميزان الحكمة -الشيخ محمد الري شهري -ج٢ -ص١٧٨٧.
(٣٨٠) البقرة/ ٢٨٢.
(٣٨١) الملك/ ٢.
(٣٨٢) بحار الأنوار -العلامة المجلسي-ج ٧٨ -ص ٤٥٣.
(٣٨٣) راجع: السيد علي السيستاني، منهاج الصالحين، ج٢، المسألة ١٢٧٣؛ وموقع السيد السيستاني الرسمي، الاستفتاءات، «الحقوق الزوجية»، السؤال ١٧؛ و«الوكالة»، السؤال ١.
(٣٨٤) وسائل الشيعة-الشيخ الحر العاملي، ج١٤، ص٥١.
(٣٨٥) سنن سعيد بن منصور -رقم الحديث: ٤٧٥.
(٣٨٦) البقرة/ ٢١٩.
(٣٨٧) الكافي -الشيخ الكليني -ج ٥ -ص ٥٠٩.
(٣٨٨) النور/ ٣٢.
(٣٨٩) ميزان الحكمة-الريشهري-ج٢-ص١١٨٤.

(٣٩٠) م.ن.

(٣٩١) بحار الأنوار -العلامة المجلسي -ج ٧١ -ص ٩ -ح١٣.

(٣٩٢) وسائل الشيعة-الشيخ الحر العاملي-ج٢٠-ص٥٥-باب استحباب اختيار البكر للتزويج.

(٣٩٣) الحجرات/ ١٣.

(٣٩٤) وسائل الشيعة-الحر العاملي-ج٢٠-ص١٤، ح٢.

(٣٩٥) Fazio et al., Journal of Exper- ؛١٩٦٨ ,Zajonc, Journal of Personality and Social Psychology imental Psychology: General, ٢٠١٥.

(٣٩٦) تحف العقول-ابن شعبة الحراني-ص ٤٥٦.

(٣٩٧) مجمع مصائب أهل البيت ع-الشيخ الهنداوي-ج١-ص٣٦١-٣٦٢.

(٣٩٨) مثير الأحزان-ابن نما الحلي -ص١٢٩.

(٣٩٩) مجمع مصائب أهل البيت ع-الشيخ الهنداوي-ج١-ص٣٩١.

(٤٠٠) النساء/ ١٢٩.

(٤٠١) البقرة/ ٢٣١.

(٤٠٢) البقرة/ ٢٢٦–٢٢٧.

(٤٠٣) النساء/ ١٢٩.

(٤٠٤) النساء/ ١٩.

(٤٠٥) عقاب الأعمال-الصدوق-ص٣٣٦-٣٣٨.

(٤٠٦) وسائل الشيعة-الحرّ العاملي-ج٢٢-كتاب الخلع والمباراة-الباب ٢-ح ٢٨٥٩٧.

(٤٠٧) البقرة/ ٢٣١.

(٤٠٨) منهاج الصالحين-السيد السيستاني-ج٣-كتاب النكاح-الفصل الحادي عشر-المسألة ٣٥٠.

(٤٠٩) م.ن-المسألة ٣٥٨.

(٤١٠) منهاج الصالحين-السيد السيستاني-ج٣-كتاب النكاح-أحكام النشوز والشقاق-المسألة ٣٥٨؛ موقع مكتب سماحة السيد السيستاني/ sistani.org/ الاستفتاءات/ الطلاق-السؤال ٧٣-رقم ١٠٤٤٦.

(٤١١) البقرة/ ٢٢٩.

(٤١٢) الكافي-الكليني-ج٥-كتاب النكاح-باب الغيرة-ص٥٣٧-ح ٨.

(٤١٣) منهاج الصالحين-السيد السيستاني-ج٣-كتاب النكاح-أحكام النشوز والشقاق-المسألتان ٣٥٦ و٣٦٠.

(٤١٤) الفقه للمغتربين-وفق فتاوى السيد السيستاني-المسألة ٤٢٣؛ منهاج الصالحين-السيد

السيستاني-ج٣-كتاب النكاح-المسائل ٣٥٦ و٣٥٨ و٣٦٠. ونصّ الاستفتاء في الحقوق الزوجية، السؤال ٦.

(٤١٥) موقع مكتب سماحة السيد السيستاني، sistani.org / منهاج الصالحين-ج٣ / كتاب الخلع والمباراة / المسائل ٦١١ و٦١٥ و٦١٦؛ كتاب النكاح / الشروط المذكورة في النكاح / المسألة ٣٣٤؛ كتاب النكاح / أحكام النشوز والشقاق / المسائل ٣٥٨ و٣٦٠.

(٤١٦) موقع مكتب السيد السيستاني/ sistani.org/ الاستفتاءات/ انقطاع أحد الزوجين عن زوجه-سؤال رقم١.

(٤١٧) النساء/ ١٩.

(٤١٨) جواهر الكلام في شرح شرائع الإسلام-الشيخ محمد حسن النجفي-ج٣٣-ص٥٩-كتاب الخلع-المسألة الثالثة.

(٤١٩) منهاج الصالحين-السيد علي الحسيني السيستاني-ج٣-كتاب النكاح-«أحكام النشوز والشقاق»-المسألة ٣٦١-موقع مكتب السيد السيستاني.

(٤٢٠) منهاج الصالحين-السيد السيستاني-ج٣-كتاب الخلع والمباراة-«طلاق الخلع»-المسائل ٦١١ و٦١٥ و٦١٦ و٦١٨.

(٤٢١) منهاج الصالحين-السيد علي الحسيني السيستاني-ج٣، كتاب النكاح-«أحكام النشوز والشقاق»- المسألة ٣٦١.

(٤٢٢) منهاج الصالحين-السيد أبو القاسم الخوئي-ج٢-كتاب الخلع والمباراة-المسألة ١٤٩٦-ص٣٠٧-مؤسسة الإمام الخوئي الخيرية.

(٤٢٣) موقع مكتب السيد السيستاني/ sistani.org/ الاستفتاءات/ الطلاق-السؤال ٧٤، رقم ١٠٤٤٧.

(٤٢٤) منهاج الصالحين-السيد علي الحسيني السيستاني-ج٣-كتاب النكاح-«أحكام النشوز والشقاق»-المسألتان ٣٥٠ و٣٥٨؛ وموقع المكتب، «الاستفتاءات / الطلاق»، السؤال ٧٣، رقم ١٠٤٤٦.

(٤٢٥) منهاج الصالحين-السيد السيستاني-ج٣-كتاب النكاح-«أحكام النشوز والشقاق»-المسألتان ٣٥٠ و٣٥١؛ و«نفقة الزوجة»، المسألة ٤٢٠، موقع مكتب السيد السيستاني: أحكام النشوز والشقاق ونفقة الزوجة.

(٤٢٦) النساء/ ١٢٩.

(٤٢٧) النساء/ ١٢٨.

(٤٢٨) منهاج الصالحين-السيد علي الحسيني السيستاني-ج٣-كتاب النكاح-«أحكام النشوز والشقاق»-المسألتان ٣٥٠ و٣٥٤.

(٤٢٩) آل عمران/ ١٥٩.

(٤٣٠) النحل/ ١٢٥.

(٤٣١) منهاج الصالحين-السيد علي الحسيني السيستاني-ج٣-كتاب النكاح-«أحكام النشوز والشقاق»-المسألتان ٣٥٠ و٣٥٣.

(٤٣٢) النساء/ ٣٤.

(٤٣٣) منهاج الصالحين-السيد السيستاني-ج٣-كتاب النكاح-«أحكام النشوز والشقاق»-المسألتان ٣٥٠ و٣٥٣.

(٤٣٤) زاد المبلّغات-مياسة مهدي شبع-ج٢-المحاضرة الرابعة: «التساؤلات المتعلقة بالحقوق الزوجية»، ففيها شرحٌ للتساؤلات المتعلقة بحقوق الزوجين، ومنها الخروج من المنزل والعلاقة الزوجية.

(٤٣٥) م.ن-المسألة ٣٦١.

(٤٣٦) الرعد/ ١١.

(٤٣٧) منهاج الصالحين-السيد علي الحسيني السيستاني-ج٣-كتاب النكاح-«نفقة الزوجة»-المسألة ٤٢٠.

(٤٣٨) م.ن.

(٤٣٩) مكارم الأخلاق-الحسن بن الفضل الطبرسي-ص٢٠٢-فصل «في أصناف النساء وأخلاقهن».

(٤٤٠) البقرة/ ٢٨٢.

(٤٤١) النساء/ ٣٥.

(٤٤٢) منهاج الصالحين-السيد علي الحسيني السيستاني-ج٣-كتاب النكاح-«أحكام النشوز والشقاق»-المسائل ٣٦٢ و٣٦٤ و٣٦٦.

(٤٤٣) المائدة/ ٢.

(٤٤٤) الكافي-الكليني-ج٢-كتاب الإيمان والكفر-باب الظلم-ص٣٣٣-ح ١٦.

(٤٤٥) م.ن-باب «مَن طلب عثرات المؤمنين وعوراتهم».

(٤٤٦) مكارم الأخلاق-الحسن بن الفضل الطبرسي-ص٢٤٥.

(٤٤٧) النساء/ ١٣٠.

(٤٤٨) موقع مكتب سماحة السيد السيستاني/ sistani.org / الاستفتاءات / الحقوق الزوجية / السؤال ٦-رقم ٣٤٢٢.

(٤٤٩) منهاج الصالحين-السيد علي الحسيني السيستاني-ج٣-كتاب النكاح-«تكميل في الشروط المذكورة في النكاح»-المسألتان ٣٣٣ و٣٣٤.

(٤٥٠) البقرة/ ٢٢٩.
(٤٥١) النساء/ ١٢٩.
(٤٥٢) آل عمران/ ٣٣-٣٤.
(٤٥٣) مجمع مصائب أهل البيت ع-الشيخ الهنداوي-ج١-ص٣٩٢-٣٩٣.
(٤٥٤) مجمع مصائب أهل البيت ع-الشيخ الهنداوي-ج١-ص٤١٢-٤١٣.
(٤٥٥) مقتل الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ-السيد عبد الرزاق المقرم -ص٣٩٧.
(٤٥٦) مجمع مصائب أهل البيت ع-الشيخ الهنداوي-ج٢-ص١٩-٢٠.
(٤٥٧) بحار الأنوار -العلامة المجلسي -ج ١٠١ -ص ٩٥.
(٤٥٨) شرح نهج البلاغة-ج٢٠ -ص٢٦٧ / ١٠٢.
(٤٥٩) عيون الحكم والمواعظ-الواسطي -ص ٦٣.
(٤٦٠) الأمالي الشيخ -الطوسي-ج٢-ص١٣٢.
(٤٦١) شرح رسالة الحقوق للإمام زين العابدين (ع) -ص٥٨٦.
(٤٦٢) الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج١٥، ص١٩٥، الباب ٨٣ من أبواب أحكام الأولاد، الحديث ٧.
(٤٦٣) مصادقة الإخوان-الصدوق -ج١-ص٣٠.
(٤٦٤) المُكاشَرة مأخوذة من الكَشْر عن الأسنان، أي إظهار الأسنان عند التبسّم والضحك.
(٤٦٥) الرعد/ ١١.
(٤٦٦) نهج البلاغة، وصية أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ للإمام الحسن عَلَيْهِ السَّلَامُ، الكتاب ٣١.
(٤٦٧) الأمالي-الطوسي-ح ٦ -ص ٦٠٩.
(٤٦٨) الميزان في تفسير القرآن، السيد محمد حسين الطباطبائي، ج١٦، ص١٦٦.
(٤٦٩) الشورى/ ٢٣
(٤٧٠) بحار الأنوار -العلامة المجلسي -ج ٤٣ -ص ١٧٢.
(٤٧١) وسائل الشيعة-ج٢١-ص٤٨٥-ح٤-باب استحباب تقبيل الإنسان ولده على وجه الرحمة.
(٤٧٢) وسائل الشيعة -الحر العاملي -ج ١٦ -ص ١٤٣.
(٤٧٣) عدّة الداعي ونجاح الساعي-ابن فهد الحلي -ص٨٧.
(٤٧٤) راجع: زاد المبلغات-مياسة شبع-ج٤-المحاضرة المعنونة بـ»أساليب التربية بالعقوبة»- بتصرف.
(٤٧٥) الأحزاب: ٢١
(٤٧٦) نهج البلاغة، من حكم أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ، الحكمة ٧٣.
(٤٧٧) الكافي-الكليني-ج٢-ص١٠٥-باب الصدق وأداء الأمانة.

(٤٧٨) الصف/ ٢-٣.
(٤٧٩) النحل/ ١٢٥.
(٤٨٠) آل عمران/ ١٥٩.
(٤٨١) غرر الحكم ودرر الكلم-عبد الواحد بن محمد التميمي الآمدي-الحديث رقم ١٠٥٢٩.
(٤٨٢) مسند أحمد-أحمد بن حنبل-ج٥-ص٢٥٦.
(٤٨٣) المائدة/ ٣٥.
(٤٨٤) النحل/ ١٢٥.
(٤٨٥) الميزان في تفسير القرآن-السيد محمد حسين الطباطبائي-ج١٢-ص٣٧١.
(٤٨٦) الميزان-السيد الطباطبائي-ج١٢-ص٣٧١.
(٤٨٧) ميزان الحكمة-الريشهري -ج ٢-ص١٥٨٩.
(٤٨٨) موسوعة أحاديث أهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ-الشيخ هادي النجفي-ج٦، ص٤٠-ح٦٧٢٥.
(٤٨٩) مستدرك الوسائل، الميرزا النوري، ج١٥، ص١٦٤، ح١٧٨٧١.
(٤٩٠) الرعد/ ٢٨.
(٤٩١) من لا يحضره الفقيه-الشيخ الصدوق-ج٣-ص٤٨٣-ح٤٧٠٧.
(٤٩٢) مناقب آل أبي طالب -ابن شهر آشوب -ج ٣ -ص ١٥٨.
(٤٩٣) مناقب آل أبي طالب-ابن شهرآشوب-ج٣-ص١٥٨.
(٤٩٤) هداية الأمة إلى أحكام الأئمة ع-الحر العاملي-ج٥-ص١٣٩.
(٤٩٥) الحجرات/ ١١.
(٤٩٦) إعلام الدين-الديلمي-ص١٢٥.
(٤٩٧) غرر الحكم ودرر الكلم، الحديث رقم ٤٩٩٠
(٤٩٨) النحل/ ٤٣.
(٤٩٩) وسائل الشيعة-الحر العاملي-ج١٥-ص١٩٥-الباب ٨٣ من أبواب أحكام الأولاد، الحديث ٧.
(٥٠٠) Sveriges Radio ،"Teen Solves Math Mystery"28 ، May 2009.
(٥٠١) الكافي-الشيخ الكليني- ج٦-ص٤٣٣- ح١٥.
(٥٠٢) الرعد/ ٢٨.
(٥٠٣) المحاسن-أحمد البرقى -ج ١-ص ٦٢.
(٥٠٤) نفس المهموم - عباس القمي -ص٣٤٩.
(٥٠٥) مجمع مصائب أهل البيت ع-الشيخ الهنداوي-ج٢-ص٢١-٢٢.
(٥٠٦) رياض المدح والرثاء - البحراني -ص ١٣٠.

(٥٠٧) مجمع مصائب أهل البيت ع-الشيخ الهنداوي-ج٢-ص٢١١-٢١٢.
(٥٠٨) الأمالي-الشيخ الصدوق-ص ١٧٧.
(٥٠٩) علل الشرائع-الشيخ الصدوق-ج١-ص١٧٧.
(٥١٠) بحار الأنوار-المجلسي-ج٤٤-ص٢٧٤.
(٥١١) مصباح المتهجد-الشيخ الطوسي-زيارة عاشوراء.
(٥١٢) بحار الأنوار-العلامة المجلسي-ج٤٥-ص٢١٨.
(٥١٣) الإرشاد في معرفة حجج الله على العباد-الشيخ المفيد، ج٢-ص٣٠.
(٥١٤) كامل الزيارات-ابن قولويه القمي-ص٦٧-رقم ١٦٦.
(٥١٥) كفاية الأثر-علي بن محمد الخزاز القمي-ص٣٠.
(٥١٦) وسائل الشيعة-الحر العاملي-ج١٤-ص٤٢٣-رقم ١٩٥٠٩.
(٥١٧) كامل الزيارات-ابن قولويه القمي-ص٢٥٢-رقم ٧٠٢.
(٥١٨) الفصول المهمة في أصول الأئمة -الحر العاملي -ج ٣ -ص ٤١٢.
(٥١٩) مقاتل الطالبيين-أبو الفرج الأصفهاني -ص١١٣.
(٥٢٠) بحار الأنوار-العلامة المجلسي-ج٤٥-ص٢١٨.
(٥٢١) الإرشاد-الشيخ المفيد-ج٢-ص٩٧-٩٨.
(٥٢٢) تاريخ الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ «موسوعة الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ» -مجموعة من الباحثين-ج١٧-ص١٦٩، نقلًا عن: مقتل الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ-السيد عبد الرزاق المقرّم-ص٤٥٨.
(٥٢٣) الكافي-الشيخ الكليني-ج٥-ص٥٦.
(٥٢٤) مفاتيح الجنان-عباس القمي-زيارة وارث.
(٥٢٥) الشورى/ ٢٣.
(٥٢٦) نفس المهموم-الشيخ عباس القمي-ص١٩٠.
(٥٢٧) مجمع مصائب أهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ-الشيخ محمد الهنداوي-ج٢، ص١٠١-١٠٢-بتصرف.
(٥٢٨) الأمالي-الشيخ الصدوق-ص٢٨٨.
(٥٢٩) مفاتيح الجنان-الشيخ عباس القمي-زيارة وارث.
(٥٣٠) راجع: الخصائص الحسينية-الشيخ جعفر التستري-ص٣٤١-٣٦٠-بتصرف.
(٥٣١) الأنبياء/ ٦٩.
(٥٣٢) يوسف/ ١٣.
(٥٣٣) مقاتل الطالبيين-أبو الفرج الأصفهاني-ص٥٩؛ مقتل الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ-السيد عبد

الرزاق المقرّم-ص٣٤٣.

(٥٣٤) الأمالي-الشيخ الصدوق-ص١٧٧.

(٥٣٥) م.ن.

(٥٣٦) كامل الزيارات-ابن قولويه القمي-باب بكاء جميع ما خلق الله على الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ.

(٥٣٧) م.ن.

(٥٣٨) اللهوف في قتلى الطفوف-السيد ابن طاووس-ج١-ص١٧.

(٥٣٩) بحار الأنوار-العلامة المجلسي-ج٤٤-ص٣٢٩.

(٥٤٠) تاريخ الطبري-محمد بن جرير الطبري-ج٤-ص٣٠٣.

(٥٤١) الأنفال/ ٤١.

(٥٤٢) بحار الأنوار-العلامة المجلسي-ج٤٥-ص١٧٧.

(٥٤٣) مقتل الحسين-أبو مخنف-تحقيق حسن الغفاري-ص١٩٧.

(٥٤٤) مجمع مصائب أهل البيت ع-الشيخ الهنداوي-ج٢-ص١٠٢-١٠٤-بتصرف.

(٥٤٥) م.ن-ج٢-ص١٥١-١٥٢.

(٥٤٦) م.ن-ج٢-ص١٥٣.

(٥٤٧) ديوان عبد الحسين شكر -ص٣٠/ ٣١.

(٥٤٨) مجمع مصائب أهل البيت ع-الشيخ الهنداوي-ج٣-ص ٨٤-٨٥.

(٥٤٩) وسائل الشيعة-الحر العاملي-ج١٤-ص٥٠٥.

(٥٥٠) كتاب العين ١: ٢١٧ مادة (جزع)، لسان العرب ٨: ٤٧ مادة (جزع).

(٥٥١) وسائل الشيعة-الحر العاملي-ج١٤-ص٥٠٥.

(٥٥٢) الحجرات/ ١٧.

(٥٥٣) نهج البلاغة-الحكمة ٤٧٠.

(٥٥٤) البقرة/ ١٥٥-١٥٦.

(٥٥٥) منتخب الاحكام -السيد علي الخامنئي -ص٩.

(٥٥٦) أي إن المتماثلين في الجهة المؤثرة يشتركان في الحكم المتعلق بها.

(٥٥٧) يوسف/ ٨٤.

(٥٥٨) بحار الأنوار-العلامة المجلسي-ج١٢-ص٢٤٢.

(٥٥٩) يوسف/ ٨٦.

(٥٦٠) أعيان الشيعة-السيد محسن الأمين-ج١-ص٦٣٦.

(٥٦١) نهج البلاغة-الشريف الرضي-تحقيق صبحي الصالح-الحكمة رقم ٢٩٢-ص٥٢٧.

(٥٦٢) الخصال-الشيخ الصدوق-ص٢٧٢-٢٧٣-باب الخمسة-ح ١٥.
(٥٦٣) وسائل الشيعة-الحر العاملي-ج١٤، ص٥٠٥.
(٥٦٤) كامل الزيارات-ابن قولويه-ص٢٠١-الباب ٣٢-ح٢.
(٥٦٥) وسائل الشيعة-الحر العاملي-ج٣-ص٢٨٣.
(٥٦٦) مستدرك الوسائل-الميرزا النوري-ج٢-ص٤٦٩.
(٥٦٧) مهذّب الأحكام-السيد عبد الأعلى السبزواري -ج٤-ص٢٤٢.
(٥٦٨) مستند الشيعة-المحقق النراقي-ج٣-ص٣١٨.
(٥٦٩) مصدر وجوه تفسير الكراهة: مركز الرصد العقائدي/ alrasd.net/ الأسئلة والأجوبة/ تراث إسلامي/ البكاء والجزع على أهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ-بقلم السيد حسن العلوي-بتصرف.
(٥٧٠) إقبال الأعمال-السيد ابن طاووس -ج١-ص٥٠٤.
(٥٧١) كامل الزيارات-ابن قولويه -الباب ٧١-في ثواب زيارة الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ يوم عاشوراء-ص٣٢٥.
(٥٧٢) كامل الزيارات-ابن قولويه -الباب ٣٢-ح ٧-ص٢٠٣-٢٠٦.
(٥٧٣) الكافي-الشيخ الكليني -ج٤-ص٥٨٢-باب فضل زيارة أبي عبد الله الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ.
(٥٧٤) الأمالي-الشيخ الصدوق -المجلس السابع والعشرون-ح٢، ج١-ص١٩٠-١٩١.
(٥٧٥) الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ فوق ما قيل ويُقال-الشيخ أحمد الماحوزي-ص٨٤-٩٠.
(٥٧٦) الملهوف على قتلى الطفوف-السيد ابن طاووس-ص٢٠٩.
(٥٧٧) المجالس السنية-السيد محسن الأمين-ج١-المجلس العاشر.
(٥٧٨) بحار الأنوار العلامة-المجلسي-ج٢٨-ص٥٧.
(٥٧٩) تهذيب الأحكام-الشيخ الطوسي-ج٨-ص٣٢٥-ح١٢٠٧-كتاب الأيمان والنذور والكفارات.
(٥٨٠) مقتل الحسين-الخوارزمي-ج٢-ص١٤٨.
(٥٨١) كامل الزيارات-ابن قولويه -الباب الرابع والخمسون-في ثواب من زار الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ عارفًا بحقّه.
(٥٨٢) كامل الزيارات-ابن قولويه-الباب الثالث والثلاثون.
(٥٨٣) عيون أخبار الرضا عَلَيْهِ السَّلَامُ-الشيخ الصدوق-ج١-ص٢٧٥-الباب الثامن والعشرون-ح٦٤.
(٥٨٤) كامل الزيارات-ابن قولويه القمي-الباب السادس والعشرون-الحديث السادس-ص١٦٧-١٦٩.
(٥٨٥) الخصال-الشيخ الصدوق-حديث الأربعمائة-ص٦٣٥.
(٥٨٦) المحاسن-البرقي-ج٢-ص٤٢٠

(٥٨٧) كامل الزيارات-ابن قولويه-باب ثواب زيارة الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ.
(٥٨٨) تهذيب الأحكام-الشيخ الطوسي-ج٨، ص٣٢٥.
(٥٨٩) مأساة الحسين (عَلَيْهِ السَّلَامُ) بين السائل والمجيب-عبد الوهاب الكاشي-ص١٥٤.
(٥٩٠) وسائل الشيعة-الحر العاملي-ج٣-ص٢٨٣.
(٥٩١) عيون أخبار الرضا عَلَيْهِ السَّلَامُ-الشيخ الصدوق-ج١-ص٢٩٩.
(٥٩٢) الشورى/ ٢٣.
(٥٩٣) الحج/ ٣٠.
(٥٩٤) الحج/ ٣٢.
(٥٩٥) الأحزاب/ ٢١.
(٥٩٦) كامل الزيارات-ابن قولويه-باب ثواب من أنشد في الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ شعرًا فبكى وأبكى.
(٥٩٧) إبراهيم/ ٥.
(٥٩٨) بحار الأنوار-العلامة المجلسي-ج٤٤-ص٢٨٢.
(٥٩٩) مجمع مصائب أهل البيت ع-الشيخ الهنداوي-ج٣-ص٩١.
(٦٠٠) م.ن-ج٣-ص٩٥.
(٦٠١) رياض المدح والرثاء-الشيخ حسين البحراني-ص٧٤٨.
(٦٠٢) مجمع مصائب أهل البيت ع-الشيخ الهنداوي-ج٤-ص١٨٢.
(٦٠٣) الأنبياء/ ٣٥.
(٦٠٤) المؤمنون/ ١١٥
(٦٠٥) هود/ ١١٩.
(٦٠٦) تفسير العياشي-محمد بن مسعود العياشي-ج٢-ص١٥٤.
(٦٠٧) البقرة/ ٨٢.
(٦٠٨) الكافي-الشيخ الكليني-ج٢-كتاب الإيمان والكفر-باب الضلال.
(٦٠٩) معاني الأخبار-الشيخ الصدوق-ص١٨٧.
(٦١٠) نهج البلاغة-الخطبة ١٥٤، بحسب ترقيم عبده.
(٦١١) الكافي-الشيخ الكليني-ج٢-ص٣٨.
(٦١٢) الأنبياء/ ٣٥.
(٦١٣) الأنبياء/ ٣٥.
(٦١٤) يقول الجوهري في الصحاح: «والبلاء: الاختبار يكون بالخير والشر، يُقال أبلاه بلاءً حسناً وابتلاه معروفاً.

(٦١٥) تفسير مجمع البيان -الشيخ الطبرسي -ج ٧ -ص ٨٥.
(٦١٦) جامع البيان -ابن جرير الطبري -ج ١٧ -ص ٣٤.
(٦١٧) مجمع البيان في تفسير القرآن -الشيخ الطبرسي-ج٧ -ص ٨٥.
(٦١٨) تفسير الميزان -السيد الطباطبائي -ج ١٤ -ص ٢٨٧.
(٦١٩) مجمع البيان-الشيخ الطبرسي-ج٧-ص٨٥ .
(٦٢٠) الأنبياء/ ٣٥.
(٦٢١) الابتلاء سنة إلهية-صلاح الدين الحسيني-ص٦.
(٦٢٢) الفجر/ ١٥-١٧.
(٦٢٣) الكافي-الشيخ الكليني-ج٢-ص٩٥-كتاب الإيمان والكفر-باب الشكر-ح١٠.
(٦٢٤) إبراهيم/ ٧.
(٦٢٥) الأنبياء/ ٣٥.
(٦٢٦) الكافي-الشيخ الكليني-ج٨، ص١٧٧-ح١٩٧.
(٦٢٧) تفسير نور الثقلين-الشيخ الحويزي-ج ٢-ص ٢٩٣
(٦٢٨) الشورى/ ٢٧.
(٦٢٩) مجمع البيان في تفسير القرآن-الشيخ الطبرسي-ج٥-ص٨١-٨٢، عند تفسير سورة التوبة، الآيات ٧٥ وما بعدها-بتصرف.
(٦٣٠) مجمع البيان في تفسير القرآن-الشيخ الطبرسي-تفسير سورة التوبة، الآيات ٧٥-٧٨، في بيان النزول.
(٦٣١) التوبة/ ٧٥-٧٦.
(٦٣٢) فاطر/ ٤٣
(٦٣٣) الكافي-الشيخ الكليني-ج١-ص١٨٣.
(٦٣٤) فصلت/ ٤٦.
(٦٣٥) النحل/ ١١٨.
(٦٣٦) إبراهيم/ ٧.
(٦٣٧) مستدرك الوسائل-الميرزا النوري-ج١٣-ص٢١٣.
(٦٣٨) بحار الأنوار-العلامة المجلسي-ج٨٠-ص٢١.
(٦٣٩) نهج البلاغة-الشريف الرضي-الحكمة رقم ١٥٤-ص٤٩٩.
(٦٤٠) نهج البلاغة-الشريف الرضي-تحقيق صبحي الصالح-الخطبة ٢٠١، ص٣١٩.
(٦٤١) النور/ ١٩.

(٦٤٢) الإسراء/ ٧.
(٦٤٣) الأنفال/ ٤٦.
(٦٤٤) الأنفال/ ٢٥.
(٦٤٥) ميزان الحكمة -محمد الريشهري -ج ٢ -ص ٩٣٢.
(٦٤٦) تهذيب الأحكام-الشيخ الطوسي-ج ٦ -ص ١٧٦ / ٣٥٢.
(٦٤٧) وسائل الشيعة-الحر العاملي -ج ١٦ -ص٢٧٣.
(٦٤٨) الأنبياء/ ٣٥.
(٦٤٩) الملك/ ٢.
(٦٥٠) البقرة/ ١٥٥.
(٦٥١) بحار الأنوار -العلامة المجلسي -ج ٥٢ -ص ٣٤٨.
(٦٥٢) العنكبوت/ ٢-٣.
(٦٥٣) الملك/ ٢.
(٦٥٤) جهاد النفس في ضوء فكر الإمام الخميني-مركز المعارف للتأليف والتحقيق -ص٩٤.
(٦٥٥) النساء/ ١٦٥.
(٦٥٦) الشمس/ ٩-١٠.
(٦٥٧) النساء/ ١٠.
(٦٥٨) هود/ ١١٤
(٦٥٩) النساء/ ٦٤.
(٦٦٠) الأمالي-الشيخ الصدوق-ص٣٧٠.
(٦٦١) ميزان الحكمة-محمد الريشهري-ج٢-ص١٥٦٠.
(٦٦٢) فقرة من دعاء أبي حمزة الثمالي.
(٦٦٣) البقرة/ ٢٨٦.
(٦٦٤) البقرة/ ١٧٩.
(٦٦٥) نهج البلاغة-الخطبة: ١٤٣.
(٦٦٦) غرر الحكم-الآمدي-ص٤٤٥.
(٦٦٧) معاني الأخبار -الشيخ الصدوق-ص٢٧٠
(٦٦٨) البقرة/ ٢١٦.
(٦٦٩) البقرة/ ٢١٦.
(٦٧٠) الكهف/ ٧٩.

(٦٧١) الكهف/ ٨١.
(٦٧٢) الكهف/ ٨٢.
(٦٧٣) الحاصب: ريح شديدة تحمل الحصباء والحجارة وتقذف بها.
(٦٧٤) الصيحة: صوت شديد مهلك.
(٦٧٥) الخسف: غَوْر الأرض بمن عليها وهبوطها بهم.
(٦٧٦) الغرق: الهلاك بالماء، ومن أوضح مصاديقه طوفان قوم نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ وغرق فرعون وقومه.
(٦٧٧) العنكبوت/ ٤٠.
(٦٧٨) آل عمران/ ١٧٨.
(٦٧٩) الأعراف/ ١٨٢.
(٦٨٠) الكافي-الشيخ الكليني-ج٢-ص٤٥٢.
(٦٨١) الكافي-الكليني-ج٢-ص٤٥٢.
(٦٨٢) الأنفال/ ٣٣.
(٦٨٣) الكافي-الشيخ الكليني-ج١-ص١٧٩
(٦٨٤) نهج البلاغة-الشريف الرضي-تحقيق صبحي الصالح-باب المختار من حكم أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ-الحكمة ٣٨٨.
(٦٨٥) آل عمران/ ١٧٣.
(٦٨٦) الأنعام/ ١٣٢.
(٦٨٧) الكافي-الشيخ الكليني-ج٢-ص٢٥٢.
(٦٨٨) وسائل الشيعة-الحر العاملي، ج٢-ص٩٠٨.
(٦٨٩) حياة الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ-الشيخ باقر شريف القرشي-ج٣-ص٢٩٩.
(٦٩٠) مجمع مصائب أهل البيت ع-الشيخ الهنداوي-ج٤-ص١٧٨-١٨١.
(٦٩١) م.ن-ج٤-ص١٨٣-١٨٥.
(٦٩٢) م.ن-ج٤-ص١٨٥.

الحمد لله